تفسير مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتدقيق

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

المجلد الثامن

والكاظمين الغيظ

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

تفسير
مقتنيات الدرر

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

المجلد الثامن

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتصحيح

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

الحائري الطهراني، السيد ميرعلي (١٢٧٠ ـ ١٣٥٣ هـ)
تفسير مقتنيات الدرر و ملتقطات الثمر
العنوان والمؤلف: تفسير مقتنيات الدرر / للمؤلف السيد ميرعلي الحائري الطهراني
تحقيق: محمدوحيد الطبسي الحائري / مراجعة وتدقيق: محمدتقي الهاشمي /
تصحيح: حسين طه نيا
الناشر: قم، دارالكتاب الإسلامي، ٢٠١٢م ـ ١٣٩١ هـ. ش
المجموعة: (١ ـ ١٢ مجلد) لغة الكتابة: اللغة العربية
الموضوع: تفاسير شيعية ـ القرن ١٤ هـ
تسلسل: ١٣٨٨ ٧م ٢٣ح BP ٩٨
تسلسل ديويي: ٢٩٧/١٧٩
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية: ١٨٢٧٥٨٦

با مشاركت و حمايت معاونت امور فرهنگى
وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامى چاپ و منتشر گرديد

الكتاب .... تفسير مقتنيات الدرر (ج ٨)
المؤلف........... السيد مير علي الحائري الطهراني
الناشر........... مؤسسة دارالكتاب الإسلامي
الطبعة........... الأولى ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م
المطبعة........... ستاره
عدد المطبوع........... (٢٠٠٠) دوره
الترقيم الدولي للمجموعة .... ٩ ـ ٢٧٦ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
الترقيم الدولي (ج ٨) .... ٤ ـ ٢٨٤ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
السعر........... ٩٠٠/٠٠٠ ريال

قم ـ ميدان المعلم ـ شارع سمية ـ رقم ٢٢ ـ رقم المبنى ٢٦
تليفون: ٧٧٤٤٩٧٠ ـ ٧٧٣٠٩٩٤ فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

سورة الفرقان

مكية إلّا ثلاث آيات نزلت بالمدينة من قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ - إلى قوله - غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ سبع وسبعون آية.

فضلها: عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ سورة الفرقان بعث يوم القيامة وهو يؤمن أنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور ودخل الجنة بغير حساب»**[1].

وروى إسحاق بن عمّار عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: **«يا ابن عمار، لا تدع قراءة سورة (تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده)، فإن من قرأها في كل ليلة لم يعذبه الله أبداً، ولم يحاسبه، وكان منزله في الفردوس الأعلى»**[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا

١ـ انظر: نورالثقلين، ج ٤، ص ٢، عن مجمع البيان.

٢ـ وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٢٥٣.

حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ
قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ
ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ
ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا
ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ
فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ
يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾
ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾
تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة والبركة كثرة الخير وثبوته أي: تزايد وتكاثر خيره عن كلّ شيء في ذاته وصفاته وجلّ بوجوب وجوده وقدمه عن جواز الفناء والتغيّر ومنزّه أن يكون علمه كسبيّاً أو تصوّريّاً وتعالى شأنه من أن يكون قدرته محتاجة إلى مادّة أو مدّة ومثال وأصل الكلمة من بروك الإبل بمعنى الثبوت والبقاء أي: باق سبحانه في ذاته أزلاً وأبداً يمتنع التغيّر والتبدّل.

ولمّا قال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ﴾ ومعناه كثرة الخير والبركة فذكر عقيب هذه الكلمة أمر القرآن للدلالة على أنّ القرآن منشأ الخيرات وأعمّ البركات وهو المنبع للعلوم والمعارف فالعلم بأحكام الله أشرف المخلوق وأعظم الأشياء خيراً وبركة ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ والفرقان هو القرآن وصف بذلك لأنّ به يفرق بين الحقّ والباطل والصواب والخطاء. والمراد بالعبد محمّد ﷺ ليكون هذا العبد بالقرآن نذيراً لأهل العالم، وعلى قول من قال: إنّ

الضمير في ﴿يَكُونَ﴾ راجع إلى الفرقان فأضاف الإنذار إلى الفرقان كما أضاف الهداية إليه في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى﴾[1] وهو بعيد لأنّ الإنذار والمنذر من صفة الفاعل وإذا وصف به القرآن فهو مجاز وحمل الكلام على الحقيقة إذا أمكن هو الواجب.

ثمّ قالوا: إنّ الآية تدلّ على أمور: الأوّل أنّ العالم كلّ ما سوى اللّه ويتناول جميع المكلّفين من الجنّ والإنس والملائكة ويبطل بهذا قول من قال: إنّه كان رسولاً إلى بعض دون بعض فرسالته على الخلق عامّة وبقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[2] خاتميّته إلى يوم القيامة.

قالت المعتزلة: دلّت الآية على أنّه سبحانه أراد من الكلّ الإيمان وفعل الطاعات لأنّه إنّما بعثه إلى الكلّ فيكون نذيراً للكلّ فأراد من الكلّ الاشتغال بالحسن والإعراض عن القبيح.

ثمّ وصف سبحانه نفسه فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعمت اليهود والنصارى والمشركون ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ فيشاركه فيما خلق ويمنعه عن مراده ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ممّا يطلق عليه اسم المخلوق ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ على ما اقتضته الحكمة. والتقدير تبيين مقادير الأشياء بأن كتبها على مقاديرها في اللوح.

وقيل: معناه قدّر طوله وعرضه ولونه ومدّة كونه وبقائه.

ثمّ أخبر سبحانه عن الكفّار فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: دون اللّه ﴿ءَالِهَةً﴾ من الأصنام والأوثان ووجّهوا عبادتهم إليها.

ثمّ وصف آلهتهم بما ينبئ عن عدم الاستحقاق للعبادة فقال: ﴿لَّا

١ـ سورة الإسراء: ٩.

٢ـ سورة الأحزاب: ٤٠.

يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾. أي: هي غير خالقة بل مخلوقة مصنوعة ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا﴾ فيدفعونه عن أنفسهم ﴿وَلَا نَفۡعٗا﴾ فيجرّونه إلى أنفسهم ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ﴾ أي: لا يستطيعون إماتة ولا إحياء ﴿وَلَا نُشُورٗا﴾ ولا إعادة بعد الموت فإنّ جميع هذه الأمور يختصّ اللّٰه بالقدرة عليه فكيف يعبدون من لا يقدر على شيء من ذلك ويتركون عبادة ربّهم الّذي يملك ذلك كلّه.

ثمّ أخبر سبحانه عن تكذيبهم بالقرآن فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ أي: ما هذا القرآن إلّا كذب اختلفه محمّد من تلقاء نفسه ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ قالوا: أعان محمّداً على هذا القرآن عداس مولى حويطب بن عبد العزّى ويسار غلام العلاء بن الحضرميّ وجبير مولى عامر وكانوا من أهل الكتاب، وقيل: قالوا: أعانه قوم من اليهود ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ أي: فقد قالوا شركا وكذبا حين زعموا أنّ القرآن ليس من اللّٰه.

ومتى قيل: كيف اكتفى بهذا القدر في جوابهم؟ قلنا: إنّه لمّا تقدّم التحدّي وعجزهم عن الإتيان بمثله اكتفى بالتنبيه على ذلك[1].

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا﴾ قالوا: هذا حديث المتقدّمين وما سطروه في كتبهم انتسخها واستكتبها محمّد ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ أي: هذه الأحاديث تقرأ عليه طرفي نهاره حتّى يحفظها صبحاً وعشيّاً.

﴿قُلۡ﴾ أنزل القرآن ﴿ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ فإن قيل: كيف يكون هذا الكلام جواباً عن كلامهم؟ لأنّ القرآن مشتمل على الأخبار عن الغيوب وذلك لا يتأتّى إلّا من العالم بكلّ المعلومات، وأيضاً أنّ القرآن جامع لنظام مصالح العباد وذلك لا يكون إلّا من العالم بالمصلحة كما قال سبحانه: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا

١ـ انظر: بحار الأنوار، ج٩، ص١٣٠.

﴿كَثِيرًا﴾[1] فلمّا دلّ القرآن من هذه الوجوه على أنّه ليس القرآن إلّا كلام الله لا جرم هذا البيان صار بياناً لهم وجواباً شافياً قوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومن جملة ما تسرّونه أنتم المنافقون من الكيد لرسوله.

وإنّما ذكر سبحانه في هذه المواضع «الغفور الرحيم» تنبيها على أنّهم استوجبوا بكيدهم أن يصبّ عليهم العذاب صبّاً ولكن صرف ذلك عنهم بكونه سبحانه غير مستعجل في العقوبة غفور رحيم يمهل بهم بإرسال الرسل إليهم.

ثمّ أوردوا شبهة أخرى في نبوّته وهي أركك من الأولى بل شبهات ركيكة أوردوها بزعمهم أنّها تخلّ بالرسالة:

إحداها: قولهم: ﴿هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾.

وثانيتها: ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ يعني: إنّه لمّا كان كذلك فمن أين له الفضل علينا وهو مثلنا في هذه الأمور؟

وثالثتها: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ أي: هلّا انزل إليه ملك يصدّقه ويشهد له؟

ورابعتها: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي: من السماء فينفقه ولا يحتاج إلى طلب المعاش.

وخامستها: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ وقرئ نأكل منها بالنون والمعنى إن لم يكن له كنز فلا أقلّ من أن يكون كواحد من الدهاقين فيكون له بستان يأكل ويعيش منه.

وسادستها: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي: ما تتّبعون إلّا رجلاً قد سحر فغلب على عقله أو المفعول بمعنى الفاعل أي: ساحراً وذا سحر[2].

١ـ سورة النساء: ٨١.

٢ـ تفسير الرازي، ج٢٤، ص٥٢.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ انظر كيف اشتغل القوم بضرب هذه الأمثال والنسب الّتي نسبوها إليك ولا فائدة فيها لهم لأنّ مثل هذه الأمور الّتي زعموها قدحا لك في نبوّتك فاسد ولا تقدح في معجزة كتابك ولا في نبوّتك وإنّهم أرادوا القدح وما وجدوا إلى طريق قدح نبوّتك سبيلاً وضلّوا لإلزامك إيّاهم بنبوّتك الحجّة عليهم وما أوردوا عليك حجّة في إبطال أمرك.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي: تقدّس الإله الّذي إن أراد جعل لك خيراً من ذلك الّذي ذكروه من نعم الدنيا كالكنز والجنّة. ثمّ فسّر ذلك الخير بقوله: ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا﴾ وحاصل المعنى أنّه قادر على أن يعطي الرسول كلّ ما ذكروه ولكنّه يدبّر عباده بحسب المصلحة أو على وفق المشيئة فيفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم ويسدّ عليه أبواب الدنيا، وفي حقّ الآخر بسبب استحقاقه بالعكس والثاني يقع بسوء اختيار المكلّف، وقد عيّره المشركون بفقد جنّة واحدة وهو قادر بإعطائك جنّات كثيرة.

وقال قوم «إن» هاهنا بمعنى «إذن» أي: قد جعلنا لك في الآخرة جنّات وبنينا لك قصوراً وإنّما ادخل «إن» تنبيها للعباد على أنّه لا ينال ذلك إلّا برحمته وأنّه خلق على محض مشيئته.

وفي مصحف أبيّ وابن مسعود: «تبارك الّذي إن شاء يجعل».

وعن ابن عبّاس وطاوس قال: (بينا رسول اللّه جالس وجبرئيل عنده قال جبرئيل: **«هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربّه في زيارتك»** فلم يلبث إلّا قليلاً إذ جاء الملك وسلّم على رسول اللّه وقال: **«إنّ الله يخيّرك بين أن يعطيك مفاتيح كلّ شيء لم يعطها أحدا قبلك ولا يعطيه أحدا بعدك من غير أن ينقصك ممّا**

ادّخر لك شيئاً» فقال ﷺ: «بل يجمعها جميعاً لي في الآخرة». فنزل قوله: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ ﴾ الآية)[1].

وعن ابن عبّاس، قال ﷺ: «عرض عليّ جبرئيل بطحاء مكّة ذهباً فقلت: شبعة وثلاث جوعات وذلك أكثر لذكري ومسألتي لربّي». وفي رواية أخرى: «أشبع يوماً وأجوع ثلاثاً فأحمدك إذا شبعت وأضرّع إليك إذا جعت»[2].

وعن الضحّاك لمّا عيّر المشركون رسول الله بالفاقة نزل جبرئيل معزّياً له وقال: «إنّ الله يقرؤك السّلام ويقول: وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلّا إنّهم ليأكلون الطعام» قال: بينما جبرئيل والنبيّ ﷺ يتحدّثان إذ فتح باب من أبواب السماء لم يكن فتح قبل ذلك ثمّ قال: «أبشر يا محمّد هذا رضوان خازن الجنّة قد أتاك بالرضا من ربّك فسلّم عليه». وقال: «إنّ ربّك يخيّرك بين أن تكون نبيّاً ملكاً وبين أن تكون نبيّاً عبداً». ومعه سفط من نور يتلألأ ثمّ قال: «فهذه مفاتيح خزائن الدنيا فاقبضها من غير أن ينقصك الله ممّا أعدّ لك في الآخرة جناح بعوضة» فنظر النبيّ ﷺ إلى جبرئيل كالمستشير فأومأ بيده أن تواضع فقال رسول الله ﷺ: «بل نبيّاً عبداً فكان ﷺ بعد ذلك لم يأكل متّكئاً»[3].

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ

١ـ الدر المنثور، ج٥، ص٦٣.

٢ـ انظر: الأمالي، للطوسي، ص٦٩٣ و حلية الأبرار، السيد هاشم البحراني، ج١، ص، ٢٢٠.

٣ـ عوالي اللئالي، ج١، ص١٨٥ ؛ وانظر: مستدرك الوسائل، ج١٦، ص٢٢٥.

وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ
ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ
مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ
حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا
تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا
كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً
أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

ثمّ شرح حال المكذّبين نبوّته وما أعدّه لهم على قبيح أقوالهم وعقائدهم فقال: سبب تكذيبهم إيّاك ليس لأنّك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق بل لأنّهم لم يقرّوا بالبعث والنشور والثواب والعقاب ولهذا أنكروا نبوّتك وما قبلوا ما أمرتهم ولهذا قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: وهيّأنا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً تتلظّى. وفي الآية دلالة صريحة على أنّ جهنّم مخلوقة موجودة معدّة.

ثمّ وصف ذلك السعير فقال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ ونسب الرؤية إلى النار وإنّما يراها الكفّار لأنّ ذلك أبلغ كأنّها تراهم رؤية الغضبان الّذي يزفر غيظا من مسيرة مائة عام.

هذا قول الطبرسيّ، وأمّا ما قاله الرازيّ في «المفاتيح» قال: مذهب أصحابنا أنّ البنية ليست شرطا في الحياة فالنار على ما هي عليه يجوز أن يخلق الحياة والنطق فيها فيجب إجراؤه على الظاهر لأنّه لا امتناع في أن تكون النار حيّة رائية مغتاظة على الكفّار، وعند المعتزلة ذلك غير جائز وليس لهم في هذا الإنكار حجّة إلّا استقراء العادات وهذا الكلام لا يليق إلّا بأصول

الفلاسفة فالمعتزلة احتاجوا إلى التأويل وذكروا فيه وجوها: أحدها: معنى رأتهم ظهرت لهم من قولهم: دورهم تتراءى وتتناظر. قال ﷺ: «إنّ المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما». أي: لا تتقابل لما يجب من مخاطبة المؤمن الكافر والمشرك. ويقال دور فلان متناظرة أي: متقابلة.

وقال الجبّائيّ: انّ اللّه تعالى ذكر النار وأراد الخزنة الموكّلة بتعذيب أهل النار كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[١] أراد أهلها. ولو قيل: إنّ التغيّظ عبارة عن شدّة الغضب وذلك لا يكون مسموعاً فكيف قال: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا﴾ ؟

فالجواب أنّ التغيّظ وإن لم يسمع ولكن يسمع ما يدلّ عليه من الصوت كقولهم: رأيت غضب الأمير على فلان إذا رأى ما دلّ عليه أي: سمعوا لها صوتاً يشبه صوت المتغيّظ[٢].

والجواب الثاني: ما قاله الزجّاج، المعنى: علموا لها تغيّظاً وسمعوا لها زفيراً كقول الشاعر: «متقلّداً سيفاً ورمحاً» والروح ما يتقلّد. روي عن عبيد بن عمر: إنّ جهنّم لتزفر زفرة لا يبقى أحد إلّا وترعد فرائصه حتّى أنّ إبراهيم عليه السلام يجثو على ركبتيه ويقول: «نفسي نفسي».

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ لمّا وصف حال الكفّار حال يكونون بالبعد من جهنّم وصف حالهم في هذه الآية عند ما يلقون فيها نعوذ باللّه منها بما لا شيء أبلغ منه قال بعضهم: إنّ جهنّم لتضيق على الكافر كضيق الزجّ[٣] على الرمح وسئل النبيّ ﷺ عن ذلك فقال: «والّذي نفسي بيده انّهم يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط».[٤]

١ـ سورة يوسف: ٨٢.

٢ـ تفسير الرازي، ج٢٤، ص٥٦.

٣ـ الحديدة في أسفل الرمح.

٤ـ مجمع البيان، ج٧، ص٢٨٥ ؛ وبحار الأنوار، ج٨، ص٢٥٥.

وقال الكلبيّ الأسفلون يرفعهم اللّهيب، والأعلون يحفظهم الداخلون فيزدحمون في تلك الأبواب الضيّقة، وكما أنّ اللّه سبحانه جمع لأهل الجنّة أنواع الملاذّ كذلك جمع لأهل النار أنواع العذاب وضمّ إليها الضيق الشديد مقرّنين في السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم قيل: يقرن مع كلّ كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد، ومقرّنين حال من مفعول «أُلقوا»، حين ما يشاهدون هذا النوع من العقاب الشديد دعوا بالثبور أي: بالهلاك: هذا أوان حضورك. وروى أنس مرفوعاً: أوّل من يكتسى حلّة من النار إبليس فيضعها على جانبيه ويسحبها من خلفه ذرّيّته وهو يقول: يا ثبوراه وينادون يا ثبورهم حتّى يردوا النار.

﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي: هلاككم أكبر من أن تدعونه مرّة واحدة ولا ينفعكم هذا النداء وإن كثر منكم.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ قل يا محمّد: ذلك العذاب الموصوف خير أم جنّة الخلد؟ فإن قيل: كيف بهذا الكلام وهل يجوز أن يقول الإنسان: السكّر أحلى من الصبر؟[1] نعم هذا الكلام يحسن عند التقريع كما إذا أعطى السيّد عبده مالا فتمرّد واستكبر فيضربه المولى ضرباً وجيعاً ويقول له في معرض التوبيخ والتقريع: هذا أطيب أم ذاك؟ ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: كانت تلك الجنّة لهم موعودين بها جزاء على أعمالهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ مستقرّاً ومرجعاً ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ ويشتهون من المنافع واللّذات ﴿خَالِدِينَ﴾ مؤبّدين لا يفنون فيها ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ وفي قوله تعالى: ﴿مَّسْئُولًا﴾ ذكروا وجوها:

أحدها: أي: من يكون مسؤولا لأنّه حقّ واجب إمّا بحكم الاستحقاق

١ـ تفسير الرازي، ج٢٤، ص٥٧.

على قول المعتزلة أو بحكم الوعد على قول أهل السنّة.

الثاني: أنّ المكلّفين سألوه بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾[1].

والثالث: أنّ الملائكة سألوا الله تعالى ذلك بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾[2].

فإن قيل: قوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ إذا شاهد أهل الدرجات النازلة أهل الدرجات الرفيعة لابدّ وأن يريدوها فإذا سألوها ربّهم فإن أعطاهم إيّاها لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت في الدرجة وإن لم يعطها قدح ذلك في قوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾.

وأيضاً فالأب إذا كان ولده في دركات النيران وأشدّ العذاب إذا اشتهى أن يخلصه الله من ذلك العذاب فلابدّ أن يسأل ربّه أن يخلصه منه فإن فعل الله ذلك قدح في أنّ عذاب الكافر مخلّد وإن لم يفعل قدح ذلك في قوله: لكم فيها ما تشتهي أنفسكم.

فالجواب أنّ الله يزيل ذلك الأمر عن قلوب أهل الجنّة بل كون اشتغال كلّ واحد منهم بما فيه من اللذّات شاغلاً عن الالتفات إلى حال غيره ومن شرط نعيم الجنّة أن يكون دائما ولم يكن مشوباً بالكدورات. قال المتنبّي:

أشدّ الغمّ عندي في سرور ... تيقّن عند صاحبه انتقالا

ولذلك قال ﷺ: «من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق» فقيل: وما هو يا رسول الله؟ فقال: «سرور يوم»[3].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ويوم يجمعهم وما

١ـ سورة آل عمران: ١٩٣.

٢ـ سورة غافر: ٨.

٣ـ انظر: الخصال، الشيخ الصدوق، ص٦٤ ؛ وأيضاً بحار الأنوار، ج ٧٠، ص٩٢.

يعبدون غير الله يعني: عيسى وعزيزﷺ والملائكة وقيل: يعني: الأصنام فيقول الله لهؤلاء المعبودين: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي: طريق الجنّة والحسنة والنجاة.

﴿قَالُوا﴾ يعني: المعبودين من الملائكة والإنس والأصنام أن أحياهم الله وأنطقهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك عن الشريك وعن أن يكون معبوداً سواك ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ليس لنا أن نوالي أعداءك بل أنت وليّنا من دونهم وما كان يحقّ لنا أن نأمر أحدا بأن يعبدنا ولا يعبدك ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ ولكن طولت أعمارهم وأعمار آبائهم ومتّعتهم بالأموال والأولاد بعد موت الرسل حتّى نسوا الذكر المنزل على الأنبياء وتركوه ﴿وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: هلكى فاسدين، هذا تمام الحكاية عن قول المعبودين في عبدتهم.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ أي: كذّبكم المعبودون أيها المشركون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: بقولكم: إنّهم آلهة شركاء ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ أي: فما يستطيع المعبودون صرف العذاب عنكم ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لكم يدفع العذاب عنكم، ومن قرأ بالتاء أي: فما تستطيعون أيّها المتّخذون الشركاء صرف العذاب عن أنفسكم.

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ نفسه بالشرك وارتكاب المعاصي ﴿نُذِقْهُ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي: شديدا عظيماً.

ثمّ رجع سبحانه إلى مخاطبة النبيﷺ فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ يا محمّد من المرسلين ﴿إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ هذا ردّ عليهم بقولهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي: فقل لهم: كذلك كان من

خلا من الرسل فكيف يكون محمّد بدعا منهم؟ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أي: امتحاناً وابتلاء وهو افتتان الفقير بالغنيّ يقول: لو شاء الله لجعلني مثله غنيًا والأعمى بالبصير يقول: لو شاء الله لجعلني مثله بصيراً والسقيم بالصحيح، وقيل: معناه ابتلاء فقراء المؤمنين بالمستهزئين من قريش كانوا يقولون: انظروا إلى هؤلاء الّذين اتّبعوا محمّداً من موالينا ورذالنا، فقال الله لهؤلاء الفقراء: أتصبرون أيّها الفقراء على الأذى والاستهزاء؟

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ إن صبرتم، وقيل: معناه: أتبصرون أيّها الفقراء على فقركم ولا تفعلون ما يؤدّي إلى مخالفتنا؟ أتصبرون أيّها الأغنياء فتشكرون ولا تفعلون ما يؤدّي إلى مخالفتنا؟ فيغتني من أوجبت الحكمة إغناءه ويفتقر من أوجبت الحكمة إفقاره وهو بصير بمن يصبر وبمن يجزع.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾

هذه شبهة لمنكري نبوّة محمّد ﷺ وحاصلها: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾ لا يأملون لقاء جزائنا وقيل: معناه: لا يخافون لقاءنا، وهي لغة تهامة هذيل يضعون

الرجاء موضع الخوف إذا كان معه جحد لأنّ من رجا شيئاً خاف فوته فإنّه إذا لم يخف كان يقينا ومن خاف شيئاً رجا الخلاص منه فوضع أحدهما موضع الآخر والحاصل أنّ منكري البعث والمعاد أوردوا هذا الكلام: هلّا انزل الملائكة ليخبرونا بأنّ محمّداً نبي؟ ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيخبرنا بذلك ويأمرنا باتّباعه وتصديقه. ثمّ أقسم اللّه عزّ اسمه فقال: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا﴾ بهذا القول السخيف ﴿وَعَتَوْ﴾ وبغوا بهذا الكبر والتجبّر بغير حقّ وعاندوا ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ وتمرّدوا في ردّ أمر اللّه.

ثمّ أعلم سبحانه أنّ الوقت الّذي يرون فيه الملائكة هو يوم القيامة وأنّ اللّه قد حرّم البشرى لهم في ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: لا بشارة لهم بالجنّة والثواب والمراد من الملائكة هاهنا ملائكة الموت أو العذاب ويقول الملائكة لهم: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ حراماً محرّماً عليكم سماع البشرى كقولهم: موت مائت وذبل ذابل. و﴿مَّحْجُورًا﴾ صفة لتأكيد معنى الحجر أي: منعا ممنوعاً من الخير والبشارة، وقيل: إنّ القائل هم الكفّار لأنّهم كرهوا لقاء الملائكة لعذابهم إيّاهم ولأنّهم لا يلقونهم إلّا بما يكرهونه فيقولون عند رؤيتهم هذا الكلام. وقيل: إنّ الكفّار يوم القيامة إذا شاهدوا ما يخافونه فيعوذون منه ويقولون: حجراً محجوراً.

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ أي: وقصدنا وعمدنا إلى عمل الكفّار في الدنيا ممّا رجوا به النفع وطلبوا به الثواب والبرّ مثل إعتاقهم وصدقاتهم وما كانوا يتقرّبون به إلى الأصنام فجعلناه هباء منثوراً وهو الغبار يدخل الكوّة من شعاع الشمس أو ما تسفيه الرياح وتذريه من التراب، وقيل: الماء المهراق، وهذا مثل والمعنى: يذهب أعمالهم باطلاً ولم ينتفعوا بها من حيث عملوها لغير اللّه.

في «الكافي» عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال: «إن كانت أعمالهم لأشدّ بياضاً من القباطي[1] فيقول: كن هباء منثوراً، وذلك أنّهم كانوا إذا شرع لهم الحرام أخذوه.[2] وفي رواية: «لم يدعوه».

والقمّيّ عن الباقر عليه السلام قال: «يبعث الله يوم القيامة قوماً ما بين أيديهم نور كالقباطي ثمّ يقال له: كن هباء منثوراً ثمّ قال: أما والله إنّهم كانوا يصومون ويصلّون ولكن كانوا إذا عرض لهم الحرام أخذوه وإذا ذكر لهم من فضل أمير المؤمنين أنكروه»[3]. وفي «البصائر» عن الصادق عليه السلام: سئل عن هذه الآية فقال: «أعمال مبغضينا ومبغضي شيعتنا»[4].

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ لمّا بيّن حال الكفّار وخيبتهم شرح حال أهل الجنّة فقال: أصحاب الجنّة يومئذ أي: يوم القيامة أفضل منزلاً في الجنّة وأحسن مقيلاً، موضع القائلة هي الاستراحة نصف النهار إذا اشتدّ الحرّ وإن لم يكن مع ذلك نوم ولذلك في الجنّة لا نوم فيها، قال ابن مسعود وابن عبّاس: لا يتنصف النهار من يوم القيامة حتّى يقيل أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النار. وقيل: خير في نفسه لا بمعنى أفعل التفضيل كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[5] وكقوله: الله أكبر لا بمعنى أكبر من شيء غيره لأنّه لا يقال: العسل أحلى من الخلّ.

فلو قيل: دلّت الآية على أنّ المستقرّ لهم غير مقيلهم قالوا: إنّهم يقيلون في الفردوس ثمّ يعودون إلى مستقرّهم. وقيل: إنّ بعد الفراغ من المحاسبة

١ـ جمع القبطية: ثياب من كتان.

٢ـ الكافي، ج٥، ص١٢٦.

٣ـ تفسير القمي، ج٢، ص١١٢.

٤ـ بصائر الدرجات، ص٤٤٦.

٥ـ سورة الروم: ٢٧.

والذهاب إلى الجنّة يكون وقت القيلولة ونصف النهار. وقال مقاتل: يخفّف الحساب على أهل الجنّة حتّى يكون بمقدار نصف يوم من أيّام الدنيا ثمّ يقيلون من يومهم ذلك في الجنّة. فلو قيل: إنّ اليوم لا يحصل لأهل الجنّة ولا لأهل النار فكيف؟

فالجواب هذا كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ والغرض بيان أنّ مواضع الجنّة أطيب المواضع.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ وأصله تتشقّق أبدلت وأدغمت التاء في الشين أي: يوم يرون تتشقّق السماء وعليها غمام، وقوله: ﴿بِالْغَمَامِ﴾ كقوله: ركب الأمير بجنده وسلاحه يعني: معه سلاحه وإنّما تتشقّق السماء لنزول الملائكة ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ قال ابن عبّاس: تتشقّق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من أهل الأرض من الجنّ والانس ثمّ تنشق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الدنيا والجنّ والإنس ثمّ كذلك إلى السماء السابعة وأهل كلّ سماء يزيدون على أهل السماء الّتي قبلها ثمّ ينزل الكروبيّون وحملة العرش ويصيرون سبع صفوف[1].

ولو قيل: كيف بذلك وقد ثبت أنّ الأرض بالنسبة إلى السماء الدنيا كحلقة في فلاة فكيف بالكرسيّ والعرش؟ وكيف تتّسع لهم الأرض جميعاً؟ فيمكن أنّ الله يزيد في طول الأرض وعرضها ويبلغها مبلغاً تتّسع لهم الأرض جميعاً ومن المفسّرين قالوا: الملائكة يكونون في الغمام والله تعالى يسكن الغمام فوق أهل القيامة ويكون ذلك الغمام مقرّ الملائكة.

والصفة الأخرى لذلك اليوم قوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ قيل: الحقّ صفة للملك وتقديره: الملك الحقّ يومئذ للرحمن أي: ذلك اليوم لا

١ـ بحار الأنوار ج٧، ص١٥٠ ؛ وأيضاً مجمع البيان، ج٧، ص٢٩٢.

مالك سواه لا في الصورة ولا في المعنى فتخضع له الملوك وتذلّ له الجبابرة وتعفر له الوجوه ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ عسر اليوم عليهم لشدّته ويهون على المؤمنين كأدنى صلاة صلّوها في دار الدنيا وفي هذا بشارة للمؤمنين حيث خصّ بشدّة ذلك اليوم للكافرين.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ندماً وتأسّفاً قيل: المراد هو عقبة بن أبي معيط وقيل: هو عامّ في كلّ ظالم ونادم يوم القيامة وكلّ خليل يخالّ غيره في غير ذات اللّه. قال عطا: يأكل يديه حتّى تذهبا إلى المرفقين ثمّ لا يزال هكذا كلّما أنبتت يده أكلها ندامة على ما فعل يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أي: ليتني اتّبعت محمّداً واتّخذت معه سبيلاً إلى الهدى.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ وقرئ بالياء «يا ويلتي» يقول وينادي: الويل احضري هذا أوان حضورك. وإنّما قلّب الياء ألفا مثل عذارى وصحارى.

ليتني لم أتّخذ فلاناً قيل: أراد به الشيطان أو الظالم أي: نوع الظالم وكلّ خليل يضلّ عن الدين ولو كان يقول مثلاً: فرعون أو هامان وإبليس لطال الكلام فقال: فلاناً حتّى يتناول كلّ مضلّ في الدين ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: عن القرآن والإيمان ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ الذكر وتمكّنت منه، وتمّ الكلام ثمّ قال اللّه: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ لأنّه يتبرأ منه في الآخرة ويسلّمه إلى الهلاك ولا يغني عنه شيئاً.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ يعني: محمّد ﷺ يشكوا قومه: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ يعني: هجروا القرآن وهجروني وكذّبوني وجعلوه متروكاً لا يسمعونه ولا يتفهّمونه. قال أكثر المفسّرين: إنّ هذا القول واقع من

الرسول ويؤيّد هذا القول قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[١] لأنّ ما ذكره اللّه تعالى من قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا﴾ كلام في مقام التسلية للرسول ولا يليق إلّا إذا كان وقع ذلك القول منه.

وقال أبو مسلم: بل المراد أنّ الرسول يقوله في القيامة وهو كقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[٢] والقول الأوّل أولى.

بيان: وفي قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ قال ابن عبّاس: (نزلت الآية في عقبة بن أبي معيط وأبيّ بن خلف وكانا متخالّين وذلك أنّ عقبة كان لا يقدم من سفر إلّا صنع طعاماً فدعا إليه أشراف قومه وكان يكثر مجالسته للرسول فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً فلمّا قرّبوا الطعام قال رسول اللّهﷺ: **«ما أنا بآكل من طعامك حتّى تشهد أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله»**، فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلّا اللّه وأشهد أنّ محمّداً رسول اللّه، فبلغ ذلك أبيّ بن خلف فقال: صبأت[٣] يا عقبة؟ قال: لا واللّه ما صبأت ولكن دخل عليّ رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلّا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له فطعم، فقال: إنّي ما كنت براضٍ عنك أبداً حتّى تأتيه فتبزق في وجهه ففعل ذلك عقبة وارتدّ وأخذ رحم دابّة فألقاها بين كتفيه فقال النبيّﷺ: **«لا ألقاك خارجاً من مكّة إلّا علوت رأسك بالسيف فضرب عنقه يوم بدر صبراً»**[٤]. وأمّا أبيّ بن خلف فقتله النبيّﷺ يوم أحد في المبادرة). وقال الضحّاك: لمّا بزق عقبة في وجه رسول اللّه عاد بزاقه في وجهه فأحرق

١ـ سورة الفرقان: ٣١.

٢ـ سورة النساء: ٤١.

٣ـ صبأ: خرج من دين إلى آخر.

٤ـ مجمع البيان، ج٧، ص٢٩.

خدّيه وكان أثر ذلك فيه حتّى مات أو قتل، هذا قول ابن عبّاس.

وقيل: نزلت في كلّ كافر أو ظالم تبع غيره في الكفر أو الظلم.

وقال أبو عبد الله عليه السلام: **«ليس رجل من قريش إلّا وقد نزلت فيه آية أو آيتان تقوده إلى جنّة أو تسوقه إلى نار»**[1].

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ
تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ
يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا
إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا
الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾
وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ
وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ
يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

المعنى: ثمّ عزّى الله نبيّه: كما جعلنا لك عدوّاً من مشركي قومك ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ من كفّار قومه لأنّ الأنبياء كانوا مأمورين من الله أن يدعون قومهم إلى الإيمان به وترك ما ألفوه من دين آبائهم وإلى ترك عبادة الأوثان وكانت هذه أسبابا داعية إلى العداوة فإذا أمرهم الله بهذا فقد جعلهم عدوّاً لهم. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي: حسبك الله هادياً إلى الحقّ وناصراً لأوليائه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي: قال الكفّار

١ـ المصدر السابق نفسه، وانظر: تفسير فرات الكوفي، ص١٩١.

لرسول اللهﷺ: هلّا آتيتنا بالقرآن جملة واحده كما أنزلت التوراة والإنجيل والزبور جملة واحدة؟ قال اللّه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أنزلناه كذلك متفرّقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ لنقوّي به قلبك فتزداد بصيرة وذلك أنّه إذا كان يأتيه الوحي متجدّداً في كلّ حادثة وكلّ أمر كان ذلك أقوى لقلبه وأزيد في بصيرته، وقيل: إنّما أنزلت الكتب جملة واحدة لأنّها نزلت على الأنبياء يكتبون ويقرءون فنزلت عليهم مكتوبة والقرآن إنّما نزل على نبيّ أمّيّ لا يكتب ولا يقرء ولذلك نزل متفرّقاً[1].

وأيضاً فإنّ في القرآن الناسخ والمنسوخ وفيه ما هو جواب لمن سأله عن أمور وفيه إنكار لما هو كان الحكمة إنزاله متفرّقاً. ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي: بيّنّاه تبيينا بعضه إثر بعض روي أنّ النبيّﷺ قال: **«يا ابن عبّاس إذا قرأت القرآن فرتّله ترتيلاً»** قال: وما الترتيل؟ قال: **«بيّنه تبييناً ولا تنثره نثر الرمل قفوا عند عجائبه وحرّكوا به القلوب ولا يكوننّ همّ أحدكم آخر السورة»**[2].

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ من الجنس الّذي تقدّم ذكره من الشبهات ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الّذي يبطله ويدحضه أي: لا يأتيك المشركون بمثل يضربونه لك واعتراض في نبوّتك إلّا أبطلناه بالحقّ وهو القرآن ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي: وبأحسن تفسيرا ممّا أتوا به من المثل بياناً وكشفاً.

١ـ وهذا القول يستلزم أموراً لا يتفوه بها مسلم: منها كون سائر الأنبياء أفضل من نبيناﷺ وامتيازهم عنه بعلم الكتابة والقراءة ومنها عدم اطلاعهﷺ على الآيات قبل نزولها، وهو تعالى يقول: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ (سورة طه: ١١٤) الدال على أنهﷺ كان يقرأ الآيات إلى آخرها قبل أن يلقيها عليه روح القدس. ومنها أنهﷺ لم يكن متمكناً من الكتابة والقراءة مع أن عدم الكتابة لا يلازم عدم التمكن بل السر فيه إزالة ريب التعلم على ما أشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٨) وليت شعري ما أجرأ الإنسان بربه الكريم ونبيه العظيم؟

٢ـ مجمع البيان، ج٧، ص٢٩٥ ؛ وتفسير الصافي، ج٦، ص٧٠.

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: يسحبون على وجوههم إلى النار وهم كفّار مكّة وذلك أنّهم قالوا: لمحمّدﷺ وأصحابه هم شرّ خلق الله، فقال الله: ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: منزلاً ومصيراً ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: ديناً وطريقاً من المؤمنين والتفاضل المذكور في الآية واقع على هذا التقدير الّذي فرضتموه أنتم بقولكم: أصحاب محمّد شرّ خلق الله أي: أنتم على هذا الفرض شرّ منهم والمشي على الوجه.

قال أكثر المفسّرين: إنّهم يمشون في الآخرة مقلوبين وجوههم إلى القرار وأرجلهم إلى فوق. روي ذلك عن النبيﷺ أنّه قال: «**إنّ الّذين أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم**»[1]. وقال آخرون: يحشرون ويحسبون على وجوههم، وهذا مرويّ عن الرسولﷺ[2] ثمّ ذكر سبحانه حديث الأنبياء تسلية للرسول وتبصرة لأمّته:

القصّة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ لمّا قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ أتبعه بذكر جماعة من الأنبياء وعرّف نبيّه محمّداً بما نزل عليهم من أممهم وتكذيبهم إيّاهم فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: لست يا محمّد باوّل من أرسلناه فكذّب وآتيناه الآيات فردّ فقد آتينا موسى التوراة وقوّينا عضده بأخيه هارون ومع ذلك فقد ردّ ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ وقلنا لموسى وهارون: اذهبا إلى القوم المكذّبين يعني: فرعون وقومه، وفي الكلام حذف وتقديره: فذهبا إليهم فلم يقبلوا منهما وجحدوا نبوّتهما فدمّرناهم تدميراً أي: أهلكناهم أهلاكاً بأمر فيه أعجوبة.

١ـ كنز العمال، ج١٤، ص ٥٣٠ ؛ والدر المنثور، ج٤، ص٢٠٣.

٢ـ الأمالي، الصدوق، ص٦٥١ ؛ وبحار الأنوار، ج٨، ص٢٥٥.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: وأغرقنا قوم نوح بالطوفان وهو مجيء السماء بماء منهمر ويفجّر الأرض عيوناً والمراد بتكذيب الرسل لأنّ من كذّب نبيّاً كذّب تمام الأنبياء وجعلناهم للناس آية أي: هلاكهم عبرة وعظة وأعتدنا وهيّأنا للظالمين عذاباً أليماً سوى ما حلّ بهم في الدنيا.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ أي: أهلكنا عاد وثمود ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ والرسّ بئر رسّوا فيها نبيّهم وألقوه فيها، عن عكرمة. وقيل: إنّهم كانوا أصحاب مواش ولهم بئر يقعدون عليها وكانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيباً فكذّبوه فانهار البئر وانخسفت بهم الأرض فهلكوا. وقيل: الرسّ قرية باليمامة يقال لها: فلج، قتلوا نبيّهم فأهلكهم الله، عن قتادة. وقيل: كان لهم نبيّ يسمّى حنظلة فقتلوه فاهلكوا، عن سعيد بن جبير والكلبيّ. وقيل: الرسّ بئر بأنطاكية فقتلوا فيها حبيب النجّار فنسبوا إليها، وقيل: أصحاب الرسّ كان نساؤهم سحّاقات، عن أبي عبد الله عليه السلام[1].

﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: وأهلكنا أيضاً قروناً كثيراً بين عاد وأصحاب الرسّ على تكذيبهم.

وقيل: المراد من البين بين نوح وأصحاب الرسّ والقرون سبعون سنة، وقيل: أربعون.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي: وكلّا منهم بيّنّا أنّ العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا أو بيّنّا لهم الأحكام في الدين والدنيا وما يضرّهم وما ينفعهم ﴿وَكُلًّا﴾ لمّا لم يؤمنوا ﴿تَبَّرْنَا﴾ هم ﴿تَتْبِيرًا﴾ وأهلكناهم أهلاكاً مثل كسارة الذهب والفتيت.

١ـ ثواب الأعمال، للصدوق، ص٢٨٦؛ ومستدرك سفينة البحار، ج٤، ص٥٠٦.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ أي: ولقد أتوا كفّار مكّة على قرية «سدوم» من قرى قوم لوط وكانت خمساً أهلك الله أربعاً بأهلها وبقيت واحدة ومطر السوء الحجارة والمعنى: إنّ أهل مكّة مرّوا مراراً كثيرة في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية الّتي أهلكت بالحجارة من السماء أفلم ينظروا إلى آثار عذاب الله ونكاله فيعتبروا ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ ثمّ قال: ﴿بَلْ كَانُوا﴾ قوماً كفرة ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي: لا يعتقدون ويتوقّعون البعث ولا يأملون ثواباً ولا يخافون عقاباً فركبوا المعاصي والكفر.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

المعنى: لمّا بيّن مبالغة المشركين في إنكار نبوّته وفي إيراد الشبهات بيّن أنّهم إذا رأوا الرسول لم يقتصروا على ترك الإيمان به بل زادوا عليه بالاستهزاء والاستحقار ويقول بعضهم لبعض: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ أي: إذا رأوك قالوا مستهزئين: أبعث الله هذا رسولاً؟ و«إن» الأولى نافية والثانية مخفّفة من المثقّلة، واللّام هي الفارقة بينهما. وكانوا يقولون فيه: لقد كاد يصرفنا عن عبادة آلهتنا أي: قد قارب أن يضلّنا ويهلكنا ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ والجواب محذوف مقدّر أي: لو لا نقيم على عبادة آلهتنا لهلكنا، فقال متوعّداً سبحانه لهم: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ الّذي ينزل بهم عياناً ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وأخطأ الطريق الحقّ هم أم المؤمنون؟ ثمّ عجّب نبيّه بكلمة: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ في الكلام تعجيب من

جهل هؤلاء الّذين اتّخذوا إلههم هواهم يعني اتّخذ ميله وهواه إلهه.

قال سعيد بن جبير: كان الرجل من المشركين يعبد الصنم فإذا رأى أحسن منه رماه واتّخذ الآخر وعبده ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي: مثل هذا الجاهل تكون تحفظه من اتّباع هواه؟ يعني: لست كذلك نحو قوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[1] و﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾[2].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ثمّ قال للنبيّ: أم تحسب ـ وأم منقطعة ـ أنّ أكثرهم يسمعون ما تقوله سماع طالب إفهام ويعقلون ما تقرأ عليهم؟ لا تظنّ بذلك ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ما هم إلّا كالبهائم الّتي تسمع النداء ولا تعقل ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من البهائم لأنّهم مكّنوا من المعرفة والأنعام لم يمكّنوا من المعرفة ولأنّ الأنعام عرفت أكثر منافعها ومضارّها ولا تفعل ما يضرّها وهؤلاء يسعون في أهلاك أنفسهم وتجنّبوا سبيل نجاتهم فهم أضلّ منها.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

الخطاب للنبيّ والمراد به سائر المكلّفين أي: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وتعلم

١ـ سورة الغاشية: ٢٢.

٢ـ سورة البقرة: ٢٥٦.

﴿إِلَىٰ﴾ فعل ﴿رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ وتقديره: ألم تر إلى الظلّ كيف مدّه ربّك معنى الظلّ من وقت طلوع الفجر إلى طلوع الشمس وجعله ممدوداً لأنّه لا شمس معه كما قيل في ظلّ الجنّة: ممدوداً إذ لم يكن معه الشمس. قال أبو عبيدة: والظلّ ما نسخته الشمس وهو بالغداة والفيء ما نسخ الشمس وهو بعد زوال الشمس وسمّي فيئا لأنّه فاء من جهة الشرق إلى جانب الغرب. وقيل: مدّ الظلّ من وقت غروب الشمس إلى وقت طلوعها فيكون الظلّ بالليل لأنّه ظلّ الأرض.

﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي: مقيماً دائماً لا يزول ولا ينسخه الشمس يقال: فلان يسكن بلد فلان إذا أقام به وهو مثل قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1] في المعنى.

وفي هذا إشارة إلى أنّه قادر على تسكين الشمس حتّى يبقى الظلّ ممدوداً بخلاف ما يقوله الفلاسفة. واعلم أنّ الظلّ الممدود هو الأمر المتوسّط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة وكذا الكيفيّات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران وهذه الحالة أطيب الأحوال لأنّ الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحسّ وكذلك الضوء الخالص وهو الكيفيّة الفائضة من الشمس فهي لقوّتها تبهر العين وتفيد السخونة القويّة وهي مؤذية لو دامت فإذن أطيب الأحوال هو الظلّ فهو من النعم العظيمة وإذا طلعت الشمس ووقع ضوؤها على الجسم زال ذلك الظلّ ولو لا وقوع الشمس على الأجرام لما عرف أنّ للظلّ وجودا وماهيّة ولو لا الظلمة لما عرف النور، فحينئذ ظهر للعقول أنّ الظلّ كيفيّة زائدة على الجسم فلهذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: خلقنا الظلّ أوّلاً بما فيه من المنافع واللذّات ثمّ أطلعنا الشمس فصارت الشمس دليلاً على وجود هذه النعمة.

١ـ سورة القصص: ٧١.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: أزلنا الظلّ لا دفعة واحدة بل يسيراً يسيراً، فإنّه كلّما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظلّ في جانب الغرب ولمّا كانت الحركات النوريّة المكانيّة لا توجد دفعة واحدة بل يسيراً يسيراً كذلك زوال الظلّ لا يكون دفعة واحدة بل يسيراً يسيراً.

والمراد من القبض الإعدام والإزالة ولو حصل دفعة واحدة لاختلّت المصالح وبالتدريج يفيد أنواعا من المصالح الزرعيّة والخلقيّة. وقيل: المراد من القبض عند قيام الساعة وذلك بقبض أسبابها وهي الأجرام الّتي بسببها يقع الظلّ ولا يخفى أنّ الظلّ ليس أمرا عدميّاً محضا بل هو أضواء مخلوطة بظلم وعبارة عن الضوء الحاصل من هذه الأضواء المخلوطة وهو أمر وجوديّ ويتطرّق التغيّر عليه فلابدّ له من وجوده بعد العدم وعدمه بعد الوجود من صانع مقدّر فحصول الظلّ إمّا أن يكون واجباً أو جائزاً أمّا الواجب لا يتغيّر فثبت تغيّره وإمكانه فحينئذ احتاج إلى مدبّر قاهر يقدّره بسبب الأجرام العلويّة فصحّ الاستدلال قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: جعل الليل غطاء ساتراً للأشياء بالظلام كاللباس الّذي يشمل على لابسه؛ فهو سبحانه ألبسنا الليل وغشّانا به لنسكن ونستريح من كدّ الأعمال كما قال في موضع آخر: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾[1] ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[2] وراحة وتعطيلا لأعمالكم، والانقطاع عن الحركة في الروح هو السبات. ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ لانتشار الروح باليقظة في النهار مأخوذ من نشور البعث ولأنّ الناس ينشرون في النهار لطلب معايشهم فيكون النشور هنا بمعنى التفرّق في الأرض لابتغاء الرزق.

١ـ سورة يونس: ٦٧.

٢ـ سورة النبأ: ٩.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ قرئ بالنون أي: الرياح ناشرات للسحاب وبالباء الموحّدة أي: مبشّرات بين يدي رحمته استعارة لطيفة أي: الرياح مبشّرة قدّام المطر ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾ وأنزلنا الماء من السماء طاهرا في نفسه مطهّراً لغيره مزيلاً للأحداث والنجاسات، وفي الآية نصّ على أنّه تعالى نزل الماء من السماء لا من الحساب وقول من يقول: السحاب سماء ضعيف لأنّ ذاك بحسب الاشتقاق وأمّا بحسب وضع اللغة فالسماء اسم لهذا السقف المعلوم فصرفه عنه ترك للظاهر، والطهور ما يتطهّر به كالفطور ما يفطر به والسحور ما يتسحّر به.

﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ قد مات بالجدب، وأراد بالبلدة البلد أو المكان أي: لنخرج بالماء النبات والثمار ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ أي: ولنسقي من ذلك الماء أنعاما جمّة وأناساً كثيرة.

ولقد صرفنا المطر ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ يدور في الجهات وقسّمناه بينهم فلا يدوم على مكان فيفسد ولا ينقطع بالكلّيّة عن مكان فيهلك ويزيد لقوم وينقص لآخرين على حسب المصلحة ﴿لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ ليتفكّروا ويستدلّوا به على قدرتنا ويعلمون أنّه لا يجوز العبادة لغير المنعم فأبى أكثر الناس بتصديق النعمة وزادوا جحودا وكفورا بالبعث والنشر فيقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، على طريقتهم الخبيثة حيث كانوا يستندون الأمطار إلى الأنواء وقال ابن عبّاس: (ما عام بأكثر من عام ولكن يصرفه في الأرض ثمّ قرأ هذه الآية). وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنّه قال: «ما من عام بأمطر من عام ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي حوّل الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي»[1].

١ـ تفسير القرطبي، ج١٢، ص٥٧ ؛ وانظر: كنز العمال، ج٧، ص٨٣٩.

وقال الكعبي: قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ حجة على من زعم أنّ القرآن وبال على الكافرين وأنّه تعالى لم يرد بإنزاله أن يؤمنوا لأنّ قوله: ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ عامّ في الكلّ لأنه لا يجوز أن يقال: أنزلناه على قريش ليؤمنوا فأبى أكثر بني تميم إلّا كفورا[1].

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ ينذرهم ولكن بعثناك يا محمّد إلى القرى كلّها رسولاً لعظيم منزلتك لدنيا والنذير هو الداعي إلى ما يؤمن معه الخوف من العقاب أي: لو شئنا لقسمنا بينهم النذر كما قسمنا بينهم الأمطار ولكنّا نفعل ما هو الأصلح لهم والأنفع في دينهم ودنياهم فبعثناك إليهم كافّة.

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من المداهنة ﴿وَجَاهِدْهُمْ﴾ في الله ﴿بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي: تامّاً شديداً وفي الآية

١ـ تفسير الرازي، ج٢٤، ص٩٩.

دلالة على أنّ أعظم الجهاد جهاد المتكلّمين في حلّ شبهة الملحدين والمبطلين وأعداء الدين ويمكن أن يتأوّل عليه قوله: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، وحاصل المعنى: أمر اللّه نبيّه بسبب كونه نذيراً لكافّة القرى والأمصار والناس جهاداً كبيرا جامعاً.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ﴾ هذا هو النوع الرابع من الدلائل الدالّة على القدرة والتوحيد. مرج البحرين أي: خلّاهما وأرسلهما، مرجت الدابّة إذا أرسلتها وخلّيتها ترعى، وأصل المرج الإرسال والخلط والمعنى: سمّى الماءين الكبيرين الواسعين بحرين أي: أرسلهما في مجاريهما كما ترسل الخيل. وقوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ البالغ في العذوبة والأجاج نقيضه والآخر ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وأنّه سبحانه بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج وجعل من عظم قدرته برزخاً حائلاً مع أنهما متجاورين متلاصقين. وقيل: المراد بالبحر العذب النهر العظيم وبالمالح البحر العظيم وبالبرزخ ما بينهما من الأرض فيكون أثر القدرة في اختلاف الصفة مع أنّ مقتضى طبيعة كلّ عنصر التشابه في الكيفيّة.

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وهذه كلمة يقوله المتعوّذ وهي هاهنا على سبيل المجاز كأنّ كلّ واحد من البحرين يتعوّذ من صاحبه ويقول له: حجراً محجوراً كما قال: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾[1] أي: لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة فانتفاء البغي كالتعوّذ وهي من أحسن الاستعارات، وقيل: معنى حجراً محجوراً أي: منع ممتنع وحرام محرّم أن يفسد الملح العذب.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ أي: خلق من النطفة إنساناً، وقيل: أراد آدم عليه السلام فإنّه خلق من التراب الّذي خلق من الماء، وقيل: المراد أولاد آدم

١ـ سورة الرحمن: ٢.

فإنّهم مخلوقون من الماء ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ قيل في معناه: النسب الّذي لا يحلّ نكاحه، والصهر النسب الّذي يحلّ نكاحه كبنات العمّ والخال. وقيل: النسب سبعة أصناف والصهر خمسة ذكرهم في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ وقد تقدّم بيانه في سورة النساء[١] وقيل: النسب البنون والصهر البنات اللّاتي يستفيد الإنسان بهنّ الأصهار فكأنّه قال: فجعل منه البنين والبنات.

وقال ابن سيرين: نزلت في النبيّ صلى الله عليه وآله وعليّ بن أبي طالب زوّج فاطمة، عليّاً فهو ابن عمّه وزوج ابنته فكان نسباً لأنّه ابن عمّه وصهراً لأنّه زوج فاطمة.

وفي «الكافي» عن الباقر عليه السلام، والقمّيّ عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال: «**إنّ الله تعالى خلق آدم من الماء العذب وخلق زوجته من سنخه فبرأها من أسفل أضلاعه فجرى بذلك الضلع بينهما سبب ونسب ثمّ زوّجها إيّاه فجرى بينهما بسبب ذلك صهر قوله: ﴿نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ فالنسب ما كان بسبب الرجال والصهر ما كان بسبب النساء**»[٢].

وفي «المعاني» عن الباقر عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**ألا وإنّي مخصوص في القرآن بأسماء احذروا في أن تغلبوا عليها فتضلّوا في دينكم أنا الصهر لقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾**[٣]».

وفي «الأمالي» بإسناده إلى أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: **قلت له:** يا رسول الله عليّ أخوك؟ قال: «**نعم عليّ أخي**»، قلت: يا رسول الله صف لي كيف عليّ أخوك؟ قال: «**إنّ الله عزّ وجلّ خلق ماء تحت العرش قبل أن يخلق آدم عليه السلام بثلاثة آلاف عام وأسكنه في لؤلؤة خضراء في غامض علمه إلى أن خلق آدم فلمّا**

١ـ سورة النساء: ٢٣.

٢ـ الكافي، ج٢، ص٤٤٢؛ وتفسير القمي، ج٢، ص١١٤.

٣ـ معاني الأخبار، ص٥٩.

خلق آدم نقل ذلك الماء من اللؤلؤة فأجراه في صلب آدم إلى أن قبضه ثمّ نقله إلى صلب شيث فلم يزل ذلك الماء ينقل من ظهر إلى ظهر حتّى صار في صلب عبد المطّلب ثمّ شقّه نصفين فصار نصفه في صلب أبي (عبد الله) ونصفه في صلب (أبي طالب) فأنا من نصف الماء وعليّ من النصف الآخر فعليّ أخي في الدنيا والآخرة» ثمّ قرأ رسول الله الآية[1]. وأيضاً في «روضة الواعظين»[2] يذكر حديثاً يشمل هذا البيان.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي: قادراً على ما أراد. ثمّ أخبر عن حال الكفّار فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي: الكافر معيناً للشيطان على ربّه بالكفر والمعاصي لأنّه يعاون الشيطان على عداوة الله ومعصيته لأنّ عبادتهم الأصنام معاونة للشيطان معادة الله تعالى، وقيل: المعنى: كان الكافر على ربّه ظهيراً أي: الكافر عند الله متروك ومستخفّ به ومنه قوله: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾[3]. وقيل: المراد بالكافر أبو جهل لأنّ الآية نزلت فيه، والأولى حمله على العموم لأنّ خصوص السبب لا يقدح في عموم اللّفظ.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ووجه تعلّق الآية بما تقدّم هو أنّ الكفّار كانوا يطلبون العون على الله والرسول والله بعث رسوله إليهم ليبشّرهم على الطاعة وينذرهم على المعصية فلا جهل أعظم من جهل من استفرغ جهده في إيذاء شخص استفرغ جهده في إصلاح مهمّاتهم ديناً ودنياً ولا يسألهم عليه أجراً.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على القرآن أجراً وعلى تبليغ الوحي

١ـ الأمالي، الشيخ الطوسي، ص٣١٣.

٢ـ روضة الواعظين، ص١٢٩.

٣ـ سورة هود: ٩٢.

﴿مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ بإنفاق ما له في طاعة الله والمعنى: إنّي لا أسألكم أجراً ولا أمنع من إنفاق المال في طلب مرضات الله.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ أي: لمّا لم يقبلوا قولك فوّض أمورك إلى الحيّ الّذي لا يموت فلن يفوته الانتقام ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: احمد منزّهاً له عمّا لا يليق به من الصفات مثل أن تقول: الحمد لله ربّ العالمين، الحمد لله على نعمه وإحسانه الّذي لا يقدر عليه غيره الحمد لله عظيم المنزلة وما أشبه ذلك. ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: عليماً فيحاسبهم ويجازيهم بها فحقيق بأن يخافوه ويراقبوه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ما بين هذين الصنفين ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فإن قيل: إنّ الأيّام عبارة عن حركات الشمس في السماوات فقبل السماوات لا أيّام المراد: في مدّة مقدارها هذه المدّة لو كانت.

ومن الناس من قال: في ستّة أيّام من أيّام الآخرة وكلّ يوم ألف سنة وهو بعيد لأنّ التعريف يكون بأمر معلوم.

ولو قيل: لم قدّر الخلق والإيجاد بهذا التقدير ولم يخلقها في لحظة واحدة وهو قادر عليه؟ فالجواب أنّه سبحانه العالم بالأصلح ويجب على الإنسان أن يقطع الطمع عن أمثال هذه الأسئلة فإنّه لا ساحل لها، وذلك مثل تقدير الملائكة الّذين يعذّبون أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بالثمانية وشهور السنة باثني عشر والسماوات بالسبع وكذا الأرض وكذا القول في عدد الصلوات ومقادير النصب في الزكوات وكذا مقادير الحدود والكفّارات فالإقرار بأنّ كلّ ما قاله الله حقّ هو الدين وترك البحث عن هذه الأشياء هو الواجب.

ولعلّ الجواب في هذا الموضوع ما قاله سعيد بن جبير أنّه خلقها في ستّة أيّام وهو يقدر أن يخلقها في لحظة تعليما لخلقه الرفق والتأنّي والتثبّت وهو سبحانه خلق الأشياء على تؤدة وتدرّج.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ومن المعلوم أنّه لا يجوز حمله على الاستيلاء والقدرة لأنّ الاستيلاء والقدرة في أوصاف اللّه لم يزل ولا يصحّ دخول ﴿ثُمَّ﴾ فيه وكذلك الاستقرار غير جائز لأنّه يقتضي التغيّر الّذي هو دليل الحدوث والتركيب وكلّ ذلك محال على اللّه فالمعنى: ثمّ خلق العرش ورفعه وهو مستول مثل قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾[1] فإنّ المراد حتّى يجاهد المجاهدون ونحن بهم عالمون.

فإن قيل: فعلى هذا التفسير يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السماوات وليس كذلك لقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

فالجواب أنّ كلمة ﴿ثُمَّ﴾ ما دخلت على خلق العرش بل على رفعه على السماوات.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ خبر لقوله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أو صفة للحيّ أو خبر مبتدء محذوف أي: هو الرّحمن.

﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ اختلف في تفسيره فقيل: إنّ المعنى فأسأل عنه خبيرا والباء بمعنى «عن» والخبير هاهنا هو اللّه، وأنشد في قيام الباء مقام «عن» قوله علقمة بن عبدة:

فإن تسألوني بالنساء فإنّني ... خبير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله ... فليس له من ودّهنّ نصيب

١ـ سورة محمّد: ٣١.

وقيل: إنّ الباء على أصلها والمعنى: فاسأل بسؤالك أيّها الإنسان خبيراً يخبرك بالحقّ وروي أنّ اليهود حكوا عن ابتداء الخلق بخلاف ما أخبر اللّه عنه فقال سبحانه: ﴿فَسْئَلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: سلني عنه وقيل: إن الخبير هنا محمّدﷺ والمعنى: ليسأل كلّ منكم عن اللّه محمّداً فإنّه الخبير العارف به، ويؤيّد هذا المعنى آية البعد في قوله: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: وإذا قيل لهؤلاء المشركين: اسجدوا للرحمن قالوا: وأي: شيء الرحمن إنّا لا نعرف الرحمن قال بعض المفسّرين: إنّ أبا جهل قال: إنّ الّذي يقول محمّد شعر. فقالﷺ: «**الشعر غير هذا إن إلّا كلام الرحمن**»، فقال أبو جهل: بخ بخ لعمري إنّه لكلام الرحمن الّذي هو يعلّمك فقالﷺ: «**الرحمن هو إله السماء ومن عنده يأتيني الوحي**». فقال أبو جهل: يا آل غالب من يعذرني من محمّد يزعم أنّ اللّه واحد وهو يقول: اللّه يعلّمني والرحمن، ألستم تعلمون أنّهما إلهان؟ ثمّ قال: ربّكم اللّه الّذي خلق هذه الأشياء والرحمن فهو مسيلمة[١].

وكانوا يقولون للنبيﷺ: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ بسجوده ونحن لا نعرف الرحمن أي: شيء وقرئ يأمرنا بالياء أي: كان بعضهم يقول لبعض هذا القول ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي: وزادهم ذكر الرحمن نفوراً وتباعداً عن الحقّ وقبول قول النبيﷺ. وصيغة «الرحمن» فعلان بناء من أبنية المبالغة تقول: رجل ريّان وعطشان في النهاية من الريّ والعطش وفرحان كذلك.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٤، ص ١٠٥.

شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا
خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا
وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ
عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ
أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا
يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ
وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾

﴿تَبَارَكَ﴾ وثبت بالبركة والدوام الإله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ وخلق ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ منازل للنجوم الكبار أو السبعة السيّارة وهي زحل والمشتري والمرّيخ والشمس والقمر والزهرة وعطارد وهي اثنا عشر برجاً: الحمل والثور والجوزا والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت وسمّيت بروجاً مأخوذاً من القصور العالية وأنّها كالمنازل والاشتقاق من البرج والظهور. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ والمراد من السراج الشمس لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[1] وقرى «سراجاً» وهي الشمس والكواكب الكبار ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ أي: مضيئاً بالليل إذا لم تكن شمس.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يخلف واحد منهما صاحبه في ما يحتاج أن يعمل فيه فمن فاته عمل اللّيل استدركه بالنهار ومن فاته عمل النهار استدركه بالليل قوله: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي: أراد شكر ربّه

١ـ سورة نوح: ١٦.

ويستدلّ بذلك على أنّ لهما مدبّراً وخالقاً ومصرّفاً ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ يقال: شكر شكراً وشكورا. وقيل في معنى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «تقضي صلاة النهار بالليل وصلاة الليل بالنهار»[1].

الصفة الأولى قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ وعباد الرحمن مبتدء وخبره في آخر السورة: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ ويجوز أن يكون خبره ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ... هَوْنًا﴾ وهذا وصف سيرتهم بالنهار أي: هينون، والهون الرفق أي: مشيهم في لين وسكينة ووقار وتواضع ولا يضربون أقدامهم أشراً وبطراً ولا يتبخترون لأجل الخيلاء ويمشون بسجيّة الرحمة.

الصفة الثانية: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: يظهرون العلم في مقابلة الجهل لأنّ الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في العقل والشرع وسبب للورع.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ ومعنى «يبيتون لربّهم أن يكونوا في لياليهم مصلّين». قال أهل اللغة: كلّ من أدركه الليل فقد بات نام أم لم ينم. وحاصل المعنى: أنّ المؤمنين إذا انتشروا في النهار مشيهم مشي الهون وليلهم خير ليل إذا خلّوا فيما بينهم وبين ربّهم في القيام والسجود.

الصفة الرابعة: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ قال ابن عبّاس: يقولون في سجودهم وقيامهم هذا القول وخشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرقاً من عذاب جهنّم وقوله: ﴿غَرَامًا﴾ أي: هلاكاً وخسراناً ملحّاً لازماً ومنه الغريم لإلحاحه وإلزامه وفلان مغرم بالنساء أي: مولع بهنّ وقيل في الغرام: إنّه تعالى سأل الكفّار ثمن نعمته فما أدّوها

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٣١٠.

إليه فأغرمهم فأدخلهم النّار ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ إشارة إلى كونه مضرّة خالصة دائمة وبئس المقرّ والمقام جهنّم.

الصفة الخامسة: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ والسرف مجاوزة الحدّ في النفقة، والإقتار التقصير عما لابدّ منه روى عن معاذ: أنّه قال: سألت رسول اللهﷺ عن ذلك فقال: **«من أعطى في غير حقّ فقد أسرف ومن منع من حقّ فقد قتر»**.[1] وروي عن أمير المؤمنينؑ قال: **«ليس في المأكول والمشروب سرف وإن كثر»**[2]. وفي «الكافي» عن الصادقؑ: **«إنّما الإسراف فيما أفسد المال وأضرّ بالبدن»** قيل: فما الإقتار؟ قال: **«أكل الخبز والملح وأنت تقدر على غيره»**، قيل فما القصد؟» قال: الخبز والملح واللبن والخلّ[3] والسمن مرّة هذا ومرّة هذا. وعنهؑ أنّه تلا هذه فأخذ قبضه من حصى وقبضها بيده فقال: **«هذا الإقتار الّذي ذكره الله في كتابه»**. ثمّ قبض قبضة أخرى فأرخى كفّه كلّها ثمّ قال: **«هذا الإسراف»**. ثمّ أخذ قبضة أخرى فأرخى بعضها وأمسك بعضها وقال: **«هذا القوام»**[4].

الصفة السادسة: قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ أي: لا يجعلون لله سبحانه شريكاً بل يوجّهون عبادتهم إليه ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ قتلها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ والنفس المحرّم قتلها نفس المسلم والمعاهد والمستثناة قتلها نفس الحربيّ ومن يجب قتلها على وجه القود والارتداد والزنا بعد الإحصان وللسعي في الأرض بالفساد ﴿وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ بفتح الهمزة والزنا هو الفجور بالمرأة في الفرج.

١ـ زبدة البيان، المحقق الأردبيلي، ص٤١٠ ؛ وبحار الأنوار، ج٦٦، ص٢٦١ ؛ ومجمع البيان، ج٧، ص٣١١.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ الكافي، ج ٤، ص٥٤.

٤ـ الكافي، ج ٤، ص٥٥ ؛ وبحار الأنوار، ج٦٦، ص٢٦١.

وفي هذا دلالة على أنّ أعظم الذنوب بعد الشرك القتل والزنا وروى البخاريّ ومسلم في صحيحهما بالإسناد عن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً فهو خلقك» قال: قلت: ثمّ أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قال: ثمّ أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك» فأنزل الله تصديقها بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ﴾ الآية[1].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي: عقوبة وجزاء لما فعل قال الفرّاء: أثمه الله يأثمه إثماً وأثاماً أي: جازاه جزاء الإثم وقيل: إنّ أثاماً واد في جهنّم ثمّ فسّر سبحانه لقي الأثام بقوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قيل: معناه: إنّه يستحقّ على كلّ معصية منها عقوبة فيضاعف عليه العقاب ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ ويدوم في العذاب وإنّما قال: ذلك لأنّه عزّ اسمه قد يوصل الآلام إلى بعض المكلّفين لا على وجه الإهانة.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قال الرازي: دلّت الآية على أنّ التوبة مقبولة والاستثناء لا يدلّ على ذلك لأنّه سبحانه أثبت أنّه يضاعف له العذاب ضعفين فيكفي في صحّة الاستثناء أن لا يضاعف العذاب للتائب وإنّما الدالّ على ذلك قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ نقل عن ابن عبّاس أنّه قال: توبة القاتل غير مقبولة وزعم أنّ هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ وقالوا: نزلت الغليظة بعد اللّيّنة بمدّة يسيرة وقيل: بثمان سنين واختلفوا في المراد بالتبديل فقال جماعة كابن عبّاس ومجاهد ومقاتل: إنّ التبديل إنّما يكون في الدنيا فيبدّل الله قبائح أعمالهم من المعاصي والكفر بمحاسن الأعمال في الإسلام فيبدّلهم بالكفر إيماناً وبالزنى

١ـ صحيح بخاري، ج٦، ص١٤؛ وصحيح مسلم، ج١، ص٦٣.

عفّة وإحصاناً فيستوجبوا بها الثواب وقيل: يبدّلهم معناه: يمحو السّيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة، عن سعيد بن المسيّب ومكحول وعمرو بن ميمون، واحتجّوا بالحديث الّذي رواه مسلم في الصحيح مرفوعاً إلى أبي ذرّ قال: قال رسول اللهﷺ: **«يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرض عليه صغار ذنوبه ومحي عنه كبارها فيقول: عملت يوم كذا وكذا وكذا وهو مقرّ لا ينكر وهو مشفق من الكبائر فيقال: أعطوه مكان كلّ سيّئة عملها حسنة فيقول: أنّ لي ذنوباً ما أراها هاهنا»**، قال: ولقد رأيت رسول اللهﷺ ضحك حتّى بدت نواجذه[1]. والحاصل أنّ قوماً قالوا: أنّ السيّئة تمحى بالتوبة والإيمان والعمل الصالح وتكتب الحسنة مع التوبة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيّئات.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ معاصي التائبين، رحيماً ومنعماً عليهم بالرحمة والفضل.

وفي «الأمالي» عن الباقرؑ أنه سئل عن هذه الآية فقالؑ: **«يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتى يوقف بموقف الحساب فيكون الله تعالى هو الّذي يتولّى حسابه لا يطّلع على حسابه أحد من خلقه حتّى إذا أقرّ بسيّئاته قال الله للكتبة: بدّلوها حسنات وأظهروها للناس فيقول الناس حينئذ: ما كان لهذا العبد سيّئة واحدة ثمّ يأمر الله به إلى الجنّة فهذا تأويل الآية وهي للمذنبين من شيعتنا خاصّة»**. وعن الرضا عن أبيه عن آبائهؑ قال: **«قال رسول اللهﷺ حبّنا أهل البيت يكفّر الذنوب ويضاعف الحسنات وإنّ الله ليتحمّل من محبّينا أهل البيت ما عليهم من مظالم العباد إلّا ما كان منهم على إضرار وظلم للمؤمنين فيقول للسيّئات: كوني حسنات»**[2].

وفي «العيون» عنهؑ قال: **«قال رسول اللهﷺ: إذا كان يوم القيامة تجلّى**

١ـ صحيح مسلم، ج١، ص١٢١.

٢ـ الأمالي، الشيخ طوسي، ص١٦٥ ؛ وبحار الأنوار، ج٦٥، ص ١٠٠.

الله تعالى لعبده المؤمن فيقفه على ذنوبه ذنباً ذنباً ثمّ يغفر له لا يطلع الله على ذلك ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً ويستر عليه ما يكره أن يقف عليه أحد ثمّ يقول لسيّئاته: كوني حسنات»[١]. والقميّ عنه عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة أوقف الله عزّ وجلّ العبد بين يديه وعرض عليه عمله فينظر في صحيفته فأوّل ما يرى من سيّئاته فيتغيّر لذلك لونه وترتعد فرائصه ثمّ تعرض عليه حسناته فيفرح لذلك ويبدّل الله سيّئاته حسنات ويظهرها للناس فيقول الناس: أما كان لهؤلاء سيّئة واحدة وهو قوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾»[٢] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وفي حديث أبي إسحاق اللّيثيّ عن الباقر عليه السلام الّذي ورد في طينة المؤمن وطينة الكافر ما معناه: «أنّ الله تعالى يأمر يوم القيامة بأن تؤخذ حسنات أعدائنا فتردّ على شيعتنا وتؤخذ سيّئات محبّينا فتردّ على مبغضينا»[٣].

قال: وهو قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ يبدّل الله سيّئات شيعتنا حسنات ويبدّل الله حسنات أعدائنا سيّئات.

وفي «روضة الواعظين» عن النبي صلى الله عليه وآله: «ما جلس قوم يذكرون الله إلّا نادى بهم منادٍ من السماء قوموا فقد بدّل الله سيّئاتكم حسنات»[٤].

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾

١ـ عيون الأخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص٣٦.

٢ـ تفسير القمي، ج٢، ص١١٧.

٣ـ تفسير الصافي، ج٤ص٢٥ ؛ ومجمع النورين، ص١٧٥.

٤ـ روضة الواعظين، ص٣٩١.

أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

ومن أقلع عن معاصيه وندم عليها وتدارك بالعمل الصالح فإنّ التائب بهذه الصورة برجع إلى الله مرجعاً عظيماً جميلاً وفرّق جماعة بين التوبة المذكورة في الآية السابقة وهذه الآية ولو لا الفرق لكان هذا تكريرا وقالوا: التوبة الأولى التوبة من القبيح لقبحه والرجوع عن الشرك والمعاصي والتوبة المذكورة في هذه الآية الرجوع والانقطاع إلى الله لطلب رضائه فإنّ من انقطع إلى خدمة بعض الملوك فقد أحرز شرفا فكيف المنقطع إلى الله؟

وقيل في تأويل الآية: إنّ من تاب وأتى بتوبة صحيحة في الماضي على سبيل الإخلاص فقد وعده الله بأنه سيوفّقه للتوبة في المستقبل وهذا من أعظم البشارات.

الصفة السابعة: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: لا يشهدون شهادة الكذب أقيم المضاف إليه مقام المضاف وقيل: المعنى: لا يشهدون مواضع الكذب ويحتمل أن يكون المراد حضور كلّ موضع يجري فيه ما لا ينبغي فيدخل فيه أعياد المشركين ومجامع الفسّاق لأنّ من خالط أهل الشرّ وحضر مجامعهم فقد شاركهم في تلك المعصية بل قد يكون حضوره سبباً لوجود تلك المعصية والزيادة فيها لأنّ الذي حملهم على فعله استحسان النظّارة ورغبتهم في النظر إليه. قال محمّد بن الحنفيّة: الزور، الغنا وكلّ هذه الوجوه محتملة ولكن استعماله في الكذب أكثر.

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ وقيل في اللغو: كلّ ما يجب أن يتّقى ويترك. ومنهم فسرّ اللغو بكلّ ما ليس بطاعة، وهو ضعيف لأنّ المباحات لا

تعدّ لغوا أي: إذا مرّوا بأهل اللغو يكرمون أنفسهم عن مثل حال اللغو وإكرامهم بالإعراض عن اللغو وبترك المعاونة عليه ويدخل في اللغو جميع ما لا ينبغي وأصل الكلمة مأخوذة من قولهم: ناقة كريمة إذا كانت لا تبالي بما يحلب منها للغزارة فاستعير ذلك للصفح عن الذنب. وقيل: مرورهم كراماً هو أن يمرّوا بمن يسبّهم فيصفحون عنه وقيل: هم الّذين إذا أرادوا ذكر الفرج كنّوا عنه.

الصفة الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ قال صاحب «الكشّاف»: الآية ليس بنفي للخرور وإنّما هو إثبات له ونفي للصمم والعمى كما يقال: لا يلقاني زيد مسلما هو نفي للإسلام لا للّقاء. والمعنى أنّهم إذا ذكّروا بالآيات أكبّوا عليها حرصاً على استماعها مقبلين على من يذكّر بها.

وحاصل المعنى أنّهم إذا وعظوا بالقرآن والأدلّة نظروا فيها وتفكّروا في مقتضياتها ولم يقعوا عليها كالأصمّ والأعمى بحيث لا ينتفع منها كالمنافقين.

الصفة التاسعة: قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ وقرئ ﴿وَذُرِّيَّتِنَا﴾ والمراد أنّهم سألوا أزواجاً وذرّيّة يكون لهم قرّة أعين في الدين لا في الدنيا فأحبّوا أن يكونوا معهم في التمسّك بطاعة اللّه فتمّ سرورهم بذلك في الجنّة، أي: هب لنا من جهتهم ما تقرّ به عيوننا من الطاعة والصلاح. ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: اجعلنا ممّن يقتدي بنا المتّقون وطلبوا العزّ بالتقوى لا بالدنيا ويحتمل أن يكون المعنى واجعل لنا المتّقين إماما فحينئذ الّام وإن ورد على كلمة المتّقين ولكن في المعنى: على كلمة «نا» ولكن الأقرب أنّهم سألوا اللّه أن يبلغهم في الطاعة والعبادة المبلغ الّذي يشار إليهم ويقتدى بهم.

وفي الآية على هذا المعنى ما يدلّ على أنّ الرياسة في الدين أمر مرغوب

فيه وينبغي أن يطلب كما قال الخليل: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: الموصوفين بهذه الصفات يجزون الغرفة والغرفة في اللغة العلية وكلّ بناء عال فهو غرفة والمراد أنّ لهم الدرجات العالية في الجنّة بسبب صبرهم وذكر الصبر ولم يذكر المصبور عنه ليعمّ كلّ نوع من المشاقّ من ترك الشهوات ومن مشاقّ الطاعات وأذيّة الجهلة من الناس ومشاقّ الجهاد والفقر ورياضة النفس والمكاره في سبيل الله.

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ والتحيّة الدعاء بالتعمّر والسلام الدعاء بالسلامة وحاصل التحيّة كونهم دائمين على نعيم الجنّة في مقابلة قوله: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ فبيّن سبحانه أنّ الموصوفين مؤبّدون في هذه النعم أي: حسنت الغرفة من حيث الاستقرار والمقام.

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي﴾ قل يا محمّد: ما يصنع بكم ربّي؟ أو لا يبالي بكم[٢] عن أبي عمرو بن العلا: (وما لا يعبأ به فوجوده وعدمه سواء) والمعنى: قل للمشركين: أي نفع له سبحانه فيكم؟ وأي ضرر يعود اليه من عدمكم؟ وأي قدرتكم عند الله حتّى يدعوكم إلى الإيمان؟ لكنّ الواجب في الحكمة دعاؤكم إلى الدين وإرسال الرسول وقد فعل وقيل: معناه: لو لا عبادتكم له وإيمانكم به وتوحيدكم إيّاه، عن الكلبيّ ومقاتل ومجاهد فيكون الدعاء بمعنى العبادة وعلى هذا المعنى الآية تدلّ على أنّ من لا يعبد الله ولا يطيعه فلا وزن له عند الله وقيل: معناه: لو لا دعاؤكم له إذا مسّكم ضرّ أو

١ـ سورة الشعراء: ٨٤.

٢ـ وعليه فتكون «ما» نافية.

أصابكم سوء رغبة وخضوعاً له، روى العيّاشيّ بإسناده عن بريد بن معاوية العجليّ قال: قلت لأبي جعفرعليه السلام: كثرة القراءة أفضل أم كثرة الدعاء؟ قال‌عليه السلام: «كثرة الدعاء أفضل» وقرأ هذه الآية[١].

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ الخطاب لأهل مكّة أي: إنّ الله دعاكم بواسطه الرسول إلى توحيده وعبادته فقد كذّبتم الرسول ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ العذاب ﴿لِزَامًا﴾ أي: فسوف يكون عقابه على تكذيبكم رسوله لازماً لكم وواقعاً بكم لا محالة أو المعنى: ما خلقتكم وبي إليكم حاجة إلّا أن تسألوني فأعطيكم وتستغفروني فأغفر لكم وأعلمتكم أنّ حكمي أنّي لا أعتدّ بعبادي إلّا لعبادتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم ومخالفتكم وهو عذاب الآخرة ونظيره أن يقول الملك لمن استعصى عليه: إنّ من عادتي أن أحسن إلى من أطاعني وقد عصيت فسوف ترى ما يحلّ بك من عصيانك.

فإن قيل: الخطاب إلى من يتوجّه؟ فالخطاب يتوجّه إلى المكلّف على الإطلاق وترك اسم «كان» للعلم به لأنّ بسبب التكذيب يكون العذاب لازماً.

تمّت السورة بعون الله.

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٣١٧؛ وتفسير الصافي، ج٤، ص٢٧. وهما عن العياشي.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

مكية إلّا قوله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إلى آخر السورة فإنّها مدنيّة.

فضلها: عن أبيّ بن كعب: قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوح وكذّب بهود وشعيب وصالح وإبراهيم وبعدد من صدّق بمحمّد وكذّب بعيسى»[1].

وروى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ الطواسين الثلاث في ليلة الجمعة كان من أولياء الله وأسكنه الله في جنّة عدن وسط الجنان مع النبيّين والمرسلين والوصيّين الراشدين ولم يصبه في الدنيا بؤس أبداً وأعطي من الأجر في الآخرة حتّى يرضى وفوق رضاه وزوّجه الله مائة حوراء من الحور العين»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟
مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾
وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟
فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٣١٨؛ ونور الثقلين، ج٤، ص٤٥.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

قرأ بعض مثل حمزة بإظهار النون بعد السين والآخرون بالإدغام. قد ذكر معاني الحروف المقطّعة في أول البقرة. وقال بعض: إنّ ﴿طسٓ﴾ و﴿طسٓمٓ﴾ من أسماء القرآن وقال ابن عبّاس في رواية الوالبيّ: ﴿طسٓمٓ﴾ قسم وهو من أسماء اللّٰه. وقال القرطبيّ: أقسم اللّٰه بطوله وسنائه وملكه. وروي عن محمّد بن الحنفيّة عن عليّ عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله: **«لمّا نزلت ﴿طسٓمٓ﴾ قال: الطاء طور سيناء وسين الإسكندريّة والميم مكّة»**[1]. وقيل: الطاء شجرة طوبى والسين سورة المنتهى والميم محمّد صلى الله عليه وآله.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أشار بتلك إلى ما ليس بحاضر لكنّه متوقّع فهو كالحاضر لحضور المعنى في النفس والتقدير: تلك الآيات الّتي وعدتم بها هي آيات القرآن الّذي يبيّن الحقّ من الباطل.

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ﴾ تهلك ﴿نَّفْسَكَ﴾ وقاتل نفسك ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بأن يقيموا على الكفر. وإنّما قال سبحانه ذلك تسلية لنبيّه صلى الله عليه وآله وتخفيفاً عن اغتمامه. البخع أن يبلغ بالذبح النخاع وهو الخرم النافذ في ثقب الفقرات وذلك أقصى حدّ الذبح وكلمة ﴿لَعَلَّ﴾ للإشفاق.

فإن قيل: إنّ القوم لمّا كانوا كفّارا فكيف يكون الآيات مبيّنة لهم ما يلزمهم وإنّما تبيّن بذلك الأحكام؟ قلنا: ألفاظ القرآن من حيث تعذر عليهم أن يأتوا بمثله يستدلّ به على أنّه كلام خالقهم فبيّن به التوحيد ودليله وكذلك لعجزهم بالإتيان يبيّن ويثبت النبوة وإذا ثبت هذا فصارت آيات القرآن كافية في كلّ الأصول والفروع أجمع ثمّ بيّن سبحانه أنّه قادر على أن ينزّل آية

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص ٣٢٠ ؛ وبحار الأنوار، ج٨٨، ص١٢.

يذلّون عندها ويخضعون.

فإن قيل: كيف صحّ مجيء ﴿خَٰضِعِينَ﴾ خبرا عن الأعناق لأنّها وصفت بالخضوع الّذي هو صفة للعقلاء؟ قيل: ﴿خَٰضِعِينَ﴾ مثل قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾[1] أو المراد جماعات الناس تقول: جاء عنق من الناس أي: فوج فحينئذ معناه: أصحاب الأعناق، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقام المضاف لدلالة الكلام عليه وقد يوصف ما لا يعقل بصفة من يعقل في كلام العرب.

وذكر أبو حمزة الثماليّ في هذه الآية أنّ الآية: صوت يسمع من السماء في النصف من رمضان وتخرج له العواتق من البيوت.

وقال ابن عبّاس: (نزلت فينا وفي بني أميّة). قال: (سيكون لنا عليهم الدولة فتخضع لنا أعناقهم بعد صعوبتها وتلين، وهي الصيحة من السماء باسم صاحب الأمر).

وفي «الإرشاد» قال المفيد عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال: «سيفعل الله ذلك بهم» قيل: ومن هم؟ قال: «بنو أميّة وشيعتهم»، قال: وما الآية؟ قال: «ركود الشمس ما بين زوال الشمس إلى وقت العصر وخروج صدر ووجه في عين الشمس يعرف بحسبه ونسبه وذلك في زمان السفيانيّ وعندها يكون بواره وبوار قومه»[2]. وفي «الإكمال» عن الرضا عليه السلام في حديث يصف فيه القائم قال: «وهو الّذي ينادي مناد من السماء يسمعه جميع أهل الأرض بالدعاء إليه يقول: ألا إنّ حجّة الله قد ظهرت عند بيت الله فاتّبعوه فإنّ الحقّ معه وفيه وهو قول الله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم....﴾»[3].

١ـ سورة يوسف: ٤.

٢ـ الإرشاد، ج٢، ص٣٧٣.

٣ـ إكمال الدين وإتمام النعمة، ص٣٧٢.

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أخبر سبحانه عن حال الكفّار أنّه لا يأتيهم ذكر جديد يعني: القرآن كما: قال ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] إلّا أعرضوا عنه ولم يتدبّروا فيه ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ يوم القيامة فنبّه تعالى بأنه مع قدرته على أن يجعلهم ملجئين بالإيمان بسبب الآية المنزلة رحيم بهم من حيث يأتيهم حالاً بعد حال بالقرآن وهو الذكر ويكرّر عليهم وهم مع ذلك على حدّ واحد من الإعراض والتكذيب والاستهزاء فلذلك زجرهم بقوله: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وهو كقوله: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾[2] ثمّ إنّه سبحانه بيّن أنّ مع إنزاله القرآن حالاً فحالاً لتدبّرهم قد أظهر أيضاً أدلّة تحدث حالاً بعد حال لتعقّلهم في القادر الحكيم فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ والزوج هو الصنف والكريم صفة لكلّ ما يرضى ويحمد في بابه يقال: وجه كريم إذا كان مرضيًا في حسنه وجماله وكتاب كريم إذا كان مرضيًا في فوائده ومعانيه والنبات الكريم المرضيّ في منافعه، وإنّه وصفه بالكريم لأنّه ما أنبت شيئاً إلّا وفيه فائدة عظيمة وإن غفل عنها الغافلون.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ ودلالة في ذلك الإنبات على قدرتنا ووحدانيّتنا ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي: لا يصدّقون ولا يعترفون به إمّا عناداً وتقليداً لأسلافهم وهربا من مشقّة التكليف قال سيبويه: ﴿كَانَ﴾ هنا زائدة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمّد ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب القادر الّذي لا يعجز، المنعم ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ على عباده بأنواع النعم.

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١)

١ـ سورة الحجر: ٩.

٢ـ سورة ص: ٨٧.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ١٥ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢١ وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٢ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ٢٥ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٨ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾

المعنى: واتل يا محمّد عليهم الوقت الّذي واقصص لهم النداء الّذي نادى ربّك موسى ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وسجّل سبحانه هذا الاسم عليهم لأنّهم ظلموا أنفسهم بالكفر وظلموا بني إسرائيل بالعذاب ولا شك عندنا أي: الإماميّة والمعتزلة أنّ النداء الّذي سمعه موسى عليه السلام من جنس الحروف والأصوات خلافا للأشاعرة فإنّ عندهم المسموع هو الكلام القديم وقالوا: كما أنّ ذاته تعالى منزّه لا تشبه سائر الأشياء مع أنّها معلومة فكذا كلامه منزّه عن مشابهة الحروف والأصوات مع أنّه مسموع.

وبالجملة أمره سبحانه أن يأت فرعون وقومه فقال: ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ وهو عطف بيان للقوم الظالمين وقوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ قرئ بكسر النون عوضا عن الياء وقرئ بالخطاب لأنّ الأهمّ في بدء البعثة لكلّ رسول أن ينهي قومه عن

الشرك وعن القبائح ولذا قال سبحانه: ألا يتّقون عن الشرك والظلم؟

فإن قيل: على كون الضمير للخطاب والالتفات فما الفائدة والمخاطبون كانوا غائبين؟ قلنا: اجري ذلك في تكليم موسى في معنى إجرائهم بالحضرة كما يقال: ألا تستحي من الناس؟

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ فطلب موسى أن يبعث معه هارون فذكر الأمور الداعية له في ذلك الطلب فقال: أخاف أن ينسبون إليّ الكذب وذلك موجب لضيق صدري وقلبي وذلك سبب لتغيّر الكلام على من يكون في لسانه رتّة وحبسة.

وأما هارون فليس كذلك ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾ أراد قتله القبطيّ والمراد أنّ لهم عليّ ذنب بزعمهم لا أنّه أذنب بهذا القتل ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ خاف أن يقتلوه بذلك القتل.

﴿كَلَّا﴾ أي: لا يكون ذلك ولن يقتلوك به فإنّي لا أسلّطهم عليك ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ أي: فاذهب أنت وأخوك نحن نحفظكم وسامعون ما يجري بينكم، و﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ هنا بمعنى سامعون لأنّ الاستماع لا يجوز عليه سبحانه.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن قيل: هلّا ثنّي الرسول كما ثنّي في قوله: ﴿فَقُولَآ﴾ ولم يقل: «رسولا ربّ العالمين»؟ لأنّ الرسول قد يكون لمعنى الجمع. قال الهذليّ:

ألكني إليها وخير الرسول ... أعلمهم بنواحي الخبر[1]

أو المعنى: ذو رسالة، أو الرسول اسم للماهيّة من غير بيان أنّ تلك الماهيّة واحدة أو كثيرة والماهيّة محمولة على الواحد وعلى الأكثر فصحّ

١ـ جامع البيان، ج٢، ص٢٠٣.

قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أمرك الله بأن أطلق بني إسرائيل من الاستعباد وخلِّ عنهم. وفي الكلام حذف تقديره: إنّهما أتيا فرعون وبلّغا الرسالة.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ والتربية تنشئة الشيء حالاً بعد حال معناه: ألم تكن فينا وليدا صبيّاً صغيراً فربّيناك؟ ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ أي: أقمت سنين كثيرة عندنا وهي قيل: ثمانية عشر. وقيل: ثلاثين سنة، وقيل: أربعين سنة. وأظهر لؤمه حيث ذكر صنائعه.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعني: قتل القبطيّ ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لنعمتنا وتربيتنا، أو المعنى: أنت من الكافرين حيث لا تعبدنا ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: فعلت هذه وأنا من الجاهلين بأنّ هذه الوكزة موجبة للقتل لأنّي ما تعمّدته وإنّما وقع منّي على وجه الخطأ كمن يرمي طائرا وأصاب إنساناً ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ أي: نبوّة وجعلني نبيّاً وهو الّذي يدعو إليه الحكمة من التوراة والعلم بالشرائع ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ونبيّاً من الأنبياء.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قيل فيه أقوال: أحدها: أنّ همزة التوبيخ مضمر والمعنى: أو تلك نعمة تمنّها عليّ أن عبّدت قومي بني إسرائيل ولم تعبّدني؟ والثاني: أنّ المعنى: أتمنّ عليّ بأن ربّيتني واستعبدت بني إسرائيل فهذه ليست بنعمة يريد أنّ اتّخاذك بني إسرائيل الّذين هم قومي أحبط نعمتك. والثالث: أنّ معناه أنّك لو كنت لا تستعبد بني إسرائيل ولا تقتل أبناءهم لكانت امّي مستغنية عن قذفي في التابوت وإنّك تمنّ عليّ بما كان بلاؤك سبباً ولو لم تعبّدهم لكفلني أهلي و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى خصلة مبهمة يفسّرها: أن عبّدت بني إسرائيل[1].

١ـ راجع: مجمع البيان، ج٧، ص٣٢٥.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنّ موسى وهارون قالا: إنّا رسول ربّ العالمين، قال: أي: جنس ربّ العالمين الّذي تدعوني إلى عبادته؟ ﴿قَالَ﴾ موسى في جوابه: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مبدعهما وخالقهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ والمراد جهتيهما ـ ولذا أتى بالتثنية ـ من الحيوان والنبات والجماد ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بأنّ الربّ من كان بهذه الصفة أو موقنين بأنّ هذه الأشياء محدثة والمحدث لابدّ له من محدث، ولم يشتغل موسى عليه السلام بالجواب عمّا سأله فرعون لأنّ الله تعالى ليس بجنس بل اشتغل ببيان صفاته وربوبيّته والحجّة الدالّة على وحدانيّة من خلقه الّذي يعجز المخلوقون عن مثله.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ يريد ألا تستمعون مقالة موسى؟ أو ألا تصغون إليه وتفهمون ما يقوله؟ تعجّبا من قوله. يريد: انظروا إلى هذا الرجل أساله عن شيء فيجيب غيره فأجاب موسى في الرفق وتأكيد الحجّة ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تأكيداً لما قبله من الحجّة لأنّ فرعون يدّعي الربوبيّة على أهل عصره فبيّن موسى أنّ المستحقّ للربوبيّة من هو ربّ كلّ عصر فعند ذلك موّه عليهم بهذا الكلام.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ لأنه لا يوافق جوابه سؤالي كما يفعل المجنون فلمّا سمع موسى منه هذه النسبة أكّد الحجّة و﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

فلمّا طال الاحتجاج على فرعون ﴿قَالَ﴾ مهدّدا لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ وكان إذا سجن أحدا لم يخرجه حتّى يموت فلمّا توعّده بالسجن قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ معناه: أتسجنني ولو جئتك بشيء وأمر ظاهر تعرف صدقي عن كذبك وحجّة ظاهرة تدلّ على نبوّتي وإنّما قال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ إشارة إلى أنّي جاعلك

واحداً من جملتهم في سجوني وكان سجنه أشدّ من القتل وآخره الموت أو القتل وكان من عادته أن يأخذ من يريد أن يسجنه فيطرحه في بئر عميقة فردا لا يبصر فيها ولا يسمع. والواو في قوله: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام معناه: أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء ظاهر.

قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ
مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾
قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ
عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم
مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ
ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ
وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ
مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ
مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى
عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾

قال فرعون لموسى عليه السلام: هات ما ادّعيته من المعجزات إن كنت صادقاً ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى حينئذ عصاه ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ﴾ حيّة عظيمة أو الذكر من الحيّات العظام ﴿مُّبِينٌ﴾ لا شبهة فيه، روي أنّه لمّا انقلبت العصا حيّة ارتفعت في السماء قدر ميل ثمّ انحطت مقبلة إلى فرعون وجعلت تقول: يا موسى

مرني بما شئت، ويقول فرعون: يا موسى أسألك بالّذي أرسلك ألّا أخذتها فعادت عصا(١).

ثمّ إنّ موسى لمّا أتى بهذه الآية قال له فرعون: هل غيرها؟ قال: نعم، فأراه يده ثمّ دخلها في جيبه ثمّ أخرجها فإذا هي بيضاء تضيء الوادي من شدّة بياضها من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس وهذا قوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ فعند هذا أراد فرعون تعمية هذه الحجّة على قومه ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ وكان الزمان علم السحر كثير عندهم وروّج هذا القول عليهم بأنّه ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ وهذا يجري مجرى التنفير عنه لئلّا يقبلوا قوله، ومعلوم أنّ مفارقة الوطن المألوف أمر صعب ينفّرهم عنه بذلك. ثمّ قال: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فاظهر من نفسه أنّي متّبع لرأيكم وبهذا الكلام جذب قلوبهم إلى نفسه وأبعدهم عن موسى فعند هذه الكلمات اتّفقوا على جواب واحد ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ﴾ أو أرجئه بالهمز والتخفيف لغتان أي: أخّره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة، وقيل: معناه: احبسه. روي أنّ فرعون أراد قتله ولم يكن يصل إليه فقالوا له: لا تفعل فإنّك إن فعلته أدخلت على الناس شبهة ولكن أرجه(٢) ﴿وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾ بإنفاذ ﴿حَـٰشِرِينَ﴾ وجامعين يجمعون السحرة من جميع البلدان فيأتون لك بكلّ عالم في السحر فحشروهم ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: لوقت معيّن اختاروه وهو يوم عيدهم يوم الزينة ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لأهل مصر: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ أي: إنّهم بعثوا على الحضور من الناس ليشاهدوا ما يكون من الجانبين لعلّنا نتّبع

١ـ التبيان، ج٨، ص١٨ ؛ والدرالمنثور، ج٣، ص١٠٥.

٢ـ انظر: تفسيرالثعالبي، ج٣، ص٦٣.

السحرة أي: إنّا نرجو أن يكون الغلبة للسحرة فنتّبعهم وكان ذلك الأمر مطلوب موسى لتظهر حجته.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ﴾ فابتدءوا بطلب الجزاء وهو إمّا المال أو الجاه فبذل لهم ذلك وأكّده بقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ لأنّه نهاية مقصودهم المال ورفع المنزلة.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ قال للسحرة: ألقوا ما أنتم هيّأتم من أموركم وهذا بصورة الأمر ولكنّ المراد به التحدّي ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فطرحوا ما كان من الحبال والعصيّ المموّهة بالسحر المعمولة بالزيبق وبعض الأدوية المركّبة المعدّة لهذا الفنّ وأقسموا بعزّة فرعون والمراد من العزّة القوّة الّتي تمتنع بها من لحاق ضيم لعلوّ منزلتها وكان هذا القول قسم منهم وإن كان غير مبرور ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ عند ذلك ﴿مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: إنّ العصا لقفت وتناولت وخلست جميع ما موّهوا به في أوجز مدّة من الزمان.

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ وقد بهرهم ما أظهره موسى وعلموا أنّ ذلك من عند الله إذ كانوا أساتيد في علم السحر وعرفوا أنّ أحدا من البشر لا يقدر على مثل ذلك ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ بعد ذلك قال فرعون مهدّداً لهم: أصدقتموه فيما يدعو إليه ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ في تصديقه؟ ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فيما بعد فيما أفعله بكم من العقوبة ثمّ فسّر لهم بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يعني: قطع اليد من جانب والرجل من الجانب الآخر بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مع ذلك على الجذوع ولا أترك أحدا منكم لا تناله عقوبتي.

﴿قَالُوا﴾ في جوابه عن ذلك: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا ضرر علينا في ما تفعله يقال: ضاره يضيره ضيرا وضرّه يضرّه ضراً ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: إلي ثواب ربّنا راجعون ولا يضرّنا قطعك وصلبك فإنّه ألم ساعة ثمّ إلى النعيم الدائم.

إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ
مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾
إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾
فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ
إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ
اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ
الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ إشارة إلى الكفر والسحر منهم والطمع في هذا الموضع يحتمل أن يكون اليقين كقول إبراهيم: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[1] ويحتمل أن يكون بمعنى الظنّ لأنّ المرء لا يعلم ما سيجيء من بعد وأمّا قوله: ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فالمراد: لأنّا كنّا مؤمنين من الجماعة الّذين حضروا ذلك الموقف. وقرئ «إن» على معنى الشرطيّة وأنّهم أوّل من آمن لموسى في ذلك اليوم من أهل الموقف عند فرعون وأنّ بني إسرائيل كانوا مصدّقين بموسى من قبل.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ وأسرى وسرى لغتان فحينئذ يجوز

١ــ سورة الشعراء: ٨٢.

بهمزة القطع والوصل. ولمّا ظهر أمر موسى عليه السلام أمره الله بأن يخرج ببني إسرائيل وهم الّذين من قوم موسى وآمنوا به وأراد سبحانه تخليصهم من يد فرعون وتمليكهم بلاد فرعون وما يؤدّي إلى استيصال قوم فرعون وهو عليه السلام أسرى بهم، ثمّ إنّ قوم موسى قالوا لقوم فرعون: إنّ لنا في هذه الليلة عيداً ثمّ استعاروا منهم حليّهم وحللهم بهذا السبب فخرجوا بتلك الأموال في الليل إلى جانب البحر.

فلمّا سمع فرعون ذلك ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يحشرون ويجمعون إليه الناس وأمر أن يجمعوا له الجيش ليقبضوا على موسى وقومه. فلمّا اجتمع الناس عنده قال فرعون لهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ والشرذمة عصبة قليلة من عصب كثيرة أي: عصابة قليلة قوم موسى. قال المفسّرون: الشرذمة الّذين قلّلهم فرعون ستّمائة ألف ولا يحصى عدد أصحاب فرعون[1] فأطمع فرعون أصحابه بقلّة أصحاب موسى ووصفهم بالقلّة ثمّ قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ يعني: يفعلون أفعالا تغيّظنا وتضيّق صدورنا واختلفوا في تلك الأفعال على وجوه:

أحدها: ما تقدّم من أمر الحليّ، وثانيها: خروج بني إسرائيل عن عبوديّة فرعون واستقلالهم في الدين ولم يتّخذوا فرعون إلهاً. قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ وقرئ «حذرون» والحاذر الحذر المستعدّ والحذر المتيقّظ أي: إنّا شاكوا السلاح ومستعدّون وذو قوّة.

ثمّ أخبر سبحانه عن كيفيّة أهلاكهم بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ يعني: آل فرعون ﴿مِنْ جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أي: أموال مخبأة ودفائن ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قيل: المراد منابر تخطب عليها الخطباء، عن ابن

١ـ تفسير مجاهد، ج ٢، ص ٤٦١.

عبّاس، وقيل: هو مجالس الأعيان والأمراء الّتي كان تحفّ بها الأتباع، وقيل: المنازل الحسان الظريفة الّتي كانوا مقيمين فيها في كرامة وعزّة. وقيل: مرابط الخيل لتفرّد الرؤساء بارتباطها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أمرهم كما وصفنا لك ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وذلك أنّ اللّه ردّ بني إسرائيل إلى مصر بعد ما أغرق فرعون وقومه وأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والمساكن والعقار والديار.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ يعني: قوم فرعون أدركوا موسى وأصحابه حين شرقت الشمس وظهر ضوؤها وذلك ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ وتقابلا بحيث يرى كلّ فريق صاحبه ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي: سيدركنا جمع فرعون ولا طاقة لنا بهم ﴿قَالَ﴾ موسى ثقة بنصر اللّه ﴿كَلَّآ﴾ لن يدركونا ولا يكون ما تظنّون فانتهوا عن هذا القول ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ بنصره ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: سيرشدني إلى طريق النجاة وسيكفيني.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ وهو نهر النيل ما بين أيلة ومصر، وقيل: هو بحر قلزم ما بين مكّة واليمن إلى مصر، وفيه حذف أي: فضرب ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ أي: فانشقّ البحر وظهر فيه اثنا عشر طريقاً وقام الماء عن يمين الطريق ويساره كالجبل العظيم وذلك قوله: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: فكان كلّ قطعة من البحر كالجبل العظيم والفرق الاسم لما انفرق.

روي عن ابن عبّاس أنّ موسى عليه السلام لمّا انتهى إلى البحر مع بني إسرائيل أمرهم أن يخوضوا البحر فامتنعوا إلّا يوشع بن نون فإنّه ضرب دابّته وخاض في البحر حتّى عبر ثمّ رجع إليهم فأبوا أن يخوضوا فقال موسى للبحر: انفرق لي فقال: ما أمرت بذلك ولا يعبر عليّ العصاة فقال موسى: يا ربّ قد أبى البحر أن ينفرق فقيل له: اضرب بعصاك البحر فضربه به ما تفرق وصار فيه

اثنا عشر طريقاً لكلّ سبط منهم طريق فقال: كلّ سبط: قتل أصحابنا فعند ذلك دعا موسى ربّه فجعلها مناظر كهيئة الطبقات حتّى نظر بعضهم إلى بعض على أرض يا بسة[1].

وعن عطاء السائب: إنّ جبرئيل كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون وكان يقول لبني إسرائيل: ليلحق آخركم بأوّلكم، ويستقبل القبط فيقول: رويدكم ليلحق آخركم. والطود الجبل المتطاول.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ أي: وقرّبنا ثمّ أي: حيث انفلق البحر للآخرين قوم فرعون والحاصل: قرّبنا إلى البحر فرعون وقومه حتّى أغرقناهم، عن ابن عبّاس. وقيل: معناه: جمعنا في البحر فرعون وقومه. وقيل: معناه: وقرّبناهم إلى المنيّة لمجيء وقت أهلاكهم حيث انفلق البحر للآخرين قوم فرعون وجمعناهم حتّى لا ينجو منهم أحد. ومن الناس من قال: و﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ أي: حبسنا فرعون وقومه عند طلبهم موسى بأن أظلمنا عليهم الدنيا بسحابة وقفت عليهم فوقفوا حيارى. وقرئ «أزلقنا» بالقاف أي: أزللنا أقدامهم وأذهبنا عزّهم، ويحتمل أن يجعل اللّه طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبني إسرائيل يبسا وأزلقهم.

وهاهنا بحث وهو أنّه تعالى أضاف ذلك الإزلاف إلى نفسه مع أنّ اجتماعهم هنا لك كفر وأجيب عنه بأنّ قوم فرعون تبعوا بني إسرائيل وبنو إسرائيل إنّما فعلوا ذلك بأمر اللّه فلمّا كان مسيرهم بتدبيره وهؤلاء تبعوا ذلك أضافه إلى نفسه توسّعاً وهذا كما يتعب أحدنا في طلب غلام له فيقول: أتعبني الغلام لأنّه حدث ذلك التعب عند فعله.

وأجيب أيضاً أي: أزلفناهم إلى الموت لأجل أنّهم في ذلك الوقت

١ـ انظر: الدرالمنثور، ج٥، ص٨٤.

قربت آجالهم: قال الشاعر:

وكلّ يوم مضى أو ليلة سلفت ... فيها النفوس إلى الآجال تزدلف

وأجاب الكعبيّ من هذه الشبهة أنّه تعالى لمّا حلم عنهم وترك البحر يبساً وطمعوا في عبوره جازت الإضافة كالرجل يسفه عليه صاحبه مراراً فيحلم عنه فإذا تمادى في السفه وأراد قدرته عليه قال له: أنا أحوجتك إلى هذا وصبّرتك بحلمي، لا يريد بذلك أنّه أراد ما فعل، أو جمعهم ليعاقبهم ويغرقهم للاستحقاق. وهذا الجواب أكمل من جملة الأجوبة. ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: بني إسرائيل أنجيناهم من الغرق والهلاك ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ أي: فرعون وجنوده.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾ أي: إنّ الّذي حدث من هذه الأمور في البحر وأهلاك فرعون وقومه ونجاة موسى وقومه آية عجيبة من الآيات العظيمة الدالّة على القدرة ولمّا كان ما وقع مصلحة في الدين والدنيا وعلى صدق موسى ولاعتبار المعترين فيكون تحذيراً من الإقدام على مخالفة أمر اللّه تعالى وأمر رسوله ويكون فيه عبرة لامّة محمّدﷺ.

ثمّ قال عقيب ذلك: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وفي ذلك تسلية لمحمّدﷺ لأنّه قد كان يغتمّ بتكذيب قومه فنبّهه اللّه تعالى بهذا البيان على أنّ له أسوة بموسى فإنّ الّذي ظهر على موسى من هذه المعجزات العظام الّتي تبهر العقول لم يمنع من أكثرهم كذّبوه وكفروا به مع مشاهدتهم لما شاهدوه في البحر وغيره فكذلك أنت يا محمّد لا تعجب من تكذيب قومك أكثرهم لك واصبر على إيذائهم فقد جرى العادة في أسلافهم من إنكار الحقّ وقبول الباطل، والسبب في تكرّر بيان هذه القصص في القرآن لأنّها من عظائم الأمور الواقعة من الأمم فيكرّرها سبحانه تعالى ليتسلّى بها رسولهﷺ

ولئلا يضيق صدره.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب سلطانه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بخلقه.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾

فقد ذكر سبحانه في هذه الآية قصّة إبراهيم عليه السلام ليعرف محمّد صلى الله عليه وآله وسلم أنّ حزن إبراهيم كان بسبب عدم إيمان قومه وهو كان حزنه مثل حزنك على قومك وأي: حزن أعظم من أن يرى الإنسان أقاربه في النار وهو لا يتمكّن من إنقاذهم إلّا بالدعوة ولا يفيد الدعوة.

فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ وكان يعلم إبراهيم أنّهم عبدة الأصنام ولكنّه سألهم لإلقاء الحجّة عليهم فأجابوا بقولهم: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ والعكوف الإقامة على الشيء وإنّما قالوا: نظلّ، لأنّهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل وغرضهم بهذا البيان من الابتهاج والافتخار بهذه العبادة وإلّا لكان يكفيهم في الجواب بقولهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾.

فـ﴿قَالَ﴾ إبراهيم منبّها على فساد طريقتهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ وفي الكلام حذف والتقدير: هل يسمعون دعاءكم إذ تدعون، والحاصل أنّ الّذين تعبدونهم هل يسمعون دعاءكم فيستجيبون لكم في بذل منفعة أو دفع مضرّة.

﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

وهذا إخبار منهم عن تقليدهم صرفاً آباءهم في عبادة الأصنام من غير نفع أو ضرّ فقال إبراهيم منكرا لهم على التقليد.

قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ
عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾

أي: أنظرتم وتأمّلتم ما كنتم تعبدونه أنتم والقدماء من أسلافكم وآبائكم أحقّ أم باطل؟ ومقصوده أنّ الباطل لا يتغيّر بأن يكون قديماً أو حديثاً أو يكون فاعلوه كثيرين أو قليلين.

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معناه أنّ عبّاد الأصنام مع الأصنام عدوّ لي، وغلب من يعقل على ما لا يعقل في الضمير ولذا أتى بجمع العقلاء لمّا وصفها بالعداوة الّتي لا تكون إلّا من العقلاء وجعل الأصنام كالعدوّ في الضرر من جهة عبادتها فاستثنى من المعبودين إلّا الله فقال: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ
فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ
لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى
بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ
جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾
يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن
دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ
إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا
مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ ولمّا قال إبراهيم ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ـ والعدوّ والصديق يجيئان في الواحد والجمع ـ وبيان العداوة من الجماد أنّه تعالى يحيي ما عبدوه من الأصنام حتّى يقع منهم البراءة عن عابديهم والتوبيخ منهم عابديهم كما قال سبحانه في سورة مريم في الأوثان ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾[1] فأطلق إبراهيم لفظ العدوّ عليها على هذا المعنى أو بسببهم يقع الضرر من العذاب، وهذا فعل العدوّ، فاستثنى إلّا ربّ العالمين وهذا الاستثناء منقطع أي: لكن ربّ العالمين ثمّ وصف ربّه بما يستحقّ العبادة فأثنى عليه بأنّه خلقه وهداه وبهما يحصل جميع المنافع.

وهاهنا نكتة وهو أنّ قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي﴾ ذكره بلفظ الماضي ثمّ ﴿يَهۡدِينِ﴾ بلفظ المستقبل والسبب في ذلك أنّ خلق الذات لا يتجدّد في الدنيا بل لمّا وقع بقي إلى الأمد المعلوم وأمّا هدايته فهي يتكرّر كلّ حين وأوان سواء كان ذلك هداية في المنافع الدينيّة أو الدنيويّة وذلك بأن يحكم العقل بتميّز الحقّ عن الباطل والخير عن الشرّ فخلقه في الماضي دفعة والهداية إلى مصالح الدين بالدنيا بضروب الهدايات كلّ لحظة ولمحة.

والبيان الثاني: من قول إبراهيم: ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾ وقد دخل فيه كلّ ما يتّصل بمنافع الرزق وما يوجب كونه سبباً لبقاء النعمتين أعني الخلق والهداية إذ لو لم يكن معه ما يتمكّن معه الإنسان من الاغتذاء به نحو الشهوة والقوّة والتميّز لم تكمل النعمة للحاجة في البقاء إليه.

﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ وإنّما قال: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ﴾ وما قال: أمرضني لأنّ كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في المطعم والمشرب ومن ثمّ قالت الحكماء: لو قيل لأكثر الموتى: ما سبب آجالكم؟

١ـ سورة مريم: ٨٢.

لقالوا: التخم. وإنّ المرض يحدث باستيلاء بعض الأخلاط على بعض وذلك الاستيلاء غالبا يحصل بسبب عدم بقاء الأخلاط على اعتدالها الطبيعيّ من شره النفس وسوء التدبير في الغذاء فيقع التنافر فحينئذ ما أضاف الأمراض إلى اللّه، ولكنّ الصحّة يحتاج إلى إعادة الاعتدال في الطبع بسبب قاهر يقهرها على العود ودفع التنافر فأضاف إلى اللّه القاهر وما أضاف المرض إليه ولو أنّ بعض الأمراض منه لكن لمّا كان الغالب ليس منه فما أضاف، على أنّ مقصود إبراهيم تعديد النعم ولمّا لم يكن الأمراض في الأذهان من النعم ولكنّ الشفاء من أصول النعم أضافه إليه سبحانه.

فإن نقضته بالإماتة حيث يقول [إبراهيم]عليه السلام: ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾.

فالجواب أنّ الموت ليس بضرر إنّما الضرر في مقدّماته وهو المرض وقد عرفت أنّ الأرواح إذا كملت في المعارف والعلوم والأخلاق فإبقاؤها في هذه الأجساد عين الضرر وخلاصها عنها عين السعادة[1].

﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ والطمع هاهنا اليقين وهو المرويّ عن بعض المفسّرين. وقال بعض المفسّرين: إنّما ذكره على هذا الوجه تعليما منه لأمّته كيفيّة الدعاء وعلى سبيل الانقطاع إلى اللّه لا على سبيل أنّ له خطيئة يحتاج أن يغفر له يوم القيامة لأنّ عندنا الإماميّة لا يجوز أن يقع من الأنبياء شيء من القبائح وعند جميع أهل العدل وإن جوّزوا عليهم الصغائر فإنّها تقع عندهم محبطة مكفّرة فليس شيء غير مغفور فيحتاج إلى أن يغفر يوم القيامة. وقيل معناه: أطمع أن يغفر لمن يشفّعني فيه فأضافه إلى نفسه كقوله لنبيّه: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ[2] ﴾ والوجه الأقوم

١ـ راجع: تفسير الرازي، ج٢٤، ص١٤٥.

٢ـ سورة الفتح: ٢.

في معنى الآية أنّ هذا الكلام منهﷺ استغفار لما عسى يندر منه من خلاف الأولى وعبّر بالخطيئة هضماً لنفسه ومنه: حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

فلو قيل: لم علّق مغفرة الخطيئة بيوم الدين وإنّما تغفر في الدنيا؟ لأن أثر الغفران يظهر ذلك اليوم.

فإن قيل: ما فائدة ﴿لِي﴾ في قوله: ﴿يَغْفِرَ لِي﴾ ؟ أمّا الفائدة أنّه إذا عفى الأب عن ولده أو السيّد عن عبده في أكثر الأمر إنّما يكون طلباً للثواب أو رقّة عن العقاب أو طلباً للمحمدة والثناء فلابدّ أن يكون نفعا راجعاً إلى العافي والمعفوّ عنه أمّا الإله سبحانه فمنزّه من أن تحدث له صفة كمال أو نفع لم يكن له وإنّه كامل لذاته وإذا كان كذلك فغفرانه له راجع لرعاية حال المعفوّ عنه لا لأجل رعاية حال العافي ولهذا قال: ﴿لِي﴾[1].

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ فبعد أن أثنى على الله سبحانه ذكر مسألته وذلك تنبيه على أنّ تقديم الثناء على الدعاء من المهمّات.

وتحقيق الكلام فيه أنّ هذه الأرواح البشريّة من جنس الملائكة فكلّما اشتغل بذكر الله وكان اشتغالها بمعرفة الله ومحبّته والانجذاب إلى عالم القدس أشدّ كانت مشاكلتها للملائكة أتمّ فكانت أقوى على التصرّف في أجسام هذا العالم وكلّما كان اشتغالها بلذّات هذا العالم واستغراقها في ظلمات هذه الجسمانيّات أشدّ كانت مشاكلتها للبهائم أشدّ فكانت أكثر عجزا وضعفاً وأقلّ تأثيراً في هذا العالم فمن أراد أن يشتغل بالدعاء يجب أن يقدّم على الدعاء ثناء الله وذكر عظمته وكبريائه حتّى بسبب ذلك الذكر يصير قريباً في المشاكلة إلى الملائكة فتحصل له بسبب تلك المشاكلة قوّة ملكيّة سماويّة فيصير مبدءا لحدوث مطلوبه من دعوته وهذا تحقيق قوله: من شغله ذكري

١ـ انظر: تفسير الرازي، ج٢٤، ص١٤٦.

عن مسألتي أعطيته أفضل ما اعطي السائلين.

فإن قال قائل: لم لم يقتصر إبراهيمعليه السلام على الثناء مع أنّه مرويّ عنه أنّه قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي؟

فالجواب أنّهعليه السلام اشتغل بالدعاء لأنّ الشارع لابدّ له من تعليم الخلق وحين كان مشتغلاً بدعوة الخلق كان مشتغلاً بالثناء ثمّ الدعاء وأمّا حين ما خلا بنفسه ولم يكن غرضه تعليم الخلق بالآداب كأن يقتصر على قوله: «حسبي من سؤالي علمه بحالي». وكان من سؤالاته أمور:

المطلوب الأوّل: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ قيل: معناه النبوّة، وردّ بأنّه حينئذ كان نبيّاً وتحصيل الحاصل محال بل المراد كمال القوّة العلميّة والنظريّة أي: زدني علماً إلى علمي، ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وذلك بإدراك الحقّ كاملاً وكمال القوّة العملية وذلك بأن أكون عاملاً في الخير.

وإنّما قدّم قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ لأنّ القوّة النظريّة مقدّمة على القوّة العمليّة ذاتاً وشرفاً والعلم صفة الروح والعمل صفة البدن وكما أنّ الروح أشرف من البدن كذلك العلم أشرف من العمل وإنّما عبّر معرفة الأشياء بالحكم لأنّ الإنسان لا يعرف حقائق الأشياء إلّا إذا استحضر في ذهنه صور الماهيّات ثمّ نسب بعضها إلى بعض بالنفي أو الإثبات وتلك النسبة بالوقوع أو اللاّوقوع هي الحكم وهذا معنى: «اللّهمّ أرني الأشياء كما هي» فمثل هذا الإدراك والقوّة يسمّى حكمة وحكماً، وأمّا قوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أمّا الصلاح فهو كون القوّة العاقلة متوسّطة بين رذيلتي الإفراط والتفريط وذلك لأنّ الإفراط في أحد الجانبين تفريط في الجانب الآخر وبالعكس فالصلاح لا يحصل إلّا بالاعتدال ولمّا كان الاعتدال الحقيقيّ شيئاً واحداً لا يقبل القسمة البتّة والأفكار البشريّة في هذا العالم قاصرة عن إدراك أمثال هذه الأشياء لا

جرم لا ينفكّ البشر عن الخروج عن ذلك الحدّ ولو أنّ خروج المقرّبين عنه بعيد جداً ويكون في القلّة بحيث لا يحسّ به وخروج غيرهم متفاحش جداً ولذا أظهر إبراهيم احتياجه إلى أن قال: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ فاستمدّ من الله سبحانه في تحصيل هذه القوّة بهذا القول. ومن هذا البيان ظهر لك المراد من قوله: حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

المطلوب الثاني: لإبراهيم عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ فطلب الذكر الجميل في الملّة الحنيفيّة الحقّة الباقي على وجه الدهر كما أنّه بقي ملّة أبيكم إبراهيم وقيل: سأل ربّه أن يجعل من ذرّيّته في آخر الزمان من يكون داعيا إلى الحقّ وذلك محمّد صلى الله عليه وآله فالمراد من قوله: ﴿وَاجْعَل لِّي﴾ بعثة محمّد صلى الله عليه وآله وهذا المعنى الثاني يؤول إلى المعنى الأول، وأعطاه الله ذلك لأنّك لا ترى أهل دين إلّا ويتوالون إبراهيم.

المطلوب الثالث: قوله: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ ولمّا طلب من ربّه معرفته والسعادة في الدنيا والدين طلب ما هو سعادة الآخرة وهي جنّة النعيم وعبّر بالإرث لأنّه لا مانع من الإرث.

المطلوب الرابع: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ـ وفيه وجوه ـ وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: من الذاهبين عن الصواب ووصفه بكونه ضالّاً يدلّ على أنّه كان كافراً كفر جهالة لا كفر عناد.

ومن الوجوه أنّ المغفرة مشروطة بالإسلام وطلب المشروط متضمّن لطلب الشرط فقوله: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي﴾ معناه يرجع إلى أنه عليه السلام دعا لأبيه بالإسلام.

الوجه الثاني: أنّ أباه وعده بالإسلام كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا﴾[1] أي: وعد ابنه أن يستسلم

١ـ سورة التوبة: ١١٥.

فدعا له إبراهيم لهذا الشرط ولا يمتنع الدعاء للكافر على هذا الشرط فلمّا تبيّن له أنّه عدوّ للّه تبرأ منه.

الوجه الثالث: أنّ أباه قال له: إنّه على دين إبراهيم باطناً وعلى دين نمرود ظاهراً تقيّة وخوفاً فدعا له لاعتقاده أنّ الأمر كذلك فلمّا تبيّن له خلاف ذلك تبرأ منه.

المطلوب الخامس: قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ الخزي هو الهوان. فلو قيل: إنّ إبراهيم كان يعلم بالضرورة هذا الأمر وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1] ويعلم أنّ الخزي نصيب الكفّار فقط فكيف يخافه المعصوم؟

فالجواب كما أنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين فكذا درجات الأبرار دركات المقرّبين وخزي كلّ واحد بما يليق به. والضمير في ﴿يُبْعَثُونَ﴾ راجع إلى العباد أو الضالّين.

المعنى أنّه لا تفضحني ولا تعيّرني بقصور يوم يحشر الخلائق، وهذا الدعاء كان منه على وجه الانقطاع إلى اللّه لما بيّنا أنّ القبيح لا يجوز وقوعه من الأنبياء.

ثمّ فسّر ذلك اليوم بأن قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أي: لا ينفع المال والبنون أحدا إذ لا يتهيأ لذي مال أن يفتدي من شدائد ذلك اليوم به ولا يتحمّل من صاحب البنين بنوه شيئاً من معاصيه ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك، وقيل: من الفساد والمعاصي. وإنّما خصّ القلب بالسلامة لأنّه إذا سلم القلب سلم سائر الجوارح من الفساد من حيث إنّ الفساد بالجارحة لا يكون إلّا عن قصد بالقلب الفاسد. وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «هو القلب

١ـ سورة النحل: ٢٧.

سلم من حبّ الدنيا»[١]، ويؤيّده قول النبي ﷺ: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»[٢].

والحاصل فقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: خالياً وسالماً عن العقائد الفاسدة والميل إلى شهوات الدنيا ولذّاتها، وقيل في تأويل الآية: إنّ السليم هو اللّديغ من خشية الله.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: إنّ الجنّة قد تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها ويفرحون بأنّهم المحشورون إليها والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم يتحسّرون على أنّهم المسوقون إليها فقال: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ الضالّين وإنّما يفعل الله ذلك ليكون سروراً معجّلاً للمؤمنين وغمّاً عظيماً للكافرين أي: كشف الغطاء وأظهرت الجحيم للضالّين عن طريق الحقّ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ على وجه التوبيخ في ذلك اليوم ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان وأين آلهتكم هل يمنعونكم ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ بنصرتهم لكم بدفع العذاب عنكم ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي: يمتنعون من العذاب.

﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا﴾ والكبكبة تكرير الكب مرّه بعد مرّة حتّى يستقرّ في قعرها.

في «الكافي» والقمّي عن الصادق. ﴿هُمْ﴾ قوم وصفوا عدلاً بألسنتهم ثمّ خالفوا إلى غيره[٣]. وفي خبر آخر: ﴿هُمْ﴾ بنو أميّة والغاوون بنو العبّاس[٤]. أي: جمعوا وطرح بعضهم على بعض يعني: الآلهة الّتي تعبدونها ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ يعني: العابدون، والحاصل أنّ العابد والمعبود يطرح في النار ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ أي: وكبكب جنود الشيطان، يريد من تبعه من ولده وولد آدم. ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٣٣٧؛ وتفسير الصافي، ج٤، ص٢٧٣.

٢ـ الخصال، ص٢٥؛ وتحف العقول، ص٥٠٩؛ وروضة الواعظين، ص٤٤١، عن الصادق عليه السلام.

٣ـ الكافي، ج١، ص٤٧؛ وتفسير القمي، ج٢، ص١٢٣.

٤ـ المصدر السابق نفسه.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قالوا وهم أي: قال هؤلاء وهم في النار والآية حكاية حالهم كأنّه قيل: ماذا قالوا حين فعل بهم ما فعل؟ قال العبدة وهم في النار معترفين بخطئهم في انهماكهم في الضلالة والحال أنّهم في الجحيم بصدد الاختصام مع من معهم مخاطبين لمعبوديهم بعد أن يجعل اللّه الأصنام صالحة للاختصام بأن يعطيها القدرة على الفهم والنطق: تاللّه إن كنّا لفي ضلال مبين إذ سوّيناكم في العبادة بربّ العالمين.

و﴿إن﴾ في قوله: ﴿إِن كُنَّا﴾ مخفّفة من المثقّلة ومعناه لقد كنّا في الضلالة.

ثمّ قالوا: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: إلّا أوّلنا الّذين اقتدينا بهم وإنّهم أجرموا فاقتديناهم عن الكلبيّ. وقيل: إلّا الشياطين. وقيل: الكافرون الّذين دعونا إلى الضلال.

ثمّ أظهروا الحسرة فقالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ يشفعون لنا في أمرنا كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيّين ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ من الّذين كنّا نعدّهم أصدقاء، والحميم من الاحتمام وهو الاهتمام وهو الّذي يهمّه ما يهمّك، أو من الحامة بمعنى الخاصّة وهو الصديق الخالص، وإنّما جمع الشفعاء ووحّد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة وقلّة الصديق فإنّ الرجل التحق وهو في الأزهاق قد ينهض جماعة وافرة في تخليصه رحمة له وأمّا الصديق فهو أعزّ من بيض الأنوق، أو يريد بالصديق أيضاً معنى الجمعيّة.

ثمّ إنّه سبحانه حكى قولهم عنهم بقوله: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنّهم تمنّوا الرجعة إلى الدنيا، وكلمة ﴿لَوْ﴾ في مثل هذا الموضع في معنى التمنّي كأنّه قيل: فليت لنا رجوع في الدنيا، وبين «لو» و«ليت» في المعنى قرب ويجوز أن يكون على أصل معناها وحذف الجواب تقديره: لفعلنا كيت وكيت. وهذا القول إخبار عن عزمهم تلك الساعة وليس خبراً عن

إيمانهم لأنّه سبحانه أخبر على خلاف ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾[1] وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إنّ في ما قصصناه دلالات لمن نظر فيها واعتبر بها وما كان أكثرهم مؤمنين، تسلية للنبي ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: قادر على تعجيل الانتقام لكنّه رحيم بالإمهال لكي يؤمنوا تذييل: في قوله: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ في «المحاسن» عن الصادق: «**الشافعون الأئمة والصديق المؤمنون**»[2]. والقمي عنهما: «**والله لنشفعنّ في المذنبين من شيعتنا حتّى يقولوا أعداؤنا إذا رأوا ذلك: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم**»[3].

وفي «الكافي» عن الباقر: «**وإنّ الشفاعة لمقبولة وما تقبل في ناصب وإنّ المؤمن ليشفع لجاره وما له حسنة فيقول: يا ربّ جاري كان يكفّ عنّي الأذى فيشفع فيه فيقول الله تعالى: أنا ربّك وأنا أحقّ بمن كافى عنك، فيدخله الله الجنّة وما له حسنة وإنّ أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع لثلاثين إنساناً فعند ذلك يقول أهل النار: فما لنا من شافعين**»[4].

وفي الخبر المأثور عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله يقول: «**إنّ الرجل يقول في الجنّة ما فعل صديقي فلان وصديقه في الجحيم فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه إلى الجنّة فيقول من بقي في النار: فما لنا من شافعين**»[5].

وروي بالإسناد عن عمران بن أعين عن أبي عبد الله قال: «**والله لنشفعنّ لشيعتنا والله لنشفعنّ لشيعتنا والله لنشفعنّ لشيعتنا حتّى يقول الناس:** ﴿فَمَا لَنَا

١ـ سورة الأنعام: ٢٨.

٢ـ المحاسن، ج ١، ص ١٨٤.

٣ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ١٢٣.

٤ـ الكافي، ج ٨، ص ١٠١.

٥ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٣٣٨؛ وبحار الأنوار، ج ٧، ص ١٥٣.

مِن شَفِعِينَ ـ إلى قوله ـ فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]. وفي رواية أخرى: «حتّى يقول عدوّنا»[٢].

وعن أبان بن تغلب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ المؤمن ليشفع يوم القيامة لأهل بيته فيشفّع فيهم حتّى يبقى خادمه فيقول ويرفع سبابتيه يا ربّ خويدمي كان يعيني الحرّ والبرد فيشفّع فيه»[٣].

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ
ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي
لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن
لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ
بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي
ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

ولمّا قصّ سبحانه على محمّد خبر موسى وإبراهيم لتسليته فيما يلقاه من أذى قومه بيّن له نبأ نوح ممّا لقي من قومه وكان نبؤه أعظم لأنّه كان يدعوهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً ومع ذلك كذّبه قومه فقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وإنّما قال: كذّبت ولو أنّ القوم مذكّر لأن تصغيرها قويمة وباعتبار

١ـ مناقب آل أبي طالب، ج٢، ص١٤.

٢ـ الأصول الستة عشر، ص٢٥ (نخبة من الرواة ـ م١٥٠هـ) ؛ وبحار الأنوار، ج٧، ص١٥٣.

٣ـ مجمع البيان، ج٧، ص٣٣٨ ؛ وبحار الأنوار، ج٨، ص٦١.

الجماعة وحكي عنهم أنّهم كذّبوا المرسلين لأنّ قوم نوح كذّبوا جميع ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ لأنّهم كانوا من الزنادقة أو من البراهمة وأيضاً تكذيب نبيّ يلزم تكذيب جميع الأنبياء لأنّ كلّ رسول يأمر بتصديق جميع الرسل قال أبو جعفرعليه السلام: يعني: «بالمرسلين نوحاً والأنبياء الّذين كانوا بينه وبين آدم»[1].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: في النسب لا في الدين، ألا تتّقون عذاب اللّه في تكذيبي ومخالفتي؟ ثمّ وصف شأنه لهم فقال: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وذلك لأنّه كان فيهم مشهورا بالأمانة كمحمّدصلى الله عليه وآله في قريش كأنّه قال: كنت أمينا من قبل فكيف تتّهموني اليوم؟ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بطاعته وعبادته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من الإيمان ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على هذه الدعوة ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ ومال، و﴿مِنْ﴾ زائدة ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ما ثوابي وجزائي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وخالق الخلائق أجمعين، ثمّ كرّر عليهم قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لاختلاف المعنى، لأنّ التقدير: فاتّقوا اللّه وأطيعون لأنّي رسول أمين واتّقوا اللّه وأطيعون لأنّي لا أسألكم عليه أجرا فتخافوا ضرر أموالكم به؟ وكلّ واحد من هذين المعنيين يقوّي الداعي إلى قبول الحقّ وبعد عن موضع التهمة ولا تكرار فيه كما تقول: ألا تخاف اللّه وقد ربّيتك صغيراً؟ ألا تخاف اللّه وقد أتلفت لك مالي؟

ثمّ بعد ذلك جاوبوه بقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ أي: وأتباعك الأرذلون وقرئ «أتباعك» وإنّما استرذلوهم لقلّة نصيبهم من الدنيا وكانوا من أهل الصناعات الخسيسة كالحجامة والسكافة والحياكة. وهذه الشبهة في غاية الركاكة لأنّ نوحاً بعث إلى الخلق كافّة فلا يختلف في ذلك بسبب الفقر والغنى وشرف الصنعة ودناءتها.

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص ٣٤٠؛ وبحار الأنوار، ج ١١، ص٣٠٧.

فأجابهم نوح بالحقّ وهو قوله: ﴿وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: لست أعلم صنائعهم ولم اكلّف ذلك وإنّما كلّفت أن أدعوعم إلى اللّه وقد أجابوا إليه ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ أي: ليس حسابهم إلّا على الّذي خلقني وخلقهم لو تعلمون ذلك ما عيّبتهم بصنائعهم ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وفي الآية كالدلالة على أنّ القوم سألوه عن إبعادهم لكي يتّبعوه، فبيّن أنّ الّذي يمنعه عن طردهم أنّهم آمنوا به ولست مكلّفاً بهذا الأمر ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾.

ثمّ إنّ نوحاً لمّا تمّم هذا الجواب لم يكن منهم إلّا التهديد فـ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ والمعنى أنّهم خوّفوه بأن يقتل بالحجارة فعند ذلك حصل اليأس لنوحعليه السلام من فلاحهم ﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ * فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾ وليس الغرض منه إخبار اللّه بالتكذيب لعلمه أنّ عالم الغيب والشهادة أعلم ولكنّه أراد أنّي لا أدعو عليهم لمّا آذوني وإنّما أدعو لأجل دينك ولأنّهم كذّبوني في وحيك ورسالتك فافتح بيني وبينهم واحكم، والفتاحة الحكومة والفتّاح الحاكم لأنّه يفتح المستغلق والمراد من هذا الحكم إنزال العقوبة لأنهعليه السلام عقّبه ﴿وَنَجِّنِي﴾ ولو لا أنّ إنزال العقوبة لما كان لذكر النجاة بعده معنى حيث قال: ونجّني ﴿وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ من أهل دينه ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ أي: المملوء، والفلك السفينة الواحد على وزن قفل والجمع على وزن أسد ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ أي: أغرقنا بعد نجاة أصحاب نوح ونوح، الباقين الخارجين من السفينة الكافرين به ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ وعلامة واضحة على معرفة القادر ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ في أهلاك قوم نوح بالغرق ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين حيث نجّاهم.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ
لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾
وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَآءٌ
عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

أخبر سبحانه عن عاد أي: قبيلة عاد، وفاتحة هذه القصّة نوح واحدة ومستغنى عن إعادة التفسير ثمّ إنّ سبحانه ذكر الأمور الّتي تكلّم هود فيها مع قومه وهي ثلاثة:

فأولها: قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ والريع بالكسر والفتح المكان المرتفع والآية العلم. عن ابن عباس: (إنّهم كانوا يبنون بكلّ ريع علماً يعبثون فيه بمن في الطريق إلى هود). والثاني: أنّهم كانوا يبنون في الأماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم تفاخراً على الفقراء فنهوا عنه. والثالث: أنّهم كانوا ممّن يهتدون بالنجوم في أسفارهم فاتّخذوا في طريقتهم أعلاماً طوالاً فكان ذلك عبثاً لأنّهم أغناهم الله بالنجوم وكان ذلك أمر لغو وسرف. والرابع: أنّهم بنوا بكلّ ريع بروج الحمام.

وثانيها: من كلمات هود قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ المصانع مآخذ الماء وقيل القصور المشيّدة، لعلّكم ترجون الخلود في الدنيا

أو تشبيه حالكم حال من يخلد ولا يموت، وفي مصحف أبيّ كأنّكم، وقرئ «تخلدون» بضمّ التاء مخفّفاً ومشدّداً.

وثالثها: قوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ البطش الأخذ باليد أي: إذا أردتم إنزال عقوبة بأحد عاقبتم عقوبة المتجبّر يريد التجبّر بارتكاب العظائم. وقيل: معناه: إذا عاقبتم قتلتم فمعنى الجبّار القتّال بغير حقّ وحاصل المعنى: أنّهم أحبّوا العلوّ والكبر والبقاء، وهذه الصفات ممتنعة الحصول للعبد وإذا استغرق الإنسان فيها فيخرج عن حدّ العبوديّة ويحوم حول ادّعاء الربوبيّة[١].

ثمّ بعد أن ذكر هذه الأمور الثلاثة قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ زجرا لهم عن حبّ الدنيا بالأمر بالتقوى ثمّ نبّههم على نعم الله إجمالا أوّلاً بقوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم﴾ ثمّ فصّل بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فحينئذ بلغ في دعوتهم بالوعظ والترغيب والترهيب.

فكان جوابهم: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أي: لا نقبل نصحك على كلّ حال وحصول الوعظ منك وعدمه مستويان عندنا، ثمّ بيّنوا السبب لعدم اكتراثهم بكلامه وهو أنّ ما جئت به اختلاق الأوّلين وتخرّصهم ولست بنبيّ وهذا المعنى على قراءة ﴿خَلْقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أو المعنى أنّ خلقنا هذا مثل خلق القرون الماضية نحيى كحياتهم ونموت كمماتهم ولا بعث ولا نشور ولا حساب، ومن قرأ ﴿خُلُقُ﴾ بضمّتين أو واحدة فمعناه: ما هذا الّذي نحن عليه من الدين إلّا عادة الأوّلين ونحن بهم مقتدون.

قيل: المعنى: إنّ هذا الّذي نحن عليه من تشيّد البناء واتّخاذ المصانع والبطش الشديد من عادة من قبلنا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما تدّعيه لا في

١ـ تفسير الرازي، ج٢٤، ص١٥٧.

الدنيا ولا في الآخرة. ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ بعذاب الاستيصال ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ مرّ تفسيره.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

واعلم أنّ صالحاً عليه السلام خاطب قومه بأمور:

أحدها: قوله: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴾ أي: أتظنّون أنّكم تتركون فيما أعطاكم الله من الخير في هذه الدنيا آمنين من الزوال والموت والعذاب أي: لا يبقى ما أنتم فيه من النعم وإنّها ستزول عنكم. ثمّ عدّد بعض نعمهم الّتي كانوا فيها فقال: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين مستورة بالشجر ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ والطلع هو الّذي يطلع من النخلة كنصل الصيف في خوخة شماريخ، والهضيم اللطيف وقيل: معنى الهضيم هاهنا النضيج أي: نخل قد أرطب ثمره وأصلح.

والثاني: قوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ أي: تنحتون وأنتم نشّاط وأقوياء.

وثالثها: قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به ثمّ ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ من رؤسائكم وهم تسعة رهط من ثمود عقروا الناقة ثمّ وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فإن قيل: ما فائدة قوله ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؟ فالمراد أنّ فسادهم خالص من الصلاح.

ثمّ إنّ القوم أجابوه ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ والمسحّر هو الّذي سحر كثيراً حتّى غلب على عقله. وقيل: المعنى من المسحّرين أي: من له بطن يأكل ويشرب وحاصل المعنى أنّك تأكل كما نأكل وتشرب كما نشرب فلم صرت أولى منّا بالنبوّة؟ ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أو من مثلنا ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ﴾ بمعجزة يدلّ على صدقك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ﴾ وهي الناقة الّتي أخرجها الله من الصخرة عشراء ترغو على ما اقترحوه روي أنّهم قالوا: نريد ناقه عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقياً فقعد صالح يتفكّر فقال له جبرئيل: صلّ ركعتين وسل ربّك ناقة، ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم وحصل لها سقب مثلها في العظم.

ووصّاهم صالح بأمرين: الأوّل قوله: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ وقرئ شرب بالضمّ، وكانت الناقة يوم شربها شربت ماءهم كلّه ويوم شربهم لا تشرب هي. والثاني من وصيّة صالح لهم قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: لا تصيبوها بضرب أو عقر أو إيذاء فحينئذ يأخذكم عذاب عظيم و﴿عَظِيمٍ﴾ صفة العذاب أو صفة اليوم بحلول العذاب فيه. حكي أنّهم عقروها. روي أنّ مصدعا ألجأها إلى مضيق فرماها بسهم فسقطت ثمّ ضربها قدار بن سالف[1].

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ فإن قيل: لم أخذهم العذاب وقد ندموا؟

١ـ مجمع البيان، ج٧، ٣٩١.

فالجواب من وجهين: الأول: أنّه لم يكن ندمهم ندم التائبين لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل. الثاني: أنّ الندم وإن كان ندم التائبين ولكن كان ذلك في غير وقت التوبة بل عند معاينة العذاب. وقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية[1].

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ والألف واللّام في العذاب إشارة إلى عذاب يوم عظيم.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

هذه هي القصّة السادسة: شرح سبحانه تكذيب قوم لوط نبيّهم والأنبياء لأنّ من كذّب نبيّاً كذّب تمام الأنبياء وبلّغ لوط قومه ما بلّغ الأنبياء قبله مثل نوح وهود وصالح فلم يقبلوا منه ثمّ قال لهم ووبّخهم على الأمر القبيح فقال: اخترتم الذكران من الناس وتركتم أزواجكم الّتي خلقها الله ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ يمكن أن يكون «من» للتبيين لما خلق وأن يكون للتبعيض ويراد بما خلق العضو المباح منهنّ والمعنى: أتركبون هذه المعصية العظيمة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ

١ـ سورة النساء: ١٨.

عَادُونَ﴾ في جميع المعاصي فهذه المعصية من جملة ذاك، أو المعنى: أنتم أحقّاء بان توصفوا بالعدوان والتجاوز من الحدود.

فقالوا له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي: إذا ما انتهيت من نهيك لتكوننّ في جملة من أخرجناه من بلدنا ولعلّهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوء الأحوال.

فقال لهم لوط: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ القلي البغض الشديد كأنّه بغض يقلي الفؤاد والكبد وهذا القول أبلغ من أن يقول: أنا لعملكم قال، أي: من الكاملين في قلاكم وبغضكم.

ثمّ قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ من عقوبة عملهم ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ وأراد سبحانه بالعجوز امرأة لوط لأنّها كانت تدلّ على أهل القرية بالفساد على الأضياف فكانت من الباقين في العذاب وهلكت فيما بعد مع من خرج من القرية بما أمطره الله من الحجارة والغابر الباقي في قلّة كالتراب الّذي يذهب بالكنس فيبقى غباره والغبر بقيّة من اللبن في الأخلاف قال الحارث بن حلّزة:

لا تكسع الشول بأغبارها إنّك لا تدري من الناتج

والمراد من الأهل أهليّة الزواج لا الشركة في الدين.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أهلكناهم بالخسف وقيل: بالانقلاب ثمّ أمطر على من كان غائبا منهم بالحجارة من السماء وهو قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: بئس واشتدّ مطر الكافرين مطرهم والمخصوص بالذّم محذوف وهو مطرهم.

وهاهنا تحقيق وهو أنّ قوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ تدلّ على بطلان الجبر لأنّه لا يقال: تذرون إلّا مع القدرة على

خلافه ولذلك لا يقال للمرء: لم تذر الصعود إلى السماء؟ كما يصحّ أن يقال له: لم تذر الدخول والخروج. ثمّ إنّ الله سبحانه قال: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ﴾ ولو كان خلق الفعل لله لكان الّذي خلق لهم ما عاقبهم وما كانوا ملومين بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ لأنّه تعالى إن كان خلق فيهم ما كانوا يعملون فكيف ينسبون إلى أنّهم تعدّوا؟ وهل يقال للأسود: إنّك متعدّ في لونك؟ إذ هو في اللون مقهور لأنّه وضع السواد في جسمه ولا يلومه أحد في سواده.

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ
أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾
وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ
أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ
ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن أصحاب الأيكة الّذين بعث إليهم شعيب وما كانوا من قومه ولذلك ما قال: أخوهم شعيب، وكان شعيب أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة وقرئ بدون الألف واللّام. وبالجملة الأيكة الغيضة الملتفّة بالشجر، وقيل: شجرهم كان شجر المقل فأمرهم شعيب بأشياء:

أحدها: قوله: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ وذلك لأنّ الكيل

على ثلاثة أضرب واف وزائد وطفيف فأمر بالواجب الّذي هو الإيفاء ونهى عن المحرّم الّذي هو التطفيف بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ولم يذكر الزائد لأنّه إن لم يفعلوا فلا إثم عليهم وبعد أن أمر بالإيفاء بيّن أنّه كيف يفعل فقال: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ وقرئ مضموماً ومكسوراً في القاف وهو الميزان، وقيل: القرسطون.

الثاني: قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: لا تمنعوا حقوقهم ولا تنقصوها.

الثالث: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ والعثي أشدّ الفساد بالخراب نحو قطع الطريق والغارة وأهلاك الزرع وكانوا يفعلون ذلك مع توليتهم أنواع الفساد.

الرابع: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ وقرئ الجبلّة بوزن ابلّة والمراد: اتّقوا الربّ الّذي خلقكم وخلق الخلقة المتقدّمة عليكم ممّن لو لا خلقهم لما كنتم مخلوقين.

فأجابوا ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ مرّ تفسيره قبيل هذه ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: وإنّا نظنّك كاذبا من جملة الكاذبين ﴿وَإِنْ﴾ هذه مخفّفة من المثقّلة ولذلك لزمها اللّام في الخبر ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: قطعة من السماء أي: السحاب، وهم إنّما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه فظنّوا أنّه إذا لم يقع ظهر كذبه.

فعنده قال شعيب: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وفوّض الأمر إلى الله فلمّا استمرّوا على التكذيب أنزل الله عليهم العذاب على نحو ما اقترحوا من عذاب الظلّة، روي أنّه حبس عنهم الريح سبعاً وغشيتهم سحابة فلمّا خرجوا إليها طلباً للبرد من شدّة الحرّ أمطرت عليهم ناراً فأحرقتهم فكان من أعظم

الأيّام في الدنيا عذاباً[١] وذلك قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ ومعنى الظلّة هاهنا السحابة الّتي أظلّتهم.

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ
ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ
ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ﴿١٩٨﴾
فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ
ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأۡتِيَهُم
بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا
يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ
يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا
لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾
وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

ثمّ بيّن سبحانه أمر القرآن بعد قصص الأنبياء المذكورين واتّصل بها حديث نبيّنا فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: إنّ القرآن منزل من ربّ العالمين ﴿نَزَلَ﴾ الله بالقرآن ﴿ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ يعني: جبرئيل وهو أمين الله لا يغيّره ولا يبدّله وسمّاه روحا لأنّه يحيي به الدين أو يحيي به الأرواح بما ينزل من البركات أو لأنّه جسم روحانيّ ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ يا محمّد لأنّ الله يسمعه جبرئيل فيحفظه وينزل جبرئيل به على الرسول ويقرؤه على النبيﷺ فيحفظه بقلبه وهذا معنى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ وجعل الله قلبه وعاء له ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ لتخوّف به الناس وتنذرهم بآيات الله.

١ـ انظر: جوامع الجامع، ج٢، ص٦٨٩.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ بلغة العرب مبين للناس ما بهم إليه الحاجة في دينهم وإنّما جعله عربيّاً لأنّ المنزّل عليه عربيّ ولأنّه تحدّى بفصاحته العرب، وقد تضمّنت هذه الآية تشريف هذه اللغة ولذلك اختارها لأهل الجنّة.

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: في كتب الأولين ذكر القرآن وخبره على وجه البشارة به وبمحمّد لا بمعنى أنّ الله أنزله على غير محمّدﷺ وقيل: معنى الآية أنّه أنزل على سائر الأنبياء من الدعاء إلى التوحيد والعدل والاعتراف بالبعث مثل الّذي نزل في القرآن.

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ المراد من الآية ذكر الحجّة على نبوّة محمّدﷺ وتقريره أنّ جماعة من علماء بني إسرائيل أسلموا ونصّوا على مواضع في التوراة والإنجيل ذكر سبحانه فيها الرسولﷺ بصفته ونعته وقد كان مشركوا قريش يذهبون إلى اليهود ويتعرّفون منهم هذا الخبر، وهذا دليل ظاهر على نبوّته لأنّ تطابق الكتب الإلهيّة على نعته وصفته دليل قطعيّ على نبوّته. وقرئ «يكن» بالتذكير و«آية» بالنصب على أنّها خبره فحينئذ «أن يعلمه» اسمه وقرئ «تكن» بالتأنيث و«آية» اسمه و«أن يعلمه» خبره.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ القمّيّ عن الصادقؑ: **«لو نزّلنا القرآن على العجم ما آمنت به العرب لفرط استنكاف العرب من اتّباع العجم وقد نزل على العرب فآمنت به العجم»**[1]. أقول: فهذه فضيلة العجم.

وقال الرازيّ: يعني: إنّا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربيّ بلسان عربيّ مبين فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته وأنّه معجز لا يعارض بكلام مثله وانضمّ إلى ذلك بشارة كتب الله السالفة به فلم يؤمنوا وجحدوه وسمّوه شعرا

١ـ تفسير القمّي، ج ٢، ص ١٢٤.

تارة وسحرا أخرى فلو نزّلناه على بعض الأعجمين الّذي لا يحسن العربيّة لكفروا به أيضاً لجحودهم واستنكافهم لاتّباع العجم لكنّا أنزلناه على أفصح رجل منهم من أشرف بيت ليدبّروا فيه وليكون أدعى إلى اتّباعه وتصديقه ومع ذلك ما آمنوا به[1].

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما أنزلنا القرآن مبيّنا وواضحا أمررناه وأدخلناه في قلوب الكافرين بأن أمرنا نبيّنا حتّى قرأه عليهم وبيّنه لهم وفهموا فصاحته ومعانيه وأنّه خارج عن القوى البشريّة حيث لم يأتوا بمثله من حيث النظم ومن حيث الإخبار بالغيب وانضمام تصديق علماء بني إسرائيل.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ جملة مستأنفة أي: مع ذلك لا يتأثّرون بأمثال تلك الأمور ولا يؤمنون به حتّى يعاينوا العذاب الأليم الملجئ إلى الإيمان حتّى لا ينفعهم ﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ العذاب ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمجيئه ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ فيقولون تحسّراً وتأسّفاً أي: هل مؤخّرون لنؤمن ولنصدّق كما يستغيث المرء عند تعذّر الخلاص، وإنّهم علموا أن لا ملجأ لهم.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ لمّا أوعدهم النبي ﷺ بالعذاب استعجلوا العذاب تكذيبا له فقال الله سبحانه: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ واستعجالهم بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2] وقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾[3] ونحوهما، هذا كان قولهم، وحالهم عند نزول العذاب طلبوا النظرة.

١ـ تفسير الرازي، ج٢٤، ص١٦٩.

٢ـ سورة الأنفال: ٣٢.

٣ـ سورة الأعراف: ٧٠.

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ ثمّ بيّن تعالى أنّ استعجال العذاب على وجه التكذيب إنّما يقع منهم ليتمتّعوا في الدنيا إلّا أنّ ذلك جهل منهم لأنّ مدّة التمتّع في الدنيا متناهية قليلة ومدّة العذاب غير متناهية وليس بجائز ترجيح لذّات متناهية قليلة على آلام غير متناهية.

عن ميمون بن مهران: أنّه لقى بعض الأكابر في الطواف فقال له: عظني، فلم يزد على تلاوة هذه الآية، فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت.

وحاصل معنى الآية: لم يغن عنهم تمتّعهم المتطاول في دفع العذاب وتخفيفه. في «الكافي» عن الصادق عليه السلام قال: «رأى رسول الله صلى الله عليه وآله في منامه بني أميّة يصعدون منبره من بعده يضلّون الناس عن الصراط إلى القهقرى فأصبح كئيباً حزيناً فهبط جبرئيل فقال: يا رسول الله مالي أراك حزيناً؟ قال صلى الله عليه وآله: يا جبرئيل إنّي رأيت بني أميّة في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلّون الناس عن الصراط. فقال: والّذي بعثك بالحقّ نبيّاً إنّ هذا شيء ما اطّلعت عليه. فعرج إلى السماء فلم يلبث أن نزل عليه بآيتين من القرآن يؤنسه بهما والآية الأولى هذه ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ والثانية ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ حيث جعل الله ليلة القدر لنبيّه خيراً من ألف شهر ملك بني أميّة»[1].

وبالجملة أرأيت وأبصرت إن أنظرناهم وأخّرناهم سنين ومتّعناهم بشيء من حطام الدنيا ثمّ أتاهم العذاب لم يغن عنهم ما متّعوا به في تلك السنين من النعيم لازديادهم في الآثام واكتسابهم من المعاصي وهو استفهام في معنى التقرير.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي: نهلكهم بعد إقامة الحجّة عليهم بتقديم الإنذار وإرسال الرسل. ﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: أنذرناهم

١ـ الكافي، ج ٤، ص ١٥٩.

تذكرة، وأنذر وذكر متقاربان كأنّه قيل: مذكورون تذكرة، ولسنا ظلمناهم بإصرارهم على الكفر والعناد. وهذه الآية تكذيب لمن زعم أنّ كلّ ظلم وكفر في الدنيا وهو من خلقه وإرادته.

وغاية الظلم أن يعاقب عباده على شيء هو خلقه فيهم وأراده منهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ كان الكفّار يقولون: لم لا يجوز أن يكون القرآن من إلقاء الجنّ والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة من جانب الشياطين؟ فأجاب الله سبحانه بأنّ ذلك لا يتسهّل للشياطين لأنّهم مرجومون بالشهب ممنوعون عن ذلك معزولون عن استماع كلام أهل السماء.

فإن قيل: إنّ قبول امتناع الشياطين لا يحصل إلّا بواسطة قول النبيّ والقرآن وهم لم يقبلوا هذا الأمر بأنّه صادق فيما ادّعى فكيف بهذا الدليل؟

فالجواب أنّ العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك ليس منحصرا بإخبار النبيّ حتّى يقع الدور بل نحن نعلم بالضرورة أنّ الاهتمام بشأن الصديق أقوى من الاهتمام بشأن العدوّ، وأيضاً نحن نعلم بالضرورة أنّ محمّداًﷺ كان يلعن الشياطين كما أنّ كتابه ينطق بلعنه وكانﷺ يأمر الناس بلعنهم فلو كان هذا الغيب إنّما حصل من إلقاء الشياطين لكان الكفّار أولى بأن يحصل لهم هذا الغيب وهذا العلم فكان يجب اقتدارهم على مثل هذا الغيب ومثل هذا البيان أولى فلمّا لم يكن كذلك علمنا أنّ الشياطين ممنوعون عن ذلك وأنّهم معزولون عن تعرّف الغيوب.

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ

فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

خاطب نبيّه والمراد به سائر المكلّفين فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ﴾ بسبب ذلك ﴿مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ وإنّما أفرده بالخطاب ليعلم أنّ العظيم الشأن إذا أوعد فكيف حال من دونه؟ وهذا لعظم الحكم فإذا حذّر الكبير فغيره أولى بالتحذير.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي: رهطك الأدنين وأنذرهم من غير تليين بالقول، وإنّما خصّهم بالذكر تنبيها على أنّه ينذر غيرهم وأنّه لا يداهنهم لأجل القرابة ليقطع طمع الأجانب عن المداهنة في الدين، وأمرﷺ بأن يبدأ بهم في الإنذار والدعوة إلى الله ثمّ بالّذين يلونهم كما قال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾[1] وكذلك يقتضي حسن الترتيب.

وفي الخبر المأثور عن البراء بن عازب أنّه قال: لمّا نزلت هذه الآية جمع رسول اللهﷺ بني عبد المطّلب وهم يومئذ أربعون رجلاً الرجل منهم يأكل الجذعة أو المسنّة ويشرب العسّ من اللبن[2]. وروي أنّهﷺ لمّا نزلت هذه الآية صعد الصفا فنادى الأقرب منه فالأقرب، وقال: **«يا بني عبد المطّلب يا بني هاشم يا بني عبد مناف يا عبّاس عمّ محمّد يا صفيّة عمّة محمّد! إنّي لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من المال ما شئتم»**[3] وروي أيضاً أنّه جمع بني عبد المطّلب وهم يومئذ أربعون رجلاً على رجل شاة وقعب من لبن وكان الرجل منهم يأكل الجذعة ويشرب العسّ فأكلوا وشربوا ثمّ قال: **«يا بني عبد المطّلب**

١ـ سورة التوبة: ١٣٤.

٢ـ انظر: سعد السعود، السيد ابن طاوس الحسني، ص١٠٥ ؛ وبحار الأنوار، ج١٨٥، ص٢١٥.

٣ـ انظر: مسند الشاميين، للطبراني، ج٤، ص١٦٩ ؛ وسبل الهدى والرشاد، ج٢، ص٣٢٣.

لو أخبرتكم أنّ بسفح هذا الجبل خيلاً أصدقتموني؟ قالوا: نعم قال: إنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[1].

وفي «المجمع»: فأمر صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام برجل شاة فأدمها ثمّ قال: «ادنوا باسم الله» فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتّى صدروا ثمّ دعا بقعب من لبن فجرع منه جرعة ثمّ قال: «اشربوا باسم الله» فشربوا حتّى رووا فبدر أبو لهب وقال: هذا ما سحركم به الرجل، فسكت صلى الله عليه وآله يومئذ ولم يتكلّم ثمّ دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب ثمّ أنذرهم صلى الله عليه وآله فقال: «يا بني عبد المطّلب إنّي أنا النذير إليكم من الله والبشير فأسلموا وأطيعوني تهتدوا» ثمّ قال: «من يؤاخيني ويؤازرني ويكون وليّي ووصيّي بعدي وخليفتي في أهلي ويقضي ديني؟» فسكت القوم فأعادها ثلاثاً كلّ ذلك فسكت القوم ويقول عليّ عليه السلام أنا، فقال في المرّة الثالثة: «أنت»، فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب: أطع ابنك فقد امّر عليك، أورده الثعلبيّ في تفسيره[2].

وروي عن أبي رافع أنّه صلى الله عليه وآله جمعهم في الشعب وصنع لهم رجل شاة فأكلوا حتّى تضلّعوا وسقاهم عسّا فشربوا كلّهم حتّى رووا ثمّ قال صلى الله عليه وآله: «إنّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وأنتم عشيرتي ورهطي وإنّ الله لم يبعث نبيّاً إلّا جعل له من أهله أخاً ووزيراً ووصيّاً وخليفة في أهله فأيّكم يقوم ويبايعني على أنّه أخي ووارثي ووزيري ويكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي» فسكت القوم فقال: «ليقومنّ قائمكم أو ليكوننّ في غيركم ثمّ لتندمنّ» ثمّ أعاد الكلام ثلاث مرّات، فقام عليّ عليه السلام فبايعه وأجابه ثمّ قال: «ادن منّي» فدنا منه ففتح فاه ومجّ في فيه من ريقه وتفل بين كتفيه وثندوتيه ؛ فقال أبو لهب: فبئس ما حبوت به ابن

١ـ تفسير جوامع الجامع، ج٢، ص٦٩٣.

٢ـ مجمع البيان، ج٧، ص٣٥٦.

عمّك أن أجابك فملأت فاه ووجهه بذاقاً فقال ﷺ: «ملأته حكمة وعلماً»[١].

وعن ابن عبّاس قال: (لمّا نزلت الآية صعد رسول الله ﷺ على الصفا فقال: «يا صباحاه»! فاجتمعت قريش فقالوا: مالك؟ فقال: «أرأيتكم إن أخبرتكم أنّ العدوّ مصبحكم أو ممسيكم ما كنتم مصدّقوني؟» قالوا: بلى، قال: «فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، قال أبو لهب: تبّاً لك ألهذا دعوتنا جميعاً؟ فأنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ إلى آخر السورة)[٢].

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ألن جانبك وتواضع لهم وحسّن أخلاقك معهم ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ يعني: أقاربك إن عصوك بعد الإنذار وخالفوك فيما تدعوهم إليه ﴿فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من أعمالكم القبيحة وعبادتكم الأصنام.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: فوّض أمرك إلى العزيز المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه يكفيك كيد أعدائك ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ الّذي يبصرك حين تقوم من مجلسك أو فراشك إلى الصلاة وحدك أو في الجماعة. وقيل: المراد بالقيام للصلوات فقط، أو حين تقوم للإنذار وأداء الرسالة ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: ويرى تصرّفك بالركوع والسجود والقيام والقعود. وقيل: المراد انتقالك في أصلاب الموحّدين من نبيّ إلى نبيّ حتّى أخرجك نبيّاً، وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالا: «في أصلاب النبيّين نبيّ بعد نبيّ حتّى أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام» ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمع ما تتلو في صلاتك ويعلم ما تضمر فيها»[٣].

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٣٥٦ ؛ وبحار الأنوار، ج١٨، ص١٦٣.

٢ـ مجمع البيان، ج٧، ص٣٥٧ ؛ وتفسير الصافي، ج٥، ص٣٨٩.

٣ـ مجمع البيان، ج٧، ص٣٥٨ ؛ وبحار الأنوار، ج١٦، ص٢٠٤ ؛ ونور البراهين، ج١، ص٤٤٤.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

لمّا أخبر الله أنّ القرآن ليس ممّا ينزل الشياطين وإنّه وحي من الله عقّبه بذكر من تنزّل عليه الشياطين فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۞ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ﴾ كذّاب فاجر عامل بالمعاصي وهم الكهنة، وقيل: طليحة ومسيلمة. ولست بكذّاب أنت يا محمّد ولا أثيم فلا يتنزّل عليك الشياطين وإنّما يتنزّل عليك الملائكة.

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ معناه: إنّ الشياطين يلقون ما يسمعونه إلى الكهنة ويخلطون به كثير من الأكاذيب ويوحونه إليهم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ وأكثر الكهنة أو أكثر الشياطين ﴿كَاذِبُونَ﴾ قيل: هم الّذين يسترقون السمع من الملائكة فيلقون إلى الكهنة، وهذا قبل أن أوحي إلى النبيﷺ وبعد ذلك ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[1].

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ قال ابن عبّاس: (يريد شعراء المشركين) وذكر مقاتل أسماءهم فقال: منهم عبد الله بن الزبعرى والسهميّ وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب وهبيرة بن وهب المخزوميّ ومنافع بن عبد مناف الجمحيّ وأبو غرّة عمرو بن عبد الله كلّهم من قريش وأميّة بن أبي الصلت الثقفيّ تكلّموا بالكذب وقالوا: نحن نقول مثل ما قال محمّد، وقالوا الشعر، واجتمع إليهم

١ـ سورة الجن: ٩.

غواة من قومهم يستمعون أشعارهم ويروون عنهم حين يهجون النبيّ صلّى الله عليه وآله وأصحابه بالشعر فذلك قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ أي: الضالّون.

وقيل: أراد بالشعراء الّذين غلبت عليهم الأشعار حتّى اشتغلوا بها عن القرآن والسنّة. وقيل: هم الشعراء الّذين إذا غضبوا سبّوا وإذا قالوا كذبوا والشعر يدعوه إلى الكذب ووصف الإنسان بما ليس فيه من الفضائل والرذائل. وقيل: إنّهم القصّاصون الّذين يكذبون في قصصهم ويقولون ما يخطر ببالهم. وفي تفسير عليّ بن إبراهيم: إنّهم الّذين يغيّرون دين الله ويخالفون أمره[1]. وروى العيّاشيّ بالإسناد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «هم قوم تعلّموا وتفقّهوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا».

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ أي: في كلّ فنّ من الكذب يتكلّمون وفي كلّ حديث يخوضون: يمدحون بالباطل ويذمّون بالباطل، وهذا المعنى المراد من هيمانهم كالبهائم من أقاويلهم اللغويّة والغلوّ في المدح والذمّ ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: يحثّون على أشياء لا يفعلونها وينهون عن أشياء يرتكبونها. ثمّ استثنى من جملتهم فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهم شعراء المؤمنين مثل عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسّان بن ثابت وسائر شعراء المؤمنين الّذين مدحوا النبيّ صلّى الله عليه وآله وردّوا هجاء من هجاه وأتوا بأشعار الحكمة كقولهم[2]:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل   وكلّ نعيم لا محالة زائل

ولمّا وصف الله تعالى الشعراء بهذه الأوصاف الخسيسة بأنّهم يرغّبون الناس بالجود وهم يرغبون عنه، وينفّرون عن البخل وهم مصرّون عليه، وبيّن

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٣٥٩ ؛ عن علي بن إبراهيم القمي.

٢ـ البيت من لبيد بن ربيعة.

أنّ محمّداً ﷺ على خلاف ذلك وأنّه دعا الناس بتوحيد الله ثمّ دعا بالأقرب فالأقرب من عشيرته وكلّ ذلك على خلاف طريقة الشعراء، وقدح الشعراء بأنّهم يقولون ما لا يفعلون فاستثنى عنهم الموصوفين بهذه الصفات الأربع وهو قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. والثاني: العمل الصالح.

والثالث: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أن يكون شعرهم في التوحيد والنبوّة ودعوة الخلق إلى الحقّ أو لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله. والرابع: أن لا يذكروا هجواً واحداً ﴿وَانتَصَرُوا﴾ من المشركين للرسول وللمؤمنين أي: وردّوا على المشركين ما كانوا يهجون به رسول الله والمؤمنين ﴿مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ وهو كقوله: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾[1].

ثمّ هدّد الظالمين بقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ أي: سوف يعلم الّذين يظلمون الرسول والمؤمنين أي: مرجع يرجعون من النار وإنّ منصرفهم إلى النار.

تمّت السورة بحمد الله.

١ـ سورة النساء: ١٤٧.

سورة النمل

مكية. فضلها: قال أبيّ بن كعب: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿طسٓ﴾ كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بسليمان وكذّب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ويخرج من قبره وهو ينادي: لا إله إلّا الله»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ
مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ
أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن
فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ
لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾

﴿طسٓ﴾ مرّ بيانه في المقطّعات والرموز، عن الصادق عليه السلام معناه: «أنا

١ـ تفسير جوامع الجوامع، ج٢، ص٦٩٧.

الطالب المتمعّ. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ تلك إشارة إلى ما وعدوا به من القرآن ومجيئه إضافة الآيات إلى القرآن وآيات القرآن هي القرآن فهو كقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[1] والقرآن والكتاب معناها واحد وصفه بالصفتين ليفيد أنّه ممّا يظهر بالقراءة ويظهر بالكتابة وهو تارة بمنزلة الناطق وغير الناطق بما فيه من الأمرين ووصفه بقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ تشبيها له بالناطق بكذا من البيان أي: إنّ اللّه بيّن فيه أمره ونهيه وحلاله وحرامه، والبيان هو الدالّة الّتي تبيّن بها الأشياء والمبين المظهر لذلك.

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هدى من الضلالة إلى الحقّ بالبيان الّذي فيه وباللطف فيه من جهة الاستحكام والإعجاز وبشارة للمؤمنين بالجنّة والثواب، ويجوز بالنصب على الحاليّة أي: هادياً ومبشراً وبالرفع على الخبريّة أي: هو هدى وبشرى ثمّ وصف المؤمنين فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بحدودها وواجباتها وأوقاتها ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ويخرجون ما يجب عليهم من أموالهم إلى من يستحقّها ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالنشأة الآخرة والبعث والجزاء ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ولا يشكّون، فيه وتكرار الضمير لأنّ الجملة اعتراضيّة كأنّه قيل: وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإتيان بالأعمال الصالحة هم الموقنون بالآخرة هم المؤمنون حقّ الإيمان ومهتدون بالقرآن.

ثمّ وصف من خالفهم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ اختلف في معناه فقيل: المراد: إنّا زيّنّا لهم أعمالهم بأن جعلناها محبوبة لأنفسهم فهم يعمهون عنها ويتحيّرون عنها ولا يدركون ما يتبعها أي: زيّنّا أعمالهم الّتي أمرناهم بها بأحسن الوجوه والترغيب فهم

١ـ سورة الحاقة: ٥١.

يتحيّرون بالذهاب عنها، عن الحسن والجبّائيّ وأبي مسلم. وقيل: معناه: زيّنا لهم أعمالهم بأن خلقنا فيهم شهوته القبيحة الداعية إلى فعل المعاصي ليجتنبوا المشتهي فهم عن هذا المعنى يعمهون ويتردّدون في الحيرة. وقيل: معناه: حرمناهم التوفيق عقوبة على كفرهم فتزيّنت أعمالهم في أعينهم وحليت في صدورهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ وشدّته وصعوبته ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي: لا أحد أخسر صفقة منهم لأنّهم يخسرون الثواب ويحصل لهم بدلا منه العقاب.

﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمّد ﴿لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: لتعطى ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ في أمره ﴿عَلِيمٍ﴾ بمصالح خلقه، وقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ مبالغة في أنّه عالم ويفيد أنّه متى يصحّ معلوم فهو عالم كما أنّ سميعا يفيد أنّه متى وجد مسموع فهو سامع له.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ أي: اذكر قصّة موسى حين قال لامرأته وهي بنت شعيب: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرت وأحسست ناراً، ومنه اشتقاق الإنس لأنّ المأنوس به مرئيّ ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: الزموا مكانكم لعلّي آتيكم من هذه النار بخبر الطريق لأنّهم كانوا ضلّوا الطريق وكانت ليلة شاتية باردة مظلمة ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ وقبس النار المقبوسة أي: بشعلة من النار، والشهاب نور كالعمود من النار وكلّ نور يمتدّ مثل العمود يسمّى شهاباً، وإنّما قال لامرأته: آتيكم على لفظ خطاب الجمع أقامها مقام الجماعة بسبب أنسه معها في الأمكنة الموحشة ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: لكي تستدفئوا بها.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أي: جاء موسى إلى المكان الّذي ظنّ أنّها النار وهي نور ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قال وهب: لمّا رأى موسى النار وقف قريباً منها فرآها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الخضرة لا تزداد النار

إلّا اشتعالا ولا تزداد الشجرة إلّا خضرة وحسنا فلم تكن تحرق النار الشجرة ولا الشجرة برطوبتها تطفئ النار فعجب منها وأهوى إليها بضغث في يده ليقتبس منها فمالت إليه فخافها فتأخّر عنها ثمّ لم يزل تطمعه ويطمع فيها إلى أن نودي والمراد به نداء الوحي و«إن» هي المفسّرة يعني: القول أي: قيل له: أن بورك من في النار ومن حولها أي: بورك فيمن في النار وهم الملائكة وفيمن حولها يعني: موسى وذلك أنّ النور الّذي رأى موسى وظنّ أنّه نار كان فيه ملائكة بهم زجل بالتسبيح والتقديس ومن حولها هو موسى وكان بالقرب منها ولم يكن فيها، قال: بارك اللّه على من في النّار وعليك يا موسى.

وقيل: المعنى بورك من في النار سلطانه وبرهانه، وتأويله تبارك من نوّر هذا النور ومن حولها يعني: موسى والملائكة. وقيل: معناه: بورك من في طلب النار، وهو موسى ويحذف المضاف، وهذا تحيّة من اللّه لموسى بالبركة كما حيي إبراهيم عليه السلام بالبركة على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[١]. ثمّ نزّه سبحانه ذاته فقال: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: تنزيهاً له عمّا لا يليق بصفاته عن أن يكون جسماً يحتاج إلى جهة أو عرضاً يحتاج إلى محلّ أو يكون ممّن يتكلّم بآلة.

ثمّ أخبر سبحانه عن نفسه وتعرّف إليه بصفاته فقال: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: إنّ الّذي يكلّمك هو اللّه العزيز الغالب الّذي لا يمتنع عليه شيء الحكيم في أفعاله المحكم لتدابيره والسبب الّذي لأجله بوركت البقعة وبورك من فيها حدوث تكليم اللّه موسى عليه السلام ووقوع نبوّته في ذلك المكان ولهذا جعل اللّه أرض الشام موسومة بالبركات في قوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ

١ـ سورة هود: ٧٣.

﴿وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾[1] وحقّت أن تكون كذلك فهي مبعث الأنبياء ومهبط الوحي وكفّلتهم أحياء وأمواتاً.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ وفي الكلام حذف تقديره: فألقاها فصارت حيّة فلمّا رآها متحرّكة تتحرك كما يتحرّك الجانّ وهو الحيّة الّتي ليست بعظيمة، وإنّما شبّهها بالجانّ في خفّة حركتها مع أنّها كانت عظيمة أو صارت عظيمة فهاله ذلك حتّى ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ ورجع موسى من ورائه ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ وكلّ راجع معقّب أي: هرب ولم يقف ولم يلتفت.

﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وهذا تسكين من الله لموسى ونهي له عن الخوف يقول: إنّك مرسل والمرسل لا يخاف لأنّي أمرتهم بإظهار أمر ومعجز فينبغي أن لا يخافوا فيما يتعلّق بإظهار ذلك وإلّا فالمرسل قد يخاف لا محالة.

إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

وقيل في هذا الاستثناء: إنّه متّصل، وعلى قول من قال: متّصل محمول على ما يصدر من الأنبياء من ترك الأفضل والأولى وقالوا تعريض لطيف لموسى عليه السلام في وكزه القبطيّ أمّا ما عليه جمل المفسّرين أنّه استثناء منقطع والمعنى: لكن من ظلم نفسه بفعل القبيح من غير المرسلين لأنّ الأنبياء لا يقع منهم قبيح لكونهم معصومين من الذنوب فيكون هذا الاستثناء منقطعاً وإنّما

١ـ سورة الأنبياء: ٧١.

حسن ذلك اجتماع الأنبياء وغيرهم في معنى وهو التكليف.

﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ وقرئ حسنا، أي: بدّل توبة وندما على ما فعله من القبيح وعزما على عدم العود ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ساتر لذنبه ورحيم البتّة به وقرئ في الآية ﴿أَلَا مَن ظَلَمَ﴾ بحرف التنبيه فحينئذ بيان مستأنف والكلام جملة معترضة.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ وأعطاه آية وقد سبق بيانها ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ أي: مع تسع آيات أخر أنت مرسل بها إلى فرعون وقومه وكانت الآيات إحدى عشر: ثنتان منها اليد والعصا والتسع الفلق والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم والطمسة والجدب في بواديهم والنقصان في مزارعهم ولكنّ الصحيح أنّ العصا واليد من التسع والأخيرين واحد والفلق لا يعدّ منها وفي قوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ قيل: لأنّه كان لموسى عليه السلام مدرعة صوف لا كمّ لها. وقيل: الجيب القميص لأنّه يجاب عنه ويقطع، أو المعنى: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ معناه: من تسع آيات أي: أظهر هاتين الآيتين من جملة تسع آيات. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله إلى أقبح وجوه الكفر.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا﴾ أي: حججنا ومعجزاتنا ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي: واضحة بيّنة على من أبصر أنّها خارجة عن قدرة البشر وهو مثل قوله: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾[1] ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: سحر ظاهر.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ وأنكروا المعجزات ولم يقرّوا بأنّها من عند الله، والباء زائدة. قال العجّاج: (نضرب بالسيف ونرجو بالفرج).

﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: عرفوها وعلموها يقينا بقلوبهم وإنّما

١ـ سورة الإسراء: ٥٩.

جحدوها بألسنتهم ظلما على بني إسرائيل ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ طلباً للعلوّ والرتبة وتكبّراً عن أن يؤمنوا بما جاء موسى ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمّد أو أيّها السامع ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بالمعاصي؟

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾

المعنى: ثمّ عطف سبحانه على قصّة موسى قصّة داود وسليمان فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ بالقضاء بين الخلق وبكلام الطير والدوابّ ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: اختارنا من بين الخلق بأن جعلنا أنبياء وملوك وبالمعجزات الّتي أعطى لنا من إلانة الحديد وتسخير الشياطين والجنّ والإنس.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ وفي الآية دلالة على أنّ الأنبياء يورّثون المال كتوريث غيرهم ﴿وَقَالَ﴾ سليمان مظهرا لنعم الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ فإن قيل: كيف: قال علّمنا وأوتينا، وهو من كلام المتكبّرين؟ فالجواب أنّ هذه يقال ليهابون الواحد المطاع وقد يتعلّق بتعظيم الملك مصالح.

قال أهل العربيّة: لا يطلق النطق على غير بني آدم وإنّما يقال الصوت

لأنّ النطق عبارة عن الكلام ولا كلام للطير إلّا أنّه لمّا فهم سليمان معنى صوت الطير سمّاه منطقاً مجازاً، وقال عليّ بن عيسى: إنّ الطير كانت تكلّم سليمان معجزة له كما أخبر عن الهدهد، ومنطق الطير صوت يتفاهم به معانيها على صيغة واحدة بخلاف منطق الناس الّذي يتفاهمون به المعاني على صيغ مختلفة، وكذلك لا نفهم عنها مع طول مصاحبتها ولا تفهم هي عنّا لأنّ أفهامها مقصورة على تلك الأمور المخصوصة، ولمّا جعل الله سليمان يفهم عنها كان قد علم منطقها. ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يؤتى الأنبياء والملوك، وقيل: من كلّ شيء يطلبه طالب لحاجته إليه وانتفاعه به. روى الواحديّ بالإسناد عن محمّد بن جعفر بن محمّد عن أبيه عليه السلام قال أعطي سليمان بن داود ملك مشارق الأرض ومغاربها فملك سبع مائة سنة وستّة أشهر ملك أهل الدنيا كلّهم من الجنّ والإنس والشياطين والدوابّ والطير والسباع وأعطي علم كلّ شيء ومنطق كلّ شيء وفي زمانه صنعت الصنائع العجيبة وذلك قوله تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.[1]

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي: هذا فضل الله الظاهر الّذي لا يخفى على أحد وهذا قول سليمان على وجه الشكر والاعتراف، ويحتمل من قول الله على وجه الإخبار.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ قال المفسّرون: كان سليمان إذا أراد سفرا أمر فجمع له طوائف من هؤلاء أي: الجنّ والإنس والطيور على بساط ثمّ يأمر الريح فتحملهم بين السماء والأرض.

قال محمّد بن كعب: بلغنا أنّ سليمان بن داود كان معسكره مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للإنس وخمسة وعشرون للجنّ وخمسة وعشرون

ــــــــــــــــ

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٣٦٩ ؛ وبحار الأنوار، ج١٤، ص٦٧.

للوحش وخمسة وعشرون للطير وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة وسبعمائة سرّيّة وقد نسجت له الجنّ بساطاً من ذهب وأبريسم فرسخاً في فرسخ وكان يوضع منبره في وسطه وهو من ذهب فيقعد عليه وحوله ستّمائة ألف كرسيّ من ذهب وفضّة فيقعد الأنبياءعليهم السلام على كراسيّ الذهب، والعلماء على كراسيّ الفضّة وحولهم الناس وحول الناس الجنّ والشياطين وتظلّه الطير بأجنحتها حتّى لا تقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط فيسير به مسيرة شهر.

ويروى أنّه كان يأمر الريح العاصف تحمله ويأمر الرخاء تسيره فأوحى اللّه إليه وهو يسير بين السماء والأرض: إنّي قد زدت في ملكك لا يتكلّم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمعك فيحكى أنّه مرّ بحرّاث فقال: لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً، فألقته الريح في أذنه فنزل ومشى إلى الحرّاث وقال: إنّما مشيت إليك لئلّا تتمنّى ما لا تقدر عليه ثمّ قال سليمان: لتسبيحة واحدة يقبلها اللّه تعالى خير ممّا أوتي آل داود.

وهاهنا نكتة وهي أنّ العمل الصالح ولو تسبيحة كيف يترجّح إذا كان مقبولا عند اللّه من ملك آل داود مع هذه البسطة الّتي ما اتّفقت لأحد حتّى علم أصوات الحيوانات.

ويحكى أنّه مرّ على بلبل في شجرة يحرّك رأسه ويميل ذنبه، فقال سليمان لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم، قال: يقول: إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفا. وصاحت فاختة، فأخبر أنّها تقول: ليت الخلق لم يخلقوا. وصاح طاوس، فقال، يقول: كما تدين تدان. وصاح هدهد فقال: يقول: استغفروا اللّه يا مذنبين. وصاح طيطوى فقال: يقول: كلّ حيّ ميّت وكلّ جديد بال. وصاح خطّاف، فقال: يقول: قدّموا تجدوه. وصاح

قمريّ، فأخبر أنّه تقول: سبحان ربّي الأعلى. وصاحت رخمة، فقال: تقول: سبحان ربّي الأعلى ملء سمائه وأرضه وقال الحداءة: كلّ شيء هالك إلّا اللّه والقطاة تقول: من سكت سلم. والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا همّه. والديك يقول: اذكروا اللّه يا غافلين. والنسر يقول: يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت. والعقاب يقول: في البعد أنس. والضفدع يقول: سبحان ربّي القدّوس.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يمنع أوّلهم على آخرهم أي: كلّ صنف من جنوده وزعة تردّ أوّلهم على آخرهم ليترتّبوا ويتلاحقوا ولا يتفرّقوا كما أنّ الجيوش يتوزّعون ويترتّبون ولا يختلف نظمهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ أي: سار سليمان وجنوده حتّى إذا أشرفوا على واد وهو بالطائف وقيل: هو بالشام ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ أي: صاحت بصوت خلق اللّه لها، ولمّا كان الصوت مفهوما لسليمان عبّر عنه بالقول، وقيل كانت النملة رئيسة النمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ قرئ بضمّ النون والميم وقرئ بضمّ الميم وكان الأصل النمل بوزن الرجل لكنّ استعمال النمل كالنحل تخفيفا فالمعنى: أنّها تكلّمت بصوتها، وهذا غير مستبعد أن يخلق اللّه فيها العقل والنطق.

وعن قتادة أنّه دخل الكوفة فالتفت عليه الناس فقال: سلوا عمّا شئتم فسأله غلام حدث عن نملة سليمان أكانت ذكرا أم أنثى؟ فأفحم، فقال الغلام: كانت أنثى، فقيل له: من أين عرفت؟ فقال الغلام: من كتاب اللّه وهو قوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ ولو كان ذكرا لقال: «قال نملة» وذلك لأنّ النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى ولابدّ أن يميّز بينهما بعلامة نحو قولهم: حمامة ذكر وحمامة أنثى أو هو وهي.

صاحت النملة يا أيّها النمل لا يكسرنّكم ﴿سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بحطمكم ووطئكم وهذا يدلّ على أنّ سليمان وجنوده كانوا ركباناً

ومشاة على الأرض ولم تحملهم الريح بين السماء والأرض لما خافت النمل أن يطأها بأرجلهم، أو كان هذه القصّة قبل تسخير الله الريح لسليمان عليه السلام.

فإن قيل: كيف عرفت النملة سليمان وجنوده حتّى قالت هذه المقالة؟

فالجواب: إذا كانت مأمورة بطاعته فلابدّ أن يخلق لها من الفهم ما تعرف به ولا يمتنع أن يكون لها من الفهم ما يستدرك به ذلك وقد علمنا أنّها تشقّ ما تجمع من الحبوب بنصفين مخافة أن يفسده الندى فتنبت إلّا الكزبرة فإنّها تكسرها بأربع قطع لأنّها تنبت إذا شقّت بنصفين فمن هداها إلى هذا؟ فإنّه جلّ جلاله هداها إلى تميّز ما يحطمها. وقيل: إنّها كانت معجزة لسليمان عليه السلام قال ابن عبّاس: فوقف سليمان بجنوده حتى دخل النمل مساكنه.

﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سليمان ﴿ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ أي: تبسم شارعاً في الضحك وتجاوز حدّ التبسّم إلى حدّ الضحك وذلك أنّ الإنسان إذا رأى ما لا عهد به فعجب وضحك. وقيل: إنّ الريح أطارت كلامها إليه من ثلاثة أميال حتّى سمع ذلك فانتهى إليها وهي تأمر النمل بالمبادرة فتبسّم من حذرها.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ قال الزمخشري: حقيقة ﴿أَوْزِعْنِي﴾ اجعلني أزع شكر نعمتك عندي وأكفّه عن أن ينقلب عنّي حتّى أكون شاكراً لك أبداً والحاصل: ألهمني ووفّقني أن أشكر نعمتك بأن علّمتني منطق النمل وأسمعتني صوتها من بعيد حتّى أمكنتني الكفّ وأكرمتني بالنبوّة والملك ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ فأكرمته بالنبوّة وفصل الخطاب وألنت له الحديد وأنعمت على والدتي بأن زوّجتها نبيّك ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا﴾ أي: وفّقني للعمل الصالح في المستقبل ﴿تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ قال ابن عبّاس: (يعني: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومن بعد هم من النبيّين عليهم السلام أي: أدخلني في جملتهم وأثبت اسمي في

أسمائهم). وقيل في عبادك أي: مع عبادك.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾
لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾
فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ
يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ
الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾
اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن سليمان فقال: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ وتعرّف فلم يجد فيها الهدهد وكان سليمان إذا قعد على كرسيّه جاءت جميع الطير الّتي سخّرها اللّه له فتظلّ الكرسيّ والبساط بجميع من عليه عن الشمس فغاب عنه الهدهد من بين الطير فوقع الشمس من موضعه في حجر سليمان فرفع رأسه ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ أي: ما للهدهد لا أراه؟ تقول العرب: ما لي أراك كئيباً، معناه: ما لك كئيباً، وهو من القلب الّذي يوضحه المعنى.

واختلف في سبب تفقّده الهدهد فقيل: بسبب المذكور وهو وقوع الشمس على رأسه من خلوّ مكان الهدهد. وقيل: إنّه احتاج إليه في سفره ليدلّه على الماء لأنّه يقال: إنّه يرى الماء في بطن الأرض كما يراه في القارورة، عن ابن عبّاس. وروى العيّاشيّ بالإسناد قال: قال أبو حنيفة لأبي عبد اللّه عليه السلام كيف تفقّد سليمان الهدهد بين الطير؟ قال عليه السلام: «**لأنّ الهدهد يرى الماء في بطن الأرض كما يرى أحدكم الدهن في القارورة**»، فنظر أبو حنيفة إلى

أصحابه وضحك، قال أبو عبد الله عليه السلام: «ما يضحكك؟» قال: ظفرت بك جعلت فداك، قال: «وكيف ذلك؟» قال: الّذي يرى الماء في بطن الأرض لا يرى الفخّ في التراب حتّى يؤخذ بعنقه؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا نعمان أما علمت أنّه إذا نزل القدر أغشى البصر؟». وقيل: السبب في تفقّده للإخلال بنوبته في الخدمة. فقال عليه السلام: « ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ لأمر عصياناً أم غاب لعذر وحاجة؟»[1]

وقيل: ﴿أَمْ﴾ هنا هي المنقطعة. قال المبرّد: لمّا تفقّده ولم يره على تقدير أنّه مع جنوده وهو لا يراه ثمّ أدركه الشكّ في غيبته ثمّ قال: أم كان أي: بل هو من الغائبين.

ثمّ أوعده على غيبته فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ معناه: بنتف ريشه وإلقائه في الشمس، عن ابن عبّاس وجماعة. وقيل: بأن أجعله مع أضداده، وكما صحّ نطق الطير وتكليفه في زمانه جازت معاتبته على ما وقع منه من تقصير فإنّه كان مأموراً بطاعته فاستحقّ العقاب على غيبته ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ أي: لأقطعنّ حلقه عقوبة على عصيانه ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: بحجّة واضحة تكون له عذراً صحيحاً في سبب غيبته.

واعلم أنّ الملاحدة طعنت في هذه القصّة من وجوه: منها أنّ سليمان كان بالشام فكيف طار الهدهد في تلك الساعة من الشام إلى اليمن ثمّ رجع إليه؟ وكيف خفي على سليمان حال مثل تلك الملكة العظيمة مع ما يقال أنّ الجنّ والإنس كانوا في طاعته وأنّه ملك الدنيا بالكلّيّة وكان تحت راية بلقيس جماعة كثيرة وكان أولو مشورتها ـ على ما قيل ـ ثلاثمائة واثني عشر قيلاً[2] كلّ قيل منهم تحت رايته ألف مقاتل مع أنّه يقال: إنّه لم يكن بين سليمان

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٣٧٥؛ عن العياشي ولم أجده في العياشي.

٢ـ بالفتح: كل قائد من قواد اليمن.

وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد إلّا مسيرة ثلاثة أيّام؟ ومنها: من أين حصل للهدهد معرفة اللّه ووجوب السجود له وإنكار سجودهم للشمس من دون اللّه وإضافته إلى الشيطان وتزيينه؟

والجواب عن الكلّ أنّ الإيمان والتصديق بافتقار الخلق والعالم إلى القادر المختار يزيل هذه الشكوك والبنية ليست شرطا في القدرة فإذا أراد اللّه بأمر حصل فيه ما أراد فحينئذ يمكن أن يكون يصدر من الهدهد أمور عقلانيّ لا يصدر عن مثل ألف فيثاغورث وأفلاطون ويكون عرش بلقيس في وسط بساط سليمان وهو عليه السلام لا يحسّ به إلّا إذا أراد اللّه.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: لم يلبث سليمان إلّا زمناً يسيراً حتّى جاء الهدهد أو المعنى: فلبث الهدهد في غيبته قليلاً ثمّ رجع، فيجوز أن يكون التقدير: فمكث الهدهد في مكان غير بعيد فأتاه الهدهد بحجّة ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: اطّلعت بما لم تطّلع عليه ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ بخبر صادق عن سبأ وهي مدينة بأرض اليمن، وقيل: إنّ اللّه بعث إلى سبأ اثني عشر نبيّاً، وسئل النبيّ صلى الله عليه وآله عن سبأ فقال: «هو رجل ولد له عشرة من العرب تيامن منهم ستّة وتشامم أربعة فالّذين تشاءموا: لخم وجذام وغسّان وعاملة والّذين تيامنوا: كندة والأشعرون والأزد ومذحج وحمير وأنمار، ومن الأنمار خثعم وبجيلة»[1].

وإذا كان اسم مدينة لا ينافي هذا الكلام لأنّها مسمّاة باسم هذا الرجل.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهو خبر بلقيس. قال: وجدت امرأة تتصرّف بالسلطنة فيهم بحيث لا يعترض عليها أحد ولها من سعة مالها وملكها كلّ شيء يحتاج إليه الملوك من زينة الدنيا وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ. قيل: إنّ أمّها جنّيّة ولدها أربعون ملكاً آخرهم

١ـ التبيان، ج٨، ص٨٨ ؛ ومجمع البيان، ج٧، ص٣٧٦.

أبو هاشم شرحبيل من ملوك حجر ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ولها سرير عظيم وكان مرصّعاً بالياقوت الأحمر والزمرّد الأخضر مكلّل بألوان الجواهر، وعليه سبعة أبيات على كلّ بيت باب مغلق.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: عبادتهم للشمس ولا يعبدون الله ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: صرفهم الشيطان عن سبيل الحقّ ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ غير مهتدين وفي الضلالة.

وقال بعض علماء الاعتزال مثل الجبّائيّ وأمثاله: لم يكن الهدهد عارفاً بالله وإنّما أخبر بذلك كما يخبر مراهقوا صبياننا لأنّه لا تكليف إلّا على الملائكة والإنس والجنّ فيرانا الصبيّ على عبادة الله فيتصوّر الصبيّ أنّ ما خلاها باطل فكذلك الهدهد تصوّر أنّ ما خالف فعل سليمان باطل.

ولكن ردّ هذا القول بأنّ هذا الّذي ذكره الجبّائيّ خلاف ظاهر القرآن لأنّه لا يجوز أن يفرق بين الحقّ الّذي هو السجود لله وبين الباطل الّذي هو السجود للشمس وأنّ أحدهما قبيح والآخر حسن إلّا العارف بالله سبحانه وبما يجوز وبما لا يجوز مع نسبة أعمالهم وصدّهم عن طريق الحقّ إلى الشيطان وهذه مقالة من يعرف العدل وأنّ القبيح على الله غير جائز[1].

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ قرئ بالتخفيف على أنّه الأمر والتنبيه على السجود ومعناه: ألا يا قوم اسجدوا الله، والجملة معترضة اعترضت في الكلام، وعلى قراءة التشديد فالمعنى زيّن لهم الشيطان ضلالتهم لئلّا يسجدوا لله. وعلى قراءة التخفيف ﴿أَلَا﴾ حرف التنبيه و«يا» حرف النداء والمنادى محذوف ويجوز أن يكون لا مزيدة ويكون المعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا، وفي قراءة عبد الله بن مسعود والأعمش بقلب الهمزة هاء أي: هلّا تسجدون لله، على الخطاب.

١ـ بحار الأنوار، ج ٦١، ص ٢٢.

﴿ٱلَّذِى يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ والخبء المخبوء وهو كلّ ما غاب عن الإدراك وما يوجده اللّه فيخرجه من العدم إلى الوجود، وقيل: المراد من خبء السماوات المطر ومن خبء الأرض النبات وهو يتناول جميع أنواع الأرزاق والأشياء حتّى النطفة في الأصلاب ويعمّ إشراق الشمس بعد استتارها. وفي الآية دلالة على الردّ فيمن يعبد الشمس لأنّها ليست كذلك فليست قابلة للمعبوديّة والإلهيّة لأنّ الإله هو القادر على إخراج الخبء وعالما بالخفيّات والشمس جسم متناه في الذات وكلّما كان متناه في الذات متناه في الصفات.

وذكر القرّاء أنّ قراءة ﴿أَلَا يَسۡجُدُواْ﴾ بالتشديد لا يوجب سجدة التلاوة. قال الطبرسيّ: وهذا غير صحيح لأنّ الكلام قد تضمّن الذّم على ترك السجود فيكون فيه دلالة على وجوب السجود لأنّه كقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾[1].

وهذا الكلام قيل من اللّه اعترض في الكلام، وقيل: إنّه من كلام الهدهد قاله لقوم بلقيس حين وجدهم يسجدون لغير اللّه. وقيل: قاله سليمان عند عود الهدهد إليه استنكاراً لما وجدهم عليه.

قال الرازيّ: وعلى القراءتين أي: تشديداً وتخفيفاً فالسجدة في الآية واجبة خلافا للزجّاج حيث إنّه يقول في وجوب السجدة على قراءة التخفيف دون التشديد. وقال الرازيّ: إنّ أصحابنا اتّفقوا على أنّ سجدات القرآن أربع عشرة سجدة وهذا واحد منها ولأنّ مواضع السجدة إمّا أمر بها أو مدح لمن أتى بها أو ذمّ لمن تركها وعلى هذه الصورة إحدى القراءتين أمر بالسجود والاخرى ذمّ للتارك.

١ـ سورة الفرقان: ٦٠.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: يعلم السرّ والعلانية ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ إلى هاهنا تمام الحكاية لما قاله الهدهد، ويحتمل أن يكون أول إخبار الله تعالى، والعرش سرير الملك الّذي عظّمه الله ورفعه فوق السماوات السبع وجعل الملائكة تحفّ به وترفع أعمال العباد إليه وتنشأ البركات من جهته فهو عظيم الشأن وهو أعظم خلق الله.

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

لمّا سمع سليمان ما اعتذر به الهدهد قال عند ذلك: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ في قولك الّذي أخبرتنا به ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ثمّ كتب سليمان كتاباً وختمه بخاتمه ودفعه إليه فذلك قوله تعالى: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: أهل سبأ ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: استتر عنهم قريباً منهم بعد إلقاء الكتاب إليهم ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: ما يردّون من الجواب، وفي الكلام حذف تقديره: فمضى الهدهد بالكتاب وألقاه إليهم.

قال قتادة: أتى الهدهد إلى بلقيس فوجدها نائمة مستلقية على قفاها فألقى الكتاب على نحرها وكانت لها كوّة مستقبلة للشمس تقع الشمس عند ما تطلع فيها فإذا نظرت إليها سجدت فجاء الهدهد إلى الكوّة سدّها بجناحه فارتفعت الشمس ولم تعلم فقامت تنظر فرمى الكتاب إليها فلمّا أخذت الكتاب جمعت الأشراف وهم يومئذ ثلاثمائة واثنا عشر قيلاً فقالت لهم: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ وإنّما سمّته كريماً لأنه كان مختوماً ويؤيّد هذا المعنى الحديث حيث يقول: إكرام الكتاب ختمه. وقيل: وصفته بالكريم لأنه صدّره

بسم الله الرحمن الرحيم. وقيل: لحسن خطّه وجودة لفظه وبيانه. وقيل: لأنّه عن من يملك الإنس والجنّ والطير وقد كانت سمعت بخبر سليمان[1]. ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾ أي: إنّ الكتاب من سليمان ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإنّ الكتاب مكتوب فيه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ و«أن» في هذا الموضع بمعنى أي: نحو قوله: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا﴾ أي: امشوا والحاصل أي: لا تترفّعوا ولا تتكبّروا عليّ وأتوني منقادين طائعين أو مسلمين مؤمنين بالله وكذا كانت عادة الأنبياء كتبهم موجزة مقصورة على الدعوة إلى الله من غير بسط.

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾

المعنى: ولمّا وقفت بلقيس على كتاب سليمان قالت لأشراف قومها: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أي: أشيروا عليّ وأظهروا لي الحكم فجعلت المشورة هنا فتيا ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ تحضروني أي: إلّا بحضرتكم ومشورتكم ﴿قَالُوا﴾ لها في الجواب عن ذلك: ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ﴾ وأصحاب قدرة وأهل عدد ﴿وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: نحن ذو شجاعة شديدة

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٣٧٨. وأيضاً رواه المجلسي في البحار، ج١٤، ص١١٨.

﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ مفوّض في القتال وغيره ﴿فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي: ما الّذي تأمريننا به لنمتثله.

﴿قَالَتْ﴾ مجيبة لهم عن التعريض بالقتال: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ أي: إذا دخلوها عنوة وغلبة خربوها وأهلكوها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أي: أهانوا أشرافها وكبراءها كي يستقيم لهم الأمر وحذّرتهم مسير سليمان إليهم ودخوله بلادهم يصدّق الله سبحانه كلامها بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وقيل: الكلام متّصل بعضه ببعض وهو من كلامها.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: باعثة إلى سليمان وقومه بهديّة أصانعه بذلك عن ملكي فمنتظرة بم يرجع المرسلون بقبول أم ردّ، وإنّما فعلت ذلك لعادة الملوك في حسن موقع الهدايا عندهم وكان غرضها أن يتبيّن لها بذلك أنّه ملك أو نبيّ فإن قبل الهديّة تبيّن أنّه ملك وإن ردّها فتبيّن أنّه نبيّ. واختلف في الهديّة فقيل: أهدت إليه وصفاء ووصائف ألبستهم لباساً واحداً حتّى لا يعرف ذكر من أنثى عن ابن عبّاس. وقيل: أهدت مأتي غلام ومائتي جارية ألبست الغلمان لباس الجواري والجواري لباس الغلمان وأهدت إليه صفائح الذهب في أوعية من الديباج.

فلمّا بلغ ذلك سليمان أمر الجنّ أن يموّهوا له الآجرّ بالذهب ثمّ أمر به فالقي في الطريق فلمّا جاءوا رأوه ملقى في الطريق في كلّ مكان فلمّا رأوا ذلك صغر في أعينهم ما جاءوا به، عن ثابت البنانيّ.

وقيل: إنّها عمدت إلى خمس مائة غلام وخمسمائة جارية فألبست الجواري الأقبية والمناطق وألبست الغلمان في سواعدهم أساور من ذهب مرصّع وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب بالجواهر وفي آذانهم أقراطاً وحملت الجواري على خمسمائة رمكة والغلمان على البرازين وعلى كلّ فرس لجام

من ذهب مرصّع بالجواهر وبعث إليه خمسمائة ألبسة من ذهب وكذلك من الفضّة وتاجاً مكلّلاً بالجواهر وعمدت إلى حقّة فجعلت فيها درّة يتيمة غير مثقوبة وخرزة مثقوبة معوّجة الثقب وودعت رجلاً من أشراف قومها اسمه المنذر بن عمرو وضمّت إليه رجالاً من قومها أصحاب عقل ورأي وكتبت إليه كتاباً نسخة الهديّة وقالت: إن كنت نبيّاً فميّز بين الوصفاء والوصائف وأخبر بما في الحقّة قبل أن تفتحها واثقب الدّرة ثقبا مستوياً وأدخل الخرزة خيطاً من غير علاج إنس ولا جنّ. وقالت للرسول: انظر إليه إن دخلت عليه فإن نظر إليك نظر غضب فاعلم أنّه ملك فلا يهولنّك أمر فإنّا أعزّ منه، وإن نظر إليك نظر لطف فاعلم أنّه نبيّ مرسل.

فانطلق الرسول بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان وأخبره الخبر فأمر سليمان الجنّ أن يضربوا لبنات[1] الذهب والفضّة وأن يجعلوها حول الميدان حائطاً من الذهب والفضّة ففعلوا، ثمّ أمرهم أن يبسطوا من موضعه الّذي هو فيه إلى بضع فراسخ ميداناً واحداً بلبنات الذهب والفضّة، ثمّ قال للجنّ: عليّ بأولادكم فاجتمع خلق كثير فأقامهم على يمين الميدان ويساره ثمّ قعد سليمان في مجلسه على سرير ووضع له أربعة آلاف كرسيّ عن يمينه ومثله عن يساره وأمر الشياطين أن يصفّوا صفوفاً فراسخ وأمر الوحوش والسباع والهوامّ والطير فاصطفّوا فراسخ عن يمينه وشماله.

فلمّا دنا القوم من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان فتقاصرت أنفسهم ورموا بما معهم من الهدايا فلمّا وقفوا بين يدي سليمان نظر إليهم نظرا حسنا بوجه طلق وقال: ما وراءكم؟ فأخبره رئيس القوم بما جاءوا له وأعطاه كتاب الملكة فنظر إليه وقال: أين الحقّة فاتي بها فحرّكها وجاءه جبرئيل فأخبره بما

١ـ جمع لبنة: المضروب من الطين مربعاً للبناء.

في الحقّة فقال: إنّ فيها درّة غير مثقوبة وخرزة مثقوبة معوجّة الثقب فقال الرسول: صدقت فاثقب الدرّة وأدخل الخيط في الخرزة فأرسل سليمان إلى الأرضة فجاءت فأخذت شعرة في فيها ودخلت الثقب حتّى خرجت من الجانب الآخر ثمّ قال سليمان: من لهذه الخرزة يسلكها الخيط فقالت دودة بيضاء: أنا لها فأخذت الدودة الخيط ودخل في الثقب وخرج من الجانب الآخر. ثمّ ميّز بين الجواري والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فكانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثمّ تجعله على اليد الآخر ثمّ تضرب به في الوجه، والغلام كان يأخذ من الآنية يضرب به وجهه وكانت الجارية تصبّ على باطن ساعدها والغلام على ظهر الساعد وكانت الجارية تصبّ الماء صبّاً وكان الغلام يحدر الماء على يده حدرا فميّز بينهنّ بذلك هذا كلّه مرويّ عن وهب وغيره.

وقيل: إنّها أنفذت مع الهدايا عصا كان يتوارثها ملوك حمير وقالت: أريد أن تعرّفني رأسها من أسفلها، وبقدح وقالت: تملؤه ماء ليس من الأرض ولا من السماء فأرسل سليمان العصا إلى الهواء وقال: أي: الرأسين سبق إلى الأرض فهو أصلها وأمر بالخيل فأجريت حتّى عرقت وملأ القدح من عرقها.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ فلمّا جاء الرسول سليمان بالهدايا ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أي: تزيدونني مالا؟ وهذا استفهام إنكار ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي: ما أعطاني الله من الملك والنبوّة والحكمة خير ممّا أعطاكم من الدنيا وأموالها ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ إذا هدى بعضكم إلى بعضكم وأمّا أنا فلا أفرح بها، إشارة إلى قلّة اكتراثه بأموال الدنيا.

ثمّ قال للرسول ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ بما جئت به من الهدايا ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لا قدرة لهم على دفعها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً﴾ أي: من تلك

المملكة ومن أرضها وملكها ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ ذليلون صغيروا القدر إن لم يأتوني مسلمين. فلمّا ردّ سليمان الهديّة وميّز بين الغلمان والجواري إلى غير ذلك علموا أنّه نبيّ مرسل وأنّه ليس كالملوك الّذين يغترّون بالمال.

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

القصة: فلمّا رجع الرسول وعرّفها أنّه نبيّ وأنّها لا تقاومه فتجهّزت للمسير إليه وأخبر جبرئيل سليمان أنّها خرجت من اليمن مقبلة إليه فقال سليمان لأماثل جنده وأشراف عسكره: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾؟ يعني: آتوني بعرشها، واختلف في السبب الّذي خصّ به العرش بالطلب فقيل: أراد أن يختبر عقلها ويختبر فطنتها هل تعرفه أو تنكره؟ وقيل: أراد أن يجعل ذلك دليلاً ومعجزة على صدق نبوّته لأنّها خلّفته في دارها ووكّلت به ثقات قومها يحرسونه ويحفظونه. وقال ابن عبّاس: كان سليمان رجلاً مهيباً لا يبتدأ بكلام حتّى يكون هو الّذي يسأل عنه فخرج يوماً

فجلس على سريره فرأى رهجاً قريباً منه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: يا رسول الله بلقيس وقد نزلت منّا بهذا المكان وكان ما بين الحيرة والكوفة على قدر فرسخ فقال: أيّكم يأتيني بعرشها.

وفي قوله: ﴿مُسْلِمِينَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه أراد مؤمنين موحّدين أو مستسلمين منقادين[1].

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي: مارد قويّ داهية: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: من مجلسك الّذي تقضي فيه ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ أي: على حمله لقويّ وعلى الإتيان به وفي هذه المدّة قادر وعلى ما فيه من الذهب والجواهر أمين، وفي هذا دلالة على أنّ الاستطاعة والقدرة قبل الفعل لأنّه أخبر بأنّه قويّ عليه قبل أن يجيء به، وكان سليمان يجلس في مجلسه للقضاء غدوة إلى نصف النهار.

فقال سليمان: أريد أسرع من ذلك فعند ذلك ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وهو آصف بن برخيا وكان ابن أخت سليمان ووزيره وكان صدّيقاً يعرف اسم الله الأعظم الّذي إذا دعي به أجاب. وقيل: إنّ ذلك الاسم «الله» والّذي يليه «الرحمن». وقيل: هو «يا حيّ يا قيّوم» وبالعبرانيّة «آهيا شراهيا». وقيل: هو «يا ذا الجلال والإكرام». وقيل: إنّه قال: «يا إلهنا وإله كلّ شيء إلهاً واحداً لا إله إلّا أنت».

وفي «البصائر» و«الكافي» عن الباقر عليه السلام: «**إنّ اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً وإنّما كان عند آصف بن برخيا حرف واحد فتكلّم به فخسف به الأرض ما بينه وبين سرير بلقيس حتّى تناول السرير بيده ثمّ عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين، وعندنا نحن من الاسم الأعظم اثنان وسبعون حرفاً وحرف عند الله**

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٣٨٤.

استأثر به في علم الغيب عنده ولا حول ولا قوّة بالله العليّ العظيم»[١].

وفي رواية أخرى في «الكافي» عن الهادي عليه السلام قال: «فتكلّم به فانخرقت له الأرض فيما بينه وبين سبأ فتناول عرش بلقيس حتّى صيّره إلى سليمان ثمّ انبسطت الأرض في أقلّ من طرفة عين»[٢] وقال عليه السلام: «ولم يعجز سليمان عليه السلام عن معرفة ما عرف آصف لكنّه أحبّ أن يعرف الجنّ والإنس أنّه الحجّة بعده»[٣].

وقيل: إنّ الّذي عنده علم من الكتاب هو جبرئيل أذن اللّه له في طاعة سليمان بأن يأتيه بالعرش الّذي طلبه. وقيل: هو سليمان قال ذلك للعفريت ليريه نعمة ربّه، وهذا قول بعيد لم يؤثر عن أهل التفسير. والكتاب قيل: إنّه اللوح المحفوظ. وقيل: المراد الجنس من كتب اللّه المنزلة على أنبيائه وليس المراد به كتاباً بعينه والجنس قد يعرّف بالألف والّام.

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ اختلف في معناه فقيل: يريد قبل أن يصل من كان منك على قدر مدّ البصر. وقيل: معناه: قبل أن يبلغ طرفك مداه وغايته ويرجع إليك. وقال سعيد بن جبير: قال لسليمان: انظر إلى السماء فما طرف حتّى جاء به فوضعه بين يديه والمعنى: حتّى يرتدّ إليك طرفك بعد مدّه إلى السماء. وقيل: معنى ارتداد الطرف إدامة النظر حتّى يرتدّ طرفه خاسئاً. فعلى هذا معناه: أنّ سليمان مدّ بصره إلى أقصاه وهو يديم النظر فقبل أن ينقلب بصره إليه حسيراً يكون قد أتي بالعرش.

وذكر العلماء في ذلك وجوهاً: أحدها: أنّ الملائكة حملته بأمر اللّه، والثاني: أنّ الريح حملته، والثالث: أنّ اللّه خلق فيه حركات متوالية، والرابع:

١ـ بصائر الدرجات، ص٢٢٨.

٢ـ الكافي، ج ١، ص ٢٣٠.

٣ـ تحفت العقول، ص٤٧٨؛ والاختصاص، للمفيد، ص٩٣.

أنّه انخرق في مكانه حيث هو هناك ثمّ تبع بين يدي سليمان، والخامس: أنّ الأرض طويت له، وهو المرويّ عن الصادق عليه السلام[1]. والسادس: أنّه أعدمه الله في موضعه وأعاده في مجلس سليمان، وهذا لا يصحّ على مذهب أبي هاشم ويصحّ على مذهب أبي عليّ الجبّائيّ فإنّه يجوز فناء بعض الأجسام دون بعض.

﴿فَلَمَّا﴾ حضر العرش و﴿رَءَاهُ﴾ سليمان ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ أي: هذا من نعمته وإحسانه عليّ بتيسّره وتسخيره مع صعوبته ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ ليخبرني هل أقوم بشكر هذه النعمة أم أكفر بها ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنّ عائد شكره له دون غيره ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ غنيّ عن شكر العباد، متفضّل عليهم شاكرهم وكافرهم، عاصيهم ومطيعهم.

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ قال سليمان: غيّروا سريرها إلى حال تنكرها إذا رأته، وأراد بذلك اعتبار عقلها لـ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: أتهتدي إلى معرفة عرشها بعد التغيّر أم لا تهتدي إلى ذلك. وقيل: المعنى: أتستدلّ بعرشها على قدرة الله وصحّة نبوّته وتهتدي إلى طريق الإيمان والتوحيد أم لا، وغيّروه فما كان على العرش من الجواهر والفصوص أحمر جعلوا مكانه أخضر وما كان أخضر جعلوا مكانه أحمر وزيد ونقص فيه.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ فلم تثبته ولم تنكره وذلك لعقلها وجودة ذهنها حيث لم تقل: لا، إذ كان يشبه سريرها، ولم تقل: نعم، إذ وجدت فيه ما غيّر ولأنّها خلّفته في بيتها وحمله في تلك المدّة إلى ذلك الموضع غير داخل في قدرة البشر وكانت خلّفته وراء سبعة أبواب لمّا خرجت.

ثمّ قالت: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ بصحّة نبوّة سليمان ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ أي: من قبل الآية في العرش ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ طائعين لأمر سليمان، وقيل: إنّه من كلام

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٣٨٦.

سليمان يعني: وأوتينا العلم بالله وقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرة وكنّا مخلصين لله. وقيل: وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ومنعها عبادة الشمس عن الإيمان بالله. وقيل: معناه: وصدّها سليمان عمّا كان تعبدها دون الله ومنعها عنها ثمّ استأنف فقال: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ أي: من عبدة الشمس قد كبرت ونشأت فيهم فلم تعرف إلّا عبادة الشمس. ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾.

وذلك أنّ سليمان لمّا أقبلت صاحبة السبأ أمر الشياطين ببناء الصرح وهو كهيئة السطح من قوارير اجري تحته الماء وجمع في الماء الحيتان والضفادع ودوابّ البحر ثمّ وضع له فيه سرير فجلس عليه، وقيل: إنّه قصر من زجاج كلّه كأنّه الماء بياضاً، وكلّ بناء من زجاج أو صخر أملس موثّق فهو صرح، وإنّما أمر سليمان بالصرح لأنّه أراد أن يختبر عقلها لأنّ الجنّ والشياطين خافت أن يتزوّجها سليمان فلا ينفكّون من تسخير ذريّة سليمان بعده لو تزوّجها وذلك لأنّ أمّها على ما قالوا كانت جنّيّة فأساءوا الثناء عليها عند سليمان لأن لا يميل سليمان إليها وقالوا لسليمان: إنّ في عقلها شيئاً وإنّ رجلها كحافر الحمار ولذلك قال سليمان لها: ادخلي الصرح.

وقيل: ذكر لسليمان أنّ على رجليها شعراً. ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ أي: رأت بلقيس الصرح ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ واللجّة معظم الماء ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لدخول الماء، وقيل: إنّها لمّا رأت الصرح قالت: ما وجد ابن داود عذاباً يقتلني به إلّا الغرق وأنفت أن ينسب إليها الجبن ولم يكن من عادتهم لبس الخفاف، فلمّا كشفت عن ساقيها ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ قال لها سليمان: إنّه قصر مملّس من قوارير وليس بماء ولمّا رأت سرير سليمان والصرح ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقيل: إنّها لمّا جلست دعاها سليمان إلى الإسلام فأجابته وأسلمت لمّا رأت من الآيات، واختلف في أمرها بعد ذلك فقيل: إنّه تزوّجها وأقرّها على ملكها. وقيل: إنّه زوّجها من ملك يقال له تبّع وردّها إلى أرضها وأمر ذريعة أمير الجنّ باليمن أن يعمل لها ويطيعها وصنع لها الصنائع أو المصانع باليمن. وقيل: إنّ سليمان قال لها: اختاري من قومك من ازوّجك منه، فقالت: مثلي لا ينكح الرجال مع سلطاني، فقال: النكاح من الإسلام، فقالت: إن كان كذلك فزوّجني ذا تبّع ملك اليمن فزوّجها إيّاه. ومن قال: إنّ سليمان تزوّجها ليس له سند صحيح وذكر في الكتاب ولا في خبر مقطوع بصحّته.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ
يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا
تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ
طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ
يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ
وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾
وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ
بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾
وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

المعنى: ثمّ عطف سبحانه على قصّة سليمان قصّة صالح فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: أمرناه بأن يأمرهم أن يعبدوا الله وحده ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: مؤمنون

وكافرون يقول كلّ فريق: الحقّ معي.

﴿قَالَ﴾ صالح للفريق المكذّب ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعذاب قبل الرحمة أي: لم قلتم: إن كان ما آتيتنا به حقّاً فائتنا بالعذاب، وسمّي العذاب سيّئة لما فيه من الآلام ولأنّه جزاء على السيّئة لأنّ السيّئة هي الخصلة الّتي تسوء صاحبها ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: هلّا تطلبون مغفرته من الشرك بأن تؤمنوا ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فلا تعذّبون في الدنيا، وذلك أنّ صالحاً لمّا رأى أنّ قومه كذّبوه فوعدهم بالعذاب فقالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1] على وجه الاستهزاء فجاوبهم صالح بهذا القول وهو قوله: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ وقال: هلّا تستغفرون اللّه قبل نزول العذاب واستعجال الخير أولى من استعجال الشرّ.

ولمّا قرّر صالح هذا الكلام أجابوه بكلام فاسد وهو قولهم: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: تشأمنا بك يعني: الّذي يصيبنا من الشدائد أو القحط فهو لشؤمك وبشؤم من معك، وإنّما استعير الشؤم بلفظ الطير لأنّ الرجل يخرج مسافراً فيمرّ بطائر فيزجره فإن مرّ صالح تيمّن وإن مرّ طالح تشأم فلمّا نسبوا الخير والشرّ إلى الطائر استعير لما كان للخير والشرّ.

فأجاب صالح: فـ ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي: السبب الّذي يجيء منه نفعكم وضرّكم عند اللّه إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم. ثمّ قال: ﴿أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ فيحتمل أنّ غيرهم دعاهم إلى هذا القول ويحتمل أن يكون مراده أنّ الشيطان أوقعكم في الفتنة بوسوسته، وذلك أنّ قوم صالح أصابهم قحط المطر وجاعوا ولهذا اطّيّروا به. وقيل: معنى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تبتلون بالطاعة والمعصية وتختبرون بالخير والشرّ.

١ـ سورة العنكبوت: ٢٩.

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ الّتي بها صالح وهي الحجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والمراد من الرهط الجمع إذ المتبادر من الرهط الجماعة لا الواحد ويمكن المراد من الرهط النفر الواحد لكنهم من قبائل متعدّدة، ودخلوا تحت العدد لاختلاف أحوالهم وطوائفهم فبيّن سبحانه أنّهم يفسدون في الأرض ولا يخلطون بفسادهم صلاح، وهم غواة قوم صالح وهم الّذين سعوا في عقر الناقة ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ولا يطيعون اللّه، وذكر ابن عبّاس أسماءهم وهم قدار بن سالف ومصدع ودهمي ودهيم ودعمي ودعيم وأسلم وقتال وصداف.

﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: قالوا فيما بينهم: أحلفوا باللّه على معنى الأمريّة أو على معنى الخبريّة ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ أي: لنقتلنّ صالحاً وأهله بياتاً ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لرحمه وصاحب دمه إن سالنا عنه: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي: ما حضرنا هلاكهم أو وقت هلاكهم أو مكان هلاكهم فضلاً أن نتولّى أهلاكهم، ومقصودهم إنّا ما كنّا شاهدين بل كنّا مباشرين مثل ولك: ما رأيت رجلاً ثمّة بل رجلين ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ وعزموا على هذا الأمر والمكر ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ أي: جازيناهم جزاء على مكرهم بتعجيل عقوبتهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمكر اللّه لهم فإنّهم دخلوا على صالح عليه السلام ليقتلوه وقالوا: زعم صالح إنّه يفرغ منّا إلى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا إلى الشعب وقالوا: إذا جاء يصلّي قتلناه ثمّ رجعنا إلى أهله فقتلناهم. فبعث اللّه صخرة فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب وهلكوا وهلك الباقون بالصيحة وشبّه سبحانه فعله بهم بمكر الماكر على سبيل الاستعارة. وقيل: جاءوا بالليل شاهرين سيوفهم فأرسل اللّه الملائكة ملء دار صالح فدفعوهم بالحجارة يرون الأحجار ولا يرون رامياً فذاك مكر اللّه. وقيل: إنّ اللّه أخبر صالحاً بمكرهم فتحرّز عنهم فذاك مكر اللّه في حقّهم.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكان عاقبة أمرهم أنّا أهلكناهم وقومهم بصيحة جبرئيل ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ فانظر إليها فارغة خالية ﴿خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ بسبب ظلمهم وشركهم بالله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في أهلاكهم ﴿لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لعبرة لمن اعتبر بها وهذه البيوت بوادي القرى بين المدينة والشام.

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ قالوا: إنّهم أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حضرموت وسمّيت حضرموت لأنّ صالحاً لمّا دخلها مات.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

وَ اذكر ﴿لُوطًا﴾ وأرسلنا لوطاً، قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ على وجه التنكير وإن كان بلفظ الاستفهام أبلغ، قوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ لأنهم ما كانوا يتحاشون من إظهار هذا الأمر القبيح ولا يتكاتمون أو المراد بصر القلب أي: تعلمون أنها قبيحة ولم يسبقكم أحد في هذا الأمر القبيح وإنّ الله لم يخلق الذكر للذكر فهي مضادة لله في حكمته.

ثمّ بيّن الفاحشة الّتي يأتونها فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: تفعلون أفعال الجهّال من عاقبة العصيان ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ

﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ عن إتيان الرجال في أدبارهم، وإنّما قالوا ذلك على وجه الهزء.

ثمّ بيّن سبحانه أنّه ينجّي لوطاً وأهله إلّا امرأته وأهلك الباقين بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا﴾ أي: جعلناها ﴿مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ فهو الحجارة ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: الّذين أبلغهم لوط النذارة وأعلمهم بموضع المخافة ليتّقوها فخالفوا وقد تقدّم شرح عذابهم.

﴿قُلِ﴾ يا محمّد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكراً على نعمه بأن وفّقنا للإيمان، وقيل: الحمد للّه على هلاك الأمم الكافرة ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ اصطفاهم اللّه واجتباهم على بريّته. وقيل: هم آل محمّدﷺ ومعنى السلام عليهم أنّهم سلموا ممّا عذّب اللّه به الكفّار.

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ مخاطباً للمشركين من أهل مكّة وعبدة الأصنام وهذا إلزام الحجّة على المشركين بعد ذكر هلاك أولئك الفسقة بأنّ اللّه ينجّي عابديه من الهلاك والأصنام لم تغن شيئاً من عابديها عند نزول العذاب.

أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ
حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ
بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا
وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ
وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾
أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ
يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟

ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٦٤) قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)

المعنى: ولمّا أمر سبحانه محمّداً بالحمد والشكر لربّه في مقابلة هذه النعمة أنّ اللّه لم يعذّب قومه كعذاب سائر الأمم وأنّ عذاب الاستيصال مرتفع عن قومه وبكت المشركين بأنّهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة اللّه وهو الخالق لأصول النعم وفروعها ومع هذا كيف تحسن عبادة ما لا منفعة منه؟

فذكر أنواعا من النعم فبيّن أنّه الّذي اختصّ بأن خلق السماوات والأرض وجعل السماء مكاناً للماء والأرض للنبات وما يتحصّل منها من الحدائق البهجة المونقة ولا يقدر على هذا الإنبات والإيجاد إلّا اللّه فالمختصّ بهذه الخلقة وهذا الأنعام يجب أن يختصّ بالعبادة دون غيره وهذا معنى قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ و«أم» متّصلة في صدر الآية، ومع ذلك ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ عن هذا الحقّ الظاهر، وقيل: معناه: يعدلون باللّه سواه. وإنّما أتى بضمير الالتفات في قوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾ لئلّا يتوهّم أنّ ملقي البذر هو منبت الشجرة، تقول: أنا منبت الشجرة حيث أسقيها واربّيها وأسعى في تشمّسها، وفاعل السبب فاعل للمسبّب فإذن أنا القائم بالأمر فقال سبحانه: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ فلهذه النكتة حسن الالتفات.

النوع الثاني: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ وذلك أنّه دحاها وسوّاها للاستقرار وجعلها متوسّطة في الصلابة والرخاوة فليست في الصلابة كالحجر الّذي يتألّم الإنسان بالاضطجاع عليها وليست في الرخاوة

كالماء الّذي يغوص فيه. والثالث: جعلها كثيفة غبراء ليستقرّ عليها النور ولو كانت لطيفة لما استقرّ النور عليها ولو لم يستقرّ النور عليها لصارت من شدّة بردها بحيث تموت الحيوانات. الرابع: أنّه جعل الشمس بسبب ميل مدارها عن مدار منطقة الكلّ بحيث تبعد تارة وتقرب أخرى من سمت الرأس ولو لا ذلك لما اختلف الفصول ولما حصلت المنافع الأرضيّة من الربيعيّة والصيفيّة والخريفيّة والشتائيّة. والخامس: أنّه سبحانه جعل الأرض ساكنة فإنّها لو كانت متحرّكة لم يحصل الانتفاع بالسكنى عليها. السادس: يطرح عليها كلّ قبيح ويخرج منها كلّ مليح. ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ وجعل في الأرض أنهاراً.

اعلم أنّ المياه المنبعثة عن الأرض أربعة: الأول: ماء العيون السيّالة وهي تنبعث من أبخرة كثيرة المادّة قويّة الاندفاع تفجر الأرض بقوّة ثمّ لا يزال يستتبع جزء منها جزءاً. الثاني: ماء العيون الراكدة وهي تحدث من أبخرة بلغت من قوّتها أن اندفعت إلى وجه الأرض ولم تبلغ من قوّتها وكثرة مادّتها أن يطرد تاليها سابقها. الثالث: مياه القنى والأنهار وهي متولّدة عن أبخرة ناقصة القوّة عن أن تنشقّ الأرض فإذا ازيل عن وجهها ثقل التراب صادفت حينئذ تلك الأبخرة منفذاً تندفع إليه بأدنى حركة. الرابع: مياه الآبار وهي نبعيّة كمياه الأنهار إلّا أنّه راكد وليس له ميل إلى موضع يسيل إليه ونسبة القنى إلى الآبار نسبة العيون السيّالة إلى العيون الراكدة فلو لا صلابة الأرض لما اجتمعت الأبخرة في باطن الأرض ولو لا اجتماع الأبخرة في باطنها لما حدثت هذه العيون في ظاهرها.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ هذه المنفعة الثالثة للأرض والمراد من الرواسي الجبال أثبتت بها الأرض لئلّا تميد وفيها منافع أخر من العيون والسحب والمعدنيّات أمّا العيون لأنّ الأرض إذا كانت رخوة نشفت الأبخرة عنها فلا

يجتمع قدر يعتدّ به فالأبخرة النافعة لا تجتمع إلّا في الأرض الصلبة والجبال أصلب الأرض فلا جرم كانت أقواها على حبس هذا البخار حتّى يجتمع ما يصلح أن يكون مادّة للعيون فمستقرّ الجبل أملأ ماء ويكون الجبل في حقن الأبخرة مثل الأنبيق الصلب المعدّ للتقطير ويمنع تحليل البخار بصلابته والأرض الّتي تحت الجبل كالقرعة والعيون كالأذناب والبخار كالمادّة ولذلك ترى أكثر العيون يتفجّر من الجبال وأقلّها في البراريّ وذلك الأقلّ لا يكون إلّا إذا كانت الأرض صلبة بالنسبة وأمّا أنّ أكثر السحب تكون في الجبال لأنّ في باطن الجبال من النداوات ما لا يكون في باطن الأرضين الرخوة وأنّ الجبال بسبب ارتفاعها أبرد فلا جرم يبقى على ظاهرها من الأنداء والثلوج ما لا يبقى على سائر الأرضين والسبب المحلّل وهو الحرّ أقلّ فلذلك أثر السحاب في الجبال أكثر.

المنفعة الرابعة للأرض قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ المراد أن لا يفسد بالاتّصال كالمؤمن في قلبه بحران بحر الإيمان والحكمة وبحر الطغيان والشهوة وهو بتوفيقه جعل بينهما حاجزاً لكي لا يفسد أحدهما بالآخر.

قال بعض أهل المعرفة في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾[١] قال: عند عدم البغي ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[٢] يخرج ويظهر الإيمان والشكر في القلب فإن قيل: لم جعل البحر ملحاً قلنا لو لا ملوحته لأجَ وانتشر فساد أجوجته في الأرض وأحدث الوبا العامّ فلمّا بيّن أنّه المختصّ بالقدرة على خلق الأرض الّتي فيها مثل هذه المنافع العظيمة وجب أن يكون هو المختصّ بالإلهيّة والمعبوديّة.

١ـ سورة الرحمن: ١٩، ٢٢.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولا يشعرون بالذهاب والتعمّق في هذه الأمور.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ والاضطرار الحالة المحوجة إلى الالتجاء وهو الّذي أحوجه أمر أو نازلة من نوازل الدهر أو مرض أو فقر إلى التضرّع إلى اللّه لدفعه.

وقيل: الّذي لا حول ولا قوّة له. وقيل: المذنب إذا استغفر.

فإن قيل: قد عمّ المضطرّين بهذا القول وكم من مضطرّ يدعو فلا يجاب له؟ فجوابه قد ذكر في أصول الفقه أنّ المفرد المعرّف لا يفيد العموم وإنّما يفيد الماهيّة فقط والحكم المثبت للماهيّة يكفي في صدقه ثبوته في فرد من أفراد الماهيّة على أنّه تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر أنّه يستجيب في الحال.

وأمّا قوله: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ فهو كالتفسير للاستجابة فإنّه لا يقدر على كشفه إلّا القادر الّذي لا يعجزه أمر.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ يخلف كلّ قرن منكم القرن الّذي قبله فيهلك قرناً وينشئ قرناً. وقيل: يجعلكم خلفاء من الكفّار بنزول بلادهم وطاعة اللّه تعالى بعد شركهم ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قليلاً ما تتّعظون، و«ما» زائدة للتأكيد.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: أم من يرشدكم إلى القصد والسمت في البرّ والبحر بما نصب لكم من الدلالات والعلامات من الكواكب والقمر إذا ضللتم وجنّ عليكم اللّيل مسافرين في البرّ والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته؟ فإنّه سبحانه هو الّذي يحرّك الرياح فتثير السحاب ثمّ تسوقه إلى حيث يشاء.

فإن قيل: إنّ الفلاسفة قالت: الرياح إنّما يتولّد عن الدخان وليس

الدخان كلّه هو الجسم الأسود المرتفع ممّا احترق بالنار بل كلّ جسم أرضيّ يرتفع بتصعيد الحرارة سواء كانت الحرارة حرارة النار أو حرارة الشمس فهو دخان. وقالوا: وتولّد الرياح من الأدخنة بسبب صعود الأدخنة إلى فوق فعند وصولها إلى الطبقة الباردة ينكسر حرّها بسبب برد ذلك الهواء لا محالة فينزل فيحصل من نزولها تموّج الهواء فتحدث الريح وربّما أو جبت هيئة صعود تلك الأدخنة من تحت مانعا للأدخنة النازلة من فوق إلى أن يغفل ذلك فلأجل هذا السبب يتحرك إلى سائر الجوانب فتحدث رياحاً متفرّقة[1].

واعلم أنّ أهل الإسلام أوردوا على فساد هذه العلّة وجوها: الأوّل: أنّ الأجزاء الدخانيّة أرضيّة فهي أثقل من الأجزاء البخاريّة المائيّة وأجزاء البخاريّة لمّا يبرد ينزل على الخطّ المستقيم مطرا فالدخان لمّا يبرد فلماذا لم ينزل على الخطّ المستقيم بل يذهب يمنة ويسرة؟

فإن قلت: لو لا مصادفة صعود بعض الأدخنة حين نزول الأدخنة النازلة من فوق كان يلزم أن ينزل إلى خطّ مستقيم ولكن هذا التصادف يذهب به يمنة ويسرة.

فالجواب أنّ حركة تلك الأجزاء إلى أسفل طبيعيّة وحركتها يمنة ويسرة عرضيّة، والطبيعيّة أقوى من العرضيّة. وإذا لم يكن طبيعيّة أقوى من العرضيّة فلا أقلّ من المساوات ثمّ إنّ الريح عند حركتها يمنة ويسرة ربّما تقوى على قلع الأشجار ورمي الجدار بل الجبال فتلك الأجزاء الدخانيّة عند ما تحرّكت حركتها الطبيعيّة الّتي وهي الحركة إلى السفل وجب أن تهدم السقوف ونحن نرى الغبار نزل من الهواء ولا يحسّ بنزوله من أن يهدم شيئاً فثبت فساد ما ذكروه في علّة الرياح.

١ـ تفسير الرازي، ج٢٤، ص٢٠٩.

على أنّه يقول هب إنّ الأمر كما ذكروه ولكنّ الأسباب الفاعليّة والقابليّة لها مخلوقة للّه فإنّه لو لا الشمس وتأثيرها في تصعيد الأبخرة والأدخنة ولو لا طبقات الهواء لما حدثت هذه الأمور ومعلوم أنّ من وضع أسبابا أدّت إلى منافع عجيبة وحكمة بالغة فذلك الواضع هو الّذي فعل تلك المنافع فهو الّذي يرسل الرياح والأمطار ويوجد بأمره ما يحتاج إليه خلقه فسبحان المتفرّد بالإيجاد ولا يشاركه أحد من العباد.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أمّن يبدأ ويخترع الخلق وينشئه على غير مثال واحتذاء ثمّ يميته فيعيده بعد الإماتة. فإن قيل: كيف يقال لهم: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وهم منكرون للإعادة؟ لأنّهم كانوا معترفين بالابتداء ودلالة الابتداء على الإعادة دلالة قويّة.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ مع أنّه أنشاكم وما أنشاكم غيره ورزقكم من السماء والأرض قل لهم إذا كان لكم في شريكي برهان: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ لمّا بيّن أنّه المختصّ بالقدرة والإيجاد فكذلك بيّن أنّه المختصّ بعلم الغيب. فلو قيل: معنى الاستثناء أن يكون سبحانه من الّذين في السماوات والأرض وذلك يوجب كونه في المكان وهو منزّه عن مثل هذه الأمور بل معناه أنّه في كلّ مكان على أنّه محيط بكلّ مكان وعلمه في الأماكن كلّها لا أنّه متحيّز في مكان من السماوات والأرض.

قل يا محمّد: لا يعلم من في السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجنّ الغيب ـ والغيب ما هو غائب علمه عن الخلق ممّا يكون في المستقبل ـ إلّا اللّه وحده ومن أعلمه اللّه ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: ما يعلمون أهل السماوات ولا أهل الأرض أيّان أي: متى، وكلمة أيّان مركّبة

من أي: وأن وهو الوقت أي: أي: وقت يحشرون فصار علم الساعة علم الغيب.

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

وفي «اداّرك» لغات واللفظ بصيغة الماضي والمراد به الاستقبال أي: يتدارك علمهم ويستحكم ويتكامل علمهم وحاصل المعنى: أنه سيدرك علمهم في الآخرة بوقوع القيامة حين لا ينفعهم اليقين. وقيل: معناه: أدرك هذا العلم جميع العقلاء لو تفكّروا ونظروا لأنّ العقل يقتضي أنّ الإهمال قبيح فلابدّ من تكليف والتكليف يقتضي الجزاء وإذا لم يكن ذلك في الدنيا فلابدّ من دار الجزاء.

إنّ الآية إخبار عن ثلاث طوائف: طائفة أقرّت بالبعث، وطائفة شكّت فيه، وطائفة تفقّه كما قال سبحانه في الطائفة الشاكّة: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ وفي الثالثة: ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾.

وقيل: على كونهم موصوفين بتتابع العلم تهكّم بهم كما تقول لأجهل الناس: ما أعلمك! على سبيل الهزء وذلك حيث شكّوا في إثبات ما هو الطريق إليه واضح ظاهر، والمراد بالعمى عمى القلب وعمون جمع عمى لتركهم التدبّر والنظر.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ بإنكارهم البعث ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ فحكى الله سبحانه عنهم أنهم تعجّبوا من إخراجهم أحياء وقد صاروا تراباً وطعنوا بقولهم: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي: هذا كلام كما قيل لنا قيل لآبائنا من قبل أن يقال لنا ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ الكلام أي: ليس ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يريدون قصصاً غير صحيحة ﴿قُلْ ﴾ يا محمّد: ﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كيف أهلك الله المكذّبين بآياته وخرّب بلادهم وأبادهم.

قوله ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على تكذيبهم وتركهم الإيمان ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ﴾ وهو ما يضيق به الصدر ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: يدبّرون في أمرك بأنّ الله تعالى يحفظك وينصرك عليهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الّذي تعدنا يا محمّد من العذاب: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بأنّه يكون ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي: قرب لكم؟ فأجابهم الله عسى وقرب لكم ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ وهو عذاب يوم بدر، والّلام زائدة للتأكيد كالباء في ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾[1] أو ضمّن معنى فعل يتعدّى باللام نحو ودني لكم وأزف لكم ومعنى ردف لكم تبعكم ولحقكم، وعسى ولعلّ في وعد الملوك وعيدهم يدلّان على صدق الأمر وإنّما يعنون بذلك أظهار وقارهم ولأنّهم لا يعجلون بالانتقام لوثوقهم بأنّ الطلب من عدوّهم لا يفوتهم.

ثمّ إنّه سبحانه بيّن السبب في عدم تعجيل العذاب فقال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يتفضّل عليهم بتأخير العقوبة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ولا يعرفون هذه النعمة وهذه الآية تبطل قول القائل بأنّه لا نعمة لله على الكفّار.

١ـ سورة البقرة: ١٩٥.

ثمّ بيّن أنّه سبحانه مطّلع بما في قلوبهم فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وقدّم ما تكنّه لأنّ ما يكنّه الصدور هو الدواعي وأسباب ومعدّات لما يعلنون من أفعال الجوارح، والعلم بالعلّة علّة للعلم بالمعلول، وحاصل المعنى أنّه عالم بالظاهر والباطن بما يخفون من النفاق والكيد في حقّ النبيّ.

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ التاء في غائبة كالتاء في العافية والعاقبة والنطيحة والذبيحة في أنّها أسماء غير صفات ويجوز أن تكون تاؤها للمبالغة كالراوية مثل قولهم ويل للشعر من راوية السوء كأنّه قال سبحانه: وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء إلّا وعلمه اللّه وأحاط به وأثبته في اللوح المحفوظ، والمبين الظاهر البيّن لمن ينظر فيه من الملائكة.

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾

لمّا تمّ الكلام في المبدأ والمعاد شرع بما فيه إثبات للنبوّة ولمّا كانت العمدة في إثبات نبوّة محمّد ﷺ القرآن بيّن أنّ الأقاصيص المذكورة في

القرآن موافقة لما كانت مذكورة في التوراة والإنجيل[1] مع العلم بأنّه ﷺ كان امّيّاً ولم يخالط أحدا من العلماء ولم يشتغل بالاستفادة والتعلّم فإذن لا يكون ذلك إلّا من قبل الله و﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ﴾ مختلفاتهم من حديث مريم وعيسى والنبيّ المبشّر به في التوراة حيث قال بعضهم: هو يوشع، وقال بعضهم: لا، بل هو منتظر لم يأت بعد.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك لأنّه لمّا تأمّلنا القرآن فوجدنا فيه من الدلائل العقليّة على التوحيد والمعاد والنبوّة والشرائع الّتي موافقة لنظام العالم ومبرء عن شائبة الانتقاد والتصرّف بحيث لا يتمكّن أحد أن يقول: لو كان هذا الحكم الّذي في القرآن لو تبدّل بهذا الحكم لكان أحسن أو حسن وهذا معنى الهداية والرحمة والنعمة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ يريد بين المختلفين في الدين يوم القيامة فلو قيل: إنّ القضاء والحكم بمعنى واحد أي: قضاؤه بعد له لأنّ حكمه لا يقتضي إلّا العدل وقرئ بحكمه جمع حكمة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكلّ شيء.

ثمّ أمر نبيّه بعد ظهور نبوّته وإظهار حججه بأن يتوكّل على الله ولا يلتفت إلى أعداء الله فقال سبحانه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثمّ علّل ذلك أمرين: أحدهما: قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ﴾ الظاهر ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ ومن حقّ المحقّ التوكّل والانتظار لنصرة الله والثاني: قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لأنّهم لا يلتفتون إلى شيء من الدلائل ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ والأصمّ لا يسمع الدعوة. قوله: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ تأكيد لبيان حال الأصمّ لأنّه إذا تباعد عن الداعي بأن تولّى

١ـ بل هو الأصل القويم الذي يصحح هفوات الكتابيين به، فإن الموجود بيد أهل الكتاب لم يكن إلا المحرف الذي نسب فيه أشنع الاتهام إلى الأنبياء الكرام.

عنه مدبّراً كان أبعد عن إدراك صوته فحال أولئك مثل حال الميّت الأصم المدبر والحاصل أنّ إسماعك إيّاهم ما يجدي لهم نفعاً.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ في الدين بالآيات الدالّة على الهدى إذا أعرضوا عنها كما لا يمكنك أن تهدي الأعمى إلى قصد الطريق فجعل سبحانه الجهل بمنزلة العمى لأنّه يمنع عن إدراك الحقّ كما يمنع العمى عن إدراك المبصرات. ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: ما تسمع إلّا من يطلب الحقّ بالنظر في آياتنا فهم منقادون ومستسلمون.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: إذا وجب العذاب عليهم وذلك عند خروج القائم وأنّ نزول العذاب بهم عند اقتراب الساعة فيسمّى المقول قولاً كما يقال: جاء الخبير الّذي قلت ويراد به المخبر قال أبو سعيد الخدريّ وابن عمر: وذلك إذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم وأخذوا بمبادئ العذاب أخرجنا لهم دابّة من الأرض وذلك من أشراط الساعة يخرج بين الصفا والمروة فتخبر المؤمن بأنّه مؤمن والكافر بأنّه كافر وعند ذلك يرتفع التكليف ولا تقبل التوبة حينئذ. وقيل: لا يبقى مؤمن إلّا مسحته ولا يبقى منافق إلّا حطيّته يخرج ليلة جمعة والناس يسيرون إلى منى. وروى محمّد بن كعب القرطبيّ قال: سئل عليّ عليه السلام عن الدابّة فقال: «أما والله ما لها ذنب وإنّ لها اللحية»[1]. وفي هذا البيان إشارة إلى أنّها من الإنس.

وروي عن ابن عبّاس أنّها دابّة من دوابّ الأرض لها زغب[2] وريش ولها قوائم أربع. وعن حذيفة قال: دابّة الأرض ستّون ذراعاً لا تدركها طالب

١ـ تفسير القرطبي، ج ١٣، ص ٢٣٦.

٢ـ صغار الشعر والريش.

ولا يفوتها هارب فيتسم المؤمن بين عينيه ويكتب بين عينيه مؤمن وتسم الكافر بين عينيه كافر ومعها عصا موسى وخاتم سليمان فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتختم أنف الكافر بالخاتم حتّى يقال: يا مؤمن ويا كافر.

وروي عن النبي ﷺ: «أنه يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجاً بأقصى المدينة فيفشو ذكرها في البادية ولا يدخل ذكرها القرية يعني: مكّة ثمّ تمكث زماناً طويلاً ثمّ تخرج خرجة أخرى قريباً من مكّة فيفشو ذكرها في البادية ويدخل ذكرها القرية يعني: مكّة ثمّ سار الناس يوماً في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها على الله يعني: المسجد الحرام ولم ترعهم إلّا وهي من ناحية المسجد تدنو كذا وكذا ما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم فيرفض الناس عنها وثبت لها عصابة عرفوا أنهم لن يعجزوا الله فخرجت عليهم بنفض رأسها من التراب فمرّت بهم فجلت عن وجوههم حتى تركها كأنها الكوكب الدرّيّة ثمّ ولّت في الأرض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب حتى أنّ الرجل ليقوم فيتعوّذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فيقول: يا فلان الآن تصلّي؟ فيقبل عليها بوجهه فتسمه في وجهه»[1]. وقرئ تكلَمهم بغير التشديد من الكلم لا من الكلام بمعنى الجرح.

والقمّيّ عن الصادق عليه السلام ـ وهو أصحّ الأقوال ـ قال: «أتى رسول الله ﷺ إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو نائم في المسجد قد جمع رملا ووضع رأسه عليه فحرّكه ﷺ برجله ثمّ قال له: قم يا دابّة الأرض فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله أيسمّي بعضنا بعضاً بهذا الاسم فقال ﷺ: لا والله ما هو إلّا له خاصّة وهو دابّة الأرض الّذي ذكره الله في كتابه فقال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. ثمّ قال: يا عليّ إذا كان آخر الزمان أخرجك الله في أحسن صورة ومعك ميسم تسم به أعداءك»[2].

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٤٠٤؛ وبحار الأنوار، ج٦، ص٣٠٠.

٢ـ تفسير القمي، ج٢، ص١٣٠.

وعنه عليه السلام قال: «قال رجل لعمّار بن ياسر: يا أبا اليقظان إنّ آية في كتاب الله قد أفسدت قلبي وشككتني، فقال: وأيّة آية هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ الآية، فأيّة دابّة هذه؟ قال عمّار: والله ما أجلس ولا آكل ولا أشرب حتّى أريكها فجاء عمّار مع الرجل إلى أمير المؤمنين وهو يأكل تمرا فقال علي عليه السلام: يا أبا اليقظان! هلمّ فأقبل عمّار وجلس يأكل معه فتعجّب الرجل منه فلمّا قام عمّار قال الرجل: سبحان الله إنّك حلفت أن لا تأكل ولا تشرب ولا تجلس حتّى تريني الدابّة قال: قد أريتك إن كنت تعقل»[1]. وفي «المجمع» أنّه روى العيّاشيّ هذه القصّة بعينها عن أبي ذرّ أيضاً[2].

وفي «الكافي» عن الباقر عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: ولقد أعطيت الستّ: علم المنايا والبلايا والوصايا وفصل الخطاب وإنّي لصاحب الكرّات ودولة الدول وإنّي لصاحب العصا والميسم والدابّة التي تكلّم الناس»[3].

وفي «الإكمال» عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث بعد أن يذكر الدجّال ومن يقتله قال: «ألا إنّ بعد ذلك الطامّة الكبرى». قيل: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: «خروج دابّة الأرض من عند الصفا معها خاتم سليمان وعصا موسى تضع الخاتم على وجه كلّ مؤمن فيستطبع فيه: هذا مؤمن حقّاً وتضعه على وجه كلّ كافر فيكتب: هذا كافر حقّاً، حتّى ينادي المؤمن الويل لك حقّاً يا كافر، وأنّ الكافر ينادي طوبى لك يا مؤمن وددت أنّي كنت مثلك فأفوز فوزاً عظيماً. ويرفع الدابّة رأسها من بين الخافقين بإذن الله وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها فعند ذلك ترفع التوبة فلا تقبل توبة ولا عمل يرفع ولا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل» ثمّ قال عليه السلام: «لا تسألون عمّا يكون بعد هذا فإنّه عهد إليّ حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله أن لا

١ـ مدينة المعاجز، ج٣، ص٩٣ ؛ وبحار الأنوار، ج٥٣، ص٥٣.

٢ـ نقل هذه العبارة عن تفسير الصافي، ج٤، ص٧٤.

٣ـ الكافي، ج١، ص١٩٨.

أخبر به غير معترق»[1].

﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ تكلّم الدابّة بما يسوؤهم ويحدثهم بأنّ هذا مؤمن وهذا كافر، وعلى هذا المعنى قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟﴾ من كلام اللّه، وقيل: من كلام دابّة الأرض تكلّمهم بأن تقول لهم: إنّ الناس كانوا بآياتنا، معناها بكلامها وخروجها لا يوقنون. وقرأ ابن مسعود: تكلّمهم بأنّ الناس. وبإنّ المكسورة حكاية لقول الدابّة وإذا كان حكاية قول اللّه بيّن به أنّه أخرج الدابّة لهذه العلّة أنّهم ما كانوا يوقنون بآياتنا.

فإن قيل: إذا كانت حكاية لقول الدابّة فكيف يقول: بآياتنا؟ على معنى بآيات ربّنا أو كما يقول بعض خاصّة الملك: خيلنا وبلادنا، وإنّما هي خيل مولاه وبلاده. هذه على قراءة ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بالكسر وعلى قراءة الفتح فعلى حذف الجارّ أي: تكلّمهم بأنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يدفعون أو يحسبون و﴿مِن﴾ الأولى للتبعيض والثانية للتبيين.

واستدلّ الإماميّة بهذه الآية على صحّة الرجعة وقالوا: إنّ دخول ﴿مِن﴾ في الكلام يوجب التبعيض فدلّ ذلك على أنّ اليوم المشار إليه في الآية يحشر فيه قوم دون قوم وليس ذلك صفة يوم القيامة الّذي يقول فيه سبحانه: ﴿وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[2] وقد تظاهرت الأخبار عن أئمّة الهدى من آل محمّد من أنّ اللّه تعالى سيعيد عند قيام المهديّ قوماً ممّن تقدّم موتهم من أوليائه وشيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ويبتهجوا بظهور دولته ويعيد قوماً من أعدائه لينتقم منهم وينالوا بعض ما يستحقّونه من العقاب في القتل على أيدي شيعته ويرون الذلّ والخزي بما يشاهدون من علوّ كلمته، ولا يشكّ عاقل أنّ هذا الأمر مقدور للّه تعالى غير مستحيل في نفسه وقد

١ـ إكمال الدين وإتمام النعمة، ص٥٢٧.

٢ـ سورة الكهف: ٤٧.

فعل اللّه مثل ذلك في الأمم الخالية ونطق به القرآن في عدّة مواضع مثل قصّة عزير وغيره على ما فسّر في موضعه وصحّ عن النبيّ ﷺ قوله: «سيكون في أمّتي كلّ ما كان في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة حتّى لو أنّ أحدهم دخل في جحر ضبّ لدخلتموه»[1].

ولو أنّ جماعة من الإماميّة تأوّلوا ما ورد من الأخبار في الرجعة على رجوع الدولة والأمر والنهي والشوكة للمهديّ ﷺ دون رجوع الأشخاص وإحياء الأموات وأوّلوا الأخبار الواردة في هذا الباب لما ظنّوا أنّ الرجعة تنافي التكليف وليس كذلك لأنّه ليس فيها ما يلجئ إلى فعل الواجب ويلجئ إلى الامتناع من القبيح وإذا كان الأمر كذلك فالتكليف يصحّ معها كما كان يصحّ مع ظهور المعجزات الباهرة والآيات القاهرة كفلق البحر وانقلاب العصا ثعبانا وما أشبه ذلك.

فهذا المعنى الّذي بيّنّا على أنّ المراد من هذا الحشر في الرجعة المهدويّة صلوات اللّه عليه، وأمّا على قول من قال: المراد به يوم القيامة قال: المراد بالفوج الجماعة من الرؤساء والمتبوعين في الكفر حشروا وجمعوا لإقامة الحجّة عليهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ إلى موقف الحساب قال اللّه تعالى لهم: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ أي: كذّبتم بأنبيائي ودلالاتي الدالّة على ديني ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ ولم تطلبوا معرفة ديني ولم تبنوا ما أوجب اللّه عليكم فيها، والواو حاليّة جملة مفيدة لزيادة شناعة التكذيب أي: أجمعتم بين التكذيب وعدم الإحاطة في التدبّر بالآيات ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أي: شيء كنتم تعملون غير ذلك بمعنى أنّه لم يكن لهم عمل غير ذلك ولم يخلقوا إلّا لهذا الأمر وهو المعرفة والطاعة وهم عكسوا القصّة كأنّهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعصية فيخاطبون بهذا الكلام تبكيتا ثمّ يكبّون في النار وذلك قوله: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٤٠٥.

فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ يريد أنّ العذاب الموعود يغشاهم بسبب التكذيب فيشغلهم عن النطق والاعتذار، هذا البيان على المعنى الثاني وأمّا على المعنى الأوّل المراد بالتكذيب بالآيات تكذيب الأئمة الطاهرين.

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه قدرته على الإعادة والبعث بما احتجّ به على الكفّار فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ عن التعب والحركات ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: يبصر فيه ويمكن التصرّف فيه لضيائه ويدرك بنوره جميع الأشخاص كما يدرك بنور البصر وجعل الإبصار للنهار وهو لأهله تنبيها على أنّ هذه الصفة فيه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ دلالات ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

واذكر ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ إسرافيل بأمر الله ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ ويجوز أن يكون على حذف في الكلام والتقدير: ويوم ينفخ في الصور يكون النشأة الثانية. واختلف في معنى الصور فقيل: هو صور الخلق جمع صورة، وقيل: هو قرن ينفخ فيه شبه البوق وقد ورد ذلك في الحديث.

﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ماتوا لشدّة الخوف والفزع يدلّ عليه قوله في موضع آخر: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[1] الآية وقيل: هي ثلاث نفخات: الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخ القيام لربّ العالمين ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من الملائكة الّذين يثبّت الله قلوبهم وهم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، وقيل: يعني: الشهداء فإنّهم لا يفزعون في ذلك اليوم. ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ أي: كلّ من الأحياء الّذين ماتوا يأتونه في المحشر أذلّاء صاغرين، وإنّما أتى سبحانه بلفظ الماضي في قوله «فَفَزِعَ وأتوه» ولم يقل يفزع، للإشعار بتحقيق الأمر وثبوته وأنّه كائن لا محالة لأنّ فعل الماضي يدلّ على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به. وقيل في الاستثناء: المراد الحور وخزنة النار وحملة العرش، وعن جابر: أنّ موسى منهم لأنّه صعق مرّة، وقرئ «أتاه داخرين» والدخير الصاغر.

﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ هذه العلامة الثالثة وهي تسيير الجبال والوجه في حسبانهم أنّها جامدة فلأنّ الأجسام الكبار إذا تحرّكت حركة سريعة على نهج واحد في السمت والكيفيّة ظنّ الناظر إليها أنّها واقفة مع أنّها تمرّ مرّاً حثيثاً ويتخيّل الرائي أنّها واقفة مكانها لا تسير ولا تتحرّك في مرأى العين. وفي مثل هذا المعنى قول النابغة الجعديّ يصف جيشاً:

بأرعن مثل الطود تحسب أنّهم ... وقوف لحاج والركاب تمهّج

أي: تحسب أنّهم وقوف لكثرتهم فكذلك الجبال إنّك لا ترى سيرها لبعد أطرافها كما لا ترى السحاب إذا انبسط وتراكم.

﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ أي: جعل هذا الصنع من جملة الأشياء الّتي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب، وفي الآية دلالة على أنّ القبائح ليست من خلقه وإلّا وجب وصفها بأنّها متقنة

١ـ سورة الزمر: ٦٨.

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ أي: عليم بما يفعل أعداؤه من المعصية وبما يفعل أولياؤه من الطاعة.

ثمّ أخبر سبحانه الجزاء على أفعال الفريقين فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ أي: من أتى بكلمة التوحيد، وقيل: بالإيمان ووافى يوم القيامة فله الخير من تلك الحسنة ويصل الخير إليه بسبب تلك الحسنة وهو الثواب والأمن من العقاب. و﴿خَيۡرٞ﴾ اسم ليس صيغة التفضيل ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ قيل: إذا أطبقت النار على أهلها فزعوا فزعة لم يفزعوا مثلها وأهل الحسنة آمنون من ذلك الفزع.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: المعصية الكبيرة الّتي هي الكفر والشرك، عن ابن عبّاس وأكثر المفسّرين ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: لقوا في النار على وجوههم ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ يعني: يقال لهم: إنّ هذا جزاء فعلكم وليس بظلم.

حدّثنا السيّد أبو الحامد مهديّ بن نزار الحسينيّ بحذف الأسانيد في تفسير هذه الآية قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«الحسنة حبّنا أهل البيت والسيّئة بغضنا»**[1]. وأيضاً حدّثنا أبو الحامد بحذف الأسانيد من صاحب هذه النسخة عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: **«يا عليّ لو أنّ أمّتي صاموا حتّى صاروا كالحنايا ثمّ أبغضوك لأكبّهم الله على مناخرهم في النار»**[2].

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ كأنّه قيل لنبيّه: قل لهم: إنّما أمرت أن أعبد ربّ مكّة، وقيل: هي منى ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي: جعلها حرماً آمناً يحرم فيها ما يحلّ في غيرها لا ينفر صيدها ولا يقتصّ فيها ﴿وَلَهُۥ كُلُّ

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٤١٠.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

﴿شَيْءٍ﴾ ومالك كلّ شيء ممّا أحلّه وحرّمه فيحرّم ما شاء ويحلّ ما شاء ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المخلصين لله بالتوحيد [وَ] أمرت ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا﴾ عليكم ﴿الْقُرْآنَ﴾ وأدعوكم إلى ما فيه.

﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ إلى الحقّ والعمل بما فيه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ وراجع نفعه إليه وجزاؤه يصل إليه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ وجار ولم يعمل بما فيه ولم يهتد إلى الحقّ ﴿فَقُلْ﴾ له يا محمّد ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ الّذين يخوّفون بعقاب الله ولا أقدر على إكراههم على الإيمان والدين ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ اعترافاً بنعمته إذ اختارني لرسالته ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ يوم القيامة ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ وتعرفون حينئذ أنّها على ما أخبرتم بها في الدنيا ورأوا ذلك حين عجلوا بهم إلى النار ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو عالم بجميع ذلك فيجازيكم عليها. وإنّما يؤخّر عقابكم إلى وقت يقتضيه الحكمة.

تمّت السورة.

سورة القصص

مكية. فضلها: أبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «**من قرأ طسم القصص أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بموسى وكذّب به ولم يبق ملك في السماوات والأرض إلّا شهد له يوم القيامة أنّه كان صادقاً أنّ كلّ شيء هالك إلّا وجهه**»(1).

لمّا أمر سبحانه في خاتمة تلك السورة بتلاوة القرآن بيّن في هذه السورة أنّ ﴿طسٓمٓ﴾ من تلك الآيات في القرآن فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ
وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ
كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ
فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

﴿طسٓمٓ﴾ معناه كسائر الفواتح من السور وقد تقدّم فيها، و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ﴿ءَايَٰتُ﴾ السورة، و﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ هو إمّا اللوح وإمّا الكتاب

1ـ تفسير نور الثقلين، ج4، ص106.

الّذي وعد الله إنزاله على محمّد ﷺ وحاصل المعنى أنّ آيات هذه السورة هي آيات ذلك الكتاب ووصفه بأنّه مبين لأنه بيّن فيه الحلال والحرام أو لأنّه بفصاحته وإعجازه بيّن أنّه من كلام الخالق دون الخلق أو لأنّه بيّن خبر الأوّلين والآخرين.

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ أي: نتلو على لسان جبرئيل لأنّه كان يتلو على محمّد ﷺ فيحفظه، بعض خبر ﴿مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ بالحقيقة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنّهم المنتفعون بمواعظ الله ولو أنّ غيرهم مأمورون بالانتفاع.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقرئ بضمّ الفاء، استكبر وتجبّر في أرض مملكته أرض مصر وتوابعها ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فرقاً فرقاً وفرّق بين القبط وبين بني إسرائيل أكرم أقواماً من القبط وأذلّ آخرين من بني إسرائيل بالاستعباد والاستعمال في الأعمال الشاقّة وأغرى بينهم العداوة ليكونوا له أطوع.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أي: يستخدم بني إسرائيل و﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ويبقي ﴿نِسَاءَهُمْ﴾ والسبب في ذلك أنّ كاهنا قال له: يولد مولود في بني إسرائيل في ليلة كذا يذهب ملكك على يده فولد تلك اللّيلة اثنا عشر غلاماً فقتلهم أجمع وبقي هذا العذاب في بني إسرائيل سنين متطاولة. قال وهب: قتل القبط في طلب موسى ﵇ خوفاً من قول الكاهن تسعين ألفا من بني إسرائيل. وقيل: إنّ السبب على إقدام فرعون على قتل بني إسرائيل أنّ فرعون رأى في منامه أنّ ناراً قبلت من بيت المقدس واشتملت على مصر فأحرقت القبط دون بني إسرائيل فسأل عن رؤياه، فقالوا: يخرج من هذا البلد الّذي جاء منه بنو إسرائيل رجل يكون على يده هلاك مصر فأمر بقتل الذكور.

وقيل: السبب في ذلك أنّ الأنبياء الّذين كانوا قبل موسى بشّروا بمجيء موسى وكان فرعون قد سمع ذلك فلهذا كان يذبح أبناء بني إسرائيل.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بسبب القتل.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ المعنى: إنّ فرعون كان يريد أهلاك بني إسرائيل وإفناءهم ونحن نريد أن نمنّ عليهم، و﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ جملة معطوفة على قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأريد به حكاية حال ماضية ويجوز أن يكون حالاً من يستضعف أي: يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمنّ عليهم.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ ونجعلهم قادة ورؤساء في الخير والدين يقتدى بهم ونجعلهم الوارثين لديار فرعون وقومه وأموالهم، وقد صحّت الرواية عن أمير المؤمنينعليه السلام أنّه قال: **«والّذي فلق الحبّة وبرأ النسمة لتعطفنّ علينا الدنيا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها»**. وتلا عقيب هذا الحديث: ﴿وَنُرِيدُ أَن﴾ الآية[1]، وروى العيّاشيّ بالإسناد عن أبي الصباح الكنانيّ قال: نظر أبو جعفر إلى أبي عبد اللهعليه السلام قال: **«هذا والله من الّذين قال الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ »** الآية[2]. وقال سيّد العابدين عليّ بن الحسينعليه السلام: **«والّذي بعث محمّداً بالحقّ بشيراً ونذيراً إنّ الأبرار منّا أهل البيت بمنزلة موسى وشيعته وإنّ عدوّنا وأشياعهم بمنزلة فرعون وأشياعه»**[3]. وفي «المجالس» عنهعليه السلام في هذه الآية قال: **« هي لنا أو فينا»**[4]. وفي «الإكمال» و«الغيبة»: «إنّ

١ـ خصائص الأئمة، الشريف الرضي، ص ٧٠.

٢ـ مجمع البيان، ج٧، ص٤١٤ ؛ عن العياشي ولم أجده في العياشي.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ تفسير الصافي، ج٤، ص٨١ ؛ عن مجالس ولم أجده في المجالس.

القائم لمّا تولّد نطق بهذه الآية[1].

والقميّ: أخبر اللّه نبيّه بما لقي موسى وأصحابه من فرعون من القتل والظلم ليكون تعزية له فيما يصيبه في أهل بيته، ثمّ بشّره أنّه يتفضّل عليهم بعد ذلك ويجعلهم خلفاء في الأرض وأئمّة على أمّته ويردّهم إلى الدنيا مع أعدائهم حتّى يتصفوا منهم فقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ الآية[2].

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ونمكّن لبني إسرائيل في أرض مصر ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ لأنهم يخافون ذهاب ملكهم على يد رجل من بني إسرائيل وقد أريناهم ما كانوا يتخوّفون منه. قال الضحّاك: عاش فرعون أربعمائة سنة وكان قصيراً دميماً[3] وهو أول من خضب بالسواد. وعاش موسى مائة وعشرين سنة.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

لمّا قال سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ ابتدأ في هذه الآية بذكر نعمه في هذا الباب وكيف دبّر في أهلاك فرعون فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ أي: قذفنا في قلبها وليس بوحي نبوّة، وقيل: أتاها جبرئيل بذلك.

وقيل: كان هذا الوحي رؤيا منام عبّرها من علماء بني إسرائيل ﴿أَنْ

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ١٣٣.

٣ـ الحقير القبيح المنظر.

﴿أَرْضِعِيهِ﴾ ما لم تخافي عليه الطلب من فرعون ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من القتل ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ في النيل ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليه الضيعة ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ من فراقه ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريب ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ والأنبياء.

فائدة: الخوف غمّ يحصل بسبب مكروه يتوقّع حصوله في المستقبل والحزن غمّ يلحق بسبب مكروه حصل في الماضي.

قال وهب بن منبّه: لمّا حملت أمّ موسى بموسى كتمت أمرها عن جميع الناس فلم يطّلع على حملها أحد من خلق اللّه وذلك شيء ستره اللّه ولم ينبت بطنها ولم يظهر لبنها فلمّا كانت السنة الّتي يولد فيها موسى بعث فرعون القوابل وأمرهنّ أن يفتّشن النساء تفتيشاً صعباً شديدا وكانت القوابل لا يعرض لها لأنّها ما كانت ممّن يظنّ بها الحبل ولمّا كانت اللّيلة الّتي ولد موسى عليه السلام ولدته أمّه ولا رقيب عليها ولا قابلة ولم يطّلع عليها أحد إلّا أخت موسى اسمها مريم أو كلثمة أو مريم.

ولكن قال ابن عبّاس: (لمّا قربت ولادة أمّ موسى وكانت قابلة من النساء اللّاتي وكّلهن فرعون بحبالى بني إسرائيل صديقة لأمّ موسى فلمّا ضربها الطلق أرسلت إليها فجاءت فعالجتها فلمّا ولد موسى رأت نورا بين عينيه فارتعش كلّ مفصل منها ودخل حبّ موسى في قلبها ثمّ قالت: يا هذه ما جئت إليك إلّا من ورائي قتل لأنّه أمر ربّي بقتل مولودك ولكن وجدت لابنك هذا حبّاً ما وجدت حبّ شيء مثل حبّه فاحفظي ابنك فإنّي أراه هو عدوّنا فلما خرجت القابلة من عندها أبصرتها جواسيس فرعون وعيونه فجاءوا ليدخلوا على أمّ موسى فقالت مريم: يا امّاه هذه الحرس بالباب فلفّت موسى في خرقة وطاش[1] عقلها فوضعته في تنّور مسجور ولم تعقل ما

١ـ أي: ذهب.

تصنع فدخلوا فإذا التنوّر مسجور ورأوا أمّ موسى وفتّشوا فلم يجدوا شيئاً فخرجوا من عندها فرجع إليها عقلها فقالت لاخت موسى: أين الصبي؟ قالت: لا أدري، فسمعت بكاء في التنوّر فانطلقت إليه وقد جعل اللّه النار عليه برداً وسلاماً فأخذته)[١].

ثمّ إنّ أمّ موسى لمّا رأت فرعون جدّ في طلب الولدان خافت على ابنها فقذف اللّه في قلبها أن تتّخذ له تابوتاً ثمّ تقذف التابوت في النيل فذهبت إلى نجّار من أهل مصر فاشترت منه تابوتاً فقال لها النجّار: ما تصنعين به؟ فقالت: ابن لي أخشى عليه كيد فرعون أخبؤه فيه، وما عرفت أنّه يفشي الخبر وإنّما قالت ذلك خوفاً من الكذب فلمّا انصرفت ذهب النجّار ليخبر به الذبّاحين فلمّا جاءهم أمسك اللّه لسانه وجعل يشير بيده فضربوه وطردوه حملا بفعله السفاهة والجنون فلمّا عاد إلى دكّانه ردّ اللّه عليه لسانه فذهب مرّة أخرى ليخبرهم فأخرسه اللّه فضربوه وطردوه فلمّا عاد إلى موضعه ردّ اللّه عليه نطقه فذهب مرّة ثالثة فأخذ اللّه بصره ولسانه فجعل اللّه تعالى: إن ردّ عليه بصره ولسانه يتوب، فعلم اللّه منه الصدق فردّ اللّه عليه بصره ولسانه.

وبالجملة انطلقت أمّ موسى وألقت التابوت في النيل وكان لفرعون بنت لم يكن له ولد غيرها وكان لها كلّ يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى أبيها وكان بها برص شديد وكان فرعون شاور الأطبّاء والسحرة في أمرها فقالوا لها: إنّها لا تبرأ إلّا من قبل البحر يوجد منه طفل فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك وذلك في يوم كذا في شهر كذا حتّى تشرق الشمس فلمّا كان ذلك اليوم غدا فرعون إلى مجلس كان له على شفير النيل ومعه

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٤١٧.

آسية بنت مزاحم وأقبلت إلى فرعون في جواريها حتّى جلست على الشاطئ إذ أقبل النيل بتابوت تضربه الأمواج وتعلّق بشجرة فرأى فرعون وقال: ائتوني به فابتدروه بالسفن من كلّ جانب حتّى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح التابوت فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فنظرت آسية فرأت نورا في جوف التابوت فعالجته ففتحته فإذا بصبيّ صغير في التابوت ونور بين عينيه فالقى اللّه محبّته في قلوب القوم وعمدت ابنة فرعون إلى ريقه فلطخت به برصها لمّا كانت سامعة هذا الخبر من الكهنة قبل ذلك فبرئت فضمّته إلى صدره، فقالت الغواة من قوم فرعون: إنّا نظنّ أنّ هذا هو الّذي نحذر منه رمي في البحر فرقاً[1] منك فهمّ فرعون بقتله فاستوهبته آسية امرأة فرعون وتبنّته فترك قتله.

والحاصل ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ والالتقاط إصابة الشيء من غير طلب، والمراد بآل فرعون جواريه والّام في ﴿لِيَكُونَ﴾ لام العاقبة ومعناه أنّهم ما التقطوه إلّا ليكون قرّة عين وراحة ولكن آل وانتهى هذا الالتقاط لهم بالحزن والعداوة عليهم وعلى ملكهم مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾[2] وقول الشاعر: «لدوا للموت وابنوا للخراب» ومعلوم أنّه لا يلد أحد لأن يموت ولا يبني أحد لأن يخرب ولكن يؤول إلى الموت والخراب[3]، وقرئ حزناً بضمّ الحاء وسكون الزاي وهما لغتان مثل السقم والسقم. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ فيما كانوا عليه من الكفر والظلم، وقيل: المراد من الخطاء لا من الخطيئة لأنّهم ما شعروا أنّه الّذي يذهب بملكهم.

١ـ أي: خوفاً وفزعاً.

٢ـ سورة الأعراف: ١٧٩.

٣ـ هذا كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام: «ان لله ملكاً ينادي كل يوم لدو اللموت (واجمعوا للفناء) وابنوا للخراب»: جواهر المطالب، ج٢، ص١٤٣.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ ولمّا أراد فرعون قتله بعد أن حذّروه قالت آسية: «لا تقتله عسى أن يكون قرّة عين لي ولك» فقال فرعون: أن يكون لك وأمّا أنا فلا حاجة لي فيه، قال ابن عبّاس: لمّا قال فرعون: وأمّا أنا فلا حاجة لي فيه قال: والّذي يحلف به لو أقرّ فرعون أن يكون قرّة عين له كما أقرّت آسية لهداه الله كما هداها ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[1].

أمّا قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ابتداء كلام من الله أي: لا يشعرون أنّ هلاكهم بسببه وعلى يده وإنّه هو الّذي يطلبونه.

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾

أي: أصبح خالياً قلبها من كلّ شيء إلّا من ذكر موسى وقيل: فارغاً من الحزن لعلمها بأنّ ابنها نجى سكوناً ووعدا من الله. وقيل: فارغاً من الوحي الّذي أوحي إليها ونسيت ما وعدها الله ﴿إِن كَادَتْ﴾ أي: أنّها قربت تبدي بذكر موسى وتصيح يا ابناه من شدّة الغمّ والوجد. وقيل: لمّا دعوها للإرضاع بولدها همّت بأن تقول: أنا أمّه لشدّة سرورها به لمّا رأته.

وقيل: المعنى أنّها كادت تبدي بالوحي ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالصبر واليقين، والربط على القلب إلهام الصبر لمّا سمعت أنّه وقع بيد فرعون من شدّة الجزع والخوف على ابنه، وقرئ فرغا أي: هدر وخلى وبطل قلبها من شدّة ما ورد عليها وذلك حين رأت يرفع تابوته ويضع ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدّقين بوعد الله.

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا

١ـ بحار الأنوار، ج١٣، ص٥٣ ؛ وأيضاً جامع البيان، ج١٦، ص٢٠٧.

عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ
نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ
حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ
أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى
مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ
ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

﴿وَقَالَتْ﴾ أمّ موسى لاخت موسى واسمها كلثمة: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتّبعي أثره ولعلّ تعرفي خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ وفي الكلام حذف واقتصار وتقديره فذهبت كلثمة فوجدت آل فرعون أخرجوا التابوت وأخرجوا موسى فبصرت به ورأت أخاها عن بعد وعن جانب تنظر إليه كأنّها لا تريده عن مكان جنب بعيد ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وآل فرعون لا يشعرون أنّها أخته، وكرّر سبحانه هذا القول وهو عدم شعورهم بأنه لو كان إلهاً لكان يشعر بمثل هذا الأمر.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ أي: لا تؤتى بمرضع فيقبلها أي: منعناهنّ منه وبغضناهنّ إليه. وقيل: هو جمع مرضع بمعنى الرضاع أي: منعناه عن الرضاع، ومرضع موضع الرضاع أي: الثدي ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل أن رددناه إلى أمّه ومن قبل مجيء أخته ومن قبل ولادته في حكمنا وقضائنا فعند ذلك لشدة محبّة فرعون لموسى طلب له المراضع وكان موسى لا يقبل ثدي واحدة منهنّ بعد أن أتت مرضع بعد مرضع فلمّا رأت أخت موسى حبّهم له ورقّتهم عليه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ ويحسنون تربيته ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ يشفقون عليه والنصح إخلاص العمل من شائبة الفساد. قيل:

إنّها لمّا قالت: وهم له ناصحون. قال هامان: قد عرفت هذا الغلام فدلّينا على أهله، قالت: ما أعرفه ولكنّي إنّما قلت هم للملك ناصحون ليزول شغل قلبه.

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ فانطلقت كلثمة أخت موسى إلى أمّها فجاءت بها إليهم فلمّا وجد موسى أمّه قبل ثديها وسكن بكاؤه. قال الضحّاك: إنّ موسى لمّا قبل ثدي أمّه تعجّب فرعون وهامان وقالا: إنّك لأمّه؟ قالت: لا، قال: فما بالك قبل ثديك من بين النسوة؟ قالت أيّها الملك إنّي امرأة حلوة اللبن ما ارتضع صبيّ ثديي إلّا قبل فلم يبق أحد من آل فرعون إلّا أهدى إليها وأتحفها بالذهب والجواهر. ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ والمراد بالوعد قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تحقيق وعد الله.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ وقيل في معنى بلوغ الأشدّ والاستواء: إنّهما واحد وهو استكمال القوّة واعتدال المزاج والبنية. وقيل: المراد من بلوغ الأشدّ عبارة عن كمال القوّة الجسمانيّة والاستواء عبارة عن كمال القوّة العقليّة. قال ابن عبّاس: (الأشدّ ما بين ثمانية عشر سنة إلى الثلاثين ثمّ من الثلاثين إلى الأربعين يبقى سواه من غير زيادة ولا نقصان فلهذا السرّ اختار الله هذا السنّ للوحي). والأشدّ قيل: مفردة شدّة كما أنّ واحدة الأنعم نعمة، وقيل: لم يسمع لهذا الجمع مفرد.

والحاصل: لمّا وصل موسى إلى هذه الدرجة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أعطينا النبوّة والعلم وأنّ موسى حين كبر كان يركب مراكب فرعون ويلبس ما يلبس ويدعى ابن فرعون وكان قد علم أنّ فرعون وقومه على الباطل وكان عليه السلام يتكلّم بالحقّ ويعيب دينهم واشتهر ذلك منه حتّى آل الأمر إلى أن أخافوه وخافهم ولمّا كان صغيراً ضرب يوماً رأس فرعون بالعصا ونتف لحيته

فقال فرعون: لا أقتله ولكن أخرجوه عن الدار والبلد فاخرج ولم يدخل عليهم حتّى كبر والقوم نسوا ذكره.

وما كان موسى عليه السلام من خوفه يدخل مدينة فرعون إلّا خائفاً فدخلها يوماً ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ ودخلها نصف النهار وقت ما هم قائلون، وقيل: بين المغرب والعشاء.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ يختصمان أحدهما إسرائيليّ والآخر قبطيّ يسخّره الإسرائيليّ ليحمل حطباً إلى مطبخ فرعون. قيل: أحدهما مسلم من شيعته ومن متابعي موسى والقبطيّ كافر من متابعي فرعون فاستغاث بموسى ﴿الَّذِي مِن شِيعَتِهِ﴾ واستنصره الإسرائيليّ لينصره عليه. روي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «ليهنئكم الاسم»، قال: قلت: وما الاسم؟ قال: «الشيعة»، أما سمعت قول الله يقول: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾؟[1] ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ﴾ أي: دفع صدره بجمع كفّه، وقيل: ضربه بعصاه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: مات المدفوع ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

واحتجّ الطاعنون في عصمة الأنبياء من وجوه:

أحدها: إنّ ذلك القبطيّ إمّا أن يكون مستحقّ القتل أو لم يكن كذلك فإن كان الأوّل فلم قال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ ولم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ ولم قال في سورة أخرى: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾؟[2] وإن كان الثاني وهو أنّ ذلك القبطيّ لم يكن مستحقّ القتل كان قتله معصية وذنباً.

١ـ تفسير الصافي، ج ٤، ص ٨٤

٢ـ سورة الشعراء: ٢٠.

وثانيها: أنّ قوله: ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ على أنّه كان كافراً حربيّاً فكان دمه مباحا فلم استغفر عنه والاستغفار عن الفعل المباح غير جائز لأنّه يوهم في المباح كونه حراماً.

وثالثها: أنّ الركز لا يقصد به القتل ظاهراً فكان ذلك القتل قتل خطأ فلم استغفر منه؟ والجواب عن الأوّل لم لا يجوز أن يقال: إنّه كان لكفره مباح الدم أمّا قوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لعلّ الله وإن أباح قتل الكافر إلّا أنّه قال: الأولى تأخّر قتلهم إلى زمان آخر فلمّا قتل فقد ترك المندوب فقوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ معناه إقدامي على ترك المندوب من عمل الشيطان. وثانيها أنّ قوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ إشارة إلى المقتول لا إلى عمل نفسه أي: عمل هذا المقتول من عمل الشيطان وإنّه من جند الشيطان فقال فلان من عمل الشيطان أي: من حزبه أمّا قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ فعلى نهج قول آدمعليه السلام بقوله ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ وهو إمّا على سبيل الانقطاع إلى الله والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وإن لم يكن هناك ذنب أو من حيث حرّم نفسه الثواب بترك المندوب أي: فاغفر لي ترك هذا المندوب[1].

وقيل في تأويل هذه الآية وجه آخر وهو أن يكون مراده ربّي إنّي ظلمت نفسي حيث قتلت هذا الملعون ولو عرف ذلك فرعون، لقتلني به فاغفر لي أي: فاستره عليّ حتّى لا يصل خبر هذا القتل إلى فرعون، ويؤيّد هذا التأويل أنّه عقّبه بهذا الكلام حيث قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ولو كانت إعانة المؤمن الإسرائيليّ سبباً للمعصية لما قالعليه السلام ذلك.

وأمّا قوله: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فليس مرادهعليه السلام أنّي صرت

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٤، ص ٢٣٤.

بذلك القتل ضالّاً ولكن فرعون لمّا نسب إليه الكفر بسبب القتل نفي عن نفسه الكفر وقال: كنت متحيّراً لا أدري ما يجب عليّ وأمّا استغفاره عن قتله على كونه كافراً حربيّاً قلنا لعلّ بسبب اختلاف الشرائع كان الأولى عدم قتله في ذلك الوقت.

وبالجملة قال الرازيّ: على أنّ لو فرضنا وسلّمنا دلالة هذه الآية على صدور المعصية لكنّا بيّنا أنّه لا دليل البتّة على أنّه كان رسولاً في ذلك الوقت فيكون ذلك صادراً منه قبل النبوّة وذلك لا نزاع فيه[1].

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾

ثمّ حكى سبحانه أنّ موسى حين قتل القبطيّ ندم على ذلك وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ في هذا القتل فإنّهم لو علموا بذلك يقتلوني. قال المرتضى: إنّما قاله على سبيل الانقطاع إلى الله والاعتراف بالتقصير عن أداء حقوق نعمه أو من حيث حرّم نفسه الثواب المستحقّ بفعل الندب ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾ وقبول الاستغفار والتوبة قد يسمّى غفراناً ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم المنعم عليهم.

١ـ وهذا يصح على مذهبهم، أما الإمامية فلا يفرقون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بين زمن النبوة وقبله.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من المغفرة وصرف بلاء الأعداء عنّي ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: فلك عليّ أن لا أكون مظاهراً للمشركين. وقيل: المراد بما أنعمت عليّ يعني: من القوّة حتّى قتلت رجلاً خطاء بوكزة فلن أكون ظهيراً للمجرمين بل إجاهدهم بهذه القوّة في سبيلك حتّى ترضى.

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ فبعد موت ذلك الرجل القبطيّ من الوكز أصبح موسى من غد ذلك اليوم خائفاً من أن يظهر أنّه هو القاتل فيطلب به وخرج على استتار ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ وهو الإسرائيليّ بالأمس يطلب نصرته بصياح وصراخ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ يجوز أن يكون فعيل بمعنى المفعل أي: أنت مغو فإنّي وقعت فيما وقعت فيه بسببك، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل يعني: أنت الغاوي، وإنّما سمّاه غويّا لأنّ من تكثر منه المخاصمة على وجه يتعذّر عليه دفع خصمه ومع ذلك يطلب الخصومة فهو ضالّ عن طريق الرشد ولم يرد الغواية في الدّين.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ المعنى: فلمّا أخذته الرقّة على الإسرائيليّ وأراد أن يدفع القبطيّ الّذي هو عدوّ لموسى والإسرائيليّ عنه ويبطش به أي: يأخذه بشدّة فظنّ الإسرائيليّ أنّ موسى قصده لأنّه قال له: إنّك لغويّ مبين فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ وقيل: هذا من كلام القبطيّ لا الإسرائيليّ والظاهر هذا الوجه الثاني ويؤيّد هذا القول أنّه عقّب قوله بأن قال: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا القول لا يليق إلّا بأن يكون قولاً للكافر، والجبّار هو الّذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل والظلم ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

فأكثر المفسّرين على أنّ هذا الكلام وهو قوله: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى....﴾

من قول الإسرائيليّ ولمّا قال الإسرائيليّ ذلك علم القبطيّ أنّ قاتل القبطيّ أمس موسى ولم يكن أحد يعلم بذلك فانطلق القبطيّ إلى فرعون وأخبر به فأمر فرعون بقتل موسى وطلبه. قوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: من آخر المدينة واختار طريقاً قريباً حتّى سبق خدمة فرعون وأتى إلى موسى ﴿يَسْعَىٰ﴾ ويسرع وأخبره بذلك وكان الرجل حزقيل ابن عمّ فرعون، وقيل: شمعون ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ أي: الأشراف من آل فرعون ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون في قتلك أو يأمر بعضهم بعضاً ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ من أرض مصر ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ثمّ خرج موسى من مصر ﴿خَآئِفًا﴾ من أن يطلب فيقتل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الطلب، قال ابن عبّاس: (خرج موسى متوجّهاً نحو مدين وليس له علم بالطريق إلّا حسن ظنّه بربّه ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بغير زاد ولا حذاء ولا ظهر وكان لا يأكل إلّا حشيش الصحراء حتّى بلغ ماء مدين).

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ والتوجّه صرف الوجه إلى تلك الجهة، قال

الزجّاج: معناه: ولمّا سلك في الطريق الّذي يلقى مدين منها وهي على مسيرة ثمانية أيّام من مصر نحو ما بين البصرة إلى الكوفة ولم يكن له علم بالطريق ولذلك قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: يرشدني السبيل المؤدّي إلى النجاة، وقيل: إنّه عليه السلام لم يقصد موضعاً بعينه ولكنّه أخذ في طريق مدين. ومن الناس من قال: جاءه جبرئيل وعلّمه الطريق.

وقيل: جاءه ملك على فرس وبيده عنزة وعلّمه الطريق، وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي﴾[1] نظير قول جدّه إبراهيم حيث قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[2] وهكذا الخلف الصدق للسلف الصالح صلوات الله عليهم أجمعين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ وهو الماء الّذي يسقون منه وكان بئراً ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ﴾ وجد على شفير البئر ومستقاه جماعة كثيرة من أناس مختلفين ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ في مكان أسفل من مكانهم ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تدفعان أغنامهما وتحبسان أغنامها عن السقي وكانتا تكرهان المزاحمة على الماء لأنّ على الماء من كان أقوى منهما ولئلّا يخلط أغنامهما بأغنامهم ولئلّا تختلطا بالرجال.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ وشأنكما وما مقصودكما من الذياد؟ فقالتا: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: إنّا لا نطيق السقي فننتظر فضول الماء وانصراف الناس وأبونا لكبره وضعفه لا يتمكّن أن يتولّى السقي، وإنّما قالتا ذلك تعريضاً للطلب من موسى أن يعينهما على السقي ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أي: سقى موسى غنمهما الماء ورفع حجراً عن البئر ما كان يقدر على رفع ذلك الحجر عنها إلّا عشرة رجال وسألهم أن يعطوه دلوا

١ـ سورة القصص: ٢٢.

٢ـ سورة الصافات: ٩٩.

فناولوه دلوا وقالوا له: انزح إن أمكنك فكان لا ينزحها إلّا عشرة فنزحها وحده وسقى أغنامهما ولم يستق إلّا ذنوباً واحداً حتّى رويت الغنم.

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ فانصرف إلى ظلّ سمرة فجلس تحتها من شدّة الحرّ والواصب والجوع. قيل: إنّه عليه السلام ذهب يحفى رجليه من المشي في الطريق لأنّه ما كان له حذاء. وبالجملة فوقف في ظلّ الشجرة ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ يعني أي: شيء أنزلته إليّ من خير جلّ أو قلّ فقير له ومحتاج إليه، ولتضمّن كلامه معنى السؤال والطلب جيء بلام الدعامة لتقوية العمل، والجارّ والمجرور متعلّق بفقير وحاصل المعنى: إنّي فقير لأيّ شيء أعطيتني جليلاً كان أو حقيرا قال: ابن عبّاس: (سأل نبيّ الله فلق خبز يقيم به صلبه). وقال أمير المؤمنين عليه السلام: **«والله ما سأله إلّا خبزاً يأكله لأنّه كان يأكل بقلة الأرض ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله وتشذّب لحمه»**[1].

وبالجملة قال ابن إسحاق: فرجعتا إلى أبيهما في ساعة كانتا لا ترجمان فيها فأنكر شأنهما وسألهما فأخبرتاه الخبر، فقال لإحداهما: عليّ به، فرجعت الكبرى إلى موسى لتدعوه. وذلك قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ وهي صفوراء ﴿تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي: أنّها مستحيية غطّت وجهها بكمّ درعها[2]. وقيل: المراد أنّها كانت تمشي عادلة عن الطريق وكانت من الخفرات[3] اللاتي لا يحسنّ المشي بين أيدي الرجال وما كانت ولّاجة ولا خرّاجة.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ويكافيك على سقيك لغنمنا، وقال أكثر المفسّرين: إنّ أباها شعيب. وقيل: هو بيرون ابن

١ـ عدة الداعي، ص١٠٧ ؛ وبحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٠.

٢ـ درع المرأة: قميصها.

٣ـ المرأة المستحيية أشد الحياء.

أخي شعيب وكان شعيب مات قبل ذلك بعد ما كفّ بصره ودفن بين المقام وزمزم. ولمّا قالت صفوراء هذا الكلام لموسى كره موسى لذلك وأراد أن لا يتبعها ولم يجد بدًا من أن يتبعها لأنّه كان في أرض مسبعة[1] وخوف فخرج معها وكانت الريح تضرب ثوبها فتبيّن وجهها فجعل يعرض موسى عنها تارة ويغضّ أخرى فناداها: يا أمة اللّه كوني خلفي وأريني السمت بقولك.

فلمّا دخل على شعيب إذا هو بالعشاء مهيّأ فقال له شعيب: اجلس يا شاب فتعشّ، فقال له موسى: أعوذ باللّه، قال: شعيب ولم ذلك ألست بجائع؟ قال: بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً للمعروف الّذي صنعت وإنّا أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً فقال له شعيب: لا واللّه يا شابّ ولكنّها عادتي وعادة آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام، فجعل موسى يأكل وذلك قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ أي: جاء موسى شعيباً وقصّ عليه أمره أجمع من أوّل ما التقطه فرعون إلى قتل القبطيّ ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: من فرعون وقومه نجوت ولا سلطان له على أرضنا ولسنا في مملكته.

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾
قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ
فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى
ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ

١ـ ذات سباع ضارية.

ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾

ثمّ ذكر سبحانه أمر موسى في مدين وانصرافه عنه: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ وهي صفورياء وهي الّتي تزوّج بها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ أي: اتّخذه أجيراً ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أي: أحسن من استعملت من يكون قويّاً على العمل ويكون أميناً، ولمّا قالت البنت هذا القول قال شعيب: وما علمك بأمانته وقوّته؟

قالت: أمّا قوّته فلأنّه رفع حجراً عن البئر لا يرفعه كذا وكذا من الرجال، وأمّا أمانته فإنّه قال: امشي خلفي فأنا أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك.

فلمّا ذكر البنت من حاله زاده رغبة فيه ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ وازوّجك ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ أي: تكون أجيراً لي وتستخدمني ثمان سنين ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ﴾ أميل[1] ﴿عَلَيْكَ﴾ وذلك تفضّل منك وليس بواجب إتمام العشر فزوّجه ابنته بمهر واستأجره للرعي ولم يجعل ذلك مهرا وإنّما شرط ذلك عليه ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قال موسى ذلك الّذي وصفت وشرطت عليّ فلك وما شرطت لي من تزويج بنتك فلي وتمّ الكلام، ثمّ قال موسى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ من الثماني والعشر ﴿قَضَيْتُ﴾ وأتممت ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ بأن اكلّف أكثر منها وأطالب بالزيادة عليها ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: شهيد

١ــ أي: أجور وأظلم، من الميل بمعنى الخروج عن العدل والاستواء.

فيما بيني وبينك، وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه سئل: أي: الأجلين قضى موسى؟ قال صلى الله عليه وآله: «أوفاهما وأبطأهما»[١]. وفي رواية أنه سئل أي: الابنتين تزوّج موسى؟ فقال: «الصغرى وهي الّتي جاءت وقالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾[٢] وهي الّتي قالت لموسى: إنّ أبي يدعوك»، قيل: فدخل بها قبل أن يمضي الشرط أو بعد انقضائه؟ قال صلى الله عليه وآله: «قبل انقضائه»، قيل له: فالرجل يتزوّج المرأة ويشترط لأبيها إجارة شهرين أيجوز ذلك؟ قال: «لا».

وفي «الكافي» و«الفقيه» عن علي عليه السلام قال: «لا يحلّ النكاح اليوم في الإسلام بإجارة بأن أعمل عندك كذا وكذا سنة على أن تزوّجني أختك أو ابنتك قال: هو حرام لأنه ثمن رقبتها وهي أحقّ بمهرها وإنّما كان ذلك لموسى بن عمران لأنه علم أنّه يفي»[٣].

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ وقضى بأوفاهما ولمّا زوّجها منه أمر الشيخ أن يعطي موسى عصا يدفع السباع عن غنمه بها وهذه العصا لم يزل الأنبياء يتوارثونها حتّى وصلت إلى شعيب فأعطاها موسى. وقيل: كانت تلك العصا استودعها شعيباً ملك في صورة رجل فأمر شعيب ابنته أن تأتيه بعصا فدخلت وأخذت العصا فأتته بها فلمّا عرفها الشيخ قال: لا، ايته بغيرها فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها فكانت لا تقع في يدها إلّا هي وفعلت ذلك مراراً فأعطاها موسى.

﴿وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ فمكث موسى عند شعيب بعد انقضاء الأجل عشراً أخرى وبقي عنده عشرين سنة ثمّ استأذنه في العود إلى مصر ليزور والدته وأخاه فأذن له فسار بأهله. وقيل: لمّا قضى الأجل سار بأهله أي: بامرأته

١ـ مجمع البيان، ج٧ص٤٣٢ ؛ وتفسير الصافي، ج٤، ص٨٧.

٢ـ نور الثقلين، ج٤، ص١٢٥ ؛ ومجمع البيان، ج٧، ص٤٣٢.

٣ـ الكافي، ج٥، ص٤١٤ ؛ ومن لايحضره الفقيه، ج٣، ص٤٢٣.

وبالغنم الّتي كانت له وكانت قطيعاً فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته في شهرها فسار في البريّة فألجاه المسير إلى جانب الطور الأيمن في ليلة مظلمة شديدة البرد وأخذ امرأته الطلق وضلّ الطريق وتفرّقت ماشيته فأصابه المطر فبقي لا يدري أين يتوجّه.

فبينا هو كذلك ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ أي: أبصر من طرف الطور ناراً ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ أي: من أهل النار بخبر من الطريق الّذي أريده ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: أو آتيكم بقطعة ودرنة من النار تستدفئون بها.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ نودي موسى من الجانب الأيمن للوادي ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ وهي البقعة الّتي قال الله فيها: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾[1] وإنّما كانت مباركة لأنها معدن الوحي والرسالة وكلام الله، وسمع موسى كلام الله من الشجرة وجعل الله الشجرة محلّ الكلام وكان كلامه سبحانه: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إنّ المتكلّم لك هو الله ربّ العالمين أي: خالق الكلام لك وخالق الخلق أجمعين تعالي من أن يحلّ في محلّ أو يكون في مكان لأنّه ليس بعرض ولا جسم.

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ
يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ
تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ
بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا
فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾

١ـ سورة طه: ١٢.

﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وفي بعض الأخبار أنّ موسى عليه السلام لمّا عقد العقد مع شعيب وأصبح من الغد وأراد الرعي قال له شعيب: اذهب بهذه الأغنام فإذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك وإن كان الكلاء بها أكثر فإنّ بها تنّينا عظيماً فأخشى عليك وعلى الأغنام منه فذهب موسى بالأغنام فلمّا بلغ مفرق الطريق أخذت الأغنام ذات اليمين فاجتهد موسى على أن يستردّها فلم يقدر فسار على اثرها فرأى عشباً كثيراً ثمّ إنّ موسى عليه السلام نام والأغنام ترعى وإذا بالتنّين قد جاء فقامت عصا موسى فقاتلته حتّى قتلته وعادت إلى جنب موسى وهي دامية فلمّا استيقظ موسى رأى العصا دامية والتنّين مقتولا فارتاح لذلك وعلم أنّ لموسى وعصاه شأنا[1].

فعاد موسى إلى شعيب وكان ضريراً فمسّ الأغنام فإذا هي أحسن حالاً ممّا كانت فسأله عن ذلك فأخبره موسى بالقصّة ففرح بذلك فأراد أن يجازي موسى على حسن رعيه إكراماً وصلة لابنته فقال: إنّي وهبت لك من السخال الّتي تضعها أغنامي في هذه السنة كلّ أبلق وبلقاء فأوحى اللّه إلى موسى أن اضرب بعصاك الماء الّذي تسقي الغنم منه ففعل فما أخطأت واحدة منهنّ إلّا وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء فعلم شعيب أنّ ذلك رزق ساقه اللّه إليه.

وبالجملة قوله: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ اعلم أنّ اللّه سبحانه كرّر هذه القصّة تقريرا للحجّة على أهل الكتاب واستمالة بهم إلى الحقّ وإنّ أهل التوراة كانوا يحبّون موسى ومن أحبّ شيئاً أحبّ ذكره ولا يخلو التكرار من

١ـ قصص الأنبياء، الجزائري، ص٢٦٥ ؛ وبحار الأنوار، ج١٣، ص٦١.

مزيد فائدة، وفي الآية حذف تقديره: فألقاها فانقلب بإذن الله ثعباناً.

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي: في سرعة حركتها مع غاية عظمها وكبر جثّتها كالحيّة الصغيرة تتحرك بسرعة ﴿وَلَّىٰ﴾ موسى عليه السلام ﴿مُدْبِرًا﴾ إلى عقبه من الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يرجع إلى موضعه فنودي ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ من ضررها وفي انقلاب العصا حيّة دلالة على أنّ البنية ليست بشرط في الإيجاد، والأجسام والجواهر متماثلة ولا حال أبعد من حال الحيوان والخشب فلمّا صحّ قلب الخشب إلى الحيوان صحّ قلب الأسود إلى الأبيض.

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ أي: أدخلها في جيبك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ مثل البرص أو عيب وذلك أنّ موسى عليه السلام كان شديد السمرة فلمّا أخرج يده بعد ما أدخلها في جيبه فأضاءت له الدنيا، قيل: المعنى فإن أهالك أمر يدك لما تبصر من شعاعها ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ أي: ضمّ يدك إلى صدرك إن كنت خائفاً فحينئذ لا خوف عليك، وقيل: معنى الخوف في الآية لا من اليد البيضاء بل من الحيّة عند معاينتها، أمره سبحانه أن لا يتّقي بيده عن الحيّة لأنه عليه السلام بسط يده كالمتّقي فقال له: لا تبسط يدك خوف الحيّة، فإنّ من هاله أمر أزعجه حتّى كأنّه يطير وآلة الطيران الجناح فسكن خوفه سبحانه بأن ضمّ منشور جناحك وأسكن.

﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ قرئ مخفّفاً ومشدّداً إشارة إلى العصاء واليد فالتخفيف مثنّى ذاك والتشديد مثنّى ذلك أي: حجّتان نيّرتان. و«برهان» فعلان أبره الرجل إذا أتى بالبرهان وبره الرجل إذا ابيض ويقال للمرأة البيضاء: برهاء، وهذا المعنى مأخوذ من الظهور والوضوح كالجسم الأبيض الواضح كما أنّ السلطان مأخوذ من السليط لإنارتها والحاصل أنّه أعطاه هاتين

المعجزتين قبل لقاء فرعون.

ثمّ أمره بالذهاب إلى فرعون وقال: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي: اذهب إلى فرعون وأشراف قومه إنّهم خارجين من طاعة الله إلى أعظم المعاصي وهو الكفر.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بتلك النفس ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ وإنّما قال ذلك لأنّه كانت عقدة في لسانه وقد مرّ ذكر سببها ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾ فأرسله معي معيناً على تبليغ رسالتك، والردء الناصر ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ وقيل لكي يصدّقني فرعون.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ قال الله: سنجعله معك ونقرنه إليك في النبوّة وننصرك به ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ وحجّة وقوّة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: لا يصل فرعون وقومه إلى الإضرار بكما بسبب ما نعطيكم من الآيات والمعجزات ويخاف فرعون منكما بسبب الآيات.

ثمّ أخبر سبحانه أنّ الغلبة لكما عليهم فقال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ على فرعون وقومه، وهذه الغلبة بالقهر لا بالبرهان والدليل وذلك حين هلك فرعون وقومه وملك موسى وقومه.

وروي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل قال: «فلمّا رجع موسى إلى امرأته قالت من أين جئت؟ قال موسى: من عند ربّ تلك النار فغدا إلى فرعون لكأنّي أنظر إليه طويل الباع ذو شعر آدم عليه جبّة من صوف في كفّه عصا مربوط حقوه بشريط نعله من جلد حمار شراكها من ليف فأتى على باب فرعون فقيل لفرعون: إنّ على الباب فتى يزعم أنّه رسول ربّ العالمين فقال فرعون لصاحب الأسود: حلّ سلاسلها وكان إذا غضب على رجل خلّاها. فخلّاها فقرع موسى الباب الأوّل وكانت

تسعة أبواب فلمّا قرع الباب الأوّل انفتحت له الأبواب التسعة فلمّا دخل جعلن يتبصبصن تحت رجليه كأنّهن جراء فقال فرعون لجلسائه: أرأيتم مثل هذا الساحر قطّ؟ فلمّا أقبل إليه موسى عليه السلام انتبه فرعون فقال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾[1] فقال فرعون لرجل من أصحابه قم فخذ بيده وقال للآخر: اضرب عنقه فضرب جبرئيل بالسيف حتّى قتل ستّة من أصحابه فقال فرعون: خلّوا عنه فأخرج يده فإذا هي بيضاء قد حال شعاعها بينه وبين وجه فرعون ثمّ ألقى العصا فإذا هي ثعبان فالتقمت الأيوان بلحييها فدعاه يا موسى أقلني[2] إلى غد ثمّ كان من أمره ما كان»[3].

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾ التقدير: بعد أن مضى موسى إلى فرعون وقومه

١ـ سورة الشعراء: ٢٠.

٢ـ أي: أمهلني.

٣ـ مجمع البيان، ج٧، ص٤٣٧؛ وبحار الأنوار، ج١٣، ص١٣٣.

وأتاهم وأراهم بالمعجزات الواضحات فوصفوا الآيات وحملوها على السحر المختلق وقالوا: ﴿مَا﴾ هذه المعجزات ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾ وكذب ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الّذي يقوله موسى ويدّعيه ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا﴾ الّذين كانوا قبلنا، والمعنى أنّ هذا الّذي يقوله موسى ما صدّقوا به آباؤنا ولا دانوا به، وليس المعنى أنّه ما سمعنا بالدعوة إلى توحيد اللّه وكيف يكون لم يسمعوا بهذا الأمر وقد اشتهر قصّة نوح وهود وصالح وغيرهم من النبيّين الّذين يدعون الخلق إلى طاعة اللّه؟

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ مجيباً لهم: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ أي: ربّي شاهد وعالم بأنّي جئت بهذه الآيات الدالّة على الهداية فهو شاهد لي على ذلك إن كذّبتموني ويعلم أنّ العاقبة الحميدة لنا ولأهل الحقّ، وهذا الكلام كما يقال: اللّه أعلم بالمحقّ منّا والمبطل ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولا يفوز بالخير من ظلم نفسه بالشرك وعصى ربّه بالمخالفة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ منكراً لما أتى به موسى عليه السلام لمّا عجز اللعين عن جواب موسى وحججه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ يريد أشراف قومه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ بيان ذلك أنّ موسى عليه السلام لمّا دعا فرعون إلى الإيمان باللّه قال فرعون لموسى وهارون: من ربّكما؟ قال: ربّ السماوات والأرض، فأوهم الخبيث في هذا البيان أنّه أمّا في الأرض فليس إله غيري ولأجل أنّ موسى يدّعي أن اللّه ربّ السماوات موّه على أغمار الناس وأمر وزيره هامان بأن اتّخذ ألباناً[1] وأوقد عليها وابن منها صرحاً عالياً وقصراً متطاولاً حتّى نرى أنّ موسى هل يصدق أو يكذب ونطّلع على حال ربّه وما أظنّ أن يصدق بل أظنّه من الكاذبين في ادّعائه إلهاً غيري وأنّ موسى رسوله.

واختلفوا في أنّ فرعون هل بنى هذا الصرح فقال قوم: قد بنى وجمع

١ـ جمع لبنة: الآجرّ.

هامان العمّال حتّى اجتمع خمسون ألف بنّاء سوى الأتباع والأجراء وأمر بطبخ اللبن والجصّ ونجر الخشب وضرب المسامير فشيّدوه حتّى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق فبعث الله جبرئيل عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع: قطعة وقعت على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل وقطعة وقعت في البحر وقطعة وقعت في المغرب ولم يبق أحد من عمّاله إلّا وقد هلك. وقد روي في هذه القصّة أنّ فرعون ارتقى فوقه ورمى نشابة نحو السماء فأراد الله أن يفتنهم فردّت إليهم وهي ملطوخة بالدم، فقال: قد قتلت إله موسى! فعند ذلك بعث الله جبرئيل لهدمه.

ومن الناس من قال: إنّه لم يبن ذلك الصرح لأنّه يبعد من العقلاء أن يظنّوا أنّهم بصعود الصرح يقربون من السماء مع علمهم بأنّ من علا أعلى الجبال الشاهقة يرى السّماء كما كان يراها حين كان على قرار الأرض وهكذا القول فيما يقال في كيفيّة السهم.

قال الرازيّ في «المفاتيح»: لا يليق بالعقل والدين حمل القصّة الّتي حكاها الله في القرآن على محمل يعرف فساده بضرورة العقل فيصير ذلك مشرعا قويّاً لمن أحبّ الطعن في القرآن والأقرب أنّه كان أو هم البناء ولم يبن أو بنى على سبيل المغالطة والتعمية من تتمّة قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾.

﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ وهذا تلبيس منه وإبهام على العوامّ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: رفع فرعون وجنوده أنفسهم في الأرض بالظلم والباطل وأنفوا وتعظّموا عن قبول الحقّ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: أنكروا البعث وشكّوا فيه.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وطرحناهم في البحر وأهلكناهم بالغرق وعنى باليمّ نيل مصر، وقيل: بحر من وراء مصر يقال له

أساف وأظنّ أنّه المراد من بحر سوف المذكور في دعاء السمات غرقهم اللّه فيه ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: تدبّر بعين قلبك كيف وخامة عاقبة الظلم.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وقد تمسّك بظاهر الآية الأشاعرة في كونه خالقا للخير والشرّ وأجاب العدليّة والمعتزلة بأنّ المراد من الجعل في الآية التسمية أي: سمّيناهم به ومنه قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾[1] وقال الكعبي: وجعلناهم أئمّة من حيث خلّى بينهم وبين ما فعلوه ولم يمنعهم بالقهر. وقال أبو مسلم: معنى الإمامة التقدّم فلمّا عجّل اللّه تعالى لهم العذاب صاروا متقدّمين لمن وراءهم من الكافرين وهذا معنى الإمامة في الآية ومعنى دعوتهم إلى النار دعوتهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصي فإنّ أحدا لا يدعو إلى النار وإنّما جعلهم اللّه أئمّة في هذا الباب لأنّهم بلغوا في الكفر أقصى النهايات ومن بلغ إلى هذا الحدّ استحقّ أن يكون إماماً يقتدى به في ذلك الباب[2].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ ولا ينصر بعضهم بعضاً كما كانوا يتناصرون في الدنيا.

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: لهم في الدنيا بعد عن الرحمة والخير وألزمناهم اللّعنة وأمرنا المؤمنين بلعنهم ويوم القيامة من المشوّهين في الخلقة بسواد الوجه وزرقة العين ومن الممقوتين المغضوبين.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ

١ـ سورة الزخرف: ١٩.

٢ـ تفسير الرازي، ج٢٤، ص٢٥٤.

بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ
ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ
أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ
تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ
إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن
قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ
مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ
تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ
مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا
يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

ثمّ ذكر سبحانه من أخبار موسى ما فيه دلالة على معجزة نبيّنا فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: التوراة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا﴾ الجموع الّتي كانت قبل موسى من الكفّار مثل قوم نوح وعاد وثمود، ويجوز أن يريد بالقرون قوم فرعون لأنه سبحانه أعطى موسى التوراة بعد أهلاكهم بمدّة ووصف التوراة بأنّه ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ من حيث يستبصر به في باب الدين ﴿وَهُدًى﴾ من حيث يستدلّ به وأنّه ﴿رَحْمَةً﴾ لمن عمل به لأنّ كتابه رحمة ونعمة على من تعبّد به، وروى أبو سعيد الخدريّ عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «ما أهلك الله قرنا من القرون بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة غير

أهل القرية الّتي مسخها قردة[1].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ المعنى: لكي يتذكّروا. قال القاضي عبد الجبّار الهمداني: وذلك يدلّ على إرادة اللّه التذكّر من كلّ مكلّف سواء اختار ذلك التذكّر أو لم يختره، وفيه إبطال مذهب المجبّرة الذين يقولون ما أراد التذكّر إلّا ممّن يتذكّر فأمّا من لا يتذكّر فقد كره ذلك ونصّ القرآن دافع لهذا القول.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ والجانب الغربيّ المكان الواقع في شقّ الغرب وهو المكان الّذي وقع فيه ميقات موسى من الطور، والأمر المقضيّ إلى موسى الوحي الّذي اوحي إليه، والخطاب في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ للرسول ﷺ يقول سبحانه: «وما كنت حاضراً المكان الّذي أوحينا فيه إلى موسى ولا كنت من جملة الشاهدين للوحي إليه».

فلو قيل لمّا ثبت قوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ ثبت أنّه لم يكن شاهدا لأنّ الشاهد لابدّ وأن يكون حاضراً فما الفائدة في إعادة قوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؟ قال ابن عبّاس: (التقدير: ولو حضرت فما شاهدت تلك الوقائع).

أمّا قوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ وهذا الاستدراك ما وجهه وكيف يتّصل؟ فالوجه أنّا أنشأنا بعد عهد موسى إلى عهدك قرونا كثيرة ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ وهو القرن الّذي أنت فيه واندرست العلوم فوجب إرسالك إليهم وعرّفناك أحوالهم ولأنّه طال عهدهم بالمهلكين قبلهم وفترة النبوّة فحملهم ذلك على الاغترار فأرسلناك للناس رسولاً كما جعلنا موسى رسولاً وقيل: إنّ المعنى: خلقنا كثيراً عهدنا إليهم في نعتك وصفتك وأمرنا الأوّل بالإبلاغ إلى الطبقة الثانية وهكذا فامتدّ بهم الزمان فنسوا عهدنا إليهم فيك.

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي: ما كنت مقيما في قوم

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٤٢٢ ؛ وتفسير الصافي، ج٤، ص٩٢.

شعيب ﴿تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ ولم تشهدهم فتقرأ على أهل مكّة خبرهم ولم تشاهد الأنبياء وقصصهم وما تلوت من أخبارهم شيئاً ولكنّا أوحينا إليك وقصصناها عليك حتّى تخبر قومك بهذه الأخبار فيدلّ ذلك العلم على صحّة نبوّتك ولو لا الوحي لما علمت ذلك ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ إيّاك أي: أرسلناك إلى أهل مكّة وغيرها وأنزلنا عليك هذه الأخبار لتتلوا عليهم هذه الأخبار ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ في كلّ زمان رسولاً أرسلنا إلى أهل مدين شعيباً وأرسلناك لتكون خاتم الأنبياء وتتلوا عليهم الأخبار ليصدّقوا نبوّتك.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ يريد مناداة موسى ليلة المناجاة وتكليمه أي: ولم تك يا محمّد حاضراً بناحية الجبل الّذي كلّمنا عليه موسى وناديناه يا موسى خذ الكتاب بقوّة. وقيل: المراد المرّة الثانية الّتي كلّم اللّه فيها موسى حين اختار من قومه سبعين رجلاً يسمعوا كلام اللّه ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: ولكن أعلمك وعرّفك رحمة من ربّك وهو أن بعثك نبيّاً وأخبرك هذه الأخبار لتكون معجزة لصدق نبوّتك ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ﴾ أي: لتنذر الّذين لم يأتهم رسول في زمن الفترة لكي يتفكّروا وينزعوا عن المعاصي. قال الفيض في الصافي: ونقل الرازيّ عن وهب وجملة من المفسّرين في قوله: ﴿إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ وجوهاً:

أحدها: إذ نادينا أي: قلنا لموسى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ - إلى قوله - أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

وثانيها: قال ابن عبّاس: (إذ نادينا أمّتك في أصلاب آبائهم يا امّة محمّد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني قال: وإنّما قال اللّه ذلك حين اختار موسى عليه السلام سبعين رجلاً لميقات ربّه).

وثالثها: قال وهب: لمّا ذكر اللّه لموسى فضل أمّة محمّد صلى الله عليه وآله قال: ربّ أرنيهم قال: «إنّك لن تدركهم وإن شئت أسمعتك أصواتهم». قال: بلى يا ربّ فقال سبحانه: «يا أمّة محمّد، فأجابوه من أصلاب آبائهم» فأسمعه اللّه أصواتهم ثمّ قال اللّه سبحانه: «أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني». وروى سهل بن سعد قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ قال صلى الله عليه وآله: «كتب الله كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام ثمّ وضعه على العرش ثمّ نادى يا أمّة محمّد إنّ رحمتي سبقت غضبي أعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني من لقيني منكم يشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله أدخلته الجنّة»[1].

وفي «العيون» عن النبي صلى الله عليه وآله: «لمّا بعث الله موسى بن عمران واصطفاه نجيّاً وفلق له البحر ونجّى بني إسرائيل وأعطاه التوراة والألواح رأى مكانه من ربّه فقال: ربّ لقد أكرمتني بكرامة لم تكرم بها أحداً من قبلي، فقال الله تعالى: يا موسى أما علمت أنّ محمّداً أفضل عندي من جميع ملائكتي وجميع خلقي؟ قال موسى: يا ربّ فإن كان محمّد أكرم عندك من جميع خلقك فهل في آل الأنبياء من أكرم عندك؟ قال الله: يا موسى أما علمت أنّ فضل آل محمّد على جميع آل النبيّين كفضل محمّد على جميع المرسلين؟ فقال موسى: يا ربّ فإن كان آل محمّد كذلك فهل في أمم الأنبياء أفضل عندك من أمّتي ظلّلت عليهم الغمام، وأنزلت عليهم المنّ والسلوى، وفلقت لهم البحر؟ فقال جلّ جلاله: يا موسى أما علمت أنّ فضل أمّة محمّد على جميع الأمم كفضله على جميع خلقي؟ قال موسى: ليتني كنت أراهم فأوحى الله: يا موسى لن تراهم وليس هذا أوان ظهورهم ولكن سوف تراهم في الجنان جنّات عدن والفردوس بحضرة محمّد في نعيمها يتقلّبون، أفتحبّ يا موسى أن أسمعك كلامهم؟

١ـ الجواهر السنية، ص١٤٩.

قال: نعم يا إلهي، قال الله جلّ جلاله: قم بين يديّ واشدد مئزرك قيام العبد الذليل بين يدي الملك الجليل ففعل ذلك موسى عليه السلام فنادى سبحانه يا أمّة محمّد فأجابوه كلّهم وهم في أصلاب آبائهم وأرحام امّهاتهم بلبّيك اللّهم لبّيك لا شريك لك لبّيك إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، قال: فجعل الله تلك الإجابة شعار الحجّ.

ثمّ نادى ربّنا عزّ وجلّ يا أمّة محمّد إنّ قضائي عليكم أنّ رحمتي سبقت غضبي وعفوي قبل عقابي فقد استجبت لكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم من قبل أن تسألوني من لقيني بشهادة أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأنّ محمّداً عبده ورسوله صادق في أقواله محسن في أفعاله وإنّ عليّ بن أبي طالب أخوه ووصيّه من بعده ووليّه ويلزم طاعته كما يلزم إطاعة محمّد وإنّ أولياءه المصطفين الطاهرين المطهّرين المعانين بعجائب آيات الله ودلائل حجج الله من بعدهما أولياء ومن تولّاهم ادخله جنّتي وإن كانت ذنوبه مثل زبد البحر، قال: فلمّا بعث الله عزّوجل محمّداً قال: يا محمّد وما كنت بجانب الطور إذ نادينا أمّتك بهذه الكرامة، ثمّ قال الله لمحمّد: قل الحمد لله ربّ العالمين على ما اختصّنا به من هذه الفضائل»[1].

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وجواب لو لا محذوف أي: لو لا قولهم إذا أصابتهم عقوبة وعذاب بسبب كفرهم: ربّنا هلّا أرسلت إلينا يبلّغنا آياتك فنتّبعها ونكون من المصدّقين ما أرسلناك وأرسلناك قطعا لعذرهم وإلزاماً للحجّة عليهم. قال صاحب «الكشّاف»: «لو لا» الأولى: امتناعيّة وجوابها محذوف والثانية: تحضيضيّة وحاصل المعنى ولو لا أنّهم قائلون إذا عذّبوا بسبب إقدامهم على الشرك والمعاصي: لم ما أرسلت إلينا رسولاً علينا؟ لما أرسلنا الرسول.

١ـ عيون الأخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٢٥٥.

واحتجّ الكعبيّ بهذه الآية على أنّ اللّه يقبل حجّة العباد وليس الأمر كما يقوله أهل السنّة وظهر بهذا أنّه ليس المراد من قوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[1] ما يظنّه أهل الجماعة، وإذا ثبت أنّه يقبل الحجّة وجب أن لا يكون فعل العبد بخلق اللّه وإلّا لكان للكافر أعظم حجّة على اللّه.

قال القاضي: في الآية إبطال القول بالجبر من جهات: إحداها: أنّه إذا خلق الكفر فيهم وأراد لوجب حصوله سواء أرسل الرسل أم لا فما الفائدة في هذا البيان وأي: فائدة لإرسال الرسل والكتب؟ وإذ كان إيمانهم وكفرهم موقوفاً بخلق اللّه وإرادته فإرسال الرسل وإنزال الكتب وعدمها سواء وليس لهذه الآية معنى وهي ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[2] فثبت أنّ العبد قادر ومختار على قبول الإيمان كما هو قادر على قبول الكفر.

أمّا قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي: محمّد والقرآن والإسلام ﴿قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ﴾ أي: هلّا أعطي محمّد ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ من فلق البحر واليد البيضاء والعصا، وقيل: المراد منهم: هلّا أوتي كتاباً جملة واحدة مثل التوراة. وذلك القول من المشركين بتعليم اليهود فاحتجّ اللّه عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ وقد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمّد ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ يعنون التوراة والقرآن، ومن قرأ «ساحران» فمعناه أنّهم قالوا: تظاهر موسى عليه السلام ومحمّد صلى الله عليه وآله ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ من التوراة والقرآن.

قال بعض المفسّرين: وكانت هذه المقالة حين بعثوا الرهط منهم إلى رؤساء اليهود بالمدينة في عيد لهم فسألوهم عن محمّد فأخبروهم بنعته

١ـ سورة الأنبياء: ٢٣.

٢ـ سورة النساء: ١٦٤.

وصفته في كتابهم التوراة فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود فقالوا عند ذلك: سحران تظاهراً.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: قل يا محمّد لكفّار قومك: فأتوا بكتاب هو أهدى وأجمع وأنفع من التوراة والقرآن حتّى اتّبعه إن صدقتم في أنّ التوراة والقرآن سحران. وقيل: المعنى: فأتوا بكتاب من عند الله لم يكذّب به طائفة من الناس.

ثمّ قال لنبيّه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أي: إن لم يأتوا بمثل التوراة والقرآن، وقيل: فإن لم يستجيبوا لك إلى الإيمان مع ظهور الحقّ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ ويميل إليه طباعهم ويطاوعون مشتهيات أنفسهم ولا حجّة لهم بما اعترضوا.

ثمّ ذمّهم فقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحد أضلّ ممّن يتّبع هواه بغير رشاد من الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إلى طريق الجنّة ولا يحكم الله بهدايتهم إذا لم يهتدوا بهداية الله.

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

التوصيل صيرورة الشيء بعضه يلي بعضا بيّن سبحانه صفة القرآن بقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا﴾ أي: فصّلنا لهم القول وآتينا بآية بعد آية وبيان بعد بيان وأخبرناهم بأخبار الأنبياء والمهلكين من أممهم ليتذكّروا ويتفكّروا ويتّعظوا.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ نزلت في أربعين رجلاً

من أهل الإنجيل كانوا مسلمين بالنبيﷺ قبل مبعثه اثنان وثلاثون من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب وقت قدمه وثمانية قدموا من الشام منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع وتميم. المعنى: الّذين آتيناهم الكتاب من قبل محمّد هم بمحمّد يؤمنون. وقيل: من قبل القرآن هم بالقرآن يؤمنون.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ نزول القرآن ﴿مُسْلِمِينَ﴾ به وذلك أنّ ذكر النبيﷺ والقرآن كان مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل فهؤلاء لم يعاندوا.

فأثنى اللّه عليهم بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ مرّة بسبب تمسّكهم بدينهم حتّى أدركوا محمّداً مثل عبد اللّه بن سلام وتميم الداريّ والجارود العبديّ وسلمان الفارسيّ ومرّة بإيمانهم بمحمّدﷺ وقيل: بما صبروا وعملوا بالكتاب الأوّل وعلى الكتاب الثاني ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بالكلام الحسن الكلام القبيح الّذي يسمعونه من الكتاب ويمنعون بالمعروف المنكر إن أمكنهم وبالحلم الجهل وبالمداراة مع الناس أذاهم عن أنفسهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فمدحهم اللّه بالطاعات الماليّة.

ثمّ بيّن كيفيّة إعراضهم عن الجهّال فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ ولم يقابلوه بمثله ﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ أي: لا نسأل نحن عن أعمالكم ولا تسألون أنتم عن أعمالنا بل كلّ يجازى على عمله أو المعنى لنا ديننا ولكم دينكم ولنا عملنا ولكم سفهكم ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ أي: أمان وسلامة منّا لكم أن نقابل لغوكم بمثله ونحن لا نطلب مجالسة الجاهلين وإنّما نبتغي الحكماء والعلماء.

إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾

المعنى: لمّا تقدّم ذكر الرسول والقرآن فبيّن في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمّد ليس عليك الإجبار على الاهتداء ولا تقدر على ذلك وقيل: المعنيّ والمراد من الهداية هنا اللطف الّذي يختار عنده الإيمان فإنّه لا يقدر عليه إلّا الله ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: القابلين للهدى فيدبّر الأمور على علمه.

وهاهنا مسألة وهي أنه قيل: نزلت هذه الآية في أبي طالب قال الزجّاج: أجمع المسلمون على أنّها نزلت في أبي طالب وذلك أنّ أبا طالب قال عند موته: يا معشر بني عبد مناف أطيعوا محمّداً وصدّقوه تفلحوا وترشدوا فقال ﷺ: «يا عمّ تأمرهم بالنصح لأنفسهم وتدعها لنفسك؟» قال: فما تريد يا ابن أخي؟ قال: «أريد منك كلمة واحدة فإنّك في آخر يوم من أيّام الدنيا أن تقول: لا إله إلّا الله أشهد لك بها عند الله»، قال: «يا ابن أخي قد علمت أنّك صادق ولكنّي أكره أن يقال: جزع عند الموت، ولو لا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة ومسبّة بعدي لقلتها ولكنّي سوف أموت على ملّة الأشياخ عبد المطّلب وهاشم وعبد مناف». انتهى كلام الزجّاج[1].

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٥، ص ٢.

أقول: والحق أنّ من عيّره وسمّاه بالزجّاج ما أخطأ لأنه لو كان جوهرياً لعرف من هذه المقالة ـ أي: مقالة أبي طالب ـ أنه أوّل من آمن بالله ولو لم يؤمن لمّا تكلّم بهذه الكلمات وما كان يتكفّل لمحمّدﷺ مثل هذا التكفّل الّذي أربى على الوالد الشفيق وكيف يتعقّل أنّ الإنسان يفعل هذا الصنيع بمن هو أعدى عدوّ دينه. وعلى فرض أنّه على زعمكم ما أقرّ بهذه الكلمة لمصلحة تقوية أمر النبيّ كما ينبئ عن هذا المعنى قوله: «ولو لا أن يكون عليك وعلى بني أخيك غضاضة ومسبّة». على أنّ أهل البيت أجمعوا على أنّ أبا طالب مات مسلماً وتظاهرت الروايات بذلك وقد أشرنا إليه في سورة الأنعام ومن المعلوم أنّ كلّ كلام يخالف إجماع أهل البيت فذلك كبندق فارغ خلّي من المعنى ولكن يقلقل.

ولنذكر شرذمة من أمور تدلّ على إسلامه: القميّ: قال نزلت قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي﴾ الآية في أبي طالب، كان رسول اللهﷺ يقول: «يا عمّ قل: لا إله إلّا الله أنفعك بها يوم القيامة». فيقول: يا ابن أخي أنا أعلم بنفسي. فلمّا مات شهد العبّاس بن عبد المطّلب عند رسول الله أنّه تكلّم بها عند الموت فقال رسول اللهﷺ: أمّا أنا فلم أسمعها منه وأرجوا أن أنفعه يوم القيامة وقالﷺ: «لو قمت المقام المحمود لشفعت في أمّي وأبي وعمّي وأخ لي كان مؤاخيا لي»[1].

وفي «الكافي» عن الصادقؑ: «إنّ مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف أسرّوا الإيمان وأظهروا الشرك فآتاهم الله أجرهم مرّتين»[2].

أقول: وإنّما أسرّ الإيمان ليكون أقدر على نصرة محمّدﷺ كما يستفاد هذا المعنى من كلمات أبي طالب وأخبار أخر.

١ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ١٤٢.

٢ـ الكافي، ج ١، ص ٤٤٨.

وعن الصادق عليه السلام قيل له: إنّهم يزعمون أنّ أبا طالب كان كافراً فقال عليه السلام: «كذبوا كيف يكون كافراً وهو يقول:

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً ... نبيّاً كموسى خطّ في أوّل الكتب»[1]

والمراد من أوّل الكتاب اللّوح المحفوظ.

وفي حديث آخر: «كيف يكون أبو طالب كافراً وهو يقول:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل»[2]

وعن الصادق عليه السلام: قال: «لمّا توفّي أبو طالب نزل جبرئيل على رسول الله فقال: يا محمّد اخرج من مكّة فليس لك بها ناصر وثارت قريش بالنبيّ فخرج هاربا حتّى جاء إلى جبل يقال الحجون فصار إليه[3] قال: فنزل جبرئيل عليه وقال: إنّ ربّك يقرؤك السلام ويقول: إنّي حرّمت النار على صلب أنزلك وبطن حملك وحجر كفلك فالصلب صلب أبيه عبد الله بن عبد المطّلب والبطن بطن آمنة بنت وهب والحجر حجر أبي طالب. وزاد في رواية: فاطمة بنت أسد»[4].

وفي كتاب «بشارة المصطفى» عنه عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «كان ذات يوم جالسا بالرحبة والناس مجتمعون فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين إنّك بالمكان الّذي أنزلك الله به وأبوك يعذّب بالنار؟ فقال له عليه السلام مه! فضّ الله فاك والّذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً لو شفع أبي في كلّ مذنب على وجه الأرض لشفّعه الله تعالى فيهم ليعذّب أبي بالنار وابنه قسيم الجنّة والنار؟ ثمّ قال والّذي بعث محمّداً بالحقّ أنّ نور أبي طالب يوم القيامة ليطفىء أنوار الخلق في المحشر إلّا نور محمّد ونور عليّ

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ الكافي، ج١، ص٤٤٩.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ تفسير الصافي، ج٤، ص٩٦.

ونور فاطمة ونور الحسن ونور الحسين وأنوار الأئمة من ولد الحسين»[١].

وبالجملة فمن نظر إلى أشعار أبي طالب في مديح النبيّ وهو أهل النظر عرف أنّه موحّد مصدّق بنبوّته وليست بقصيدة ولا عشرة بل استيفاء جميعه لا يستطيع الطوامير وأنّه لو صحّ عدم مجاهرة الأعداء في أمر إقراره استصلاحاً لأمر النبيّ وحسن تدبيره في كيدهم عن الرسول شفقة عليه لئلّا يلجئوا الرسول ما ألجؤوه إليه بعد موته.

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ نزلت في قريش حين دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام والهجرة قال الحارث بن نوفل بن عبد مناف قال للنبي ﷺ إنّا لنعلم أنّ قولك حقّ ولكن أن نتّبع الهدى معك ونؤمن بك نخاف أن يتخطّفنا العرب من أرضنا ولا طاقة لنا بالعرب فنخرج منها فأنزل الله هذه الآية رادّاً عليهم: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: أو لم نجعل لهم في أمن وأمان قبل هذا ودفعنا ضرر الناس عنهم فكيف يخافون زواله لو آمنوا بل حالة الإيمان والطاعة أولى بالأمن والسلامة من حالة الكفر ويجتمع فيه ثمرات كلّ أرض وبلدة بالتجارة والمسافرات ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ وأعطاه منّا جارياً عليهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ جهلة لا يتفطّنون.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أي: وربّ أهل قرية وبلدة كانت حالهم كحالكم في الأمن وحفض العيش حتّى أشروا وطغوا وبغوا فدمّر الله عليهم وخرب ديارهم ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وتلك إشارة إلى ما يعرفونه من ديار عاد وثمود ولوط لأنّهم كانوا يمرّون عليها وهي خاوية وخربة غير مسكونة إلّا قليل منها كالمسافر ساعة أو

١ـ بشارة المصطفى، ص٣١٢.

ساعتين فإنّ ديار عاد إنّما كانت بالأحقاف وهو موضع بين اليمن والشام وديار ثمود بواد القرى وديار قوم لوط بسدوم وكانوا في تجاراتهم يمرّون بها ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: المالكين لديارهم.

ثمّ خاطب نبيّه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ كأنّ سائلاً يسأل لمّا ذكر سبحانه أنّه أهلك تلك القرى بسبب بطر أهلها لماذا ما أهلك الله الكفّار والمشركين مع بطرها وطغيانها بمكّة فأجاب سبحانه: وما كان ربّك يا محمّد مهلك القرى أي: أهل القرى حتّى يبعث في أمّها وأصلها وكرسيّها رسولاً لإلزام الحجّة وقطع المعذرة فوجب أن لا يجوز أهلاكهم إلّا بعد البعثة أو المعنى إنّما ما عذّبنا أهل مكّة والأعراب الّتي حولها لأنه لابدّ وإن نبعث في أمّ القرى وهي مكّة وأصل الأرض رسولاً وهو محمّد يتلوا عليهم آياتنا ويؤدّي ويبلّغ عنّا.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ بالشرك والمعاصي فإن قيل: فلم ما أهلك أهل مكّة؟ لأنّ أهل مكّة بعضهم قد آمن وبعضهم قد علم الله أنّه سيؤمن وآخرون علم الله أنّهم وإن لم يؤمنوا لكنّه يخرج من نسلهم من يكون مؤمناً أو لشرافة النبيّ رفع الله سبحانه عن أمّته عذاب الاستيصال.

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما أعطيتم من شيء ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: هو شيء تتمتّعون به في الدنيا وتتزيّنون به يوماً أو عشراً ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب ونعيم الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ من هذه النعم ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ لأنّها فانية ونعيم الآخرة باقية ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حتّى تميّزوا بين الباقي والفاني.

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ

كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦)

سبب النزول: قيل: نزلت ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ....﴾ في رسول الله وأبي جهل. وقيل: نزلت في حمزة وعليّ بن أبي طالب عليهما السلام وفي أبي جهل. وقيل: نزلت في عمّار والوليد بن المغيرة، والأولى أن يكون عاماً في كلّ من يكون بهذه الصفة.

المعنى: لمّا ذكر من اوتي من زينة الدنيا عقّب بالفرق بين هاتين النعمتين فقال: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ من ثواب الحسنة جزاء على طاعته ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ وواصل إليه ومدرك تلك النعمة لا محالة كمن متّعناه متاع الحياة الدنيا من الأموال وغيرها ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للجزاء والعقوبة وقيل: المعنى من المحضرين في النار والحاصل أنّ حالهما لا يكون سواء.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ واذكر يوم ينادي تعالى الكفّار وهو يوم القيامة وهذا نداء تبكيت وتقريع ﴿فَيَقُولُ﴾ الله سبحانه: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ شركائي في الإلهيّة وتعبدونهم وتحسبون أنّهم ينفعونكم.

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: حقّ عليهم الوعيد بالعذاب من الجنّ والشياطين والّذين أغووا من الإنس والمراد من القول في الآية هو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(١) أي: حقّ مقتضى القول: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ﴾ مبتدء و﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ صفة للمبتدأ من هؤلاء الموصوفين بالغيّ ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ خبر للمبتدأ فغووا كما غوينا والمراد أنّه كما أنّ غيّنا باختيارنا فكذا غيّهم باختيارهم وإغوائنا ما ألجأهم إلى الغواية بل كانوا مختارين بالإقدام على تلك العقائد الفاسدة، ومثل هذا المعنى قد حكى الله عن

ـــــــــــــــ

١ـ سورة هود: ١١٩.

الشيطان حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾[1].

ثمّ قال الّذين حقّ عليهم القول ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم ومن أفعالهم ويتبرأ بعض من بعض وصاروا أعداء ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي: لم يكونوا يعبدوننا بل كانوا يعبدون الشيطان الّذين زيّن لهم عبادتنا.

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: ويقال للأتباع: ادعو الّذين عبدتموهم من دون اللّه وزعمتم أنّهم شركاء ليدفعوا عنكم العذاب وإنّما نسب الشركاء إليهم لأنّه لا يجوز أن يضاف إلى اللّه شريك ولكنّهم كانوا يزعمون أنّها شركاء اللّه ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾ أي: فيدعونهم فلا يجيبونهم إلى ملتمسهم ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: ويرون العذاب ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: لو أنّهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب واعتقدوا انّ العذاب حقّ في الدنيا وما أنكروا القيامة.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ومن الأمور التي يسأل اللّه الكفّار في ذلك اليوم فيقول اللّه لهم ما الّذي أجبتم من دعوة المرسلين وما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيّين وهذا سؤال تقرير بالذنب فإنّ الرسل كانوا يدعون بالعلم والعمل كأنّه يقال لهم ماذا علمتم وما الّذي عملتم.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ فخفيت عليهم طرق الجواب يومئذ كالأعمى لانسداد طرق الأخبار عليهم كما تنسدّ طرق الأرض على الأعمى وألبست عليهم الحجج فلا ينطقون بالحجة ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله لشغله بنفسه، وقيل: لا يسأل بعضهم بعضاً عن أن يحمل عنه ذنوبه.

فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

١ـ سورة إبراهيم: ٢٢.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)﴾

ثمّ لمّا بيّن حال المعذّبين من الكفّار أتبعه بذكر من يتوب منهم في الدنيا ترغيبا في التوبة وزجراً عن الثبات على الكفر فقال: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ وفي عسى وجوه: أحدها: أنه من الكرام تحقيق والله أكرم الأكرمين. وثانيها: أن يراد ترجّي التائب وطمعه كأنّه قال: فليطمع في الفلاح. وثالثها عسى أن يكونوا كذلك إن داموا على التوبة والإيمان لجواز أن لا يدوموا. وإنّما أتى سبحانه بلفظة ﴿عَسَى﴾ مع أنّه مقطوع بفلاحه لأنّه على رجاء أن يدوم على ذلك فيفلح وقد يجوز أن يزلّ في ما بعد فيهلك على أنه قد قيل: إنّ ﴿عَسَى﴾ من الله سبحانه لفظة وجوب في جميع القرآن.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ وفي الآية ردّ على المشركين حيث أوردوا شبهة وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1] فاختاروا عظيماً من مكّة وهو الوليد بن المغيرة ومن الطائف عروة بن مسعود الثقفيّ فأجاب الله سبحانه بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ لهم ما هو الأصلح ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ و﴿مَا﴾ في الآية بمعنى الّذي أي: ويختار الّذي لهم الخيرة، والخيرة اسم من الاختيار أقيم مقام المصدر وحاصل المعنى أنّ الاختيار له وليس لغيره. وقيل: ﴿مَا﴾ نافية فيكون الوقف في الآية حينئذ على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾

١ـ سورة الزخرف: ٣١.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدّس وتنزّه عن أن يكون له شريك واختيار لأحد من دونه.

ثمّ أقام البرهان على صحّة اختياره بقوله ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: هو العالم بما يخفونه وما يظهرونه فإليه الاختيار وأمّا الّذي لا يعلم فلا اختيار له لأنّه غير قابل بعلم الأصلح ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا الموصوف الله ليس إله غيره ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ وله الثناء والمدح والتعظيم على ما أنعم به على خلقه في الدنيا والعقبى ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ بينهم بما يميّز به الحقّ والباطل: يحكم لأهل طاعته بالفضل والمغفرة ولأهل معصيته بالشقاء والويل ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإلى حكمه مرجعكم.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

المعنى: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لقومك والّذين عبدوا الآلهة تنبيها على خطائهم وبيانا لموجبات الحمد الّذي ذكره في الآية السابقة حيث قال: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ فنبّه سبحانه بأنّ اللّيل والنهار نعمتان يتعاقبان لأنّ الإنسان لابدّ وأن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه ولا يتمّ له ذلك لو لا ضوء النهار والاجتماعات ليتمكّن الإنسان من المعاملات وأيضاً لا يتمّ هذا الأمر لو

لا الراحة والسكون باللّيل فلابدّ منهما فقال: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ إذا بقي اللّيل من غير النهار من ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ ونهار ولا قادر على ذلك إلّا الله ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ما بيّنه لكم من الأدلّة على التوحيد وتتفكّرون فيه، وكذلك ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ النهار من غير ليل تسكنون فيه للراحة ويكون دائما النهار من غير ليل من ﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ﴾ تستريحون فيه من النصب والحركة غير الله ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وتتبصّرون من البصيرة أو من المشاهدة فتعلموا أنّهما من صنيع مدبّر حكيم.

ثمّ قال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ومن رحمته وإحسانه إليكم جعل اللّيل للسكونة والراحة والنهار لابتغاء المعاش والكسب والفضل ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ من نعم الله عليكم وتعرفون حقّه ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ مضى تفسيره كرارا وإنّما كرّر ذكر النداء للمشركين بأين شركائي تقريعاً لهم بعد تقريع، أو أنّ النداء الأول في الآية السابقة لتقرير إقرارهم على أنفسهم بالغيّ والثاني للتعجيز عن إقامة البرهان بحضرة الأشهاد.

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: وأخرجنا من كلّ أمّة من الأمم رسولها الّذي يشهد عليهم بالتبليغ وبما كان صدر منهم وهم عدول الآخرة ولا يخلو كلّ زمان منهم يشهدون على الناس بما علموا ليكون ذلك زائداً في غمّهم، والشهداء الّذين يشهدون يعمّ الأنبياء والمؤمنين في أيّام الفترات فعلم الكفّار حينئذ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ﴾ وغاب وضاع مفترياتهم من الباطل والكذب.

إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ

مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ
اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا
وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ
الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو
حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ
آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ
الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ
بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)

اعلم أنّ نصّ القرآن يدلّ على أنّ قارون كان من قوم موسى عليه السلام وظاهر ذلك يدلّ على أنّه ممّن قد آمن بموسى، ولا يبعد أيضاً حمله على القرابة واختلفوا في كيفيّة القرابة قيل: إنّه كان ابن عمّ موسى عليه السلام لأنّه كان قارون بن يصهر بن فاهث بن لاوي وموسى ابن عمران بن فاهث بن لاوي. وقيل: إنّه كان عمّ موسى لأنّ موسى ابن عمران ابن يصهر بن فاهث، وقارون ابن يصهر بن فاهث. وقال ابن عبّاس: إنّه كان ابن خالته.

ثمّ قيل: إنّه كان يسمّى المنوّر لحسن صورته وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة إلّا أنّه نافق كما نافق السامريّ.

أمّا قوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: إنّه بغى بسبب ماله وبغيه أنّه استخفّ بالفقراء ولم يرع لهم حقّ الإيمان ولا عظّمهم مع كثرة أمواله. وقيل: كان بغيه

من الظلم ملّكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم وبغى عليهم وطلب الفضل عليهم وجعلهم تحت يده.

وقيل: طغى عليهم واستطال فلم يوافقهم في أمر وقيل: بغيه عليهم أنّه زاد عليهم في الثياب شبرا للتكبّر.

وقيل: إنّ بغيه عليهم أنّه حسد هارون عليه السلام على الحبورة[1] يروى أنّ موسى عليه السلام لمّا قطع البحر وأغرق الله فرعون جعل الحبورة لهارون عليه السلام فخلصت له النبوّة والحبورة وكان صاحب القربان والمذبح وكان لموسى عليه السلام الرسالة فوجد قارون من ذلك في نفسه فقال: يا موسى لك الرسالة ولهارون الحبورة ولست في شيء ولا أصبر أنا على هذا، فقال موسى: والله ما صنعت ذلك لهارون ولكنّ الله جعله له. فقال: والله لا أصدّقك أبداً حتّى تأتيني بآية أعرف بها أنّ الله جعل ذلك لهارون، قال: فأمر موسى عليه السلام رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كلّ رجل منهم بعصاه فجاءوا بها فألقاها موسى عليه السلام في قبّة له وكان ذلك بأمر الله فدعا ربّه أن يريهم بيان ذلك فباتوا يحرسون عصيّهم فأصبحت عصا هارون عليه السلام تهتزّ، بها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى عليه السلام: يا قارون أما ترى ما صنع الله لهارون؟ فقال: والله ما هذا بأعجب ممّا تصنع من السحر، فاعتزل قارون بأتباعه وكان كثير المال والتبع من بني إسرائيل فما كان يأتي موسى عليه السلام ولا يجالسه.

وروى أبو أمامة الباهليّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال: كان قارون من السبعين المختارة الّذين سمعوا كلام الله[2].

أمّا قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾

١ـ بالضم: الإمامة.

٢ـ قصص الأنبياء، الجزائري، ص٣١٩؛ وبحار الأنوار، ج١٣، ص٢٥٥.

ففيه أبحاث، فإن قيل: إنّ اللّه لا يعطي الحرام فكيف أضاف اللّه مال قارون إلى نفسه بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ فأجيب بأنّه لا حجّة في أنّه حرام ولعلّ أنّه قد وصل إليه بعضه بالإرث وبعضه بالتكسّب، وقيل إنّه أصاب كنزاً من كنوز يوسف.

وبالجملة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ و«ما» هذه موصولة أي: أعطيناه من الأموال المدّخرة قدر الّذي نوأ مفاتحه بالعصبة، والمفاتح المراد الخزائن مثل قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾[1] أي: خزائن، من قول أكثر المفسّرين وابن عبّاس. وقيل: هي المفاتح الّتي تفتح بها الأبواب. وقيل: كانت مفاتيح قارون من جلود وكلّ مفتاح مثل الإصبع. واختلف في معنى العصبة فقيل: ما بين عشرة إلى خمسة عشر. وقيل: إلى أربعين. وقيل: أربعون رجلاً والعشرة عصبة بدليل قوله تعالى في إخوة يوسف: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾[2] وكانوا عشرة لأنّ يوسف وأخاه لم يكونا معهم.

وبالجملة ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ أي: تنوء وتعجز العصبة بها، وناءت العصبة بها، والباء لتعدّي الفعل ولكثرة هذه الأموال أو المفاتيح تتعب القائمين عليها أن يحفظوها ويحملوها. ثمّ بيّن سبحانه أنّه كان في قوم قارون من وعظه بأمور:

أحدها: قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ والمراد أن لا تبطر بالنعمة ولا يلهيك المال عن الآخرة لأنّ من يعلم أنّه سيفارق الدنيا لم يفرح بها. وثانيها: قوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ والظاهر أنّه كان مقرًا بالآخرة. وثالثها: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لا بأس بوجوه التمتّع التمتّع المباحة، أو المراد الإنفاق في طاعة اللّه فإنّ ذلك هو

١ـ سورة الأنعام: ٥٩.

٢ـ سورة يوسف: ٨ و١٤.

نصيب المرء من الدنيا قال‏ﷺ: «فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت فو الّذي نفس محمّد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار إلّا الجنّة والنار»[1]. ورابعها: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ويدخل فيه وجوه الخير والإعانات ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والمراد ما كان عليه من الظلم والبغي. وقيل: إنّ هذا القائل هو موسى. وقيل: القائل بل مؤمنوا قومه لكن أبى أن يقبل بل زاد قارون بكفر النعمة فقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: إنّ المال حصل لي على علم عندي بوجوه المكاسب وبأمور لا يتهيّأ لأحد أن يكتسبه من التجارات والزراعات، وقيل: على علم عندي بصنعة الذهب وهو علم الكيمياء، حكي أنّ موسى علّم قارون الثلث من صنعة الكيمياء وعلّم يوشع الثلث منها وعلّم كالب بن هارون الثلث منها فخدعهما قارون حتّى علم ما عندهما وعمل بالكيمياء فكثرت أمواله فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضّة والنحاس فيجعله ذهباً.

فأجاب الله عن كلامه بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ والمراد أو لم يعلم في جملة ما عنده من العلم أنّ الله قد أهلك قبله من القرون من هو أغنى منه وأقوى، وذلك لأنّه قرأه في التوراة واخبر به وسمعه من الأحبار. والمراد من قوله: ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أكثر جمعا للمال أو أكثر جماعة في العدد.

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: إذا جاء ونزل العذاب فالاغترار بالمال الكثير والعدد العظيم لا ينفع ويدخلون النار والملائكة تعرفهم بسيماهم فلا يسألون عنهم لعلامتهم ويأخذونهم بالنواصي والأقدام فيصيّرونهم إلى النّار وهذا

١ـ انظر: بحار الأنوار، ج٦٧، ص٣٦٣.

كقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾[١] فأمّا قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢] فإنّما ذلك سؤال تقريع وتوبيخ لا ليعلم ذلك.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فقوله ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ يدلّ على أنّه خرج بأظهر زينة وأكملها وليس في القرآن إلّا هذا القدر إلّا أنّ الناس ذكروا وجوها كثيرة في كيفيّة تلك الزينة قال مقاتل: خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول وعليها الثياب الأرجوانيّة ومعه ثلاثمائة جارية بيض عليهنّ الحليّ والثياب الحمر على البغال الشهب. وقال بعضهم: في تسعين ألفا هكذا. والأولى ترك هذه التقريرات لأنّها متعارضة. ثمّ إنّ الناس لمّا رأوه على ذلك الزيّ والزينة قال من كان يرغب منهم في الدنيا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ من هذه الأموال والأمور وأمّا أهل الدين فقالوا للّذين تمنّوا هذا: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ من هذه النعم لأنه دائم، وكلمة ويلك أصله الدعاء بالهلاك ثمّ يستعمل في الزجر والردع ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ أي: لا يوفّق لها، والضمير إلى الكلمة أي: كلمة ثواب الله خير إلّا الصابرون أو الضمير راجع إلى الإيمان والعمل الصالح أي: لا يؤتيها إلّا الصابرون في الطاعة والرضا بما قسم الله لهم.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ﴾ أي: إنّ قارون لمّا أشر وبطر خسف الله به وبداره جزاء على عتوّه، والفاء تدلّ على هذا المعنى لأنّ الفاء تشعر بالعلّيّة. قيل: إنّ قارون كان يؤذي موسى عليه السلام كلّ وقت وهو يتحمّل عنه للقرابة الّتي بينهما حتّى نزلت التوراة وآية الزكاة فصالحه موسى عن كلّ ألف دينار على

١ـ سورة الرحمن: ٣٩.

٢ـ سورة الحجر: ٩٢.

دينار وعن كلّ ألف درهم على درهم فاستكثره قارون بعد ما حسبه فشحّت نفسه فجمع بني إسرائيل وقال: إنّ موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا: أنت سيّدنا وكبيرنا فمرنا بما شئت قال: نبرطل فلانة البغيّ حتّى تنسبه إلى نفسه فرفضه بنو إسرائيل فجعل لها طستا مملوءا من الذهب.

فلمّا كان يوم عيد قام موسى فقال: يا بني إسرائيل من سرق قطعناه ومن زنى وهو غير محصن جلدناه وإن أحصن رجمناه فقال قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا. قال: فإنّ بني إسرائيل يقولون: إنّك فجرت بفلانة! فأحضرت فناشدها موسى باللّه الّذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتداركها اللّه فقالت: كذبوا، بل جعل قارون لي جعلا على أن أقذفك بنفسي فخرّ موسى ساجدا للّه يبكي وقال يا ربّ: إن كنت رسولك فاغضب لي، فأوحى اللّه إليه أن مر الأرض بما شئت فإنّها مطيعة لك. فقال: يا بني إسرائيل إنّ اللّه بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعاً غير رجلين ثمّ قال موسى: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى الركب، ثمّ قال: خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط، ثمّ قال: خذيهم، فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه يتضرّعون إلى موسى ويناشدونه باللّه والرحم وموسى لا يلتفت إليهم ثمّ قال موسى: يا أرض خذيهم، فانطبقت الأرض عليهم، فأوحى اللّه إلى موسى: استغاثوا بك مراراً فلم ترحمهم أما وعزّتي لو دعوني مرّة واحدة لوجدوني قريباً مجيباً.

ونقل صاحب «المجمع» هذه الرواية عن السدّيّ مع اختلاف يسير في العبارة قال: دعا قارون امرأة من بني إسرائيل بغيّا فقال: إنّي أعطيك ألفين على أن تجيئين غدا إذا اجتمعت بنو إسرائيل عندي فتقولي: يا معشر بني إسرائيل مالي ولموسى قد آذاني؟ قالت: نعم فأعطاها خريطتين عليهما خاتمه

فلمّا جاءت إلى بيتها ندمت وقالت: يا ويلتى قد عملت كلّ فاحشة فما بقي إلّا أن أفتري على نبيّ الله وكليمه فلمّا أصبحت أقبلت ومعها الخريطتان حتّى قامت بين بني إسرائيل فقالت: إنّ قارون قد أعطاني هاتين الخريطتين على أن أقول هكذا ومعاذ الله أن أفتري على نبيّ الله وهذه دراهمه عليها خاتمه فعرف بنو إسرائيل خاتم قارون فغضب موسى فدعا الله إلى آخر القصّة[1].

وقيل: لمّا صبّ قارون على رأس موسى رماداً قد خلط بالماء دعا عليه.

قال مقاتل: ولمّا أمر موسى الأرض فابتلعته قال بنو إسرائيل: إنّما فعل موسى ذلك ليرثه لأنّه كان ابن عمّه فخسف بداره بعد ثلاثة أيّام.

﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وما أفاده جمعه ولا ماله وما تمكّن أحد أن ينصره من عذاب الله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ والممتنعين من عذاب الله وكان يعذّب ويجلجل في طبقات الأرض إلى أن لاقى وسمع تسبيح يونس في بطن الحوت وسأله عن قومه وترحّم عليهم فرفع الله عنه العذاب في الدنيا إلى آخر القصّة قوله: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ حين خرج عليهم في زينته ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ وفي كلمة «وي كأن» أقوال من أئمّة النحاة وأهل اللغة: قال ابن جنّي: في «وي كأنّه» ثلاثة أقوال: منهم من جعلها كلمة واحدة فلم يقف على وي، ومنهم من وقف على «وي». ومنهم من قال: «ويك» أي: أعجب والكاف للخطاب مثل ذلك فالمعنى أعجب أنّه لا يفلح الكافرون واعجب أنت أنّه يبسط الرزق لمن يشاء، وعلى كون كلمة «وي» مفصولة عن «كأن» فهي مستعملة عند التنبّه للخطأ وإظهار التندّم فالمعنى في الآية: إنّهم لما قالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ثمّ شاهدوا الخسف تنبّهوا لخطائهم

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٤٦١.

فقالوا: وي، ثمّ قالوا: كأنّ الله يبسط الرزق بحكمته لا لكرامته عليه ويضيق على من يشاء لا لهوانه عليه.

وقيل: «ويلك» أنّه بحذف اللام وجاز هذا الحذف لكثرتها في الكلام وأنّه مفتوحة بعدها بفعل مضمر كأنّه قال: ويك أعلم أنّه يبسط الرزق ويقدر.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ثمّ قالوا: لو لا أن منّ الله علينا لخسف بنا وكنّا مثله وي كأنّه لا يفلح الكافرون لما قبله.

والنظم في قصّة قارون في الآيات لأنّ الله سبحانه قال: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ فأكّد هذا البيان بحديث قارون وحاله.

تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ التي سمعت خبرها وبلغك وصفها ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾ وغلبة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ وظلماً على الناس. في «المجمع» عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّه كان يمشي في الأسواق وهو وال يرشد الضالّ ويعين الضعيف ويمرّ على البقّال والبيّاع ويقرء هذه الآية ويقول: نزلت في أهل العدل

والتواضع من الولاة وأهل القدرة»[1]. وعنه عليه السلام قال: «إنّ الرجل ليعجبه شراك نعله فيدخل» في هذه الآية. يعني: إنّ من تكبّر على غيره بلباس يعجبه فهو ممّن يريد علوّاً في الأرض[2].

وعنه عليه السلام أنه قال لحفص بن غياث: «يا حفص ما منزلة الدنيا من نفسي إلّا بمنزلة الميتة إذا اضطررت إليها أكلت منها يا حفص إنّ الله علم ما العباد عاملون وإلى ما هم صائرون فحلم عنهم عند أعمالهم السيّئة لعلمه السابق فيهم فلا يغرنّك حسن الطلب ممّن لا يخاف الفوت» ثمّ تلا ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الآية وجعل يبكي ويقول: «ذهبت والله الأمانيّ عند هذه الآية»، ثم قال: «فاز والله الأبرار أتدري منهم هم الّذين لا يؤذون الذرّ، كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار جهلاً»، الحديث[3].

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الّذين اتّقوا المعاصي وعقاب الله بأداء فرائضه.

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ لمّا بيّن أنّ الدار الآخرة للمتّقين بيّن لهم ما يحصل فقال: من أتى بحسنة فله قد حصل خير من تلك الحسنة فيزوّد ثواباً ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يزادوا على ما يستحقّون، ثبت أنّ في الحسنات مزيد الفضل والثواب ولا يجزى بالسيّئة إلّا مثلها.

فلو قيل: كيف لا تجزى السيّئة إلّا بمثلها مع أنّ المتكلّم بكلمة الكفر إذا مات في الحال عذّب أبد الآباد؟ فالجواب، أنّه كان على عزم أنه لو عاش أبداً كان القائل بذلك فعومل بمقتضى عزمه وقصده كما أنّ الكافر لو كان

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص٤٦٤.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ نور الثقلين، ج ٤، ص١٤٣ ؛ وبحار الأنوار، ج٧٥، ص١٩٣.

مؤبّدا في الدنيا لكان مؤبّداً في كفره فيكون مؤبّدا في عذابه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ سبب النزول: قيل: لمّا نزل النبي ﷺ بالجحفة في مسيره إلى المدينة مهاجراً اشتاق إلى مكّة فأتاه جبرئيل فقال: «أتشتاق إلى بلدك ومولدك؟ فقال: نعم قال جبرئيل: فإنّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ....﴾» أي: إنّ الّذي أوجب عليك القرآن بما تضمّنه من الأحكام لرادّك إلى مكّة ويعيدك إليها كما كنت فيها وهذا أحد الدلالات على كونه نبيّاً لأنّه تعالى أخبره عن الغيب وقد وقع كما أخبر فكان معجزاً وصار المخبر مطابقاً للخبر[1]. وقيل: المعنى إلى المرجع يوم القيامة ويعيدك بعد الموت كما بدأك.

ثمّ ابتدأ بكلام آخر فقال سبحانه: ﴿قُل﴾ يا محمّد ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ الّذي يستحقّ الثواب ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لا يخفى عليه الضالّ والمهتدي والمؤمن والكافر، والتأويل أنّي قد جئتكم بالهدى من عنده وإنّكم في ضلال وسينصرني عليكم.

ثمّ ذكر سبحانه النعم الّتي أنعم الله على نبيّه فقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: وما كنت يا محمّد ترجوا فيما مضى أن يوحي الله إليك ويشرّفك بهذه الشرافة العظيمة من إنزال الكتاب عليك ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وإلّا في الآية قيل للاستدراك أي: ما كنت ترجوا هذا الأمر العظيم لكن تداركتك رحمة عظيمة من الله خصّصت بها. ثمّ أمره بأمور:

أحدها: بأن لا يكون مظاهرا للكفّار فقال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وهذا الخطاب وأمثاله وإن كان للنبيّ لكنّ المراد قومه روي عن ابن عبّاس أنّه كان يقول: القرآن كلّه إيّاك أعني واسمعي يا جارة.

١ـ بحار الأنوار، ج١٧، ص٩٧.

وثانيها: قال سبحانه: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ الميل إلى المشركين وذلك حين دعوه إلى دين طائفته ليزوّجوه ويقاسموه شطراً من أموالهم أي: لا تلتفت إلى ما يقولون ولا تركن إليهم فيصدّوك عن اتّباع آيات اللّه.

وثالثها: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ﴾ دين ﴿رَبِّكَ﴾ وأراد التشدّد في دعوة الكفّار والمشركين فقال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لأنّ من رضي بطريقتهم أو مال إليهم كان منهم، والمراد الأمّة وإن كان الخطاب إليه وهو للتعظيم. ورابعها: قوله ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ فإن قيل: إنّ الرسول كان معلوماً منه أن لا يفعل شيئاً من ذلك البتّة فما الفائدة في هذا النهي؟ والجواب ما قاله ابن عبّاس وقد ذكرناه قبيل ذلك. قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تستدع حوائجك من غيره لا معبود إلّا هو.

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ وبائد وفان إلّا ذاته وهذا كما يقال: هذا وجه الرأي ووجه الطريق ووجه العمل، وفي هذا دلالة على أنّ الأجسام تفنى ثمّ تعاد. وقيل: معنى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ يعني: ما أريد به وجهه فإنّ ذلك يبقى ثوابه وهذا المعنى اختيار جماعة من المفسّرين مثل ابن عبّاس وأبي العالية والكلبيّ. قال الفرّاء: أستغفر اللّه ذنباً لست محصيه ربّ العباد إليه الوجه والعمل أي: إليه اوجّه العمل.

وكلّ عمل مشروع أريد به وجه اللّه فهو باق وثابت حتّى أنّ العبد يشرب من الماء فيستوجب الجنّة قال الصادق عليه السلام: «إنّ الرجل يشرب الماء فيقطعه ثمّ ينحّي الإناء وهو يشتهيه فيحمد الله ثمّ يعود فيه ويشرب ثمّ ينحّيه وهو يشتهيه فيحمد الله ثمّ يعود فيشرب فيوجب الله له بها الجنّة»[1]. وكذلك في البسملة

١ـ الكافي، ج ٢، ص ٩٧.

يفعل كما فعل في التحميد يدخل به الجنّة[1].

﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: القضاء النافذ في خلقه والفصل بين الخلائق في الآخرة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وتردّون. والنظم في الآيات أمّا قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ بما قبله على معنى أنّه سبحانه كما حرّم نعم الدنيا عليهم بالهلاك كذلك حرّم عليهم نعم الآخرة.

وأمّا وجه النظم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ....﴾ بما قبله فقد ذكر فيه من حمل المعاد على البعث أنّه اتّصل بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ ومن حمله على العود إلى مكّة قال: إنّه سبحانه لمّا بيّن وعده لأمّ موسى ورجوعه إلى أمّه كذلك وعده ربّه العود إلى مكّة مع الشرف العظيم وقد أنجز وعده كما أنجز وعده هناك.

تمّت السورة.

١ـ انظر: بحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٢.

سورة العنكبوت

مكية كلها، وقيل: مدنية، وقيل: بعضها مكية وبعضها مدنية. عدد آياتها تسع وستون آية.

فضلها: أبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين»[1].

وروى أبو بصير عن الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة العنكبوت والروم في شهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين فهو والله يا أبا محمد من أهل الجنة ولا أستثني فيه أبداً ولا أخاف أن يكتب الله عليّ في يميني إثماً وإنّ لهاتين السورتين من الله مكاناً»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ
فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ
حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ
يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾

سبب النزول: قيل: نزلت الآية في عمّار بن ياسر وكان يعذّب في الله

1ـ جوامع الجامع، ج٢، ص٧٩٥؛ وعن الكشاف، ج٣، ص٤٦٥.

2ـ ثواب الاعمال، للصدوق، ص١٣٦؛ وجوامع الجامع، ج٢، ص٧٥٩.

وكذلك عيّاش ابن ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وكانوا يعذّبون بمكّة. وقيل: إنّها نزلت في أقوام بمكّة هاجروا وتبعهم الكفّار فاستشهد بعضهم ونجا الباقون.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ يعني: أظنّوا أنّهم يتركون بمجرّد قولهم آمنّا وهم لا يمتحنون بالفرائض البدنيّة كالجهاد والعبادات والماليّة كالزكاة وأمثالها، لأنّ الإنسان إذا قال: آمنت باللّسان فقد ادّعى محبّة اللّه في القلب ولابدّ له من شهود فإذا استعمل الأركان في الإتيان بما عليه حصل له على دعواه شهود كما أنّه إذا بذل في سبيل اللّه نفسه وماله وزكّى، بترك ما سواه أعماله زكّى شهوده، فيثبت في جرائد المحبّين اسمه ويقرّر في دفتر المؤمنين وإليه الإشارة بهذه الآية أي: دعوى بلا شهود وشهود بلا تزكية غير مقبول وهي أدنى درجات العبوديّة فإنّ ما دونه دركات الكفر.

واعلم أنّ المستخدمين عند الملوك على أقسام: منهم من يكون ناهضاً في شغله ماضيا في فعله فيترقّى من خدمة إلى خدمة أعلى منها مرتبة، ومنهم من يكون كسلاناً متخلّفاً فينتقل من خدمة إلى خدمة أدنى منها، ومنهم من يترك على شغله من غير تغيير، ومنهم من يقطع اسمه بسبب الخيانة ويمحى عن الجرائد اسمه فكذلك العباد قد يكون العبد مقبلا على العبادة مقبولاً للسعادة وهي درجة المقرّبين ومنهم من يكون قليل الطاعة مشتغلاً بالخلاعة فينتقل إلى مرتبة العصاة ومنزلة الفسّاق وقد يكون يزيد على هذا الأمر ويستصغر العيوب ويستكثر الذنوب فيصير محروماً ويلحق بأهل العناد مرجوماً. والحاصل أنّ الإنسان بمجرّد قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ غير متروك ولابدّ أن يفتن.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ثمّ أقسم سبحانه فقال: ولقد ابتلينا الّذين من قبل أمّة محمّد ﷺ من سالف الأمم

بالفرائض الّتي فرضناها عليهم وبالشدائد والمصائب مثل إبراهيم خليل الرحمن وقوم كانوا معه ومن بعد إبراهيم نشروا بالمناشير على دين اللّه فلم يرجعوا عنه ومثل قوم بني إسرائيل ابتلوا بفرعون يسومونهم سوء العذاب.

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾ أي: ليميّزنّ اللّه الّذين صدقوا من الّذين كذّبوا بالجزاء والمكافاة وعبّر عن الجزاء والتميّز بالعلم وأقام السبب مقام المسبّب والملزوم مقام اللّازم ومثله من إقامة السبب مقام المسبب قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾[1] فهذا سبب قضاء الحاجة فكنّى بذكره عنها والفائدة في اختلاف الصيغة بالماضي في صدقوا وبالفاعل في الكاذبين أنّ اسم الفاعل يدلّ على الثبوت والاستمرار والفعل لا يدلّ على الاستمرار لأنّه لا يفهم من معنى الفعل التكرار كما يقال: فلان شرب الخمر وشارب الخمر، ولمّا كانت الآية وقت نزولها حكاية عن قوم قريبي العهد في الإسلام وعن قوم مستديمي الكفر مستمرّين عليه فلهذه العلّة قال سبحانه في حقّ المؤمنين الّذين صدقوا بصيغة الفعل أي: وجد منهم الصدق وقال في حقّ الكافر بالصيغة الفاعل المنبئة عن الثبوت.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ؛ ﴿أَمْ﴾ هذا استفهام منقطع عمّا قبله وليست الّتي معادلة الهمزة والمعنى: بل أحسب الّذين يفعلون الكفر والقبائح أن يفوتونا ويعجزونا فلا نقدر على أخذهم والانتقام منهم بئس الأمر الّذي يحكمون ويعتقدون، وحاصل المعنى: أنّ من امتحن بأمر وكلّف ولم يأت به إن لم يعذّب في الحال يعذّب في الاستقبال ولا يفوتنا عذابه ولا يتخيّلون أنّ الإمهال يفضي إلى الإهمال والتعجيل في العقوبة شغل من يخاف الفوت.

١ـ سورة مائدة: ٧٥.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وبالعكس إنّ الّذين يعترفون بالآخرة ويعملون لها، وفسّر بعض الرجاء في الآية بمعنى الخوف والمراد من قوله: ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ الموت أو الحياة الثانية بالحشر ولعلّ المراد من ذكر إتيان الأجل وقوع وعد المطيع من الثواب ووعيد العاصي من العقاب وحاصل المعنى: من كان يرجوا الثواب ويخشى البعث والحساب فليبادر بالطاعة قبل الأجل فإنّه لآت لا محالة.

واعلم أنّ أكثر آيات القرآن لا ينفصل عن ذكر الأصول كما أنّ في هذه الآيات قد ذكر الأصول الثلاثة: والأوّل الإيمان بوحدانيّته كما بيّن ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ وفيه إشارة إلى الأصل الأوّل والأصل الثاني وهو إرسال الرسل والنبوات وتصديقهم، كما أشار بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالأصل الثاني وأشار بأصل الثالث في قوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ولم يذكر في المقام صفة غيرهما لأنه قد سبق في الآية ذكر القول بقوله: ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ وسبق ذكر الفعل بقوله: ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾ ومناسبة الإدراك في القول السّمع وفي العمل العلم فقال: وهو السّميع لأقوالهم والعليم بأفعالهم وأصناف حسنات العبد ثلاثة: أحدها: نيّته وقلبه في التصديق وهو لا يرى ولا يسمع وإنّما يعلم، والثاني: عمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه وجوارحه وهو يرى فإذا أتى العبد بهذه الأمور الثلاثة جعل لمسموعه ما لا اذن سمعت ولمرئيّه ما لا عين رأت ولعمل قلبه ما لا خطر على قلب بشر، كما ذكر في الحديث في وصف الجنّة.

وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

ولمّا بيّن سبحانه أنّ التكليف واقع وعليه وعد ووعيد ليس لهما دافع بيّن أن طلب الله ذلك من المكلّف ليس لنفع يعود إليه سبحانه فإنّه غنيّ

مطلق فمن سعى في تكليف فقد سعى لنفسه وطلب أمراً يرجع نفعه إلى نفسه فليكن الإنسان دأبه أن يجاهد الشيطان بمخالفته ويدفع وسوسته عن نفسه وإغوائه ويجاهد أعداء الدين لإحيائه ويجاهد مع نفسه في شهواتها وكل ذلك نفع وفائدة للمكلّف والله غنيّ عن جميع العوالم وأهلها والآية تدلّ على أنّه ليس في مكان لا على العرش ولا على غيره فإنّه من العالم وهو غنيّ عنه.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

مسألة الإيمان هو التصديق كما قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾[1] أي: مصدّق لنا، واختصّ في استعمال الشرع بالتصديق بجميع ما قال الله والرسول إن علم على سبيل التفصيل أنّه قول الله أو قول الرسول أو على سبيل الإجمال فيما لم يعلم، والأعمال الصالحة كاشفة عن وقوع التصديق ولا يتمّان إلّا معاً والأعمال داخلة فيما هو المقصود من الإيمان لأنّ تكفّر السيّئات والجزاء بالأحسن معلّق على الأعمال وهي ثمرة الإيمان ومثاله شجرة مثمرة لا شكّ في أنّ عروقها وأغصانها منها والماء الّذي يجري عليها والتراب الّذي حواليها غير داخل فيها لكنّ الثمرة لا تحصل إلّا بذلك الماء والتراب الخارج

١ـ سورة يوسف: ٧١.

فكذلك العمل الصالح مع الإيمان، وأيضاً الشجرة لو احتفّت بها الحشائش المفسدة والأشواك المضرّة ينقص ثمرة الشجرة وإن غلبتها عدمت الثمرة بالكلّيّة وفسدت فكذلك الذنوب تفعل بالإيمان.

ثمّ إنّ العمل الصالح باق لأنّ الصالح في مقابلة الفاسد والفاسد هو الهالك التالف يقال: فسد الزرع إذا هلك أو خرج عن حدّ الانتفاع به، والعمل كيف بنفسه يبقى مع أنّه عرض فلا يبقى إلّا بالعامل والعامل أيضاً لا يبقى لأنّه هالك كما قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ فبقاء العمل لابدّ وأن يكون بشيء باق لكنّ الباقي هو وجه الله بقوله: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فإذا كان العمل لوجهه فباق وما لا يكون من العمل لوجهه لا يبقى لا بنفسه ولا بالعامل ولا بالمعمول له لأن الكل فان فالإخلاص لوجهه سبب لبقاء العمل وهو المرفوع والمقبول لقوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[1] لكنّه لا يرتفع إلّا بالكلم الطيّب كما قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وهو يرفع العمل، فالعمل من غير المؤمن لا يقبل ولهذا تقدّم الإيمان في الذّكر على العمل.

﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولمّا ذكر من أعمال العبد نوعين الإيمان والعمل الصالح فذكر في مقابلتها أمرين فتكفير السيّئات في مقابلة الإيمان والجزاء بالأحسن في مقابلة العمل الصالح والتكفير الستر والإبطال.

ومقتضى ظاهر الآية أنّ المؤمن العاصي لا يخلد في النار لأنّ بإيمانه تكفّر سيّئاته فلا يخلّد في العذاب.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ وقرئ إحساناً وهو أنّ الله تعالى وصّى الإنسان بأن يفعل مع والديه حسن التأنّي بالفعل والقول ونكّر حسنا للعموم

١ـ سورة فاطر: ١٠.

وللدلالة على الكمال والتكثّر مثل قولك إنّ لزيد مالاً.

وهذا القول في الآية دليل على أنّ متابعتهم في الكفر لا يجوز وبيان ذلك أنّ الإحسان بالوالدين وجب وحسن بأمر اللّه فلو ترك العبد عبادة اللّه بقول الوالدين لترك طاعة اللّه واتّباع العبد أبويه لأجل الإحسان إليهما يفضي إلى ترك الإحسان إليهما وما يفضي وجوده إلى عدمه باطل فالاتّباع باطل.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ أي: وإن جاهداك أبواك أيّها الإنسان وألزماك في دعوتهم إيّاك في الشرك على عبادتي وليس لك ولأحد به علم وحجّة ودليل فلا يحسن اعتقاده فأمر سبحانه إطاعتهما في الواجبات والمباحات ونهى عن طاعتهما في المحذورات ومن أمور معرّاة من الأدلّة وغير صحيحة.

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: مآلكم وعاقبتكم إليّ وإن كان اليوم مخالطتكم مع الآباء والأقارب فأخبركم بأعمالكم أي: أنا حاضر ولست غائب عنكم وعالم بأعمالكم.

سبب النزول: روي عن سعد بن أبي وقّاص قال: كنت رجلاً باراً بامّي فلمّا أسلمت قالت: يا سعد ما هذا الدين الّذي أحدثت لتدعنّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتّى أموت فتعيّر بي فيقال فيك: يا قاتل أمّه فقلت: لا تفعلي يا أمّه إنّي لا أدع ديني هذا لشيء فمكثت يوماً لا تأكل وليلة ثمّ مكثت يوماً آخر وليلة، قال سعد: فلمّا رأيت ذلك قلت: يا أمّه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني فكلي واشربي وإن شئت فلا تأكلي ولا تشربي فلمّا رأت ذلك أكلت، فنزلت هذه الآية. وأمّه كانت جمنة بنت أبي سفيان بن أميّة ابن عبد شمس.

وروي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه قال: قلت: للنبيّ: يا رسول

اللّه من أبر؟ «قال أمّك»، قلت: ثمّ من؟ قال: «أمّك»، قلت: ثمّ من؟ قال: «ثمّ أباك ثمّ الأقرب فالأقرب»[1].

قال أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «الجنّة تحت أقدام الأمّهات»[2].

أمّا قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في زمرتهم وجملتهم في الجنّة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ لمّا ذكر حال خيار المؤمنين عقّبه بذكر المنافقين والضعفاء في الدين أي: بعض الناس يقولون آمنّا باللّه بلسانهم فإذا أوذي في دين اللّه أو في ذات اللّه مثلاً إذا آذاه إنسان أو أصابه ضرّاً وبليّة دخل في دينهم ويحسب أنّ ما يفعله الناس به هو مثل عذاب اللّه الّذي لا ينقطع فيسوّي بين عذاب فان منقطع وبين عذاب دائم غير منقطع وذلك لقلّة تميّزه، والمراد من فتنة الناس عذاب الّذي يقع من الناس عليه.

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ يا محمّد من اللّه للمؤمنين ودولة لأولياء اللّه على الكافرين ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ هؤلاء المنافقين ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ على عدوّكم، وإنّما يقولون ذلك لطمعهم في الغنيمة بأن يشاركوا المؤمنين فيها فكذّبهم اللّه تعالى فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من الإيمان والنفاق.

وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ

١ـ الخلاف، للطوسي، ج٥، ص١٢٤؛ والكافي، ج٢، ص١٥٩.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص١١؛ ومستدرك الوسائل، ج١٥، ص١٨٠.

﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥)﴾

ولمّا بيّن أنّه أعلم بما في القلوب بيّن أنّه يعلم المؤمن المحقّ وإن لم يتكلّم والمنافق وإن تكلّم فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ وأكّد هذا المعنى بلام القسم قال الجبّائيّ: معناه: وليميّزنّ الله المؤمن من المنافق، فوضع العلم موضع التميّز توسّعاً، وفي الآية تهديد للمنافقين وبيّن لهم أن نفاقكم ظاهر عند من يملك الجزاء.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، لمّا بيّن الله سبحانه الفرق الثلاثة من المؤمن والكافر والمنافق وأحوالهم ذكر أنّ الكافر يدعو المؤمن إلى طريقته كأنّه يقول له: لأيّ شيء تصبر في الذلّ والإيذاء ولم لا تدفع عن نفسك الذلّ والعذاب بموافقتنا وكان المؤمن يقول ويجاويه: خوفاً من عذاب الله على خطيئة مذهبكم، فقال الكافر: لا خطيئة فيه وإن كان فيه خطيئة فعلينا فاتّبعوا طريقتنا ونحن نحمل آثامكم عنكم وقوله: ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ بصيغة الأمر وفيه معنى الجزاء وتقديره إن تتّبعوا ديننا حملنا خطاياكم عنكم ولنحمل هو المتكلّم به نفسه في مخرج اللفظ والمراد به إلزام النفس هذا المعنى.

فإن قيل: ولنحمل صيغة أمر والمأمور لابدّ أن يكون غير الأمر فكيف يصحّ أمر النفس من الشخص؟ فإذا كان المعنى معنى الجزاء صحّ أي: ليكن منكم الاتّباع بطريقتنا وليكن منّا الحمل من خطاياكم.

فأخبر الله سبحانه بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: لا يمكنهم حمل ذنوبهم عنهم يوم القيامة فإنّ الله لا يعذّب أحدا بذنب أحد ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما ضمنوا.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أي: يحملون عذاب ضلالتهم

بسبب كفرهم وعذاب إضلال غيرهم وهذا كقوله ﷺ: «من سنّ سنّة سيّئة»[١] الخبر وهذا كقوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٢].

﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ ولمّا قالوا: أن تتّبعونا تحمل يوم القيامة خطاياكم يقال لهم فاحملوا خطاياهم فلا يحملون فيسألون لم افتريتم أو المعنى أنّ الكفّار إنّما تعهّدوا بحمل خطاياهم حيث إنّهم ما كانوا يعتقدون الحشر فإذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسألون ويقال لهم: أما قلتم أن لا حشر فلم افتريتم؟ وهذا السؤال سؤال تقريع.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ النظم: لمّا بيّن أقسام الناس من المؤمن والكافر والمنافق وبيّن لهم الوعد والوعيد أراد أن يذكر أنّ هذا التكليف ليس مختصّاً بالنبيّ وأمّته بل جميع مكلّفون ومن جملة من كلّف نوح وقومه وإبراهيم وقومه ولقد أرسلنا نوحاً يدعوا قومه إلى توحيد الله عزّ وجلّ ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ فلم يجيبوه وكفروا به وذكر المدّة لتسلية خاطر النبيّ لأنه ﷺ بسبب عدم دخول الكفّار في الإسلام كان يضيق صدره فقال: أنّ نوحاً لبث قريب ألف في الدعوة ولم يؤمن من قومه إلّا قليل وصبر فأنت أولى بالصبر لقلّة مدّة بشك وأيضاً أنّ كفّار قوم نوح مع طول هذه المدّة ما نجوا من العذاب فقومك مع هذه المدّة القليلة لا ينبغي أن يغترّوا فإنّ الذلّ يشملهم.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ جزاء على كفرهم ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بما فعلوه من الشرك والعصيان ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ فأنجينا نوحاً من

١ـ التبيان، ج ١، ص ١٨٧ ؛ ومجمع البيان، ، ج ١، ص ١٨٦.

٢ـ سورة النحل: ٢٥.

ذلك الطوفان والّذي ركبوا معه في السفينة من المؤمنين ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ أي: السفينة ﴿ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ علامة للخلائق والأمم يعتبرون بها إلى يوم القيامة وأنها كانت آية لأجل أنّه قبل الطوفان أمر الله نوحاً باتّخاذها وأنباء بأمر السفينة فلهذا كانت آية ويمكن أن يكون ضمير الهاء راجعة إلى النجاة.

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

ثمّ عطف على نوح ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ لمّا أرسلناه ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أطيعوا الله وخافوه باجتناب معاصيه ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: التقوى ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما هو خير لكم وما شرّ لكم ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ من الحجارة أو غيرها لا تضرّ ولا تنفع وتخلقون وتقدّرون وتفعلون كذبا بأن تسمّون هذه الأوثان آلهة وقرئ تخلّقون بالتشديد من باب التفعيل أو معناه تخلقون بأيديكم وتصنعون أشكالاً وتسمّونها آلهة ثمّ ذكر عجز آلهتهم عن رزق عابديها فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ ولا يقدرون أن يرزقوكم ومن لا يملك ولا يحسّ كيف يرزق غيره وكيف يستحقّ العبادة؟ ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

أي: إلى حكمه تصيرون يوم القيامة.

ثمّ خاطب سبحانه العرب من قوم محمّد فقال: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ محمّداً ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أنبياءهم الّذين بعثوا إليهم ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وليس على الرسل التبليغ الظاهر البيّن وليس عليه حمل من أرسل إليه على الإيمان وقيل: الخطاب من قوله: وأن يكذّبوا إلى قوم إبراهيم أيضاً.

فإن قيل: كيف يفهم من قوله: فقد كذّب امم مع أنّ إبراهيم لم يسبقه إلّا قوم نوح وهم أمّة واحدة؟

فالجواب إنّ قبل نوح كان أقوام كقوم إدريس وشيث وآدم وإنّ نوحاً عاش أكثر من ألف وكان القرن يموت ويجيء أولاده والآباء كانوا يوصون بالامتناع عن اتّباع نوح أبناءهم وكفى لقوم نوح أمماً والمراد من البلاغ ذكر الأحكام والمبين إقامة البرهان عليها.

وفي الآية دلالة على أنّ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز لأن الرّسول إذا لم يبيّن لم يأت بالبلاغ المبين فلا يكون آتياً بما عليه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني: كفّار مكّة الّذين أنكروا البعث وأقرّوا بأنّ الله هو الخالق فقال سبحانه: أو لم يتدبّروا ويتفكّروا كيف أبدأ الله الخلق بعد العدم كذلك يعيدهم ثانيا إذ أعدمهم بعد وجودهم والمراد الخلق الأوّل في الدّنيا والخلق الآخر في الآخرة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الأمر والخلق بعد العدم ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ أي: إن لم يحصل لكم هذا العلم بإبداء الله الخلق وإعدامه وإعادته فسيروا في الأرض وانظروا بالعلم النظريّ وأجيلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم من الآفاق فيؤدّيكم ذلك إلى العلم بربّكم فحينئذ تعلمون أنّ غير الله لا يكون خالقا بل لا يقدر أحد ولا يوجد أحد يدّعي هذا

الادّعاء فإذا علمتم أنّه لا خالق إلّا اللّه لزمتكم الحجّة في الإعادة وهو قوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ أي: ثمّ اللّه الّذي أنشأ خلقها ابتداء ينشئها ثانية ومعنى الإنشاء الإيجاد من غير سبب والنشأة مثل الرأفة منصوبة على المصدريّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ﴾ الإنشاء والإفناء والإعادة و﴿كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

لمّا ذكر النشأة الآخرة ذكر ما يكون فيه وهو تعذيب أهل التكذيب عدلاً وحكمة وإثابة أهل الإنابة فضلاً ورحمة فقال: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: هو المالك للثواب والعقاب فيعذّب من يشاء ممّن يستحقّ العقاب ويرحم من يشاء ممّن هو مستحقّ للرحمة بأن يغفر له بالتوبة وغير التوبة ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾ وتردّون وترجعون والقلب هو الرجوع والردّ والحاصل أنّه تأخير عنكم التعذيب والرحمة فلا تظنّوا أنّه مات فإنّ إليه وعليه حسابكم ولهذا قال بعدها: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لا يمكنكم الهرب والفرار في الأرض أو الصعود إلى محلّ السماك في السماء أو إلى السموك في الماء لا تخرجون من قبضة قدرة اللّه ولا مطمع في الإعجاز بالهرب وما

لكم من دون الله من وليّ يشفع أو نصير يدفع لا بالهرب ولا بالثبات إلى ركن منيع.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ أي: كذّبوا بالقرآن وبأدلّة الله في توحيده وبيانه وأنكروا بلقائه أي: جحدوا بالبعث بعد الموت فأخبر سبحانه أنّه آيسهم من رحمته وجنّته أو المعنى يجب أن ييئسوا من رحمتي ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مولم، وفي الآية دلالة على أنّ المؤمن بالله وباليوم الآخر لا يكون ييأس من رحمته.

ثمّ عاد إلى قصّة إبراهيم فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ حين دعاهم إبراهيم إلى الله ونهاهم عن عبادة الأصنام ﴿إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ فإن قيل: كيف سمّي هذا الكلام جواباً؟ لأنّ الله أراد أن يبيّن ضلالتهم وهو أنّهم ذكروا في معرض الجواب هذا الكلام مع أنّه ليس بجواب.

﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ وهاهنا حذف وتقديره: ثمّ اتّفقوا على إحراقه فأجّجوا ناراً فألقوه فيها فأنجاه الله منها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: علامات واضحات وحجج بيّنات ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بصحّة ما أخبرناه به وبتوحيد الله وقدرته.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ ولمّا خرج إبراهيم من النار عاد إلى عذل الكفّار وقال إبراهيم لقومه: إنّما اتّخذتم عبادة الأوثان وتركتم عبادة الله لأجل مودّة بعضكم بعضا فلا يريد أحدكم أن يفارق طريقة صاحبه ويخالف سيرته، أو بينكم وبين آبائكم مودّة فورثتموه وأخذتم ضلالتهم وجهالتهم وليس لكم دليل أصلاً بل اخترتم هذه العبادة الملعونة لتتوادّوا بها في الحياة الدنيا.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي: إذا كان يوم القيامة يتبرأ القادة

من الأتباع ويلعن الأتباع القادة فكلّ خلّة تنقلب ذلك اليوم عداوة إلّا خلّة المتّقين، ومستقرّكم النار وما لكم من ناصرين يدفعون عنكم عذاب اللّه.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾ وهو ابن أخت إبراهيم يعني: لمّا رأى معجزته آمن بنبوّته، ودرجة لوط كانت عالية بأن لم يكن مؤمناً إلى ذلك الوقت وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾ ولم يقل: فآمن لوط وأمّا بالوحدانيّة فآمن قبل ذلك.

وبالجملة لمّا بالغ إبراهيم في الإرشاد ولم يهتد قومه وحصل له اليأس الكلّيّ حيث رأى القوم آياته الكبرى ولم يؤمنوا وجبت المهاجرة لأنّه إن لم يبق للإقامة وجه وجبت المهاجرة فقال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ و﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب يمنع أعدائي عن إيذائي ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ لا يفعل إلّا ما هو المقتضي للحكمة.

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ وخرج إبراهيم ومعه لوط وسارة امرأة إبراهيم وكانت ابنة عمّه وخرجوا من كوثى

قرية من سواد الكوفة إلى أرض الشّام مثل هجرة المسلمين من مكّة إلى أرض الحبشة أولاً ثمّ إلى المدينة.

فبدّل اللّه جميع أحوال إبراهيم في الدنيا بأضدادها فبدّل اللّه عذابه بالنار بالبرد والسلام لمّا عذّبوه وانقلب وحدته بالكثرة حتّى ملأ الدنيا من ذريّته ولمّا كان أولاً أقاربه القريبة ضالّين مضلّين من جملتهم عمّه آزر بدّل اللّه أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذريّته الّذين جعل فيهم النبوّة والكتاب، وكثر ماله حتّى كان له من المواشي ما علم اللّه عدده حتّى قيل: إنّه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس لماشيته بأطواق ذهب هذا من الماليّة الدنيويّة وأمّا الجاه فالنبوّة ويقرن الصلاة عليه مع سائر الأنبياء إلى يوم القيامة وقد صار خليل الرحمن ومعروفا بشيخ المرسلين بعد أن كان خامل الذكر حتّى قال قائلهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[1] وهذا الكلام لا يقال إلّا في مجهول بين الناس وقال اللّه في حقّه: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ومعنى الصالح الباقي على ما ينبغي أي: ليس هذه المقامات له في الدنيا فحسب كما يكون لمن قدّم له ثواب حسناته أو أملي له استدراجاً ليكثر من سيّئاته بل له هذه الأمور عجالة وله في الآخرة ثواب الدلالة والرسالة وغيرها وقد يجمع اللّه لأقوام كرامة الدنيا والآخرة.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: واذكر لوطاً أو وأرسلنا لوطاً إلى قومه حين قال لهم منكرا لفعلهم إذا قرئ بلفظ الاستفهام أو بلفظ الجزء: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ والمراد بالفاحشة هاهنا إتيان الذكران ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يحتمل أنّ قبلهم لم يأت أحد بهذا القبيح أو أنّ قبلهم ربّما أتى به واحد في الندرة لكنّهم بالغوا فيه فقال لهم: ما سبقكم بها

١ـ سورة الأنبياء: ٦٠.

من أحدكما يقال: فلان سبق البخلاء في البخل إذا زاد عليهم.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ أي: تقضون الشهوة بالرجال مع قطع السبيل المعتاد مع النساء المشتمل على المصلحة الّتي هي بقاء النوع ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ يعني: ما كفاكم قبيح فعلكم حتّى تضمّون إليه قبح الإظهار.

وقيل: معنى الآية في قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ غير ما ذكر وهو أنهم يقطعون الناس عن الأسفار وكانوا يفعلون هذا الفعل بالمجتازين من ديارهم وبالأضياف وكانوا يرمون ابن السبيل بالحجارة بالحذف فأيّهم أصابه كان أولى به ويأخذ ماله وينكحه وكان قاض لهم يقضي بذلك، وقيل: يقطعون الطريق على الناس ويأتون في ناديهم المنكر يتضارطون في مجالسهم من غير حشمة ولا حياء ويأتون الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضاً وأنواع المنكرات والقمار وكشف العورات.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ولمّا أنكر لوط على قومه من أفعالهم قالوا له هزؤا: ائتنا بعذاب إن كنت صادقاً، ولمّا كرّر لوط لهم نصحه ويئس من إيمانهم طلب النصرة من الله عليهم وما طلب نبيّ من الأنبياء هلاك قوم إلّا إذا علم أنّ عدمهم خير من وجودهم كما قال نوح لمّا علم حال قومه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[١].

تحقيق: إنّما سمّي هذا الفعل الشنيع بالفاحشة لأنّ معنى الفاحشة القبيح الظاهر الفاحش قبحه، ثمّ إنّ الشهوة والغضب صفتا قبيح لو لا مصلحة ما كان يخلقهما الله في الإنسان فمصلحة الشهوة الفرجيّة هي بقاء النوع بتوليد الشخص وهذه المصلحة لا تحصل إلّا بوجود الولد وبقائه بعد الأب فإنّه لو وجد ومات قبل الأب كان يفنى النوع بفناء القرن الأوّل لكنّ الزنا قضاء شهوة

١ـ سورة نوح: ٢٦.

ولا يفضي إلى بقاء النوع لأنا بيّنا أنّ البقاء بالوجود وبقاء الولد بعد الأب لكنّ الزنا وإن كان يفضي إلى الوجود لكن لا يفضي إلى البقاء لأنّ المياه إذا اشتبهت لا يعرف الوالد ولده فلا يقوم بتربيته والإنفاق عليه فالغالب أن يضيع ويهلك فحينئذ لا يحصل مصلحة البقاء فضلاً عن مفاسد أخر.

فإذا الزّنا شهوة قبيحة خالية عن المصلحة الّتي لأجلها خلقت فهو قبيح ظاهر قبحه حيث لا تستره المصلحة فهو فاحشة فإذا كان الزنى فاحشة مع أنّه يفضي إلى وجود الولد ولكن لا يفضي إلى البقاء في الغالب فاللواطة الّتي لا تفضي إلى الوجود أولى بأن يكون فاحشة وقد اشتركت مع الزنا في كونهما فاحشة حيث قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾[1] وإنّ الله عذّب قوم لوط بإمطار الحجارة حيث أمطر عليهم وجعل حدّها في الشرع بمن أتى بها الرجم.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

ثمّ بيّن سبحانه أنّه استجاب دعاء لوط وبعث جبرئيل ومعه الملائكة لتعذيب قومه بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ أي: يبشّرونه

١ـ سورة الإسراء: ٣٢.

بإسحاق ومن ورائه يعقوب ومن بعد ما بشّروه ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ يعنون قرية قوم لوط وهي قرية سدوم وإنّما قالوا: هذه، لأنّ قريتهم كانت قريبة من قرية قوم إبراهيم ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أي: مشركين مرتكبين للفواحش فلذلك أمرنا الله بأهلاكهم وهذا الكلام بيان لحسن الأمر.

ثمّ إنّ إبراهيم لمّا سمع قولهم: ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾ إشفاقاً عليه ليعلم حاله أو قال تعجبياً هذا الكلام لأنه كان يعلم أنّ الله لا يهلك قوماً وفيهم رسوله فقالت الملائكة: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ﴾ أي: نعلم أنّ فيهم لوطاً فننجيّنه وأهله ونهلك الباقين ونخلصنّ لوطاً من العذاب بإخراجه من القرية وأهله المؤمنين كذلك ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ فإنّها تبقى في العذاب ولا تنجو منه وذلك قوله: ﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي: من الباقين في العذاب والمهلكين، وفي استعمال الغابر في المهلك وجهان: وذلك لأنّ الغابر لفظ مشترك في الماضي وفي الباقي يقال: فيما غبر من الزمان أي: فيما مضى من الزمان. فقالت الملائكة: إنّها من الغابرين أي: الماضي ذكرهم لا من الّذين ننجّي منهم أو المعنى أنّها من الفانين الماضين زمانها لا من الناجين الباقين.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ و«أن» زائدة أي: ساء لوطاً مجيء الملائكة لمّا رآهم في أحسن صورة لما كان يعلم من سيرة خبيثة قومه أو ساءه هذا الأمر لما علم من عظيم البلاء النازل بهم ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ أي: جاءه ما ساءه ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ كناية عن العجز في تدبيرهم وهو قصير الذراع أي: عاجز ويقال: ضاق ذرعه.

فلمّا رأى الملائكة حزنه وانقاضه وخوفه قالوا: ﴿لَا تَخَفۡ... إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ الكافرة ﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ والمراد من القرية المعلومة وفيها الماء الأسود اسمها سدوم بين القدس والكرك قرب جبال لبنان والعذاب الّذي نزل بهم قيل: الخسف، وقيل: الحجارة، وقيل: نار وعلى هذا فلا يكون عينه من السّماء والمراد أنّ الأمر وقع من السماء. فلو قيل: إنّ القوم عذّبوا بسبب ما كان يصدر عنهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها تلك فكيف كانت من الغابرين معهم؟ لأنّ للدّال على الشرّ نصيب كفاعل الشرّ كما أنّ الدالّ على الخير كفاعله وهي كانت تدلّ القوم على ضيوف لوط حتّى كانوا يقصدونهم فبالدلالة صارت منهم.

ثمّ علّل الملائكة في سبب العذاب بقولهم: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب خروجهم من طاعة الله.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: تركنا من تلك القرية عبرة واضحة ودلالة بيّنة وهي الحجارة الّتي أمطرت عليهم وقيل: آثار منازلهم الخربة لقوم يتعقّلون أنّ اختصاص قوم بالعذاب دون قوم ومكان دون مكان ووجود العذاب في زمان دون زمان لا يكون إلّا بأمر آمر قادر.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا

وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ﴾ واختلف المفسّرون في مدين فقيل: إنّه اسم رجل في الأصل وحصل له ذريّة فاشتهر في القبيلة مثل تميم وقيس، وقال بعضهم: اسم ماء نسب القوم إليه واشتهر في القوم، ولعلّ الأوّل أصحّ لأنّ الله أضاف الماء إلى مدين حيث قال: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ ولو كان اسما للماء لكانت الإضافة غير صحيحة أو غير حقيقيّة والأصل في الإضافة التغاير حقيقة. وقوله ﴿أَخَاهُمْ﴾ لأنّ شعيباً كان منهم نسباً.

فأمرهم بعبادة الله ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ وأمّلوا ثواب اليوم الآخر واخشوا عقابه بفعل الطاعات وتجنّب السيّئات ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تسعوا في الأرض بالفساد. ثمّ إنّ قومه كذّبوه بعد ما بلغ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ فأخذتهم الزلزلة فأصبحوا باركين على ركبهم ميّتين.

وهنا مسألة وهي أنّه قال في هذه السورة وفي الأعراف ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾[1] وقال في هود: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾[2] والحكاية واحدة؟

فالجواب أنّه لا تعارض بينهما فإنّ الصيحة كانت سبباً للرجفة إمّا لرجفة الأرض لأنّ جبرئيل صاح فتزلزلت الأرض من صيحته وإمّا لرجفة الأفئدة فإنّ قلوبهم ارتجفت وتقطّعت منها وماتوا، والإضافة إلى السبب لا تنافي الإضافة إلى سبب السبب إذ يصحّ أن يقال: روي فقوي وأن يقال شرب فقوي فكلاهما في صورة واحدة.

١ـ سورة الأعراف: ٧٨.

٢ـ سورة الحجر: ٧٣.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا﴾ أي: أهلكنا أيضاً عاداً وثمود جزاء على كفرهم ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ معاشر الناس كثير ﴿مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ﴾ وظهر لكم يا أهل مكّة من منازلهم بالحجر واليمن آية في أهلاكهم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ومنعهم الشيطان عن طريق الحقّ وكانوا عقلاء يمكنهم التمييز بين الحقّ والباطل بالاستدلال والرسل فإنّهم أوضحوا السبيل ولكنّهم أغفلوا ولم يتدبّروا.

﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ﴾ أي: وأهلكناهم كما أهلكنا عاداً وثمود وكانوا أيضاً مستبصرين بالرسل ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أي: الآيات ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن عبادة الله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك لأنّ من في الأرض أضعف ومن في السماء أقوى وما استكبروا ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ﴾ ولا يقدرون أن يفوتون الله.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فذكر الله أربعة أشياء: العذاب بالحاصب، وقيل: إنّه كان بحجارة محماة يقع على كلّ واحد منهم وينفذ من الجانب الآخر فحينئذ هذا العذاب هو عذاب النار، والثاني: العذاب بالصيحة وهو هواء متموّج فإنّ الصوت قيل: سببه تموّج الهواء ووصوله إلى الغشاء الّذي على منفذ الأذن وهو الصماخ فيقرعه فيحسّ. والثالث: العذاب بالخسف وهو الغمر في التراب والأرض. والرابع: العذاب بالإغراق، فحصل العذاب بالعناصر الأربعة والإنسان مركّب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه ومع ذلك فإذا أراد الله أهلاكه جعل ما منه وجوده سبباً لعدمه وما به بقاؤه سبباً لفنائه.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ يعني: لم يظلمهم الله بالهلاك وإنّما هم ظلموا أنفسهم بالإشراك ووضعوا أنفسهم في غير موضع الّذي وضعهم الله فإنّ موضعهم الكرامة كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾(١) فظلموا أنفسهم بعبادة غير الله واختاروا الدناءة والخسّة والعذاب.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

المعنى: شبّه الله تعالى حال الكفّار الّذين اتّخذوا غيره آلهة بحال العنكبوت أي: من اتّخذ الأصنام آلهة ويريدون منها النصر والنفع ويرجعون إليها عند الحاجة ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ والعنكبوت يذكّر ويؤنّث ﴿ٱتَّخَذَتْ﴾ لنفسها ﴿بَيْتًا﴾ لتأوي إليه فكما أنّ بيت العنكبوت لا يغني عنها شيئاً لكونه في غاية الوهن والضعف كذلك الأصنام لا تغني عنها شيئاً ولا يقدر الأصنام أن تدفع عذاب ساعة من عذاب العاجل والآجل وإنّ حكم آلهتهم كحكم العنكبوت وبيته لا يجير آوياً ولا يريح ثاوياً لأنّ البيت ينبغي أن يكون له أمور: حائط حائل وسقف مظلّ وباب يغلق للحفظ عن البرد والحرّ

١ـ سورة الإسراء: ٧٠.

وغيرهما فإذا لم يحصل من البيت هذه الأمور فهو كالبيداء وكذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق والنفع ودفع الضرر فإن لم يكن كذلك فهو والمعدوم سواء.

على أنّه أدنى مراتب البيت أنّه إذا لم يكن سبب ثبات وارتفاق فلا أقلّ من أن لا يكون سبب شتات وافتراق لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت فإنّ العنكبوت لو دام بيته في زاوية مدّة واتّخذ بيتاً أتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه والكنس ويقدم بأمور مؤذية لجسم العنكبوت فكذلك العابد للوثن إن دام على عبادته فذلك يوجب له العذاب الدائم.

وإنّما عبّر سبحانه بقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ ولم يقل آلهة إشارة إلى الشرك الخفي وفساده فإنّ من عبد الله رياء لغيره فقد اتّخذو ليّا غيره فمثله مثل العنكبوت.

﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ صحة ما أخبرناهم، وتقدير الآية: لو علموا أنّ اتّخاذهم الأولياء كاتّخاذ العنكبوت بيتاً سخيفاً لم يتّخذوهم أولياء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾
هذا زيادة توكيد على التمثّل أي: إنّ اللّه يعلم أنّ ما يدعونه ليس بشيء ويعلم عبادتهم لغيره وهو قادر على أهلاكهم وحكيم في الأمور يمهلهم للمصلحة ووجه النظم مع الآية السابقة هو أنّه لما مثّل أهل عبادة غير اللّه كمثل العنكبوت والكافر لو يقول أنا لا أعبد هذه الأوثان الّتي أتّخذها وهي تحت تسخيري وإنّما أعبد صورة كوكب أو شخص أنا تحت تسخيره ومنه نفعي وضرري وخيري وشرّي ووجودي ودوامي فله سجودي وإعظامي فقال: إنّ اللّه يعلم أنّ كلّ ما يعبدون من دون اللّه هو مثل بيت العنكبوت لأنّ

الكوكب والملك والفلك وكلّ ما عدا اللّه لا ينفع ولا يضرّ إلّا بإذن اللّه فعبادتكم للغائب الّذي بزعمكم هو النافع وتزعمون هذا الحاضر الّذي تعبدونه مثال ذلك الغائب وهيكله ولهذا الهيكل تعلّق بذلك الأصل فكلّ هذه المزعومات مثل العنكبوت ولا يستحقّون العبادة.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ قال الكافرون: كيف يضرب خالق السّماوات والأرض الأمثال بالحشرات والهوامّ مثل البعوض والذباب والعنكبوت؟ فيقال: الأمثال تضرب للنّاس وإن لم يكونوا كالبهائم يحصل لكم تدبّر وإدراك والتشبيه يؤثّر في النفس مثل تأثير الدليل فإنّ الحكيم إذا قال لمن يغتاب: إنّك بالغيبة كأنّك تأكل لحم ميّت لأنّك وقعت في هذا الرجل وهو غائب لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتّى يجيب كمن يقع في لحم ميّت يأكل منه والميّت لا يعلم ولا يقدر على دفعه فحينئذ ينفر الإنسان بعد هذا التشبيه من الغيبة، وما يعقلها وما يفهم هذه الأمثال إلّا العلماء الّذين عقلوا الطاعة عن المعصية فعمل بالطاعة واجتنب عن المعصية.

ثمّ بيّن ما يدلّ على الهيئة فقال: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وأخرجهما من العدم إلى الوجود ولم يخلقهما عبثاً بل خلقهما ليسكنهما خلقه وليستدلّوا بهما على إلهيته ووحدانيّته ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: حقيقة على وجه الحكمة والإتقان ولإظهار الحقّ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الخلق والأمر ﴿لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنّهم المنتفعون بذلك ولذلك خصّ المؤمنين بالذكر وإلّا أنّهما آية للمؤمن والكافر ولمّا لم ينتفع الكافر أضيفت إلى المؤمن.

ثمّ خاطب نبيّه فقال: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: اقرأ ما أوحي إليك من القرآن على المكلّفين واعمل بما تضمّنه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدّها بحدودها في مواقيتها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾

وفي الآية دلالة على أنّ فعل الصلاة لطف للمكلّف في ترك القبيح والمعاصي الّتي ينكرها الشرع والعقل فإذا كان أثرها أنّها تنهى عن القبيح يكون توقيفيًا. وقيل: إنّ الصّلاة بمنزلة الناهي بالقول إذا قال لا تفعل الفحشاء والمنكر وذلك لأنّ فيها التكبير والتسبيح والقراءة والوقوف بين يدي اللّه وغير ذلك من صنوف العبادة وكلّ ذلك يدعو إلى شكله ويصرف عن ضدّه لأن شبيه الشيء ينجذب إليه فحينئذ يكون مثل الآمر والناهي ومؤدّ إلى الخير وصارف عن الشرّ الّذي ضدّه.

وقيل: تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ما دام فيها كقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[1] وهذا ضعيف لأنّه ليس مدحا للصّلاة بل النوم كذلك.

وقال ابن عبّاس في الصّلاة: (منهي ومزدجر عن معاصي اللّه فمن لم تنهه صلاته عن المعاصي لم يزدد من اللّه إلّا بعداً). وقال الحسن وقتادة: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة وهي وبال عليه. وروى أنس بن مالك الجهنيّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: **«من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلّا بعداً»**[2]. وروي عن أنس بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: **«لا صلاة لمن لم يطع الصلاة وطاعة الصلاة أن ينتهي المصلّي عن الفحشاء والمنكر فإذا لم ينته عن المعاصي لم تكن صلاته بالصفة الّتي وصفها الله بها فإن تاب من بعد ذلك وترك المعاصي فقد تبيّن أنّ صلاته كانت نافعة له وناهية وإن لم ينته إلّا بعد زمانه»**[3].

وروى أنس أنّ فتى من الأنصار كان يصلّي الصلاة مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله

١ـ سورة آل عمران: ٩٧.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص٢٩ ؛ وبحار الأنوار، ج٧٩، ص١٩٨.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

ويرتكب الفواحش فوصف ذلك لرسول الله ﷺ فقال: **«إنّ صلاته تنهاه يوماً»**[١]. وعن جابر قال: قيل لرسول الله: إنّ فلاناً يصلّي بالنهار ويسرق بالليل فقال: **«إنّ صلاته لتردعه»**[٢]. وروى أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«من أحبّ أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل فلينظر هل منعته صلاته عن الفحشاء والمنكر فبقدر ما منعته قبلت منه»**[٣].

وفي المسألة تحقيق آخر وهو أنّ من كان من العقلاء وهو مشتغل بخدمة ملك عظيم الشأن كثير الإحسان في حقّه إذا رأى أنّ عبداً من عبيد ذلك الملك جنى جناية عظيمة بحيث طرده الملك طردا لا يتصوّر قبوله وفاته الخير بحيث لا يرجى حصوله فإذا هذا العبد المتقرّب عند الملك كيف يقرّب في طاعة ذلك المطرود ويخالف مولاه فكذلك المصلّي إذا صلّى وقام بين يدي الله وناجى مولاه فكيف يترك طاعة الله ويدخل تحت طاعة الشيطان المطرود.

وهناك مثال آخر وهو أنّ من يباشر القاذورات كالزبّال والكنّاس يكون له لباس نظيف فإذا لبسه لا يباشر معه القاذورات وكلّما كان ثوبه أرفع وأبهى كان امتناعه عن الخبائث أكثر فكذلك العبد إذا صلّى لبس لباس التقوى فكيف مع هذا اللباس يباشر قاذورات الفحشاء والمنكر؟ ثمّ إنّ الصلوات متكرّره واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع.

وفي الآية وجه وتحقيق معقوليّ وهو أنّ المراد من قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ هو أنها تنهى عن التعطيل والإشراك والتعطيل هو إنكار وجود الله والإشراك إثبات الالوهيّة لغير الله فالتعطيل

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

عقيدة فحشاء لأنّ الفاحش هو القبيح الظاهر القبح لكن وجود اللّه أظهر من الشمس والإشراك منكر وذلك أنّ اللّه لمّا أطلق اسم المنكر على من نسب نفسا إلى غير الولد حيث قال: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾[1] فالمشرك الّذي يقول: الملائكة بنات اللّه، وينسب الولد إلى من لم يلد كيف لا يكون قوله منكراً؟

فالصلاة تنهى عن الفحشاء أي: هذه الفحشاء وهذا المنكر وذلك لأنّ العبد أوّل ما يشرع في الصلاة يقول: «اللّه أكبر» فبقوله «اللّه» ينفي التعطيل وعقيدة الفحشاء وبقوله «أكبر» ينفي التشريك لأنّ الشريك لا يكون أكبر من الشريك الآخر فإذا قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ نفى التعطيل وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ نفى الإشراك لأنّ الرحمن من يعطي الوجود بالخلق بالرحمة والرحيم من يعطي البقاء بالرزق بالرحمة فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أثبت بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ خلاف التعطيل وبقوله: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ خلاف الإشراك فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ نفى التعطيل والإشراك وكذا بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ نفى التعطيل لأنّ طالب الصراط له مقصد والمعطّل لا مقصد له و﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ نفى الإشراك لأنّ المستقيم هو الأقرب والمشرك يعبد الأصنام حتّى أنّه يعبد صورة صوّرها إله العالمين ويظنّون أنّهم يشفعون لهم وعبادة اللّه من غير واسطة أقرب وعلى هذا إلى آخر الصلاة فيقول: «أشهد أن لا إله إلّا اللّه» فينفي الإشراك والتعطيل والصلاة أوّلها لفظة اللّه وآخرها لفظة اللّه فيقتضي أنّ المصلّي يكون من أوّلها إلى آخرها حاضر القلب مع اللّه ووجب شهادة الرسالة لمحمّد في الصلاة ليعلم المصلّي أنّه إنّما وصل بهذه المنزلة الرفيعة بأن يخاطب ويناجي ربّه بهداية محمّدﷺ

١ـ سورة المجادلة: ٢.

فلابدّ أن يذكر إحسان محمّد بالصلاة عليه.

ثمّ إنّ المصلّي إذا رجع من سفر معراجه يسلم أولاً على نبيّه الّذي به نال هذه المرتبة ثمّ يسلّم على إخوانه المؤمنين. واعلم أنّ الصلاة هيئة فيها هيبة فإنّ أوّلها وقوف العبد المملوك بين يدي مولاه وآخرها جثوّ كما يجثو بين يدي السلطان كمن أكرمه السلطان بالشرافة في الجلوس لأنّ العبد بالوقوف في الصلاة والثناء على اللّه يتكرّم عند اللّه بهذه العبادة فيشرّف بالجلوس ما جلسه وجثا.

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أي: وذكر اللّه إيّاكم برحمته أكبر من ذكركم إيّاه بطاعته عن ابن عبّاس وسلمان وابن مسعود وجماعة وقيل: ذكر العبد ربّه أفضل وأكبر من سائر أعماله الصالحة ويمكن أن يكون معناه إنّ أكبر شيء للنهي عن الفحشاء ذكر العبد ربّه فإنّه أقوى لطف يدعو إلى الطاعة وترك المعصية وهو أكبر من كلّ لطف أي: من كان ذاكرا للّه فيجب أن ينهاه ذكره عن الفحشاء والمنكر.

وروى ثابت البنانيّ قال: إنّ رجلاً أعتق أربع رقاب فقال رجل آخر وهو فقير: سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلّا اللّه واللّه أكبر ثمّ دخل المسجد فأتى حبيب بن أوفي السلميّ وأصحابه فقال: ما تقولون في رجل أعتق أربع رقاب وإنّي أقول: سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلّا اللّه واللّه أكبر فأيّهما أفضل؟ فنظروا هنيئة فقالوا: ما نعلم شيئاً أكبر وأفضل من ذكر اللّه. وعن معاذ بن جبل قال: ما عمل آدميّ عملاً أنجا له من عذاب اللّه من ذكر اللّه عزّوجل قيل: ولا الجهاد في سبيل اللّه؟ قال: ولا الجهاد في سبيل اللّه فإنّ اللّه يقول: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وعنه: قال: سألت رسول اللّه ﷺ: أي: الأعمال أحبّ إلى اللّه؟ قال: «أن تموت ولسانك رطب عن ذكر اللّه» وقال: «يا معاذ إنّ السابقين الّذين يسهرون

ويذكرون الله عزّ وجلّ ومن أحبّ أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله»[1].

وروي عن عطاء بن السائب عن عبد الله بن ربيعة عن ابن عبّاس قال: قال عبد الله بن عبّاس: (أرأيت قول الله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾) قال: (ذكر الله بالقرآن حسن وذكره بالصلاة حسن وبالتسبيح والتكبير حسن وأحسن من ذلك أن يذكر الرجل ربّه عند المعصية فينحجز عنها)، فقال ابن عبّاس: (لقد قلت قولاً عجيباً وأمّا هو كما قلت ولكن ذكر الله إيّاكم أكبر من ذكركم إيّاه)[2].

هذا كلّه إذا كان اللفظ بمعنى التفضيل وأمّا إذا كان بمعنى الوصف فمعناه أنّ ذكر الله له الكبر لا لغيره كما يقال في الصلاة: الله أكبر أي: له الكبر لا لغيره، ولعلّ في ترك ذكر المفضّل عليه هذه النكتة وهي أنّه لا يقال: الجبل أكبر من الخردلة وإنّما يقال هذا الجبل أكبر من ذلك الجبل إذ كلّ كبير وعظيم بالنسبة إلى كبريائه أصغر من الخردلة.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ عالم بصنائعكم من التلاوة والصلاة والذكر وجميع ما أنتم صانعون.

وَلَا تُجَادِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾

لمّا بيّن في الآية السابقة طريقة الدعاء والذكر شرح في هذه الآية طريقة دعوة أهل الكتاب وإرشادهم فقال: ولا تجادلوهم بالسيف والخشونة وجادلوهم بالحجّة والرفق واللينة لحصول الخير والنفع بها والمراد من أهل الكتاب قيل: نصارى نجران، وقيل: اليهود والنصارى وفي الآية دلالة على وجوب استعمال القول الجميل في التنبيه على آيات الله.

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٣٠؛ وبحار الأنوار، ج٨٩، ص٢٠.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص٣٠.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أي: إلّا من أبي أن يقرّ بالجزية منهم ونصب الحرب فجادلوا هؤلاء بالسيف حتّى يسلموا أو يعطوا الجزية. وقيل: معنى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ بالعناد وكتمان صفة بعد العلم به. وقيل: إلّا الّذين ظلموا منهم بالإقامة على الكفر بعد قيام الحجّة. والأولى أن يكون معناه إلّا الّذين ظلموك في جدالهم أو في غيره ممّا يقتضي الإغلاظ لهم فيجوز أن يسلكوا معهم طريقة الغلظة وقيل: الآية منسوخه بآية السيف والصحيح أنها غير منسوخة لأنّ الجدال على الوجه الأحسن هو الواجب الّذي لا يجوز غيره.

﴿وَقُولُوٓاْ﴾ لهم في المجادلة والدعوة: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي: آمنّا بالكتاب الّذي انزل إلينا وبالكتاب الّذي انزل إليكم ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ لا شريك له ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ وطائعون.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ما أنزلنا الكتاب على موسى وعيسى ﴿أَنزَلۡنَآ﴾ عليك القرآن ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: علم الكتاب ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالقرآن.

وقيل: المراد مؤمني أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام ونظرائه.

وقيل: الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ راجع إلى النبيﷺ ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: كفّار مكّة ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ أي: من أسلم منهم ويحتمل أن هو يريد بقوله:

﴿فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ المسلمين والكتاب القرآن، ﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني: ومن اليهود والنصارى من يؤمن به ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أي: وما ينكر دلائلنا وآياتنا الشاهدة على توحيدنا إلّا الكافرون، القميّ ما يجحد بأمير المؤمنين والأئمة إلّا الكافرون[1].

ثمّ خاطب نبيّه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ﴾ أي: وما كنت يا محمّد تقرأ قبل القرآن كتاباً أي: إنّك لم تكن تحسن القراءة قبل أن يوحي إليك بالقرآن ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ أي: وما كنت أيضاً تكتبه بيدك أي: ولو كنت تقرأ كتاباً أو تكتبه لوجد المبطلون طريقاً إلى اكتساب الشكّ والمناقشة في أمرك وإلقاء الريبة لضعفة الناس في نبوّتك ولقالوا: إنّما تقرء علينا ما جمعته من كتب الأوّلين فلمّا ساويتهم في المولد والمنشأ ثمّ آتيتهم بما عجزوا عنه وجب أن يعلموا أنّه من عند الله وليس من عندك.

قال الشريف المرتضى علم الهدى قدّس الله روحه: هذه الآية تدلّ على أنّ النبيﷺ ما كان يحسن الكتابة قبل النبوّة فأمّا بعد النبوّة فالّذي نعتقده في ذلك التجويز يكونه عالما بالكتابة والقراءة وبكونه غير عالم بالقراءة والكتابة من غير قطع على أحد الأمرين وظاهر الآية يقتضي أنّ النفي قد تعلّق بما قبل النبوّة فأمّا ما بعد النبوّة فلا تعلّق له بالريبة والتهمة فيجوز أن يكون قد تعلّم من جبرئيل بعد النبوّة[2].

ثمّ قال سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، في «الكافي» عن الباقرؑ أنّه تلا هذه الآية فأومأؑ إلى صدره.[3] وفي

١ـ تفسير الصافي، ج ٤، ص ١١٩؛ عن القمي ولم أجده في القمي.

٢ـ انظر: رسائل المرتضي، ج ١، ص ١٠٤.

٣ـ الكافي، ج ١، ص ٢١٣.

حديث آخر: «وإيّانا عنى ونحن»[1]. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعني: أنّ القرآن دلالات واضحات في صدور العلماء وهم النبيّ والأئمة والمؤمنون حيث إنّ المؤمنين حفظوه ووعوه ورسخ في قلوبهم، وقيل: هم الأئمّة من آل محمّد خاصّة عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام[2].

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الّذين ظلموا أنفسهم بترك النظر فيها والعناد لها وقيل: المراد بالظالمين كفّار اليهود أو كفّار مكّة، أو المراد من الظالمين في الآية المشركون الّذين ظلموا أنفسهم بالشرك كما قال اللّه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أوردوا شبهة على النبيّ صلى الله عليه وآله فقالوا: إنّك تقول: إنّه أنزل إليك كتاب كما أنزل إلى موسى وعيسى وليس كذلك لأنّ موسى اوتي تسع آيات وأنت ما أوتيت شيئاً منها، فأرشد اللّه نبيّه إلى جوابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزلها ويظهرها بحسب ما يعلم من مصالح عباده وينزل على كلّ نبيّ منها ما هو الأصلح لأمّته وله ولذلك لم تتّفق آيات الأنبياء كلّها وإنّما جاء كلّ نبيّ بفنّ منها.

ثمّ إنّه ليس من شرط الرسالة الآية والمعجزة لأنّ الرسول يرسل أولاً ويدعو إلى اللّه فإن توقّف الخلق في قبوله أو طلبوا منه دليلاً فإن أراد اللّه أنزلها وإن لم يرد لا ينزلها وهذا لأنّ ما هو من ضرورات الشيء إذا خلق اللّه الشيء لابدّ أن يخلقها كالمكان من ضرورات الإنسان فلا يخلق اللّه إنساناً إلّا ويكون قد خلق مكاناً أو يخلقه معه لكنّ الرّسالة والمعجزة ليستا كذا فاللّه إذا خلق رسولاً وجعله رسولاً ليس من ضروراته أن تعلم له معجزة نعم لابدّ أن

١ـ انظر: الكافي، ج١، ص٢١٤.

٢ـ انظر: المصدر السابق نفسه.

يثبت رسالته بقول من تثبت رسالته فنبيّناﷺ لا حاجة له إلى معجزة لأنّ رسالته علمت بقول من قبله مثل موسى وعيسى فتبيّن بطلان شبهتهم حيث قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: منذر مخوّف من معصية الله مظهر طريق الحقّ والباطل وقد فعل الله سبحانه ما يشهد بصدقه من المعجزات.

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

لمّا تقدّم طلبهم للآيات أجابهم فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمّد القرآن ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا لأنّ القرآن معجزة أتمّ من كلّ معجزة تقدّمتها لوجوه: أحدها أنّ تلك المعجزات وجدت وما دامت فإنّ قلب العصا ثعباناً وإحياء الميّت لم يبق لنا منه أثر فلو لم يكن واحد يؤمن بكتب الله ويكذّب بوجود هذه الأشياء في غير زمان وقوعها لا يمكن إثباتها معه بدون الكتاب وأمّا القرآن فهو باق لو أنكره واحد فيقال له: فائت بآية من مثله.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: إنّ في القرآن ﴿لَرَحْمَةً﴾ أي: نعمة عظيمة لأنّ من عمل به نال الثواب وفاز بالجنّة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ مصدر أي: تذكيراً وموعظة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدّقون به، وقيل: إنّ قوماً من المسلمين كتبوا

شيئاً من كتب أهل الكتاب فهدّدهم سبحانه في هذه الآية ونهاهم عنه وقال النبي ﷺ: «جئتكم بها بيضاء نقيّة»(١).

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ لي بالصدق والإبلاغ وقد شهد الله سبحانه لي بالنبوّة والصدق وشهادته له قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ وهو في كلام معجز قد ثبت أنّه من الله ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيعلم أنّي على الهدى وأنكم على الضلالة. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ وصدّقوا بغير الله أو بعبادة الشّيطان ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ وجحدوا وحدانيّته ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ خسروا ثواب الله بارتكاب الجحود والمعاصي فلو قيل: إنّ من آمن بالباطل فقد كفر بالله فما الفائدة في العطف؟ الفائدة في العطف التأكيد مثل قوله: قم ولا تقعد واقرب منّي ولا تبعد، على أنّ ذكر الثاني لبيان قبح الأوّل كقول القائل: أتقول بالباطل وتترك الحق؟ لبيان أنّ القول بالباطل قبيح.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: يستعجلونك ويسألونك يا محمّد نزول العذاب عاجلاً كما قال النضر بن الحارث: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾(٢) ولو لا وقت قدّره الله تعالى أن يعاقبهم فيه وهو يوم القيامة وأجّل أن يبقيهم إلى ذلك الوقت لضرب من المصلحة لجاءهم العذاب الّذي استحقّوه ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ العذاب فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت مجيئه.

ثمّ ذكر موعد عذابهم فقال: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ وقوله تعالى بالأوّل: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ إخباراً عنهم وفي الثاني تعجب منهم ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ يعني: إنّ العذاب وإن لم يأتيهم في الدنيا فإنّ جهنّم

١ـ معاني الأخبار، ص٢٨٢ ؛ ومناقب آل أبي طالب، ج ١، ص٤٨.

٢ـ سورة الأنفال: ٣٢.

لتحيطهم وجامعة لهم وهم معذّبون بها لا محالة.

﴿ يَوْمَ يَغْشَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ أي: النار تغشاهم لا أنّه تصل إلى موضع منهم دون موضع فلا يبقى جزء منهم إلّا وهو معذّب في النار ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والقائل الملك الموكّل بعذابهم ذوقوا جزاء أعمالكم وأفعالكم القبيحة، وهذا إطلاق اسم المسبّب على السبب.

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

نزلت الآية في المستضعفين والصعاليك بمكّة أمروا بالهجرة ونزل قوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ ﴾ الآية، في جماعة كانوا بمكّة يؤذيهم المشركون فأمروا بالهجرة إلى المدينة فقالوا: كيف نخرج إليها وليس لنا بها دار ولا عقار ومن يطعمنا ومن يسقينا.

والحاصل بيّن اللّه سبحانه أنّه لا عذر للعباد في ترك طاعته فقال: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي: إن تعذّرت العبادة عليكم في بعض البلاد فهاجروا إلى غيرها. وبهذا علم أنّ السكنى في دار لا يمكن العبادة للّه والكون على الإسلام حرام والخروج منها واجب.

ثمّ خوّفهم بالموت ليهوّن عليهم الهجرة فقال سبحانه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ يعني: كلّ نفس أحياها اللّه بحياة خلقها فيه ذائقة مرارة الموت بأيّ أرض كانت فلا تقيموا بدار الشرك خوفاً من الموت في غيرها ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ بعد الموت.

ثمّ ذكر سبحانه ثواب من حفظ إيمانه وهاجر فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعني: المؤمنين المهاجرين ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ أي: لننزلنّهم ﴿مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾ أي: أماكن عاليات وغرف الدرّ والزبرجد والياقوت ﴿تَجۡرِي﴾ من تحت تلك الغرف ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ مؤبّدين ببقاء الله ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ أجورهم لله تلك الغرف كما أنّ بئس للكافرين تغشى الكافرين من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

ثمّ وصف المؤمنين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لم يتركوا دينهم لشدّة تنالهم وأذى يلحقهم وصبروا في مشقّة الطاعات وهم متوكّلون على الله في مهمّات أمورهم ومهاجرة دورهم.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ لمّا ذكر سبحانه حال المتوكّلين أي: وكم من دابّة لا يكون رزقها مدّخرا معدّا ومع ذلك فالله يرزقها وهي لا تدخّر القوت لغدها إلّا قليلاً من الدوابّ كالنملة والفارة وابن آدم وباقي الحيوانات تأكل بقدر كفايتها فقط.

﴿وَكَأَيِّن﴾ إذا كانت بمعنى «كم» لا تستعمل مع «من» إلّا نادراً وفي ﴿وَكَأَيِّن﴾ لغات: كائن على وزن راع وعلى أوزان آخر وهي مركّبة من كاف التشبيه وأي: الّتي تستعمل استعمال «من» و«ما» ركّبتا وجعل المركّب بمعنى «كم» ولم تكتب إلّا بالنون للفرق بين «كأيّن» بمعنى «كم» الّتي هي المركّبة وبين «كاي» الّتي ليست مركّبة والّتي غير مركّبة لا يجوز إدخال من بعدها.

فمعنى الآية على هذا البيان أنّ الحيوان مع عدم إدراكها الكلّيّ إذا كان لا يدّخر شيئاً لقوتها فالإنسان المتوكّل العارف أولى بأن لا يحرص ويدّخر فكما أنّ الله يرزقه كذلك يرزقكم فتوكّلوا.

فإن قال قائل: من يقول بأنّ الله يرزق الدوابّ من النبات في الصحراء

ينبت يسعى إليه ويرعى.

فالجواب بأنّ اللّه يرزقها من ثلاثة أوجه: نظرا إلى الرزق وإلى المرتزق وإلى مجموع الرزق والمرتزق أمّا بالنظر إلى الرزق فلأنّ اللّه لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق وأمّا بالنظر إلى المرتزق فلأنّ الاغتذاء ليس بمجرّد الابتلاع بل لابدّ من تشبّثه بالأعضاء حتّى يصير الحشيش عظماً ولحماً ودماً وما ذاك إلّا بحكمة اللّه تعالى حيث خلق فيه جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة وغيرها من القوى وذلك لمحض قدرة اللّه فهو الّذي يرزقها وأمّا بالنظر إلى المرتزق والرزق فلأنّ اللّه لو لم يهد الحيوان إلى الغذاء ليعرفه من الشمّ ما كان يحصل له الغذاء ألا ترى أنّ من الحيوان ما لا يعرف نوعا من أنواع الغذاء حتّى يوضع في فمه بالشدّة ليذوق فيأكله بعد ذلك فإنّ كثيراً ما يكون البعير لا يعرف الخمير ولا الشعير حتّى يلقم مرّتين أو ثلاثاً فيعرفه فيأكله بعد ذلك.

فإن قيل: كيف يصحّ قياس الإنسان على الحيوان فيما يوجب التوكّل والحيوان رزقه لا يتعرّض إليه إذا أكل منه اليوم شيئاً وترك بقيّة يجدها غدا ما مدّ إليه أحد يدا والإنسان إن لم يأخذ اليوم لا يبقى له غدا شيئاً. وأيضاً حاجات الإنسان كثيرة فإنّه يحتاج إلى أجناس اللباس وأنواع الأطعمة وليس كذلك الحيوان، وأيضاً قوت الحيوان مهيّأ وقوت الإنسان يحتاج إلى تكلّف كالزرع والحصاد والطحن والخبز فلو لم يجمعه قبل الحاجة ويهيّأه ما كان يجده وقت الحاجة.

فالجواب أنّه إذا كان حاجات الإنسان كثيرة فمكاسبه أيضاً كثيرة فإنّه يكتسب بيده كالخيّاط والنسّاج وبرجله كالساعي وبعينه كالناطور وبلسانه كالحادي والمنادي وبفهمه كالمهندس والتاجر وبعلمه كالفقيه والطبيب ثمّ

الأكمل من الكلّ الإدراك الكلّي والحيوان ليس له شيء من هذه الأمور فالإنسان مع هذه الأسباب أولى بالتوكّل ثمّ إنّ الله ملّك الإنسان عمائر الدنيا وجعلها تدخل في ملكه شاء أم أبى حتّى أنّ نتاج الأنعام وثمار الأشجار تدخل في ملكه وإن لم يرده مالك الأنعام والأشجار وإذا مات قرن ينتقل ذلك إلى قرن آخر شاءوا أم أبوا وليس كذلك الحيوان أصلاً فإذا الإنسان لو توكّل أقرب للعقل. وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: لا تطيق حمل رزقها لضعفها ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ يرزق تلك الدابّة الضعيفة الّتي لا تقدر على حمل رزقها ويرزقكم أيضاً فلا تتركوا الهجرة بهذا السبب من خوف الفقر.

وعن عطا وغيره عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول اللهﷺ حتّى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط التمر ويأكل فقال: «يا ابن عمر مالك لا تأكل؟» فقلت: لا أشتهيه يا رسول الله قال: «لكنّي أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولو شئت لدعوت ربّي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت مع قوم يخبؤون رزق سنتهم لضعف اليقين؟» فو الله ما برحنا حتّى نزلت الآية[1] ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالكم عند مفارقة أوطانكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٣٨؛ والدر المنثور، ج٥، ص١٤٩.

لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ
لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ
فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ
أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ
فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾

المعنى: عجب نبيّه والمؤمنين من إيمان المشركين بالباطل مع اعترافهم بأنّ الله هو الخالق الفاعل فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ يا محمّد هؤلاء المشركين ﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وأخرجهما من العدم إلى الوجود وذلّل الشمس والقمر وسيّرهما في دورانهما على طريقة واحدة لا تختلف ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ في جواب ذلك ﴿ٱللَّهُ﴾ الخالق لذلك لأنهم كانوا يقولون بحدوث العالم والنشأة الأولى ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ فكيف يقلّبون الأمر ويصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره من الأشياء الّتي لا تضرّ ولا تنفع.

وإنّما ذكر سبحانه أمرين: أحدهما خلق السماوات والأرض والآخر تسخير الشمس والقمر لأنّ الإيجاد قد يكون للذوات وقد يكون للصفات فخلق السماوات والأرض إشارة إلى إيجاد الذوات، وتسخير الشمس والقمر إشارة إلى إيجاد الصفات وهي الحركة فذكر من القبيلين.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ أي: الخلق والرزق له وهو وليّ الإحسان يبسط لمن يكون صلاحه البسط ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ لمن يكون صلاحه القبض فكيف يعبدون غير الله! وإنّما خصّ الذكر ببيان الرزق لئلّا يتخلّف أهل الهجرة خوف العيلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ يعلم مصالح عباده فيرزقهم بحسب المصلحة.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ﴾ يا محمّد عند ذلك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على كمال قدرته وتمام نعمته وبيّن سبب الرزق. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ توحيد ربّهم مع إقرارهم بأنّه خالق الأشياء ومنزّل المطر من السّماء لأنّهم لا يتدبّرون وعن الطريق المفضي إلى الحقّ يعدلون فلذلك لا يعقلون.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ والفرق بين اللهو واللعب أنّ المقبل على الباطل لاعب والمعرض عن الحقّ لاه فقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ لأنّها تزول كما يزول اللهو واللعب فيستمتع الإنسان مدّة ثمّ تنصرم وتنقطع ويبقى وبالها. ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: الجنّة ﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة على الحقيقة لأنّها الدائمة الّتي لا زوال ولا موت فيها أي: الدار الآخرة ذات الحياة ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ الفرق بين الزائل والثابت ولو علموا لرغبوا في الباقي وزهدوا في الفاني.

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ثمّ أخبر اللّه عن حال المقبلين إلى الدّنيا المعرضين عن عبادة اللّه فقال: إنّهم إذا ركبوا في البحر وهاجت به الريح وتلاطمت به الأمواج وخافوا الهلاك أخلصوا الدعاء للّه مستيقنين أنّه لا يكشف السوء إلّا هو وتركوا شركاءهم فلم يطلبوا منهم إنجاءهم فلمّا نجّاهم إلى البرّ وخلصهم من الهلاك وأمنوا منه عادوا إلى ما كانوا عليه.

﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ إن جعلت الّام للأمر فمعناه التهديد أي: ليجحدوا نعم اللّه في إنجائه إيّاهم وليتمتّعوا بباقي عمرهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة كفرهم، وإن جعلتها لام كي فالمعنى: إنّهم يشركون ليكفرون نعمة الإنجاء وسائر النعم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ وجه تعلّق الآية بما قبلها هو أنّ المراد من الآية أنّكم في أخوف ما كنتم في لجّة البحر دعوتم الله على سبيل الإخلاص وفي آمن مكان حصل لكم في بيوتكم كفرتم به ورجعتم إلى التوجّه بالأصنام والحالة أنّ حال الأمن وحصول نعمته أولى بأن تتوجّهون إلى الله وتعبدونه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: أولم يعلم هؤلاء الكفّار ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ مسكنهم ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ يأمنون فيه من القتل والغارة يقتل بعضهم بعضاً في ما حولهم من ذئاب العرب والحالة أنّهم آمنون ولا يصيبهم أذى وهم يبدلون هذه النعمة بالكفران. ثمّ قال مهدّدا لهم: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

ثمّ قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا ظالم أظلم ممّن أضاف إلى الله ما لم يقله من عبادة الأصنام وما لا يرضاه من أمورهم ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ بالقرآن.

وقيل: بمحمّد ﷺ ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ الضمير راجع إلى المكذّب ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ استفهام تقريريّ أي: أما لهؤلاء الكفّار المكذّبين مثوى ومقام في جهنّم أي: إنجاز هذا الوعيد واجب لهم لأنّ من يكذّب صادقاً لا يجوز عليه الكذب أظلم الظالمين فإنّهم قبلوا المتّخذ من خشب منحوت بالإلهيّة ولم يقبلوا ذا حسب منعوت رفيع مبعوث بالرسالة والعجب ممّن يقبل العجل الّذي يساوي قيمته عشرة دراهم بالربوبيّة ولا يقبل موسى بالنبوّة ومثل هذا أظلم من كلّ ظالم ويستحقّ العذاب لا محالة.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لمّا فرغ البيان من تقريع الكفّار سلّى سبحانه قلوب المؤمنين أي: من جاهد بالطاعة هداه الله سبل الجنّة وإنّه مع من أحسن في الطاعة وفي معنى المعيّة إشارة

زيادة على حسناته كقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1].

وفي الآية معنى حكميّ وهو أي: إنّ الّذين نظروا في آياتنا ودلائلنا يحصل فيهم الهداية والعلم كما قال المتكلّمون: إنّ النظر كالشرط للعلم الاستدلاليّ والله يخلق في الناظر علماً عقيب نظره، ووافقهم الفلاسفة على هذا المعنى وقالوا: النظر معدّ للنفس لقبول الصورة المعقولة وإذا استعدّت النفس حصل لها العلم من فيض واهب الصور الجسمانيّة والعقليّة فإذا لم ينظروا ولم يجتهدوا لم يهتدوا فالهداية تشمل الّذين يتّقون التعصّب والمخالفة فينظرون فيهتدون.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى درجة أعلى من الاستدلال كأنّه قد تقسّم الناس ثلاثة أقسام: منهم من يكون بعيدا لا يتقرّب للهداية وهم الكفّار، ومنهم من يتقرّب بالسلوك والنظر فيهديهم الله ويقرّبهم، ومنهم من يكون الله معه ويستعلم الأشياء من الله ولا يعلمه من النظر والأشياء ودرجته فوق درجة الاستدلال والنظر وصعد عن هذه الدرجة إلى أعلى منها فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ﴾ إشارة إلى الثاني من الأقسام وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى الثالث والله أعلم بأسرار كتابه.

تمّت السّورة.

١ـ سورة يونس: ٢٦.

سورة الروم

مكية، إلا آية ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾.

عن أبيّ بن كعب قال: ومن قرأها كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كلّ ملك سبّح للّه ما بين السّماء والأرض[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾
فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾
وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

وقد ذكرنا في سورة البقرة مفتتحات بعض السورة وبيانها في الجملة، وقد قيل: أيضاً إنّ هذه الحروف الّتي في أوائل السور لا يعلم تفسيرها إلّا من أنزل عليه لتنبه السامع فيقبل بقلبه على الاستماع لأنّ ما بعدها في الأغلب إخبار عن أمور سيأتي وهو إخبار بالغيب ومعجزة.

ووجه تعلّق هذه السورة بما قبلها أنّ في السورة المتقدّمة قال اللّه وأمر نبيّه بقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وكان ﷺ يجادل

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٤٢؛ ونور الثقلين، ج٤، ص١٦٨.

المشركين بنسبتهم إلى عدم العقل وعنادهم.

وكان أهل الكتاب يوافقون النبيّ صلى الله عليه وآله في الإله كما قال: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾[1] وكانوا يؤمنون ببعض ما يقوله النبيّ صلى الله عليه وآله: «وشرذمة منهم آمنوا به كما قال سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾».[2] فأبغض المشركون أهل الكتاب وتركوا مراجعتهم وكانوا من قبل يراجعونهم في الأمور فلمّا وقعت الكرّة على الروم حتّى قاتلهم الفرس وهم المجوس فرح المشركون بذلك لغلبة الفرس أهل الكتاب فأنزل الله هذه الآيات لبيان أنّ الغلبة لا تدلّ على الحقّ وكان ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وساء ذلك المسلمين وكان بيت المقدس لأهل الروم كالكعبة للمسلمين فدفعهم فارس عنه ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ وبيت المقدس قريب بأرض العرب.

﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ ﴿وَهُمْ﴾ يعني: الروم من بعد مغلوبيّتهم من فارس يصيرون غالبين على فارس في بضع سنين بين مدّة أقلّ من عشرة ولا أنقص من سبع سنة يقع هذا الأمر.

وفي هذه الآية دلالة على أنّ القرآن من عند الله لأنّ إنباء ما سيكون لا يعلم به إلّا الله وقد وقعت بعد السنة التاسعة عام الحديبيّة.

وفي «الكافي» عن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال: «إنّ لها تأويلا لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم من آل محمّد صلى الله عليه وآله إنّ رسول الله لمّا هاجر إلى المدينة وأظهر الإسلام كتب إلى ملك الروم كتاباً وبعث به مع رسول يدعوه إلى الإسلام وكتب إلى ملك فارس كتاباً يدعوه إلى الإسلام وبعثه إليه مع رسوله فأتى ملك الروم فعظّم كتاب رسول الله وأكرم رسوله ولمّا ملك فارس فإنّه استخفّ بكتاب رسول

١ـ سورة العنكبوت: ٤٦.

٢ـ سورة العنكبوت: ٤٧.

الله ومزّقه واستخفّ برسوله وكان ملك الروم يومئذ يقاتل ملك فارس وكان المسلمون يهوون أن يغلب ملك الروم ملك فارس. فلمّا غلب ملك فارس ملك الروم كره ذلك المسلمون واغتمّوا به فأنزل الله بذلك الآية. والمراد بأدنى الأرض الشامات وما حولها ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ والمراد يغلبهم المسلمون ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ قال: فلمّا غزا المسلمون فارس وافتتحوها فرح المسلمون بنصر الله[1].

قيل: أليس الله يقول: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ وقد مضى للمؤمنين سنون كثيرة مع رسول الله وفي إمارة أبي بكر وإنّما غلب المؤمنون فارس في إمارة عمر فقال: ألم أقل لك إنّ لهذا تأويلاً وتفسيراً والقرآن ناسخ ومنسوخ أما تسمع لقول الله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ يعني: إليه المشيّة أن يؤخّر ما قدّم ويقدّم ما أخّر في القول إلى يوم تحتّم القضاء بنزول النصر فيه على المؤمنين وذلك قوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: يوم تحتّم القضاء. وفي تأويل هذه الآية قول آخر: وهو على قراءة ﴿غُلِبَتِ﴾ بفتح الغين على المعلوم وفي ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ على المجهول بضمّ حرف المضارعة وفتح اللام وهذا البيان والقول لابن ميثم قال: لقد روينا من طريق علماء أهل البيت في أسرارهم وعلومهم الّتي خرجت منهم إلى علماء شيعتهم أنّ قوماً ينسبون من قريش وليسوا من قريش بحقيقة النسب وهذا ممّا لا يعرفه إلّا معدن النبوّة وورثة علم الرسالة وذلك مثل بني أميّة أنّهم ليسوا من قريش وإنّ أصلهم من الروم وفيهم تأويل الآية ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ فمعناه أنّهم غلبوا على الملك وسيغلبهم على ذلك بنو العبّاس[2].

١ـ الكافي، ج٨، ص٢٦٩.

٢ـ تفسير الصافي، ج٤، ص١٢٧ ؛ ونور الثقلين، ج٤، ص١٦٩.

وبالجملة فالبيان الأوّل في خصوص السنة التاسعة عام الحديبية من غلبة الروم على الفرس يكون تفسير ظاهر الآية وهذه الرواية يكون تأويل الآية.

وتمام القصّة عن الزهريّ قال: كان المشركون يجادلون المسلمين بمكّة يقولون: إنّ الروم أهل كتاب وقد غلبهم الفرس وأنتم تزعمون أنّكم ستغلبون بالكتاب الّذي أنزل إليكم إلى نبيّكم فنحن المشركون سنغلبكم كما غلبت فارس الروم فأنزل اللّه الآية إلى قوله: ﴿ بِضْعِ سِنِينَ ﴾ قال: فأخبرني عبد اللّه بن عتبة بن مسعود أنّ أبا بكر ناحب أي: خاطر بعض المشركين قبل أن يحرم القمار على شيء إن لم تغلب فارس في سبع سنين فقال رسول اللّه ﷺ: «لم فعلت؟» فكلّ ما دون العشرة بضع، فكان ظهور فارس على الروم إلى مدّة تسع سنين ثمّ في العاشرة أظهر اللّه الروم على فارس زمن الحديبية ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب[1].

وروى أبو عبد اللّه الحافظ بالإسناد عن ابن عبّاس في قوله: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ قال: قد غلبت فارس على الروم ثمّ غلبت الروم على فارس ولقى رسول اللّه مشركي العرب والتقت الروم وفارس فنصر اللّه النبيّ ﷺ ومن معه من المسلمين على مشركي العرب ونصر اللّه أهل الكتاب على مشركي العجم في تلك السنة ففرح المسلمون بنصر اللّه إيّاهم ونصر أهل الكتاب على العجم[2]. وسألت أبا سعيد الخدريّ عن ذلك فقال: التقينا مع رسول اللّه ومشركوا العرب والتقت الروم وفارس فنصرنا اللّه على مشركي العرب ونصر أهل الكتاب على المجوس ففرحنا بذلك لوقوع النصر لنا ولهم. وروي أنّ الروم استردّوا بيت المقدس من فارس وأنّ ملك الروم مشى إليه

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٤٤ ؛ وانظر: الكافي، ج٨، ص٢٦٩.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص٤٤ ؛ وبحار الأنوار، ج١٧، ص١٩٨.

شكرا وبسطت له الرياحين فمشى عليها. وقال الشعبيّ: لم تمض تلك المدّة الّتي عقدها أبو بكر مع أبيّ بن خلف حتّى غلبت الروم فارساً وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا الروميّة فأخذ أبو بكر الخطر من ورثته وجاء به إلى رسول الله ﷺ فتصدّق به.

روي أنّ أبا بكر لمّا أراد الهجرة بأهله. تعلّق به أبيّ وأخذ ابنه عبد الله بن أبي بكر كفيلاً فلمّا أراد أن يخرج أبيّ إلى أحد تعلّق به عبد الله بن أبي بكر وأخذ منه ابنه كفيلاً وخرج أبيّ بن خلف في أحد جرحه رسول الله وعاد أبيّ بعد الجراحة إلى مكّة فمات من تلك الجراحة. وجاءت الرواية عن النبيّ ﷺ أنّه قال: **«فارس نطحة أو نطحتان ثمّ لا فارس بعدها أبداً والروم ذات القرون كلّما ذهب قرن خلق قرن إلى آخر الأبد»**[1].

﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: يوم يغلب الروم فارساً يكون بنصر الله ينصر من يشاء من عباده وهو الغالب في الانتقام من أعدائه الرحيم بمن هو أهل الرحمة ومن أناب إليه من خلقه.

يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

أي: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ منافع الدنيا ومضارّها ومتى يزرعون ومتى يحصدون وكيف يبنون وكيف يجمعون المال وهم جهّال بالآخرة فعمروا دنياهم وخربوا آخرتهم، قيل: بلغ من علم أحدهم بدنياه أن يقلّب الدرهم والدينار على ظهره فيخبرك بوزنه حتّى القيراط ويعلم الزجر والنجوم وحركات الأفلاك وما يحسن أن يصلّي.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ

١ـ المصدر السابق نفسه.

وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ
مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ
عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

ثمّ حثّ سبحانه على التفكّر فيما يدل على توحيده من خلق السماوات والأرض وفي قرون الخالية والأمم الماضية فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ عند أنفسهم في حال الخلوة لأنّ الإنسان في تلك الحالة يحضر ذهنه ويتمكّن من التدبّر، وقيل: معنى الآية: أولم يتفكّروا في خلق الله أنفسهم فيعلموا، وحذف لدلالة الكلام.

﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: إلّا لإقامة الحقّ وللدلالة على وجود الصانع ومعرفته وإطاعته ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لوقت معلوم توفّى فيه كلّ نفس ما كسبت وخلقها في أوقات قدّرها اقتضت المصلحة خلقها فيها. فلو قيل: كيف يعلم المتفكّر في نفسه أنّ الله لم يخلق عبثاً؟

فالجواب إذا علم بالنظر في نفسه أنّه محدث مخلوق علم أنّ له محدث قديماً قبله ويستكشف من خلقة بدنه وتركيبه بهذه الكيفيّة المخصوصة أنّ خالق هذا التركيب قادر حكيم لا يعادل حكمته وقدرته أحد مثلاً خلقهم على أحسن تقويم فخلق للإنسان معدة فيها ينهضم غذاؤه لتقوى به أعضاؤه ولها منفذان: أحدهما لدخول الطعام فيه والآخر لخروج الطعام منه فإذا دخل الطعام فيها انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض بحيث لا يخرج منه ذرّة ولا بالرشح وتمسكه الماسكة إلى أن ينضج نضجا صالحاً ثمّ يخرج من المنفذ الآخر، وخلق تحت المعدة عروقاً دقاقاً صلاباً كالمصفاة الّتي

يصفى بها الشيء فينزل منها الصافي إلى الكبد وينصبّ الثفل والدرديّ إلى معى مخلوق تحت المعدة مستقيم متوجّها إلى الخروج وما يدخل في الكبد من العروق المذكورة يسمّى الماساريقا بالعبريّة والعبريّة عربيّة مفسودة في الأكثر يقال: لموسى ميشا وللإله إيل، إلى غير ذلك فالماساريقا معناها ما ساء ريق، فاشتمل عليه الكبد وأنضجه نضجا آخر ويكون مع الغذاء المتوجّهة من المعدة إلى الكبد فضل ماء مشروب ليرقّق ويندرق في العروق الدقاق المذكورة وفي الكبد ثمّ يستغني الكبد عن ذلك الماء فيتميّز عنه ذلك الماء وينصبّ من جانب جذبة الكبد إلى الكلية ومعه دم يسير تغتذي به الكلية وغيرها ثمّ يخرج الدم الخالص من الكبد في عرق كبير ثمّ يتشعّب ذلك النهر الكبير إلى جداول والجداول إلى سواق والسواقي إلى رواضع ويصل بها إلى جميع البدن وهذه حكمة واحدة جزء من ألف جزء وبهذه كفاية لمن أراد أن يعرف خالقه وحكمته ومن يكون كذلك لابدّ وأن يكون واحداً فاعلاً مختاراً وإلّا لكان عاجزاً عند إرادة شريكه ضدّ ما أراده لأنّ الشريك هل هو قادر على إيجاد أمر هو ضدّ ما أراده شريكه أم لا؟ فإن كان قادراً فالأوّل عاجز وإن لم يقدر فالثاني عاجز والعاجز ناقص لا يصلح للإلهيّة.

فبهذا ثبت التوحيد والمبدء وأمّا المعاد لأنّ الإنسان إذا تفكّر في نفسه يرى قواه صائرة إلى الزوال وأجزائه مائلة إلى الانحلال فله فناء ضروريّ كأبيه وأمّه فلو لم يكن له حياة أخرى لكان خلقه على هذا الوجه للفناء عبثاً مع هذه المفاسد الّتي باشرها الإنسان في هذه النشأة فلابدّ وأن يكون له حياة أخرى وعود آخر للجزاء فثبت المعاد، ومع ذلك. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ وبيوم البعث والقيامة جاحدون وغير معترفين به.

ثمّ نبّههم سبحانه تنبيها آخر فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ

كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأمم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ فهلكوا وبادوا فيعتبروا بهم لأنهم إنّما هلكوا بتكذيبهم وكانوا أقوى منهم ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ وقلّبوها وحرثوها ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ هؤلاء لأنّهم كانوا أكثر أموالا منكم وأطول أعماراً وأعداداً وحفروا الأنهار مثل دجلة وفرات وغرسوا الأشجار وشيّدوا القصور وبنوا الدور ثمّ انتقلوا إلى القبور وإلى الهلاك والثبور. ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ وأتتهم رسلهم بالدلالات الواضحات من عند الله، وفي الكلام حذف تقديره: فجحدوا الرسل وأشركوا في العبادة فأهلكهم الله بالعذاب ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ بأن يهلكهم من غير استحقاق ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بأن جحدوا وكذّبوا بآيات الله. ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي: أساءوا إلى نفوسهم الخلّة الّتي يسوء صاحبها إذا أدركها وهي عذاب النار ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: لتكذيبهم واستهزائهم بآيات الله ورسله استحقّوا العذاب الدائم.

ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾

المعنى: ثمّ أكّد سبحانه بيان الإعادة فقال: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: يخلقهم ابتداء ثمّ يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ للجزاء.

ثمّ بيّن سبحانه ما يكون وقت الرجوع إليه فقال: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَـٰفِرِينَ﴾ أي: بيّن إبلاسهم ويأسهم وإفلاسهم ومعنى «الإبلاس» يأس مع حيرة ومثّلوا حال المجرم والإبلاس وغرور إبليس بمثال من يكون في بستان وحوله الملاعب والملاهي وعنده ما يفتخر به ويباهي فيخبره صادق بمجيء عدوّ قويّ لا يردّه رادّ ولا يعدّه صادّ إذا جاءه لا يبلغه ريقاً ولا يترك له إلى الخلاص طريقاً وينبّهه ذلك المخبر الصادق بسلوك طريق الخلاص ثمّ يقول: له طفل أو مجنون أنّ هذه الشجرة الّتي أنت تحتها لنا من الخواص دفع الأعادي عمّن يكون تحتها فيقبل ذلك الغافل على استيفاء ملاذه معتمداً على الشجرة بقول ذلك الطفل: فيجيء العدوّ ويحيط به فأوّل ما يريه العدوّ قلع تلك الشجرة فيبقى هذا الغافل متحيّراً آيسا فكذلك المجرم في دار الدنيا أقبل على استيفاء اللذّات وأخبره النبيّ الصادق بأنّ اللّه يجزيه ويأتيه عذاب يخزيه فقال له النفس الأمّارة والشيطان: إنّ هذه الأخشاب والأحجار الّتي تعبدها دافعة عنك كلّ بأس وشافعة لك عند خمود الحواسّ فاشتغل بما هو غيّه واستمرّ على غيّه حتّى إذا جاءته الطامّة الكبرى فأوّل ما يرى إلقاء الأصنام في النار فلا يجد إلى الخلاص من طريق ويحيق عليه عذاب الحريق فييأس أي: أياس ويبلس أشدّ إبلاس فيكفرون بأصنامهم حينئذ.

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ و«يوم» ظرف «ليتفرّقون» و«يومئذ» بدل منه. ثمّ بيّن سبحانه أمراً آخر وهو التفرّق بعد الإبلاس وتميّز

بينهم ويجعل فريق في الجنّة وفريق في السعير ويتفرّقون أصحاب اليمين عن أصحاب الشمال هؤلاء في أعلا علّيين وهؤلاء في أسفل السافلين وهو قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ يسرّون بكلّ مسرّة ومنه كلّ حبرة تتبعها عبرة وإنّما أعاد قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ لأنّها أمر هائل فكرّره تأكيداً للتخويف ولذا اعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة في الخطب لتذكير أهواله. و«الروضة» البستان المتناهي منظراً وطيباً.

وقيل: معنى «يحبرون» أي: يكرمون. وقيل: يلذّذون بالسماع.

وعن يحيى بن كثير والأوزاعيّ أخبرنا أبو الحسن عبيد الله بن محمّد بن أحمد البيهقيّ قال: أخبرنا جدّي أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ قال: حدّثنا أبو سعيد عبد الملك بن أبي عثمان الزاهد قال: أخبرنا أبو الحسن عليّ بن بندار قال: حدّثنا جعفر بن محمّد بن الحسن القربانيّ قال: حدّثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقيّ قال: حدّثنا خالد بن زيد بن أبي مالك عن أبيه عن خالد بن معدان عن أبي أمامة الباهليّ أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد يدخل الجنّة إلّا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين تغنّيانه بأحسن صوت ما سمعه الإنس والجنّ وليس بمزمار الشيطان ولكن بتمجيد الله وتقديسه»[1].

وعن أبي الدرداء قال: كان رسول الله ﷺ يذكّر الإنسان فذكر الجنّة وما فيها من الأزواج والنعيم وفي القوم أعرابيّ فجثا على ركبتيه وقال: يا رسول الله أهل في الجنّة من سماع؟ قال: «نعم يا أعرابيّ إنّ في الجنّة نهراً حافتاه الأبكار من كلّ بيضاء يتغنّين بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها قطّ فذلك أفضل نعيم الجنّة» قال الراوي: سألت أبا الدرداء بم يتغنّين؟ قال: بالتسبيح[2].

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٥٠ ؛ وبحار الأنوار، ج٨، ص١٩٦.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص٥٠ ؛ وتفسير نور الثقلين، ج٤، ص١٧٢.

وعن إبراهيم: إنّ في الجنّة لأشجاراً عليها أجراس من فضّة فإذا أراد أهل الجنّة السماع بعث اللّه ريحاً من تحت العرش فيقع في تلك الأشجار فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طرباً[1].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه: «الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين منها كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها سموّاً وأوسطها محلّة ومنها تتفجر أنهار الجنة». فقام إليه رجل فقال: يا رسول اللّه إنّي رجل حبّب إليّ الصوت فهل في الجنّة صوت حسن؟ فقال ﷺ: «أي: والذي نفسي بيده إنّ الله يوحي إلى شجرة في الجنة أن أسمعوا عبادي الذين اشتغلوا بعبادتي وذكري عن عزف البرابط والمزامير فيرفع صوت لم يسمع الخلائق بمثله قطّ من تسبيح الربّ»[2].

وبالجملة ثمّ أخبر سبحانه بعد حال المؤمنين حال الكافرين فقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: بدلائلنا وبالقيامة ﴿مُحْضَرُونَ﴾ ولفظ الإحضار لا يستعمل إلّا فيما يكره الإنسان يقال: احضر فلان مجلس القضاء إذا جيء به لما لا يؤثره ومنه حضور الوفاة.

ثمّ ذكر سبحانه ما يدرك به النجاة والجنّة فقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۞ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ وهذا خبر والمراد به الأمر أي: فسبّحوه ونزّهوه عمّا لا يليق به أو ينافي تعظيمه من صفات النقص بأن تصفوه بما لا يليق من الصفات والأسماء، والإمساء الدخول في المساء وهو مجيء ظلام اللّيل والإصباح نقيضه وهو الدخول في الصباح، وله الثناء والمدح في السماوات والأرض أي: هو

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٥٠.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص٥١؛ وكنز العمال، ج٤، ص٤١٩.

المستحقّ لمدح أهلها لإنعامه عليهم، وسبّحوا في العشيّ وحين تدخلون في الظهيرة وهي نصف النهار.

وهاهنا بيان في معنى «سبحان» ولفظه أمّا لفظه «فعلان» اسم للمصدر الّذي هو التسبيح سمّي التسبيح سبحان وجعل علماً له، وأمّا المعنى فقال بعض المفسّرين: المراد منه الصلاة أي: صلّوا وقالوا: أشار إلى الصلوات الخمس. وقال بعضهم: أراد به التنزيه أي: نزّهوه في هذه الأوقات وإنّما خصّ هذه الأوقات بالذكر والحمد وإن كان حمده واجباً في جميع الأوقات لكنّ الإنسان ما دام في الدنيا لا يمكن أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح لكونه محتاجاً إلى أمور منها الأكل والشرب وتحصيل المأكول والمشروب فأشار اللّه إلى أوقات إذا أتى العبد بتسبيح اللّه فيها أدرك الأوّل والآخر والأوسط فكأنّه لم يفتر مثل الملائكة الّذين ملازمون للتسبيح على الدوام.

واعلم أنّ في وضع الصلاة في أوقاتها وركعاتها وهيآتها حكمة بالغة وقد شرحها العلماء في كتب أسرار الصلاة على القول بأنّ الآية تدلّ على الصلوات الخمس فقوله تعالى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ يقتضي المغرب والعشاء الآخرة وقوله: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ يقتضي صلاة الصبح ﴿وَعَشِيًّا﴾ يقتضي صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر، عن ابن عبّاس ومجاهد. وإذا كان المراد من التسبيح والتحميد مطلق ذكر اللّه فهو حسن في كلّ وقت وفي هذه الأوقات المخصوصة أحسن.

وفي رواية مسنداً إلى رواة العامّة عن النبيّ ﷺ: «من قال وقت منامه مرّة: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر» كتب له ألف حسنة ومن قال خلف كلّ صلاة مكتوبة عشر مرّات: سبحان الله وعشر مرّات الحمد لله وعشر مرّات

الله أكبر الله أكبر ادخل الجنة»[1].

واعلم أنّ اللّه له صفات لازمة لا من فعله وصفات ثابتة له من فعله:

فالأولى صفات كمال وجلال وخلافها نقص مثلاً إذا أدرك المكلّف بأنّ اللّه لا يجوز أن يخفى عليه شيء لكونه عالما بكلّ شيء فقد نزّهه عن الجهل ووصفه بضدّه وإذا عرفه بأنّه سبحانه لا يعجز عن شيء لكونه قادراً على كلّ شيء فقد نزّهه عن العجز وإذا بان له أنّه لا يسبقه العدم لاتّصافه بالقدم فقد نزّهه وهكذا فحينئذ إذا قال قائل متحضّرا بقلبه: سبحان اللّه، متنبّها لما يقوله من كونه منزّها له عن كلّ نقص فإتيانه بهذا التسبيح على هذا الوجه من الإجمال يقوم مقام إتيانه به على سبيل التفصيل فكأنّه هذا العبد المسبّح بهذه الكيفيّة مسبّح طول عمره ومدّة بقائه إذا ثبت على هذه العزيمة فيخلع بخلع الكرامة من ربّه الكريم وكما أنّ العبد ينزّه اللّه في أوّل النهار وآخره ووسطه فإنّ اللّه يطهّره في أوّله وهو دنياه وآخره وهو عقباه وفي وسطه وهو حالة كونه في قبره وهو مغناه.

وأمّا الثانية: وهو صفات الفعل فالإنسان إذا نظر إلى خلق اللّه السماوات يعلم أنّها نعمة وكرامة ورزق فيقول: الحمد للّه، أو رأى الشمس ويعلم أنّها نعمة وعافية للدنيا فيقول: الحمد للّه، وكذلك القمر والماء وكلّ حيوان ونبات فيقول: الحمد للّه، ولو أنّ الإنسان لو حمد اللّه على كلّ شيء على حدة لا يفي عمره به فإذا استحضر في ذهنه النعم الّتي لا تحصى كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[2] ويقول: الحمد للّه، متنبّها بالنعم فهذا الحمد على وجه الإجمال يقوم منه مقام الحمد على سبيل التفصيل فهذا

١ـ تفسير الرازي، ج٢٥، ص١٠٥.

٢ـ سورة النحل: ١٨.

الحامد بهذا الترتيب مع عزمه على دوام الحمد وثبوته كالمستغرق في الحمد طول دهره وقد وعد اللّه سبحانه الشاكر الحامد بالزيادة له فهو مستغرق في كرامة اللّه وكذلك المتدبّر في صفات الأفعال فكلّ ما يقع عقله من حقيقته فينبغي أن يقول: اللّه أكبر بما أدركه وأتصوّره بعقلي لأنّ عقلي لا يدرك جميع المدركات وعاجز عن إدراكات لا نهاية لها فإذا أراد أن يقول على سبيل التفصيل: اللّه أكبر من هذا الّذي أدركته من هذا الوجه وأكبر ممّا أدركته من ذلك الوجه طول عمره فلا يفي فيقول على وجه الإجمال: اللّه أكبر من كلّ شيء من مدركاتي وإليه الإشارة بقوله: العجز عن درك الإدراك إدراك، فهذا خاصّيّة التسبيح والحمد وبه الكفاية.

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ وفي تعلّق الآية بما تقدّم أنّ الإنسان عند الإصباح يخرج من شبه الموت وهو النوم إلى شبه الوجود وهو اليقظة وعند العشاء يخرج الإنسان من اليقظة إلى النوم.

واختلف المفسّرون في قوله: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ قيل: يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة وكذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان، وقال بعضهم: المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن أو اليقظان من النائم والنائم من اليقظان[1].

﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ويحيي الأرض بالنبات بعد جدوبها وكما أحيا الأرض بالنبات كذلك يحييكم وتخرجون من قبوركم أحياء.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ أي: خلق آدم الّذي هو أبوكم وأصلكم من تراب ثمّ خلقكم منه ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم﴾ ذرّيّة ﴿بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ من لحم ودم تنبسطون في الأرض وتتصرفون على ظهرها وتتفرّقون في

١ـ تفسير الرازي، ج٢٥، ص١٠٧.

أطرافها فهلّا دلّكم هذا الأمر على أنّه لا يقدر على ذلك غيره وهو مستحقّ أن يعبد لا غيره.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

المعنى: قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ عطف على ما تقدّم من تنبيه العباد على شواهد القدرة ودلائل التوحيد كإخراج الحيّ من الميّت وإحياء الأرض بعد الإمامة وخلق آدم الّذي هو أصلنا من تراب الّذي هو أبعد الأشياء والعناصر عن درجة الأحياء وذلك من حيث كيفيّته فإنّ التراب بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة وكذلك من حيث لونه فإنّ التراب كدر والروح نيّر ومن حيث فعله فإنّه ثقيل والأرواح الّتي بها تحصل لها الحياة خفيفة ومن حيث السكون فإنّ التراب بعيد عن الحركة غاية والحيوان متحرّك يمنة ويسرة وخلفا وقدّاماً فثبت أنّ التراب أبعد من قبول الحياة مادّة عن سائر العناصر لأنّ الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلّها على طبع الأرواح والنار أيضاً أقرب إلى الحياة لأنّها كالحركة الغريزيّة منضجة جامعة مفرّقة وكذا الهوى أقرب إلى الروح والحياة لخفّته ولطافته فهو سبحانه بقدرته خلق آدم من أبعد

الأشياء عن مرتبة الأحياء حياً هو في أعلى المراتب من الأجسام والنبات والحيوان وكيف لا يكون وهو المسبّح والحامد لله وقد شابه هذا الخلق الملائكة المسبّحين فهذه آية من شواهد ربوبيّته ووحدانيّته.

وأيضاً ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ أي: جعل لكم شكلكم أنفسكم وجنسكم أزواجاً لأنّ الشكل إلى الشكل أميل وقيل: معناه أنّ حوّاء خلقت من ضلع آدم ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي: لتاتلفوا بها ويستأنس بعضكم بعضاً. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ يريد بين المرأة وزوجها فهما يتوادّان ويتراحمان ويحبّ أحدهما الآخر من غير رحم بينهما ونسب والمودّة تفضي إلى الرحمة فإنّ الزوجة قد تخرج عن محلّ الشهوة بكبر أو مرض ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس وليس ذلك إلّا بجعله سبحانه فيهما ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ خلق الأزواج بهذه الكيفيّة المطبوعة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ لأهل التدبّر والفكر.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ولمّا بيّن سبحانه دلائل الأنفس ذكر سبحانه دلائل الآفاق وأظهر دلائلها خلق السماوات والأرض فإنّ بعض الكفّار يقول ويناقش في خلق البشر وغيره أنّه بسبب ما في العناصر من الكيفيّات ولكن لا يقدر أن يقول: خلق السماوات بسبب امتزاج العناصر، لأنّها ليست من العناصر.

﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ فإنّ واحداً منهم مع كثرة عددهم لا يشتبه بغيره مع أنّ الغير قد حصل له في الخلقة ما حصل لمثله وكذلك اختلاف الألسنة واختلاف كلامهم فإنّ عربيّين هما أخوان إذا تكلّما بلغة واحدة يعرف أحدهما من الآخر حتّى أنّ من يكون محجوباً عنهما لا يبصرهما يقول: هذا صوت فلان وهذا صوت فلان الآخر، وفيه حكمة بالغة

وذلك لأنّ الإنسان يحتاج إلى التميز بين الأشخاص ليعرف صاحب الحقّ من غيره والعدوّ من الصديق وذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور وقد يكون بالسمع فخلق اختلاف الأصوات وأمّا اللّمس والشمّ والذوق فلا يفيد هذه الفائدة فلا يقع بها التميّز. وقيل: المراد اختلاف اللّغات كالعربيّة والفارسيّة والروميّة والأوّل أصحّ. ثمّ قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾. ثمّ قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالّة على توحيده ﴿مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾ لمّا ذكر بعض العرضيّات اللّازمة وهو الاختلاف ذكر في هذه الآية الأعراض المفارقة ومن جملتها النوم باللّيل والحركة طلباً للرزق بالنهار وابتغاء الفضل والمعاش والتقدير: ومن آياته منامكم وابتغاؤكم باللّيل والنهار من فضله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ذلك فيقبلونه ويتفكّرون في الأدلّة. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ذكر سبحانه في هذه الآية المرضيّات الّتي في الآفاق فيرى الإنسان من العوارض الآفاقيّة أمطاراً هاطلة وبروقاً هائلة وكما أنّ في إنزال المطر وإنبات الشجر منافع كذلك في تقدّم البرق والرعد على المطر منفعة وذلك لأنّ البرق إذا لاح فالّذي لا يكون تحت كنّ[1] يخاف الابتلاء فيستعدّ له خوفاً من الصواعق وطمعا في الغيث والّذي له زرع ويحتاج إلى الماء أو مصنع أو صهريج فيصلح مجاري الماء ويطمع في السقي وأيضاً أهل البوادي والعرب منهم لا يعلمون البلاد المعشبة إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللّائحة من جانب درن جانب والبرق فيه آية عظيمة لأنّه يخرج من السحاب وليس في السحاب إلّا ماء وهواء وخروج النار منهما بحيث تحرق الجبال أمر عظيم. قالت الفلاسفة: السحاب فيه كثافة فإذا هبّت ريح

١ـ الكن بالكسر: الستر.

قويّة تخرق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه النار كمساس جسم بجسم بعنف وهذا كما أنّ النار يخرج من وقوع الحديد على الحجر[1].

فالجواب أنه هب كما يقولون فهبوب الريح القويّة من الأمور الحادثة الّتي لابدّ من سبب وينتهي إلى خالق الأسباب فهو آية على قدرة الله كيفما كان.

﴿فَيُحْيِۦ بِهِ﴾ بذلك الماء ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ بعد انقطاع الماء الأرض وجدوبها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: للعقلاء المكلّفين.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ بلا دعامة تدعمها ولا علاقة تتعلّق بهما بأمره سبحانه لهما بالقيام كقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾

وقيل: أي: بفعله وإمساكه إلّا أنّ أفعال الله يضاف إليه بلفظ الأمر لأنّه أبلغ في الاقتدار ومعنى القيام الثبات والدوام يقال: السوق قائمة.

فإن قيل: إنّها تتحرك في مكانها كالرحى ولكن اتّفق العقلاء على أنها في مكانها لا تخرج عن مكانها وهذه آية ظاهرة لأنّ كونهما في الموضع الّذي هما فيه وعلى الموضع الّذي هما عليه من الأمور الممكنة وكونهما في غير ذلك الموضع جائز فكان يمكن أن يخرجا منه فلمّا لم يخرجا كان ذلك ترجيحاً للجائز على غيره وذلك لا يكون إلّا بتقدير فاعل مختار.

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من القبر عن ابن عبّاس، يأمر الله سبحانه إسرافيل فينفخ في الصور بعد ما يصوّر الصور في القبور فيخرج الخلائق كلّهم من قبورهم ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ من الأرض أحياء وعبّر ذلك بالدعاء إذ هو بمنزلة الدعاء وبمنزلة ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ في سرعة تأتي ذلك وامتناع التعذّر.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٥، ص ١١٤.

ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ
كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن
نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ
لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

ولمّا ذكر الدلائل الّتي مفادها الحشر وهي الأصل الآخر والتوحيد وهو الأصل الأول أشار بأنّ له وملكه كلّ من في السماوات وكلّ من في الأرض ونفس السماوات والأرض فكلّ منقادون قانتون مطيعون له طوعا وكرهاً في الحياة والبقاء والموت والبعثة والخلقة وإن عصوا في العبادة ولو كان له شريك لكان الشريك منازعاً له ومماثلاً وما كان يحصل اختصاص الملكيّة من السماوات والأرض له سبحانه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي: يخلقهم إنشاء ويخترعهم ابتداء ثمّ يعيدهم بعد أن يفنيهم ثمّ أكّد بيان الإعادة بعد الإفناء بقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ يعني: الإعادة هيّن وسهل عنده كقوله: «الله أكبر» يعني: الله كبير لا يدانيه أحد في كبريائه. قال الفرزدق:

إنّ الّذي سمك السماء بنى لنا　　　بيتاً دعائمه أعزّ وأطول

أي: عزيزة طويلة. وقيل: المعنى على صيغة التفضيل ومعناه أنّ الإعادة أهون من الإبداء فإذا كان الإبداء سهلا فالإعادة أهون وأسهل، والهيّن هو ما لا يتعب فيه الفاعل.

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: وله الصفات العليا في السماوات والأرض وهي لا إله إلّا هو وحده لا شريك له وله الوصف العجيب الشأن الّذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه أحد. في «توحيد الصدوق» عن الصادق عليه السلام: « ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الذي لا يشبهه شيء ولا يوصف ولا يتوهّم فذلك المثل الأعلى»[1]. وفي «العيون» عن الرضا عليه السلام: «أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام: وأنت المثل الأعلى»[2].

وفي رواية قال صلى الله عليه وآله في آخر خطبة: «نحن كلمة التقوى وسبيل الهدى والمثل الأعلى»[3]. وفي «زيارة الجامعة الجواديّة عليه السلام»: «السلام على أئمّة الهدى ومصابيح الدّجى وأعلام التقى وذوي النهى وأولي الحجى وكهف الورى وورثة الأنبياء والمثل الأعلى إلى قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ »[4].

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: يصفه به ما فيهما أجمع نطقاً ودلالة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الغالب على أمره الكامل في قدرته.

ثمّ احتجّ على المشركين فقال: ﴿ضَرَبَ لَكُم﴾ أيها المشركون ﴿مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: بيّن ذلك المثل شبها لحالكم وأنفسكم ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ من عبيدكم وإمائكم ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من المال والأملاك والنعم أي: هل يقدرون أن يشاركونكم فيها؟ ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: هل أنتم وعبيدكم وإمائكم فيما أعطيناكم سواء.

﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: هل تخافون أن يشاركونكم هؤلاء العبيد فيما ترثونه من آبائكم وفيما حصل لكم من أموالكم كما تخافون من أحراركم وذوي قرابتكم؟

١ـ التوحيد، الشيخ الصدوق، ص٣٢٤.

٢ـ ينابيع المودة، ج٣، ص٤٠٢ ؛ وغاية المرام، ج٧، ص٣٤٤، باب٤٤.

٣ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص٩ ؛ وبحار الأنوار، ج٢٤، ص١٨٤ ؛ والخصال، ج٢، ص٥٢.

٤ـ بحار الأنوار، ج٩٩، ص١٢٨.

لأنّ الرجل يخاف شريكه الحرّ في المال الّذي يكون بينهما أن ينفرد دونه فيه بأمر وكما يخاف الرجل شريكه في الميراث أن يشاركه لأنّه يحبّ أن ينفرد به فهو يخاف شريكه، ومعنى ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ أي: أمثالكم من الأحرار كقوله: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[1] أي: بأمثالهم.

وحاصل المعنى أنّه كما لا يشارك العبد الحرّ كذلك لا يشارك هذه الأصنام المنحوتة المخلوقة الخالق القادر وكما أنّكم لا ترضون في عبيدكم أن يكونوا شركاءكم في أموالكم فكيف تجعلون لربّكم الّذي خلقكم أن يكون له شركاء في العبادة وهذه الآية نزلت بعد تلبية قريش بهذه التلبية الّتي علّمها إبليس وهي: «لبّيك اللهمّ لبّيك لا شريك لك إلّا شريك هو لك تملكه وما ملك» فأنزل الله هذه الآية ردّاً عليهم وإنكاراً لقولهم فما تدّعون إلهيّه وتعبدونه لا يملك خردلة ولا يعظّم بالعبادة مثل ذلك العبد الّذي لا يشارككم في المال.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: كما ميّزنا وبيّنا لكم نفصّل الأدلّة والبيان لأهل العقل والتدبّر. ثمّ قال سبحانه مبيّناً: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم﴾ في الشرك ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعلمونه جاءهم من الله أو بيان من رسله بل صرف اتّباع هوى أنفسهم واقتفاء آبائهم ﴿فَمَن يَهْدِي﴾ أي: من يهدي إلى الثواب والجنّة ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ عن ذلك.

وقيل: معناه إنّ الله الّذي هو خالقهم ورازقهم والمنعم عليهم مع ما نصب لهم من الأدلّة وما اهتدوا فمن يهديهم بعد ذلك الضلال عن أبي مسلم وهو من قولهم: أضلّ فلان بعيره يعني: ضلّ بعيره عنه وهو كقول الشاعر:

هبوني امرءاً منكم أضلّ بعيره ... لـه ذمّـة إنّ الـذمام كبيـر[2]

١ـ سورة النور: ١٢.

٢ـ التبيان، ج٦، ص٢٩٩.

وإنّما المعنى ضلّ بعيره عنه ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم ويدفعون عنهم العذاب إذا حلّ بهم.

ثمّ خاطب نبيّه والمراد جميع المكلّفين وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أقم قصدك وتوجّهك للدين وكن معتقدا له ودم على الاستقامة والخلوص ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً إلى الدين ثابتاً عليه لا ترجع فيه إلى غيره.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي: الزم فطرة الله وهي التوحيد فإنّ الله خلق الناس عليه حيث أخذ منهم العهد في ظهر آدم من ذرّاتهم وسألهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ وقيل: معناه اتّبع من الدين ما دلّك عليه فطرة الله وهو ابتداء خلقة الأشياء لأنّه خلقهم وصوّرهم على وجه صانع حكيم يستدلّ بهذه الخلقة على صانعها والفطرة دلّت على هذا المعنى.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تغيير لدين الله الّذي أمر الناس بالثبات عليه من أصول الدّين وقالوا: إنّ ﴿لَا﴾ هاهنا بمعنى النهي أي: لا تبدّلوا دين الله الّذي أمرتم بالثبات عليه وقيل: المراد به النهي عن الخصاء، عن ابن عبّاس وعكرمة.

ويحتمل أن يكون المعنى خلق الله الخلق لعبادته وهم كلّهم عبيد ولا خروج للخلق عن العبادة والعبوديّة وهذا البيان يفسد قول من يقول: العبادة لتحصيل الكمال والعبد يكمل بالعبادة فإذا كمل لا يبقى عليه تكليف. وكذلك يفسد قول المشركين: إنّ الناقص لا يصلح لعبادة الله وإنّما الإنسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله فنحن نعبد الكواكب والأصنام، وكذلك يفسد قول النصارى: إنّ عيسى عليه السلام حلّ الله فيه وصار إلهاً فقال سبحانه: لا تبديل لخلق الله الّذي خلقهم له وهو أن يعبدوه خاصّة ولا يشركوا به شيئاً.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: ذلك هو الدين المستقيم الّذي لا عوج

فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لعدولهم عن النظر والتدبر.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ
الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا
مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ
بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ
أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥)﴾

الإنابة الانقطاع إلى الله بالطاعة ومنه الناب لأنه قاطع المعنى أي: فأقيموا وجوهكم حال كونكم منقطعين وراجعين إلى الله لأنّ مخاطبة النبيّ يدخل فيها الأمّة ولذا أتى بلفظ الجمع والدليل عليه قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: إذا أقبلتم عليه فلا تأمنوا فتتركوا عبادته بل خافوه والزموا التقوى وداوموا على العبادة وإقامة الصلاة.

﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بعد الإيمان ولا تقصدوا بذلك غير الله ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ ولا تكونوا من الذين وقع فيهم الاختلاف في دينهم وصاروا ذوي أديان مختلفة فصار بعضهم يعبدوننا وبعضهم يعبد ناراً وبعضهم يعبد شمساً إلى غير ذلك ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: أهل كلّ ملّة بما عندهم من الدين راضون ومسرورون ومعجبون يظنّون أنهم على حقّ. وقوله: ﴿شِيَعًا﴾ يعني: فرقة فرقة وحزباً حزباً.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ﴾ أي: إذا أصابهم مرض أو فقر أو شدة دعوا الله نادوا ربّهم منقطعين و﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ﴾ من الضرّ، والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ راجع إلى الضرّ ﴿رَحْمَةً﴾ بأن يعافيهم من المرض أو يعافيهم من الفقر وينجيهم من الشدة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يعودون إلى عبادة غير الله ويقابلوا النعم بالكفران.

ثمّ بيّن سبحانه أنّهم يفعلون ذلك ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ من النعم إذ قابلوا النعم بالكفران ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: انتفعوا بنعيم الدنيا كيف شئتم فسوف تعلمون عاقبة كفركم.

وقيل: إنّ اللام في ﴿ لِيَكْفُرُوا ﴾ للأمر على سبيل التهديد مثل قوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1].

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ هذا استفهام مستأنف أي: هل أنزلنا عليهم برهاناً وحجّة فيسلّطون بذلك البرهان على ما ذهبوا إليه من الشرك وذلك البرهان كأنّه ينطق بصحّة شركهم ويكون لهم حجّة في هذا الأمر يعني: لا يقدرون على تصحيح ذلك ولا يمكنهم ادّعاء برهان بل صرف الضلالة والهوى منهم.

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا
هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ
ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ
ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن
زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ
رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن
ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

المعنى: لمّا تقدّم ذكر المشركين شرح أحوالهم من البطر عند النعمة والبأس عند الشدّة بقوله: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ ﴾ الآية، أي: إذا آتيناهم نعمة

١ـ سورة الكهف: ٢٩.

من عافية وصحّة جسم أو سعة رزق أو أمن ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ وسرّوا بتلك الرحمة ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وإن أصابهم قحط وبلاء وعقوبة بذنوبهم الّتي قدّموها وسمّي ذلك ﴿سَيِّئَةٌ﴾ توسّعاً لكونه جزاء على السيّئة أو لأنّها تسوء بصاحبها ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ وييئسون من رحمة الله وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ على التغليب فإنّ أظهر العمل وأكثره باليدين.

ثمّ نبّههم سبحانه على معرفته وتوحيده فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ ويوسّعه أو لم يعلموا أنّ الكلّ من الله فالمحقّق العارف ينبغي أن لا يكون نظره على ما يوجد بل إلى من يوجد ويكون فرحه بمن وصل من لطفه إليه.

فإن قيل: الفرح بالنعمة والرحمة مأمور به حيث يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ وهاهنا ذمّهم على الفرح بالرحمة فكيف ذلك؟

فالجواب أنّ هناك فرحوا برحمة الله من حيث إنّها مضافة إلى الله وهاهنا فرحوا بنفس الرحمة والنعمة حتّى مثلاً لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم بما إذا كان من الله مثاله كما أنّ الملك لو وضع عند أمير رغيفاً على السماط أو أمر الغلمان بأن يحطّوا عنده زبديّة طعام أو دجاجة مشويّة يفرح ذلك الأمير به ولو أعطى الملك فقيرا غير ملتفت إليه رغيفاً أو زبديّة طعام فيفرح الفقير أيضاً لكن فرح الأمير بكون ذلك من الملك وفرح الفقير بكون ذلك رغيفاً وزبديّة.

وبالجملة فهو الّذي يبسط ويضيّق ويقدر على حسب ما يقتضيه مصالح العباد ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في بسط الرزق لقوم وتضييقه لقوم آخرين ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ ودلالات ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله.

ثمّ خاطب فقال: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وأعط يا

محمّد ذوي قرباك حقوقهم الّتي جعلها اللّه لهم من الأخماس. عن مجاهد والواقديّ وروى أبو سعيد الخدريّ وغيره أنّه نزلت هذه الآية في حقّ فاطمة عليها السلام ولمّا نزلت هذه الآية على النبيّ صلى الله عليه وآله أعطى فاطمة فدكاً وسلمة إليها وهو المرويّ عن الصادق والباقر عليهما السلام[1] ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ يعني: وآت المسكين والمسافر المحتاج ما فرض اللّه لهم من مالك، وقيل: إنّه خطاب له صلى الله عليه وآله ولغيره والمراد قرابة الرجل وهو أمر بصلة الرحم ولكن لمّا قال سبحانه: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ ثمّ عطف المسكين وابن السبيل ففي الآية دلالة في تعظيم حقّ ذي القربى بالنسبة إلى المسكين وابن السبيل ولو أنّ العطف اقتضى التشريك كما إذا قال الملك: خلّ فلاناً يدخل يكون في التعظيم فوق ما إذا قال: خلّ فلاناً وفلاناً يدخلان، وإلى هذا أشار النبيّ صلى الله عليه وآله بقوله: «بئس خطيب القوم أنت» حيث قال الرجل: من أطاع اللّه ورسوله فقد اهتدى ومن عصاهما فقد غوى ولم يقل ومن عصى اللّه ورسوله.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ يمكن أن يكون معناه ذلك خير من غيره ويمكن أن يكون خير في نفسه فيكون بمعنى الوصفيّة لا الأفضليّة ومعنى الثاني أولى لعدم الاحتياج إلى الإضمار ولكونه أكثر فائدة لأنّ الخير من الغير قد يكون نازل الدرجة كما يقال: السكوت خير من الكذب وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ إشارة إلى أنّ الاعتبار بالقصد لا بنفس الفعل فإنّ من أنفق جميع أمواله رياء الناس لا ينال درجة من يتصدّق برغيف للّه، يريدون بذلك وجه اللّه يعني: رضاه ولا يطلبون بها المكافاة من أحد غير اللّه ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم الفائزون بالجنّة.

١ـ انظر: التبيان، ج٨، ص٢٥٣ ؛ مجمع البيان، ج٦، ص٢٤٣ ؛ تفسير الصافي، ج ٤، ص١٣٣ ؛ الدر المنثور، ج، ص١٧٧. انظر: منتهى المطالب، العلامة الحلي، ج ١، ص٦٨ ؛ وفتح الباري، ج٧، ص٣٥٩.

﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ ﴾ قيل: في الرباء المذكور في الآية قولان: أحدهما إنّه ربا حلال وهو أن يعطي الرجل العطيّة أو يهدي الهديّة ليثاب وينتفع أكثر منها فليس فيه أجر ولا وزر، عن ابن عبّاس وطاوس وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام[1].

والقول الآخر أنّه الربا المحرّم فعلى هذا يكون المعنى ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾ قال الرازيّ: يعني: إذا طلب منكم واحداً باثنين ترغبون فيه وتؤتونه وذلك لا يربوا عند الله ولكنّ الصدقة تنمو عند الله كما أخبر النبيّ صلى الله عليه وآله: «**أنّ الصدقة تقع في يد الرحمن فتربوا حتّى تصير مثل الجبل فينبغي أن يكون إقدامكم على الصدقة أكثر**».

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴾ أي: وما أعطيتموه أهله على وجه الزكاة تريدون بذلك الإعطاء ثواب الله ورضاه ولا تطلبون بها المكافاة والعوض فأهلها هم المضعفون يضاعف لهم الثواب وقيل: المضعفون ذوو الأضعاف في الحسنات. وقيل: معناه هم المضعفون للمال في العاجل والثواب في الآجل لأنّ الله سبحانه جعل الزكاة سبباً لزيادة المال في الحديث: «**إنّ الملك يدعو اللهمّ أعط كلّ منفق خلفاً وكلّ ممسك تلفاً**»[2] ومنه الحديث: «**ما نقص مال من صدقة**» وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**فرض الله تعالى الصلاة تنزيهاً عن الكبر والزكاة تسبيبا للرزق والصيام ابتلاء لإخلاص الخلق ـ أي: لتبيّن إطاعتهم وخلوصهم ـ وصلة الأرحام منماة للعدد**».

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ﴾ عاد سبحانه إلى دليل التوحيد أي: أنشأكم

١ـ التبيان، ج٨، ص٢٥٤ ؛ ومجمع البيان، ج٨، ص٦٣ ؛ ونور الثقلين، ج٤، ص١٩٠.

انظر: المبسوط، السرخسي، ج٣، ص٢٧٤ ؛ كتاب المسند، الإمام الشافعي، ص١٠٠ ومسند أحمد بن حنبل، ج٢، ص٤١٨.

٢ـ الكافي، ج٤، ص٦٨.

وأوجدكم ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ وأعطاكم أنواع النعم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد ذلك ليصحّ إيصالكم إلى ما عرّضكم له من الثواب الدائم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ليجازيكم على أفعالكم ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: هل من شركائكم الّتي عبدتموها من دونه تقدر على هذه الأمور فيجوز لذلك توجّه العبادة إليه؟ ثمّ نزّه سبحانه نفسه عن أن يشرك معه في العبادة فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾

المعنى: لمّا بيّن أنّ الكفّار يشركون في العبادة غير الله أخبر سبحانه أنّ إظهارهم الشرك مورث لظهور الفساد ولو فعل بهم ما يقتضيه قولهم وفعلهم لفسدت السماوات والأرض كما قال: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ وإلى هذا المعنى أشار بقوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ فذكر ما أصاب الخلق بسبب ترك التوحيد وارتكاب المعاصي فقال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ أي: ظهر قحط المطر وقلّة النبات ﴿فِي الْبَرِّ﴾ حيث لا يجري نهر والبرّ البوادي وأصل البرّ من البرّ لأنّه يبرّ بصلاح المقام فيه وكذلك البرّ لأنه يبرّ بصلاحه في الغذاء أتمّ صلاح ﴿وَالْبَحْرِ﴾ وهو كلّ قرية على شاطئ نهر عظيم فعلى هذا المراد: ظهر الفساد في أهل البوادي وأهل الأمصار وليس

المراد «بالبرّ والبحر» في كلّ برّ وبحر في الدنيا وقال الفرّاء: معناه أجدب البرّ وانقطعت مادّة البحر بذنوبهم وشركهم وبما كسبوا من المعاصي وكان ذلك ليذوقوا الشدّة في العاجل وقيل: «البرّ» ظهر الأرض و«البحر» هو المعروف وقيل: فساد البرّ قتل قابيل هابيل وفساد البحر أخذ السفينة غصباً وقيل: ولاة السوء في البرّ والبحر وقيل: فساد البرّ ما يحصل فيه من المخاوف المانعة من سلوكه ويكون ذلك بخذلان الله تعالى لأهله وفساد البحر اضطراب أمره وقيل: البرّ البريّة والبحر الرسف والمواضع الخصبة.

ليصيبهم و﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: ليرجعوا عنها في المستقبل أو ليرجع من يأتي بعدهم عن المعاصي إذا سمع ما صنع بمن سلف من آبائهم.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ قل يا محمّد، ﴿سِيرُوا۟﴾ ليس بأمر ولكنّه مبالغة في العظة أو أمر على سبيل الاستحباب وروي عن ابن عبّاس أنّه قال: من قرأ القرآن وفهمه سار في الأرض لأنّ فيه أخبار الأمم فتدبّروا كيف صنع بهم من قبل من الملوك العاتية والقرون العاصية كيف أهلكهم الله وصارت قصورهم قبورهم ومحاضرهم مقابرهم.

ثمّ بيّن العلّة أنّه سبحانه فعل بهم لسوء صنيعهم فقال: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ واعلم أنّ العذاب العاجل لم يختصّ بالمشركين حين يقع وقد يكون العذاب بالفسق والمخالفة كما كان على أهل السبت وغيرهم كما قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[1] بل كان على الصغار والمجانين ولكنّ الأغلب في عذاب الاستيصال بسبب الشرك.

١ـ سورة الأنفال: ٢٥.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ لمّا نهى الكافر عمّا هو عليه أمر المؤمن بما هو عليه وخاطب النبيّ للتشريف وليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلّف به فإنّ هذا التكليف امر به أشرف الأنبياء كما قالعليه السلام «إنّ الله أمر عباده المؤمنين بما أمر به عباده المرسلين أي: استقم للدين المستقيم بصاحبه إلى الجنّة»[1] ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي: لا يقدر على ردّه أحد ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي: يأتي من الله ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أصله يتصدّعون ويتفرّقون فريق في الجنّة وفريق في السعير.

ثمّ أشار إلى التفرّق بقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: عقوبة كفره عليه لا يعاقب أحد بذنبه ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: بالعمل الصالح يوطّئون لأنفسهم منازلهم يقال: مهّدت لنفسي خيراً. وهذا توسّع ومن أصلح عمله فكأنّه فرش لنفسه في القبر وسوى مضجعه ومثواه.

وروى منصور بن حازم عن أبي عبد اللهعليه السلام قال: «إنّ العمل الصالح ليسبق صاحبه إلى الجنّة فيمهّد له كما يمهّد لأحدكم خادمه فراشه»[2].

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾ أي: ليجزيهم (متعلّق بيصّدّعون) على قدر استحقاقهم ويزيدهم من فضله وبسبب فضله لأنّه تعالى خلقه وهداه ومكّنه ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ لا يريد كرامتهم جزاه على كفرهم.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ

١ـ التبيان، ج٨، ص٢٥٨ ؛ ومجمع البيان، ج٨، ص٦٦.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص٦٦ ؛ وتفسير الصافي، ج ٤، ص١٣٥.

كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

أي: ومن أفعاله الدالّة على معرفته ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ كأنّها ناطقات بالبشارة بالخير والمطر ومنفعة الزرع وصلاح الأهوية والأحوال فإنّ الرياح لو لم تهب لظهر الفساد والوباء والعفونات. ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: ليبشّركم بالمطر وهذه المنافع المذكورة ويصيبكم من رحمته بالمطر، وعبّر بالإذاقة لأنّ الإذاقة يقال في القليل ولمّا كان مطلق نعم الدنيا وراحتها بالنسبة إلى نعم الآخرة نزر عبّر سبحانه بالإذاقة ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ ولمّا أسند الفعل إلى الفلك عقّبه بأمره أي: الجري بأمره ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ الخير ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: ابتغاء الخير لابدّ وأن يكون من فضله ولا استقلال لشيء بشيء ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعم الله. ثمّ خاطب نبيّه تسلية له فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا﴾

ولم يكن لهم شغل غير شغلك ولم يظهر عليهم غير ما ظهر عليك ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وأتوا لقومهم دلائل على نبوّتهم فمن كذّبهم أصابهم البوار ومن آمن بهم كان لهم الانتصار فكان في قومهم كافر ومؤمن كما في قومك. ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ﴾ الكافرين ونصرنا المؤمنين﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وهذه بشارة للمؤمنين الّذين آمنوا بمحمّدﷺ وجاءت الرواية عن أمّ الدرداء أنّها قالت: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه إلّا كان حقّاً على الله أن يردّ عنه نار جهنّم يوم القيامة» ثمّ قرأﷺ ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٦٩ ؛ وبحار الأنوار، ج٦٨، ص١١٩.

ثمّ قال سبحانه: مفسّرا لما أجمله في الآية المتقدّمة: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ فمن شواهد القدرة أنّه سبحانه يهيّئ ويرسل الرياح فتهيج سحاباً فتزعج السحاب ويجعل من الهواء اللطيف الّذي يشقّه البقّ بسبب التموّج يصير بحيث يقلع الشجر بل الجبل وهو ليس بذاته كذلك بل بفعل فاعل مختار ويحصل من هبوب الرياح إثارة السحب ويبسط السحب ويبسط السحب مسيرة يوم وأكثر ويجريها إلى أي: جهة شاء.

ويجعل السحاب ﴿كِسَفًا﴾ أي: قطعاً متفرّقة أو متراكباً بعضه على بعض وتغلظ بحيث تغطّي ضوء الشمس ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ أي: القطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: من خلال السحاب ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ أي: بذلك الودق ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويفرحون ويبشّر بعضهم بعضاً ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ يعني: وإنّهم كانوا من قبل إنزال المطر عليهم قانطين وآيسين من نزول المطر والتكرار في ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ قيل: للتأكيد وقيل: من قبل إنزال المطر و﴿مِنْ قَبْلِ﴾ أي: قبل إرسال الريح.

﴿ فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ حتّى أنبتت شجراً ومرعى وصارت الأرض خصبة مريعة ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعد أن كانت يابسة مواتاً وجعل سبحانه الجدوبة واليبس للأرض بمنزلة الموت وظهور النبات فيها بمنزلة الحياة توسّعاً. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وهو الله ليحي الموتى في الآخرة بعد كونهم رفاتا وأمواتاً وإنّما عبّر بقوله تعالى: ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ باللام المؤكّدة وباسم الفاعل لأنّ الإنسان إذا قال: إنّ الملك يعطيك لا يفيد ما يفيد قوله: إنّه معطيك لأنّ قوله: معطيك يفيد أنّه أعطاك وهو متّصف بالعطاء وقوله: يعطيك يفيد أنّه سيتّصف به كما في قوله: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ آكد من قوله: «إنّك تموت» والغرض تحقيق وقوع الإحياء بعد الإماتة.

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا
تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ
ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ٱللَّهُ
ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ
قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

المعنى: ثمّ عاب كافر النعمة فقال: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ مؤدّية إلى الهلاك للزرع باردة فرأوا النبت والزرع الّذي كان من أثر رحمة اللّه ﴿مُصْفَرًّا﴾ من البرد بعد الخضرة وقيل: إنّ «الهاء» يعود إلى السحاب أي: فرأوا السحاب مصفراً لأنّه إذا كان مصفراً لم يكن فيه مطر ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: لصاروا من بعد أن كانوا مستبشرين ﴿يَكْفُرُونَ﴾ باللّه وبنعمته ولم يرضوا بقضاء اللّه.

وسمّى النافعة الرياح والضارّة الريح لأنّ الرياح النافعة تهبّ في أغلب الأوقات ليلاً ونهاراً وأكثر أفراداً والريح الضارّ كالسموم أو أمثاله أقلّ أفرادا وأيضاً إنّ النافعة لا يكون إلّا رياحاً فإنّ ما يهبّ مرّة واحدة لا يصلح الهواء ولا ينشئ السحاب ولا يجري السفن وأمّا الضارّة تقتل بنفحة واحدة كريح السموم ولذلك قال في المضرّة: ريح وفي النافعة: رياح.

ثمّ بعد أن علّم رسول اللّه أنواع الأدلّة وأصناف الأمثلة ووعد وأوعد ولم يزدهم دعاؤه إلّا فراراً وأبوه إلّا كفرا وإصراراً قال له: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ شبّههم في ترك تدبّرهم فيما يدعوهم إليه النبيّ تارة بالأموات وتارة بالصمّ لأنّهم لا يسمعون إذا أعرضوا عن أدلّتنا ذاهبين إلى الضلال.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ أي: لا تقدر على ردّهم عن العمى والكفر إذ لم يطلبوا الاستبصار ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فإنّهم المنتفعون بدعائك ﴿فَهُم﴾ منقادون ﴿مُّسۡلِمُونَ﴾ لأمرك.

ثمّ أعاد ذكر الأدلّة فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٍ﴾ أي: من نطف وقيل: معناه خلقكم أطفالا لا تقدرون على البطش والمشي والتصرّفات ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٍ قُوَّةً﴾ وشباباً ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ ضَعۡفًا وَشَيۡبَةً﴾ يعني: حال الشيخوخة والكبر ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ من ضعف وقوّة ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما فيه مصالح خلقه ﴿ٱلۡقَدِيرُ﴾ على فعله.

ثمّ بيّن حال البعث فقال: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي: يحلف المشركون ﴿مَا لَبِثُواْ﴾ في القبور ﴿غَيۡرَ سَاعَةٍ﴾ أو ما لبثوا في الدنيا ﴿غَيۡرَ سَاعَةٍ﴾ فإن قيل: كيف يحلفون ما مكثوا ﴿غَيۡرَ سَاعَةٍ﴾ مع أنّ معارفهم في الآخرة ضروريّة؟ لأنّهم استقلّوا الدنيا لما عاينوا من أمر الآخرة وعلموا دوامها فكأنّهم قالوا: ما الدنيا في الآخرة إلّا ساعة أو أنّ ذلك القول منهم: قبل أن تصير معارفهم ضروريّة وقبل أن يعرفوا حقيقة الأمر على حسب الكمال ويكمل عقولهم، عن أبي بكر بن الإخشيد.

وللرازيّ بيان لطيف في الآيتين: هذه الآية وما بعدها وهو أنّ الموعود بوعد إذا ضرب له أجل يستكثر الأجل ويزيد تعجيله والموعود بوعيد إذا ضرب له أجل يستقلّ المدّة ويطلب تأخيرها فالمجرم إذا حشر وعلم أنّ النار مصيره يستقلّ المدّة من اللبث والمؤمن إذا حشر علم أنّ مصيره إلى الجنّة فيستكثر المدّة وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فطال علينا وصبرنا[1].

١ـ تفسير الرازي، ج ٢٥، ص ١٣٧.

﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: مثل ذلك الكذب كانوا في دار الدنيا يكذبون ويصرفون جهلهم عن الحقّ في الدارين ومن استدلّ بهذه الآية على نفي عذاب القبر مردود لأنّه يجوز أنّهم يريدون لم يلبثوا بعد العذاب إلّا ساعة.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن الّذين آتاهم الله العلم بما نصب لهم من الأدلّة الموجبة للعلم. القمي: هذه الآية مقدّمة ومؤخّرة وإنّما هو: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾[1] ومعناه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ في كتاب الله وهم الّذين يعلمون كتاب الله ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ من الأنبياء والملائكة للمجرمين: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾ إلى يوم البعث ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الّذي كنتم تنكرونه في الدنيا ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقوعه في الدنيا فلا ينفعكم العلم به الآن.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالكفر ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ فلا يمكّنون من الاعتذار ولو اعتذروا لم يقبل عذرهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يطلب الإعتاب، استعتبني فلان فأعتبته أي: استرضاني فأرضيته والرجوع إلى الحقّ والمراد أنّ التوبة والرجوع لا تفيد والعتب من شأنه أن

١ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ١٦٠.

يزيل آثار الجرم وكذلك التوبة ولكن لا يطلب منهم ولا يقبل.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ إشارة إلى إزالة الأعذار وبيان أنّه لم يبق من جانب الرسول تقصير وبالغنا في البيان للمكلّفين في هذا القرآن الّذي أنزلناه على نبيّنا من كلّ مثل يدعوهم إلى التوحيد والإيمان.

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ أي: معجزة باهرة ممّا اقترحوها منك ﴿لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: أصحاب أباطيل وهذا إخبار عن عناد القوم وتكذيبهم بالآيات ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما أنّ قلوب هؤلاء مطبوعة ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله ولا يعرفون.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمّد على أذى هؤلاء الكفّار وإصرارهم على كفرهم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بالعذاب والتنكيل لأعدائك والنصر والتأييد لك ولدينك ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: ولا يحملنّك كفر هؤلاء على الخفّة والقلق والعجلة لشدّة الغضب عليهم لكفرهم بآياتك.

تمّت السورة بحمد الله.

سورة لقمان

مكية سوى ثلاث آيات. فضلها: أبيّ بن كعب عن النبيﷺ قال: «من قرأ سورة لقمان كان لقمان له رفيقاً يوم القيامة وأعطي من الحسنات عشراً بعدد من عمل بالمعروف وعمل بالمنكر»[1].

وروى محمّد بن جبير العرزميّ عن أبيه عن أبي جعفرعليه السلام قال: «من قرأ سورة لقمان في كلّ ليلة وكّل الله به في ليلته ثلاثين ملكاً يحفظونه من إبليس وجنوده حتّى يصبح ومن قرأها بالنهار لم يزالوا يحفظونه من إبليس وجنوده حتّى يمسي»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ
ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا
كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٧٤؛ ومستدرك الوسائل، ج٤، ص٣٤٦.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

وجه النصب في ﴿هُدًى﴾ انتصب عن الاسم المبهم على الحال أي: ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ في حال الهداية والرحمة ويجوز الرفع على إضمار المبتداء أي: هو آياته هدى ورحمة وبيان ونعمة للمطيعين وللّذين يحسنون العمل.

ثمّ وصفهم فقال: المحسنون هم ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وغير شاكّين بالبعث ومتيقّنين بالآخرة وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات على سبيل الهداية من ربّهم ومفلحون وناجون من عذاب الله.

ثمّ وصف سبحانه حال من يخالف حاله حال هؤلاء فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ نزلت الآية في النضر بن الحارث بن علقمة بن عبد الدار بن قصيّ بن كلاب كان يتّجر فيخرج إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم ويحدّث بها قريشاً ويقول لهم: إنّ محمّداً يحدّثكم بحديث عاد وثمود وأنا احدّثكم بحديث رستم وإسفنديار وأخبار الأكاسرة فيتوجّهون إلى حديثه ويتركون استماع القرآن.

وقيل: نزلت في رجل اشترى جارية تغنّيه ليلاً ونهاراً، ويؤيّده ما رواه أبو امامة عن النبيّ ﷺ قال: «لا يحلّ تعليم المغنّيات ولا بيعهنّ وأثمانهنّ حرام وقد نزل تصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى﴾».[1] الآية ثمّ قال ﷺ:

١ـ سورة البقرة: ٢٠٧.

«والّذي نفسي بيده ما رفع رجل عقيرته يتغنّى إلّا ارتدفه شيطانان ويضربان أرجلهما على صدره حتّى يسكت»[١].

وبالجملة فأكثر المفسّرين على أنّ المراد بلهو الحديث الغناء وهو قول ابن عبّاس وابن مسعود وغيرهما، وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله وأبي الحسن الرضا عليهم السلام قالوا: «منه الغناء»[٢] وروي أيضاً عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «هو الطعن في الحقّ والاستهزاء بما كان أبو جهل وأصحابه يجيئون به إذ قال: يا معشر قريش ألا أطعمكم من الزقّوم الّذي يخوّفكم به محمّد ثمّ أرسل إلى زبد وتمر فقال: هذا هو الزقّوم الّذي يخوّفكم به فملى هذا فإنّه يدخل فيه كلّ شيء يلهي عن سبيل الله وعن طاعته من الأباطيل والمزامير والملاهي والمعازف ويدخل فيه السخرية بالقرآن واللّغو فيه والتّرّهات والبسابس على ما قاله عطاء وكلّ لهو ولعب على ما قاله قتادة والأحاديث الكاذبة والأساطير الملهية عن القرآن.»[٣] على ما قاله الكلبيّ وروى الواحديّ بالإسناد عن نافع عن ابن عمر أنّه سمع النبيّ صلى الله عليه وآله في هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ قال: «باللّعب والباطل كثير النفقة سمح فيه ولا تطيب نفسه بدرهم يتصدّق به»[٤] وروى أيضاً بالإسناد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من ملأ مسامعه من غناء لم يؤذن له أن يسمع صوت الروحانيّين يوم القيامة» قيل: وما الروحانيّون يا رسول الله؟ قال: «قرّاء أهل الجنّة.»[٥].

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليضلّ غيره ومن أضلّ غيره فقد ضلّ هو قال ابن عبّاس: سبيل الله قراءة القرآن وذكر الله ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي: يتّخذ

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٧٦ ؛ وبحار الأنوار، ج٧٦، ص٢٤٠.

٢ـ زبدة البيان، المحقق الأردبيلي، ص٤١٣ ؛ ونور الثقلين، ج٤، ص١٩٣.

٣ـ زبدة البيان، المحقق الأردبيلي، ص٤١٣.

٤ـ مجمع البيان، ج٨، ص٧٧.

٥ـ المصدر السابق نفسه.

آيات القرآن وسبيل الله هزوًا يستهزئ بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ مذلّ يهينهم الله به.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ وقرئ القرآن عليه ﴿وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ أي: أعرض عن سماعه إعراض من لا يسمعه وهو سامع رافعاً نفسه فوق مقدارها ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ كأن في مسامعه ثقلا يمنعه عن سماع تلك الآيات ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ يا محمّد ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم موجع في القيامة فأعلمه بأنّ العذاب المفرط في الإيلام لا حق به لا محالة، والتعبير بالبشارة للتهكّم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيان لحال المؤمنين إثر بيان حال الكافرين بالآيات أي: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وصدقوا بآياته ﴿وَعَمِلُواْ﴾ بموجبها ﴿لَهُمۡ﴾ بمقابلة إيمانهم وأعمالهم ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: جنان ذات نعمة أو المعنى «نعيم جنّات» فعكس للمبالغة وتوحيد العذاب وجمع الجنّات إشارة إلى أنّ الرحمة والرحمة واسعة أكثر من الغضب وأيضاً تنكير العذاب وتعريف الجنّة بالإضافة إلى المعرّف إشارة إلى أنّ الرحيم عرّف النعمة إيصالاً للراحة إلى القلب وما بيّن النقمة بل نبّه عليها تنبيها.

وأكّد الوعد بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ أي: وعد وعداً حقّاً لا خلف فيه ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب في انتقامه ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في جميع أفعاله وأحكامه ولا يفعل إلّا ما يقتضيه الحكمة.

ثمّ قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ إذ لو كان لها عمد لرأيتموها لأنّها لو كانت كانت أجساما حتّى تصحّ منها أن تقلّ السماوات ولو كانت كذلك لاحتاجت إلى عمد آخر فكان يتسلسل فإذا لا عمد لها. وقيل: إنّ المراد: بغير عمد مرئيّة والمعنى أنّ لها عمدا لا ترونها، والصحيح الأوّل.

واعلم أنّ أكثر علماء الإسلام يقولون: إنّ السماوات مبسوطة كصحيفة مستوية والمهندسون والغزاليّ قالوا: مستديرة وقالوا: يؤيّد قولنا: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ والفلك اسم لشيء مستدير وعلى الاختلاف سواء كانت مستديرة أو مصحفة فهي مخلوقة بقدرة اللّه لا موجودة بإيجاب وطبع لأنّ السماء في فضاء وكون السماء في بعض الفضاء دون بعض ليس إلّا بقدرة مختار متصرّف.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: جعل فيها جبالاً ثابتة راسخة كراهية أن تتحرّك وتزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ولو خلقها مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة كما ترى الأراضي الرملة ينتقل الرمل الّذي فيها من موضع إلى موضع ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ وفرّق في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ تدبّ وتتحرّك على وجهها من أنواع الحيوانات ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: غيثاً ومطراً ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾ في الأرض بذلك الماء ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي: من كلّ صنف حسن البنية طيّب الثمرة فسكون الأرض فيه مصلحة وكذلك حركة الدوابّ فأسكنّا الأرض وحرّكنا الدوابّ ولو كانت الأرض متحرّكة ومتزلزلة لكانت الدابّة الّتي لا تعيش في موضع تقع ذلك الموضع فيكون فيه هلاكها، أمّا إذا كانت الأرض ساكنة والحيوانات متحرّكة تتحرّك في المواضع الّتي تناسبها وترعى فيها وتعيش.

والعدول من المغايبة إلى النفس بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ فيه فصاحة لصنعة الالتفات لأن السامع إذا سمع كلاماً طويلاً من نمط واحد ثمّ ورد عليه نمط آخر يستطيبه ألا ترى أنّك إذا قلت: قال زيد كذا وكذا وقال خالد كذا وكذا وقال عمر كذا وكذا ثمّ إنّ بكراً قال قولاً حسناً يستطاب لما قد تكرّر القول مراراً.

﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يعني: اللّه خالق وغيره ليس بخالق فكيف تتركون عبادة الخالق وتشتغلون بعبادة المخلوق؟

ثمّ قال: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ المعنى إنّ العادلين والظالمين لا يجدون لهذا الكلام جواباً ولا يمكنهم أن يشيروا إلى خالق غيره وهم في ضلالة وقد وضعوا الشيء في غير موضعه.

وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾

ولمّا ذكر سبحانه الأدلّة الدالّة على قدرته وحكمته بيّن قصّة لقمان وما آتاه من الحكمة فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي: أعطيناه العقل وإصابة الأمور واختلف فيه فقيل: إنّه كان حكيماً ولم يكن نبيّاً عن ابن عبّاس وجماعة من المفسّرين وقال عكرمة والسدّيّ والشعبي: إنّه كان نبيّاً وفسّروا الحكمة هنا بالنبوّة وقيل: إنّه كان عبداً حبشيّاً أسود غليظ المشافر في زمن داودعليه السلام وقال: له بعض الناس: ألست كنت ترعي معنا فقال: نعم قال: فمن أين أوتيت ما أري قال: قدر الله وأداء الأمانة وصدق الحديث والصمت عمّا لا يعنيني وقيل: إنّه كان ابن أخت أيّوب وقيل: كان ابن خالة أيّوب.

وروى نافع عن ابن عمر قال: سمعت رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**حقّاً أقول لم يكن لقمان نبيّاً ولكن كان عبدا كثير التفكّر حسن التدبّر وحسن اليقين أحبّ الله فأحبّه ومنّ عليه بالحكمة كان نائما نصف النهار إذ جاءه نداء: يا لقمان هل لك أن**

يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحقّ فأجاب الصوت: إن خيّرني ربّي قبلت العافية ولم أقبل البلاء وإن عزم عليّ سمعا وطاعة فإنّي أعلم أنّه إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني، فقالت الملائكة: بصوت لا يريهم لم يا لقمان؟ قال: لأنّ الحكم أشدّ المنازل وآكدها يغشاه الظلم من كلّ إن وقى فبالحري أن ينجو وإن أخطأ أخطأ طريق الجنّة ومن يكن في الدنيا ذليلاً وفي الآخرة شريفاً خير من أن يكون في الدنيا شريفاً وفي الآخرة ذليلاً ومن يختر الدنيا على الآخرة تفته الدنيا ولا يصيب الآخرة فتعجّب الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأعطي الحكمة فانتبه يتكلّم بها ثمّ كان يوازر داود بحكمته فقال له داود‌عليه‌السلام: طوبى لك يا لقمان أعطيت الحكمة وصرفت عنك البلوى»[1].

﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي: قلنا له: أن أشكر للّه على ما أعطاك من الحكمة القمّي عن الصادق‌عليه‌السلام إنه سئل عن لقمان وحكمته الّتي ذكرها اللّه عزّ وجلّ فقال: «أما والله ما اوتي لقمان الحكمة بحسب ولا حال ولا أهل ولا بسط في جسم ولا جمال ولكنه كان رجلاً قويّاً في أمر الله متورّعاً في الله ساكتاً عميق النظر طويل الفكر مستغن عن الغير لم ينم ليلاً قطّ ولا اغتسال لشدّة تستّره وتحفّظه في أمره ولم يضحك في شيء مخافة الإثم ولم يغضب قطّ ولم يمازح إنساناً قطّ ولم يفرح بشيء إن أتاه من أمر الدنيا ولا حزن منها على شيء قطّ وقد نكح من النساء وولد له الأولاد الكثير وقدّم أكثرهم ـ أي: مات ـ إفراطا فما بكى على موت أحد منهم ولم يمرّ برجلين يختصمان ويقتتلان إلّا أصلح بينهما ولم يمض عنهما حتّى تحابّا ولم يسمع قولاً من أحد استحسنه إلّا سأل عن تفسيره وعمّن أخذه فكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء وكان يغشي القضاة والملوك والسلاطين فيرثي القضاة فيما ابتلوا به ويرحم الملوك والسلاطين لعزّتهم بالله وطمأنيتهم في ذلك ويعتبر ويتعلّم ما يغلب به نفسه ويجاهد هواه ويحترز

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٨٠؛ وتفسير نور الثقلين، ج٤، ص١٩٦.

به من الشيطان ويداوي قلبه بالتفكّر والصبر فبذلك اوتي الحكمة ومنح العصمة فمشي بالحكمة من قرنه إلى قدمه»[1].

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ بيّن سبحانه أنّ الشكر لا ينتفع به إلّا الشاكر وبيّن أنّ بالكفران لا يتضرّر غير الكافر فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: اللّه غير محتاج إلى شكر وهو سبحانه في ذاته محمود سواء شكروه الناس أو لم يشكروا.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ اذكر إذ قال لقمان لابنه ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ ويؤدّبه ويذكّره: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ ولا تعدل باللّه شيئاً في العبادة ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وأصل معنى الظلم النقصان ومنع الواجب فمن أشرك باللّه فقد منع ما وجب للّه عليه من معرفة التوحيد وأوبق وظلم نفسه ظلماً عظيماً.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ لمّا منعه من العبادة لغير اللّه والخدمة قريبة من العبوديّة بحسب الصورة بين أنّها غير ممتنعة بل هي واجبة لغير اللّه في بعض الصور مثل خدمة الأبوين.

ثمّ بيّن السبب فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا﴾ يعني: للّه على العبيد نعمة الإيجاد ابتداء بالخلق ونعمة الإبقاء بالرزق وجعل بحكمة للامّ ماله صورة ذلك وإن لم يكن لها في الحقيقة فإنّ الحمل به يظهر الوجود وبالرضاع يحصل البقاء فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ أي: صارت بقدرة اللّه سبب وجوده ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ يعني: ضعفاً على ضعف ضعف نطفة الوالد على ضعف نطفة الأمّ وقيل: لانّ الحمل يؤثّر فيها فكلّما ازداد الحمل ازدادت ضعفاً على ضعف. وقيل: لأنّها ضعيفة الخلقة فازدادت ضعفاً بالحمل وشدّة على شدّة وجهد على جهد.

١ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ١٦٢.

﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي: وفطامه من الرضاع في انقضاء عامين لأنّ «العامين» كلّه مدّة الرضاع والمراد أنّها بعد ما تلده ترضعه عامين وتربّيه فتلحقها المشقّة بعد المشقّة بذلك فإذا كان منها ماله صورة الوجود والبقاء وجب عليه الخدمة فإنّ الخدمة لها صورة العبادة في الجملة فوصّى اللّه بالوالدين وذكر السبب في حقّ الأمّ وخصّ الأمّ بالذكر وفي الأب ما وجد في الأمّ فإنّ الأب حمله في صلبه وربّاه بكسبه سنين فهو أبلغ.

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ هذا تفسير قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أي: وصّيناه بشكرنا وشكر والديه فشكر اللّه الحمد والطاعة وشكر الوالدين بالبرّ والصلة.

ثمّ بيّن الفرق وقال: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ يعني: نعمتهما مختصّة بالدنيا ونعمتي في الدنيا والآخرة فإنّه ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ والجزاء وقت المصير إليّ.

ثمّ قال: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: إنّ خدمتهما واجبة لازمة ما لم يكن فيها ترك طاعة اللّه أمّا إذا أفضى إلى الشرك ومعصية اللّه فلا.

وفي «العيون» عن الرضا عليه السلام في حديث: «وأمر سبحانه بالشكر له وللوالدين فمن لم يشكر والديه لم يشكر اللّه»[1].

وعن الرضا عليه السلام قال: «من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر اللّه عزّ وجلّ»[2].

وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام: «إنّ رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال يا رسول اللّه: أوصني فقال: لا تشرك اللّه شيئاً وإن حرّقت بالنار وعذّبت إلّا وقلبك مطمئنّ بالإيمان

١ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٢٣٤.

٢ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص٢٧ ؛ وبحار الأنوار، ج٦٨، ص٤٤.

ووالديك فأطعمها وبرّهما حيين كانا أو ميتين وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل فإنّ ذلك من الإيمان».[1] وعنه عليه السلام: «جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله من أبرّ؟ قال: أمّك قال: ثمّ من؟ قال: أمّك قال: ثمّ من قال: أمّك قال: ثمّ من؟ قال: أباك»[2]. وعن الرضا عليه السلام قيل له: أأدعو لوالديّ إن كانا لا يعرفان الحقّ؟ قال: «ادع لهما وتصدّق عنهما وإن كانا حيين لا يعرفان الحقّ فدارهما فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنّ الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق»[3].

وفي «العيون» عنه عليه السلام: «وبرّ الوالدين واجب وإن كانا مشركين ولا طاعة لهما في معصية الخالق ولا لغيرهما فإنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[4].

وفي «مصباح الشريعة» قال الصادق عليه السلام: «برّ الوالدين من حسن معرفة العبد بالله إذ لا عبادة أسرع بلوغاً بصاحبها إلى رضاء الله من حرمة الوالدين المسلمين لوجه الله تعالى لأنّ حقّ الوالدين مشتق من حقّ الله إذا كانا على منهاج الدين والسنّة بشرط أن لا يمنعان الولد من طاعة الله إلى معصية ومن اليقين إلى الشكّ ومن الزهد إلى الدنيا ولا يدعوانه إلى خلاف ذلك فإذا كانا كذلك فمعصيتهما طاعة وطاعتهما معصية قال الله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾ وأمّا في باب المعشرة والمرافقة فدارهما واحتمل أذاهما نحو ما احتملا عنك في حال صغرك ولا تضيق عليهما بما قد وسع الله عليك في المأكول والملبوس ولا تحول بوجهك عنهما ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما فإنّ تعظيمها من الله وقل لهما بأحسن القول والطفه فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين»[5].

١ـ الكافي، ج٢، ص١٥٨ ؛ وتحف العقول، ص٤١.

٢ـ الكافي، ج٢، ص١٥٩ ؛ وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٠٧.

٣ـ الكافي، ج٢، ص١٥٩ ؛ وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٠٦.

٤ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص١٣٢.

٥ـ مصباح الشريعة، ص٧٠.

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: واسلك طريقة من رجع إلى طاعتي واقبل ﴿إِلَيَّ﴾ بقلبه وهو النبيّ والمؤمنون فإنّه مربّي عقلك كما أنّ الوالدين مربّي جسمك. ثمّ قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: إلى حكمي مرجعكم ومنقلبكم ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ وأخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال في الدنيا واجازيكم عليها بحسبها.

فصل: في ذكر نبذة من حكم لقمان: ذكر في التفسير أنّ مولاه دعاه فقال: له اذبح لي شاة وائتني بأطيب مضغتين منها فذبح شاة فأتاه بالقلب واللسان فسأله عن ذلك فقال: إنّهما أطيب شيء إذا طابا وأخبث شيء إذا خبثا[1].

وقيل: إنّ مولاه دخل المخرج فأطال الجلوس فيها فناداه لقمان إنّ طول الجلوس على الحاجة يفجع فيه الكبد ويورث منه الباسور ويصعد الحرارة إلى الرأس فاجلس هوناً وقم هوناً قال: فكتب حكمته على باب الحش[2].

قال عبد الله بن دينار: قدم لقمان من سفر فلقى غلامه في الطريق فقال: ما فعل أبي؟ قال: مات. قال لقمان: ملكت أمري قال: ما فعلت امرأتي؟ قال: ماتت قال: جدّد فراشي قال: ما فعلت أختي؟ قال: ماتت. قال قد سترت عورتي قال: ما فعل أخي؟ قال: مات. قال: انقطع ظهري.

وقيل للقمان: أي: الناس شرّ قال: الّذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً.

وقيل له: ما أقبح وجهك! قال: تعيب على النقش أو على فاعل النقش؟

وقيل: إنّه دخل على داود وهو يسرد الدرع وقد ليّن الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت فلمّا أتمّها لبسها وقال: نعم لبوس الحرب أنت وقال: الصمت خير وقليل فاعله.

١ـ بحار الأنوار، ج١٣، ص٤٢٤.

٢ـ محل قضاء الحاجة.

وفي كتاب «من لا يحضره الفقيه» قال لقمان لابنه: يا بنيّ إنّ الدنيا بحر عميق وقد هلك فيها عالم كثير فاجعل سفينتك فيها الإيمان بالله واجعل شراعها التوكّل وزادك تقوى الله فإن نجوت فبرحمة الله وإن هلكت فبذنوبك[1].

وروى سليمان بن داود المنقريّ عن حمّاد بن عيسى عن الصادقعليه السلام قال: «في وصيّة لقمان لابنه: يا بنيّ سافر بسيفك وخفّك وعمامتك وخبائك وسقائك وخيوطك وتزوّد معك من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك وكن لأصحابك موافقاً إلّا في معصية الله[2] يا بنيّ إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك وأكثر التبسّم في وجوههم وكن كريماً على زادك بينهم فإذا دعوك فأجبهم وإذا استعانوا بك فأعنهم واستعمل طول الصمت وكثرة الصلاة وسخاء النفس بما معك من دابّة أو ماء أو زاد، وإذا استشهدوك على الحقّ فاشهد لهم واجهد رأيك لهم إذا استشاروك ثمّ لا تعزم حتّى تتثبّت وتنظر، ولا تجب في مشورة حتّى تقوم فيها وتقعد وتنام وتأكل وتصلّي وأنت مستعمل فكرتك في مشورته فإن من لم يمحض النصيحة لمن استشاره سلبه الله رأيه، وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم وإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم واسمع لمن هو أكبر منك سنّاً، وإذا أمروك بأمر وسألوك شيئاً فقل: نعم، ولا تقل: لا فإنّ «لا» عيّ ولؤم، وإذا تحيّرتم في الطريق فانزلوا، وإذا شككتم في القصد فقفوا وتآمروا، وإذا رأيتم شخصاً واحداً فلا تسألوه عن طريقكم ولا تسترشدوه فإنّ الشخص الواحد في الفلاة مريب لعلّه يكون من اللصوص أو يكون هو الشيطان الّذي حيّركم واحذروا الشخصين أيضاً إلّا أن تروا ما لا أرى فإنّ العاقل إذا أبصر بعينه شيئاً عرف الحقّ، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب، يا بنيّ إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخّرها لشيء صلّها واسترح فإنّها دين وصلّ في جماعة ولو على رأس زجّ ولا تنامنّ على دابّتك فإنّ ذلك سريع في دبرها، وليس ذلك

١ـ من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٢٨٢.

٢ـ الكافي، ج ٨، ص ٣٠٣.

من فعل الحكماء إلّا أن تكون في محمل يمكنك التمدّد لاسترخاء المفاصل فإذا قربت من المنزل فانزل عن دابتك وابدأ بعلفها قبل نفسك فإنّها نفسك، وإذا أردتم النزول فعليكم في بقاع الأرض بأحسنها لونا وألينها تربة وأكثرها عشباً، وإذا نزلت فصلّ ركعتين قبل أن تجلس، وإذا أردت قضاء حاجتك فأبعد المذهب في الأرض، وإذا ارتحلت فصلّ ركعتين ثمّ ودّع الأرض التي حللت بها وسلّم على أهلها فإنّ لكلّ بقعة من الأرض أهلاً من الملائكة، وإن استطعت أن لا تأكل طعاماً حتّى تبتدئ فتصدّق منه فافعل وعليك بقراءة كتاب الله مادمت راكباً وعليك بالتسبيح ما دمت عاملاً عملاً، وعليك بالدعاء مادمت راكباً، وإيّاك أن تسير في أوّل الليل إلى آخره، وإيّاك أن ترفع الصوت في مسيرك»[1].

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾

المعنى: ولأجل أن لا يتوهّم ابنه أنّ ما يفعله في الخفية يخفى على الله قال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ﴾ أي: الحسنة والسيّئة إن كانت في الصغر مثل خردلة وتكون مع ذلك الصغر في موضع حريز كالصخرة لا يخفى على الله، وقرئ

١ـ الكافي، ج٨، ص٣٤٨؛ ومن لايحضره الفقيه، ج٢، ص٢٩٦.

﴿مِثْقَالَ﴾ بالرفع وقد ألحق علامة التأنيث في الفعل فباعتبار الحسنة والسيّئة أي: إن كانت الحسنة مثقال خردلة يعلمها الله كقوله: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(١).

ويروى أنّ ابن لقمان سأل أباه أرأيت الحبّة تكون في قعر البحر أيعلمها الله؟ فقال لقمان: ﴿إِنَّهَآ﴾ أي: الّتي سألتني عنها ﴿صَخْرَةٍ﴾ أي: جبل أو صخرة عظيمة ﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذكر السماوات والأرض بعد ذكر الصخرة وإن كان لابدّ وأن تكون الصخرة في الأرض على وجه التأكيد كما قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ثمّ قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾(٢).

وقيل: هذه الصخرة ليست في الأرض وهي تحت سبع أرضين والقائل السدّيّ قال: إنّها صخرة عظيمة عليها الثور وهي لا في الأرض ولا في السماء وقيل: في الآية تقديم الخاصّ وتأخير العامّ ومثل هذا التقسيم جائز أو المراد أنّه خفاء الشيء يكون بطرق منها أن يكون في غاية الصغر فقوله: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ إشارة إلى الصغر ومنها أن يكون من وراء حجاب فقوله: ﴿فِى صَخْرَةٍ﴾ إشارة إلى هذا المعنى ومنها أن يكون الخفاء بسبب البعد فقوله: ﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارة إلى أبعد البعاد ومنها أن يكون خفاؤه بسبب الظلمة فقوله: ﴿أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى الظلمات فإنّ جوف الأرض أظلم الأماكن. وقوله: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أبلغ من «يعلمها الله» لأنّه يدلّ على العلم والقدرة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: نافذ الحكم والقدرة عالم ببواطن الأمور.

﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ لمّا منع وحذّر ابنه من الشرك وخوّفه بعلم الله بالخفيّات أمره بإظهار التوحيد وهو الصلاة والعبادة لوجه الله مخلصاً وبهذا يعلم أنّ الصلاة كانت في الملل السابقة غير

١ـ سورة الأنعام: ١٦٠.

٢ـ سورة العلق: ١ـ ٢.

أنّ هيئتها اختلفت ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: إذا كملت أنت في نفسك بعبادة الله فكمّل غيرك فإنّ شغل الأنبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا في أنفسهم ويكمّلوا غيرهم. ثمّ قال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ لأنّ من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بالصبر على مكارهه.

قال الشاعر:

وإذا بغى باغ عليك بجهله ... فاقبله بـالمعروف لا بـالمنكر

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ المعزومة الواجبة ويكون المصدر بمعنى المفعول كما تقول: أكلي خبز أي: مأكولي خبز.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ثمّ نهاه عن التكبّر على الناس والخيلاء، ولا تكن مفتخراً عليهم. وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في رؤوسها وأعناقها وتلوي عنقها بسبب ذلك الداء وحاصل المعنى أنّه لا تمل وجهك من الناس تكبّراً ولا تمش بطريق البطر والخيلاء إنّ الله لا يحبّ كلّ متكبّر فخور على الناس.

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: واجعل في مشيك قصدا مستوياً على وجه السكون والوقار والتواضع ولا تختال فيه بل امش بطريق التوسّط لا بطريق المتكبّرين ولا بطريق المتماوت الّذي يري من نفسه الضعف تزهّداً. ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ ولمّا كان الإنسان محتاجاً في أموره كما أنّ الحيوانات كذلك محتاجة في أمورها بالمشي فأقدر الله للإنسان المشي وقد تكون يعجز عن إدراك مطلوبه فيحصل له ذلك المطلوب بالصوت والنداء كما أنّ الحيوانات تشارك الإنسان في تحصيل المطلوب بالصوت كالغنم تطلب السخلة والبقر العجل والناقة الفصيل بالثغاء والخوار والرغاء فإذا كان المشي والصوت مفضيين إلى مقصود واحد فلمّا

أرشده إلى أحدهما أرشده إلى الآخر فقال: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ إشارة إلى التوسّط في الأفعال والأقوال.

ثمّ قال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ لأنّ رفع الصوت يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوّة وآلة السمع على باب القلب والمعنى أنّ أنكر أصوات الحيوانات لصوت الحمير وإلّا فمسّ المنشار بالمبرد وحتّ النحاس بالحديد أشدّ تنفيراً، و﴿أَنكَرَ﴾ أفعل التفضيل من باب أطوع له وأشدّ من أمثاله لأنّ أفعل ليس في باب العيوب والألوان إلّا ما شذّ. وبالجملة فأقبح الأصوات صوت الحمير أوّله زفير وآخره شهيق. وقيل: المعنى أراد صوت الحمير من الناس وهم الجهّال شبّههم بالحمير كما شبّههم بالأنعام وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «هي العطسة المرتفعة القبيحة والرجل يرفع صوته بالحديث رفعاً قبيحاً إلّا أن يكون داعيا ويقرء القرآن»[١].

ثمّ نبّههم سبحانه نعمه على خلقه للمعرفة بوحدانيّة فقال: ﴿لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم وغيرها ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الحيوان والنبات وغير ذلك ممّا تنتفعون وتتصرّفون فيه.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ وأوسع لكم وأتمّ عليكم ﴿نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ فالظاهرة ما لا يمكنكم جحده من خلقكم وإحيائكم وإقداركم على أموركم وخلق الشهوة فيكم وغيرها من ضروب النعم والباطنة ما لا يعرفها إلّا من أمعن النظر وتدبّر فيها.

وقيل: الباطنة مصالح الدين والدنيا ممّا يعلمه الله وغاب عن العباد علمه.

وفي رواية عن ابن عبّاس قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله فقال: «يا ابن عبّاس أمّا ما ظهر فالإسلام وما سوّى الله خلقك وأفاض عليك من الرزق وأمّا ما بطن فستر

١ـ زبدة البيان، ص٣٥٨؛ وبحار الأنوار، ج٦٦، ص٣٦١.

مساوي عملك ولم يفضحك به يا ابن عباس إنّ الله تعالى يقول: ثلاثة جعلتهنّ للمؤمن ولم تكن له الأولى صلاة المؤمنين عليه من بعد انقطاع عمله والثانية جعلت له ثلث ما له أكفّر به عنه خطاياه والثالثة سترت مساوي عمله ولم أفضحه بشيء منه ولو أبديتها لنبذه أهله»[1].

وقيل: الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة الشفاعة، عن عطا. وقيل: الظاهرة نعم الدنيا والباطنة نعم الآخرة. وقيل: الظاهرة نعم الجوارح والباطنة نعم القلب. وقيل: الظاهرة ظهور الإسلام والباطنة الإمداد بالملائكة. وقيل: الظاهرة حسن الصورة وامتداد القامة وتسوية الأعضاء والباطنة المعرفة. وقيل: الظاهرة القرآن والباطنة تأويله ومعانيه وقال الباقر عليه السلام: «النعمة الظاهرة النبي صلى الله عليه وآله وما جاء به من معرفة الله عزّ وجلّ وأمّا النعمة الباطنة ولايتنا أهل البيت وعقد مودّتنا».[2] ويجوز حمل الآية على كلّها لأنّ جميعها نعم الله.

وفي «الأمالي» عن الباقر عليه السلام: «أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: قل: ما أوّل نعمة أنعمك الله بها؟ قال: قد خلقني ولم أك شيئاً مذكوراً قال صلى الله عليه وآله: صدقت فما الثانية؟ قال: أن أحسن إليّ إذ خلقني فجعلني حيّاً لا موتاً قال: صدقت فما الثالثة؟ قال: أنشأني في أحسن صورة وأعدل تركيب قال: صدقت فما الرابعة؟ قال: أن جعلني متفكّراً واعياً لا ساهياً قال: صدقت فما الخامسة؟ قال: أن هداني الله لدينه ولم يضلّني عن سبيله قال: صدقت فما السادسة؟ قال: أن جعل لي مرداً في حياة لا انقطاع لها قال: صدقت فما السابعة؟ قال: أن جعلني مالكاً لا مملوكاً قال: فما الثامنة؟ قال: أن سخّرلي سماءه وأرضه وما فيهما وما بينهما من خلقه قال: صدقت فما التاسعة؟ قال: جعلنا ذكراناً قوّاماً على حلائلنا لا إناثاً قال: صدقت فما بعدها؟ قال: كثرت نعم الله يا رسول الله

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٨٨.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص٨٩؛ وتفسير الصافي، ج٤، ص١٤٨.

فطلبت ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ فتبسّم رسول الله وقال: ليهنئك الحكمة والعلم يا أبا الحسن فأنت وارث علمي والمبيّن لأمّتي ما اختلفت فيه من بعدي»، الحديث[1].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ أي: يخاصم ﴿فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ بما يقوله: ﴿وَلَا هُدٗى﴾ أي: ولا دلالة وحجّة ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ يكون من عند الله واضح، فالعلم تدخل فيه الأشياء الواضحة الّتي تعلم والهداية يدخل فيها الّذي يكون في كتاب من اللّه. وحاصل المعنى أنّ المجادل الجاهل يجادل لا بعلم آتيناه من لدنّا كشفا ولا بهدى أرسلناه إليه وحياً ولا بكتاب يتلى عليه وعظاً.

ووصف الكتاب «بالمنير» لأنّ المجادل قد يجادل عن كتاب ولكن يحرّفه أو الكتاب محرّف كالتوراة كما أنّ المجوس والنصارى يقولون بالتثنية والتثليث عن كتابهم وهو محرّف وغلط فذلك الكتاب غير منير بل مظلم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ
كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى
ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ
ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ
غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾

بيّن سبحانه أنّ مجادلتهم مع كونها من غير علم فهي في غاية القبح فإنّ النبيّ ﷺ يدعوهم إلى العلم وكتاب اللّه وهم يأخذون بكلام آبائهم

١ـ حلية الأبرار، ج٢، ص ٤٢٠؛ وتفسير الصافي، ج٤، ص١٤٨.

و﴿قَالُواْ﴾ نترك القول النازل من اللّه و﴿نَتَّبِعُ﴾ ما قال آباؤنا ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ استفهام على سبيل التعجّب في الإنكار وأدخل على واو العطف همزة الاستفهام على وجه الإنكار، وجواب «لو» محذوف تقديره: هل لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير المشتعل لاتّبعوهم والشيطان يدعوهم إلى تقليد آبائهم وترك اتّباع ما جاءت به الرسل وذلك موجب لهم عذاب النار فهو في الحقيقة يدعوهم إلى النار.

ثمّ قال: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ويخلص دينه للّه ويقصد في أفعاله التقرّب إليه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فيها ويفعلها على موجب العلم والكتاب والشرع والانقياد إلى أمر اللّه هو الإسلام والتسليم وذلك يوجب العلم والعمل ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ التوحيد وولاية عليّ عليه السلام، فقد تعلّق بالوثيقة المحكمة الّتي لا يخشى انفصامها، والوثقى تأنيث الأوثق ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ يعني: وعند اللّه ثواب ما صنع.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ لمّا بيّن حال المسلم رجع إلى بيان حال الكافر أي: لا تحزن إذا كفر كافر ولا يغمّك يا محمّد ذلك ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ ونخبرهم بأعمالهم ونجازيهم بسوء أفعالهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وبمخفيّات الأمور وما يضمره الصدور ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: نعطيهم من متاع الدنيا ونعيمها ما يتمتّعون به مدّة قليلة ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ نصيّرهم مكرهين إلى عذاب يغلظ عليهم ويصعب وحاصل المعنى أنّ بقاءهم في نعيم الدنيا قليل ثمّ وبال كفرهم وتكذيبهم بأن نسلّط عليهم أغلظ عذاب حتّى يدخلوا بأنفسهم عذاباً غليظاً فيضطرّون إلى عذاب النار فراراً من العذاب الأغلظ ومن الملائكة الغلاظ الشداد الّذين يعذّبونهم بمقامع من نار.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بيّن أنّهم معترفون بأنّ اللّه خالق السماوات والأرض غير منكرين له فهذا الإقرار يوجب أن يكون الحمد كلّه له لأنّه خالقهما ويحتاج أنّ كلّ ما في السماوات والأرض أن يعبده ويلزم أن لا يعبد غيره ومع ذلك يشركون غيره معه في العبادة. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا ولا يتعقّلون وليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك مع أنّهم معترفون بأنّ اللّه خالقهما وهذا الاعتراف تكذيب أنفسهم وتصديقك ومع ذلك لا يعلمون.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

ثمّ أكّد بيان خالقيّته ومالكيّته بقوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنّ ما فيهما لمن خلقهما لأنّ من يملك أرضا فكلّ ما حصل من تلك الأرض لصاحب الأرض وهو مالكه فكذلك كلّ ما في السماوات والأرض وحاصل فيهما ومنهما فهو لمالك السماوات والأرض فتحقّق أنّ العبوديّة له خاصّة.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: غير محتاج إلى الحمد ولا ينتفع بحمد الحامدين لكن للحامد منافع، وحميد أي: شكور لأنّه يقضي حوائجكم ومصالحكم، وهو حميد أي: محمود.

لمّا قال الله سبحانه ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وكان ذلك موهما لتناهي ملكه لانحصار ما في السّماوات وما في الأرض بيّن أنّ ما في قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ ويكتب بها والأبحر مدادا لا تفنى عجائب صنع الله وقدرته فالكلمة مفسّرة بالعجيبة لأنّ العجائب بقوله: «كن» كلمة فإطلاق اسم السبب على المسبّب شائع يقول الشجاع لمن يبارزه: أنا موتك، ويقال للدواء في حقّ المريض: هذا شفاؤك. ودليل صحّة هذا هو أنّ الله سمّى المسيح «كلمة» لأنّه كان أمرا عجيباً وصنعاً غريباً.

سبب النزول: قيل: إنّ الآية نزلت في واحد قال للنبيﷺ: إنّك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وتقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فنزلت الآية دالّة على أنّه خير كثير بالنسبة إلى العباد وأمّا بالنسبة إلى الله وعلومه قليل وقيل: واردة في اليهود حيث قالوا: الله ذكر كلّ شيء في التوراة ولم يبق شيء لم يذكره فقال: سبحانه: الّذي في التوراة بالنسبة إلى كلمات الله ليس إلّا قطرة من بحار وأنزل هذه الآية.

ولا تنافي بين التفسير الّذي فسّرنا في صدر الآية مع النزول لأنّ الحاصل من الكلّ أن عجائب صنع الله لا نهاية لها. ووحّد الشجرة وجمع الأقلام إشارة إلى التكثير يعني: ولو أن بعدد كلّ شجرة أقلاماً وتعريف البحر «باللام» لاستغراق الجنس وكلّ بحر مداد ثمّ قوله: ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ إشارة إلى بحار غير موجودة يعني: لو مدّت البحار الموجودة مع سبعة أبحر أخر، وقوله: ﴿سَبْعَةُ﴾ ليس لانحصارها في سبعة وإنّما الغرض الكثرة ولو بألف بحر والسبعة خصّصت بالذكر من بين الأعداد لأنّها تستعمل في عدد كثير في حصر المعدودات بحسب العادة فصارت السبعة كالعدد

الحاصر للكثرات الواقعة في العادة فاستعملت في كلّ كثير.

قال قتادة: معنى الآية لو كان شجر الأرض أقلاماً ومع البحر سبعة أبحر مدادا إذا لانكسرت الأقلام ونفد ماء البحر قبل أن تنفد عجائب الله وخلقه وعلمه[١].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ غالب في اقتداره على جميع ذلك، حكيم يفعل من ذلك ما يليق بحكمته. ثمّ قال سبحانه: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ يا معشر الخلائق ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: كخلق نفس واحدة في قدرته ولا يشقّ عليه ابتداء جميع الخلق ولا إعادتهم بعد إفنائهم.

قيل في النزول: إنّ كفّار قريش قالوا: إنّ الله خلقنا أطوارا نطفة علقة مضغة لحما فكيف يبعثنا خلقاً جديداً في ساعة واحدة فنزلت الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع ما يقوله القائلون ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يضمرونه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ بنقص من اللّيل في النهار ومن النهار في اللّيل وكلّ منهما يتعقّب الآخر أي: إيلاج اللّيل في زمان النهار أي: يجعل زمان اللّيل في النهار ويوجده في وقت كان فيه النهار.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قال: ﴿يُولِجُ﴾ بصيغة المستقبل وقال: في الشمس والقمر بصيغة الماضي لأنّ إيلاج اللّيل في النهار أمر يتجدّد كلّ فصل بل كلّ يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمرّ أي: وذلّل الشمس والقمر على نسق ووتيرة واحدة مقهورة لا يختلفان ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ إلى وقت عيّنه قدرة الله وجعله. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ووجه تعلّق هذا الكلام أنّه لمّا كان اللّيل والنهار محلّ الأفعال بيّن أنّ ما يقع في هذين الزمانين اللّذين هما بتصرّف الله لا يخفى على الله، وقوله تعالى في صدر الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لأنّ الغرض من البيان شرح التكليف والوعظ، والواعظ

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٩١.

يخاطب ولا يعيّن أحدا مثلاً يقول لجمع عظيم: يا مسكين اتّق اللّه أو يقول: يا أيّها الغافل لم تعصي اللّه فهذا الخطاب وأمثاله من هذا القبيل.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ ولمّا ذكر سبحانه تعالى أوصافه الكماليّة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ و﴿سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ وبقوله: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ وفي هذه الصفات إشارة إلى الصفات السلبيّة والثبوتيّة فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ذلك الاتّصاف بأنّه هو الحقّ والحقّ هو الثبوت والثابت اللّه ولا زوال له فهو الحقّ وما عداه الباطل لأنّ الباطل هو الزائل يقال: «بطل ظلّه» إذا زال. واعلم أنّ الحكماء جعلوا الأشياء على أربعة أقسام: ناقص ومكتف وتامّ وفوق التمام فالناقص ما ليس له ما ينبغي أن يكون له كالصبيّ والمريض والأعمى وأمثاله والمكتفي وهو الّذي أعطي ما يدفع به حاجته في وقته كالإنسان والحيوان الّذي له ما يدفع به حاجته في وقتها لكنّها في التحلّل والزوال والتامّ ما حصل له كلّ ما جاز له وإن لم يحتج إليه كالملائكة المقرّبين لهم درجات لا تزداد ولا ينقص اللّه منها لهم شيئاً كما قال جبرئيل: لو دنوت أنملة لاحترقت. لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ وفوق التمام هو الّذي حصل له ما جاز له من صفات الكمال ونعوت الجلال فهو تامّ وحصّل لغيره كلّ ما ينبغي له ويحتاج إليه فهو سبحانه فوق التمام وإلى هذا المعنى أشار قوله: ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ أي: في صفاته وقوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: في ذاته وذلك ينافي أن يكون جسماً في مكان لأنّه يكون حينئذ جسداً مقدّر بمقدار فيمكن فرض ما هو أكبر منه فيكون صغيراً بالنسبة إلى المفروض لكنّه تعالى في ذاته مطلقاً أكبر من كلّ ما يتصوّر فهو المستحقّ للإلهيّة[1].

١ـ تفسير الرازي، ج٢٥، ص١٦١.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)﴾

أي: ألم تعلم أيها الإنسان مثل هذا الأمر الواضح من الآيات الأرضيّة وأشار إلى ذكر السبب والمسبّب بأنّ السفائن تجري بسبب نعمة اللّه وهي الريح الّتي يجري بأمر اللّه وتسوق السفينة إلى حيث تقصدون ولو اجتمع خلق كثير ليجروا الفلك في بعض الجهات المخالفة للرياح لما قدروا عليه.

﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ﴾ آيات قدرته ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في تسخير الرياح والفلك ﴿لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبّار على مشاقّ العبوديّة والتكليف، شكور لنعماء اللّه عليه.

وفي الآية دلالة على أنّ الصبر على البلاء والشكر للنعماء أفضل الطاعات كما قيل: الصبر نصف الإيمان والشكر نصف الإيمان واليقين كلّه. وفي الحديث: «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر».[1] فالمؤمن يكون صبّاراً في الشدّة شكورا في الرخاء فالتكاليف أفعال وتروك والأفعال شكر

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٩٤؛ وتفسير الصافي، ج٤، ص١٥١.

والتروك صبر كما قال ﷺ: «الصوم صبر والأفعال شكر على المعروف»[١].

ثمّ قال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ في الآية بيان وهو أنّ البصير العاقل يدرك آياته وشواهد قدرته ويعترف بإلهيّته ومن هو في بصيرته ضعف لا يدركه أولاً فإذا وقع في شدّة عظيمة مثل أن يغشاه موج وطوفان دعاه مخلصاً وحده ويترك كلّ من عداه وينسى جميع من سواه فإذا نجّاه من تلك الشدّة قد يبقى على تلك الحالة وهو المراد بقوله: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وقد يعود إلى الشرك وهو المراد بقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ والختّار كثير الغدر، والظلل قيل: معناه كالجبال وقيل: كالسحب والختّار الكفور في مقابلة الصبّار الشكور ومعنى المقتصد قيل: هو الّذي انزجر بعض الانزجار من الكفر وأو مقتصد في الإخلاص فبقي معه شيء من الإخلاص ولم يبق على ما كان عليه من الإخلاص وقيل: معنى قوله: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: على طريقة مستقيمة وصلاح من الأمر وقيل: ثابت على إيمانه موف بعهده الّذي عاهد في البحر من الخلاص وروي أنّه لمّا كان يوم فتح مكّة أمّن رسول الله الناس إلّا أربعة نفر. قال ﷺ: «اقتلوهم وإن وجدتموهم معلّقين بأستار الكعبة». وهم عكرمة ابن أبي جهل وعبد اللّه بن بطل وقيس بن ضبابة وعبد اللّه سعد بن أبي سرح فأمّا عكرمة فركب البحر فأصابتهم ريح عاصفة فقال أهل السفينة: أخلصوا فإنّ آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً هاهنا فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر إلّا الإخلاص ما ينجيني في البرّ غيره اللّهم إن لك عهدا إن أنت عافيتني ممّا أنا فيه أن آتي محمّداً حتّى أضع يدي في يده فلأجدنّه عفواً كريماً فجاء فأسلم[٢].

١ـ تفسير الرازي، ج٢٥، ص١٦٢.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص٩٥؛ والدرالمنثور، ج٣، ص٣٠٣.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ يعني: يوم القيامة لا يغني فيه أحد عن أحد ولا والد يغني عن ولده ولا يقضي الوالد عن ولده على أن يكون الفعل من «جزى» وبالمعنى الأول من أجزأ أي: أغنى.

قوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ كلّ امرئ يهمّه نفسه والمقصود قطع طمع من توقّع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة ولا يقدر أن يعينه على الإعانة أو دفع الإهانة بعضهم عن بعض وفي قوله «يجزي» وقوله «جاز» إشارة إلى نكتة لطيفة وهي أنّ الفعل يتأتّى وإن كان ممّن لا ينبغي ولا يكون من شأنه مثل أنّ الإنسان إذا كان يخيط شيئاً يقال: أنّه يخيط ولا يقال: إنّه خيّاط وإنّما يقال له: خيّاط إذا كانت الخياطة حرفة إذا علمت هذا فالابن من شأنه أن يكون جازيا عن والده لما له عليه من الحقوق لكنّ الوالد يجزي عن ولده لما فيه من الشفقة وليس عليه بواجب ذلك ولهذا قال سبحانه: في الوالد «لا يجزي» وقال: في الولد ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: اخشوا يوماً هذا شأنه وهو كائن لوعد اللّه ووعده حقّ لا يتخلّف ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لا يغرّنك الإمهال عن الانتقام وكذا الآمال والأموال عن الإسلام ولا تغترّوا بطول السلامة وكثرة النعمة فإنّها عن قريب إلى الزوال.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ والغرور هو الشيطان ويغرك بالمغفرة من اللّه في عمل المعصية وتترك ما أمرك اللّه به وكلّ شيء غرك حتّى تعصي اللّه فهو غرور شيطاناً كان أو غيره، وفي الحديث، الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والفاجر من اتّبع نفسه هواها وتمنّى على اللّه. وقرئ «غرور» بضم الغين فيكون المعنى لا يغرّنّكم غرور الدنيا بخدعها الباطلة وبشهواتها الموبقة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: استأثر سبحانه به ولم يطّلع عليه أحد من خلقه فلا يعلم وقت قيام الساعة سواه. قال بعض المفسّرين: المقصود إنّ الله نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره وهو كذلك لعلّ المقصود من الآية ليس أنّه غير هذه الأمور الخمسة يعلم غيره أو ما يعلمه سبحانه ولا يعلمه غيره مقصورة بهذه الخمسة لأنّ الله يعلم الجوهر الفرد الّذي كان في كثيب رمل في زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق إلى المغرب كم مرّة ويعلم أنّه أين هو ولا يعلمه غيره فلا وجه لاختصاص هذه الخمسة بالذكر[1].

وإنّما التحقيق في الآية أنه لمّا قال: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ وذكر سبحانه أنّه كائن بقوله: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ فلو قال قائل: فمتى يكون هذا اليوم؟

كما سالوا وقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ فأجاب الله بأنّ هذا العلم ممّا لا يحصل لغير الله ولكن هو كائن.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ فيما يشاء من زمان أو مكان ويعلم نزول الغيث في مكانه وزمانه كما جاء في الحديث: «إنّ مفاتيح الغيب لا يعلمهنّ إلّا الله». وقرأ هذه الآية. ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ من الحوامل أذكر أم أنثى أصحيح أم سقيم واحد أم أكثر. ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗا﴾ أي: ماذا تكسب في المستقبل وما يعلم بقاه غدا وما يعلم تصرّفاته في الأمور. ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُ﴾ أي: في أي: أرض يكون موته وإذا رفع خطوة لا يدري أنّه يموت قبل أن يضع الخطوة أم لا، والمراد بالأرض المكان، وروي أنّ هذه الأشياء الخمسة لا يعلمها على التفصيل غيره تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بها ﴿خَبِيرُۢ﴾ عنها.

١ـ تفسير الرازي، ج٢٥، ص١٦٢.

وفي الآية بيان أنّك أيّها السائل عن الساعة: أيّان مرساها؟ كيف تستعلم وقتها وأنت لا تعلم من نفسك ماذا تكسب غدا مع أنّه فعلك وشغلك وزمانك ولا تعلم أي: مكان تموت ولا تعلم ما في بطنك أيّها الإنسان فكيف تستعلم قيام القيامة؟ وفي قوله: ﴿خَبِيرٌ﴾ إشارة إلى أنّ علمه ليس علماً بظاهر الأشياء فحسب بل هو خبير وعلمه واصل إلى بواطن الأشياء.

تمّت السورة.

سورة السجدة

مكية؛ وتسمّى سورة المضاجع. فضلها: أبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ «الم * تنزيل» و«تبارك الّذي بيده الملك» فكأنّما أحيا ليلة القدر»[1].

وعن جابر كان رسول الله ﷺ لا ينام حتّى يقرأهما[2] قال الليث بن أبي الزبير: ذكرت ذلك لطاوس فقال: فضّلتا على كلّ سورة في القرآن ومن قرأهما كتب له ستّون حسنة ومحي عنه ستّون سيّئة ورفع له ستّون درجة[3].

وروى الحسين بن أبي العلاء عن أبي عبد الله ﷺ قال: «من قرأ سورة السجدة في كلّ ليلة جمعة أعطاه الله كتابه بيمينه ولم يحاسبه بما كان منه وكان من رفقاء محمّد وأهل بيته»[4].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ
لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص٩٧.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ المصدر السابق نفسه.

سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ خبر مبتدء محذوف تقديره: هذا تنزيل الكتاب، أو يجوز أن يكون مبتدء و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبره أي: هذه الآيات ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ الّذي وعدتم به ﴿لَا رَيْبَ﴾ ولا شكّ ﴿فِيهِ﴾ أنّه وحي ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: لا ريب فيه للمهتدين وإن كان قد ارتاب فيه المبطلون، واللفظ بصورة الخبر ومعناه النهي أي: لا ترتابوا فيه والريب أقبح الشكّ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: أيعترفون به أم يقولون: هو مفترى؟ وقيل: ﴿أَمْ﴾ منقطعة أي: بل يقولون افتراه وليس الأمر على ما يقولونه: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾ نزل عليك من ربّك. ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني: قريشاً إذ لم يأتهم نبيّ قبل نبيّنا وإن أتى غيرهم من قبائل العرب مثل خالد بن سنان العبسيّ. وقيل: المراد أهل الفترة بين عيسى ومحمّد ﷺ لم يأتهم نبيّ قبل محمّد في هذه المدّة فكانوا كأنّهم في غفلة عمّا لزمهم من حقوق الله والعبادة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بمعارفهم وما عليهم من حقوق العبوديّة، ومعنى قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ ليس أنّه ما أتاهم من قبل محمّد نذير لهم فإنّهم كانوا من أولاد إبراهيم وجميع أنبياء بني إسرائيل من أولاد أعمامهم لكن لمّا مضت عليهم وعلى غيرهم السنون المتطاولة وأهل عصرهم ضلّوا بالكلّيّة ولم يبق فيهم من يهديهم وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1] أرسله عليهم وعلى غيرهم لينذرهم ويمنعهم عن الضلالة وإنذاره ليس مختصاً بهم. فإن قيل: التخصيص بالذكر يدلّ على الاختصاص.

١ـ سورة الإسراء: ١٥.

فنقول: هذا الكلام فاسد لأنّ التخصيص لا يستلزم نفي ما عداه ولأنّ قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1] لم يفهم منه أنّه لا ينذر غيرهم أو لم يؤمر بإنذار غيرهم ولكن لمّا كان إنذار المشركين أولى لأنّ إنذارهم كان بالتوحيد والحشر وأهل الكتاب لم ينذروا إلّا بسبب إنكارهم الرسالة فكانوا أولى بالذكر فوقع التخصيص لأجل ذلك كذلك هاهنا.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ استدلّ على قدرته على خلق السماوات والأرض وفي الآية إشارة إلى أنّ الرسول عليه الدعوة إلى توحيد الخالق أي: هو الّذي خلق ولم يخلقهما غيره فلا خالق ولا إله غيره فهو واحد ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: فيما لو يقدّر لكان مقداره ستّة أيّام لأنّ قبل الشمس لم يكن ليل ولا نهار لأنّ الإنسان إذا نظر إلى الخلق رآه فعلا والفعل ظرفه الزمان والأيّام أشهر الأزمنة. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وهاهنا تحقيق شريف وهو أنّ مذهب العلماء في أمثال هذه الآيات المتشابهات على وجهين: أحدهما ترك التعرّض إلى بيان المراد، والثاني التعرّض إليه، والأوّل أسلم وإلى الحكمة والسلام أقرب لأنّ من قال: إنّي لا أتعرّض إلى بيان هذا أو لا أعرف المراد في هذا لا يكون حاله إلّا حال من لا يتكلّم عند عدم وجوب الكلام أو لا يعلم شيئاً لم يجب علمه مثلاً كما في الأصول بأنّ الحشر والاعتراف به والعلم بوقوعه واجب قطعا لكنّ العلم بأنّه متى يكون غير واجب وكذلك الله يجب معرفة وجوده ووحدانيّته واتّصافه بصفات الجلال ونعوت الكمال على سبيل الإجمال ويجب تعاليه سبحانه عن وصمات الإمكان والحدوث وصفات النقصان ولكنّ العلم بجميع صفاته كما هي ممّا لا يجب العلم بها فصفة الاستواء في الآية مثلاً ممّا لا يجب العلم بها

١ـ سورة الشعراء: ٢١٤.

فمَن ترك التعرّض إليه لم يترك واجباً وأمّا من يتعرّض إليه لعلّ أن يخطى فترك التعرّض من هذا القبيل أسلم غاية ما في الباب أنّه لا يعلم أمرا لكنّ المتعرّض لعلّ أن يقع في جهل مركّب وعدم العلم والجهل المركّب نسبتهما كالسكوت والكذب والسكوت خير من الكذب.

وليس لقائل أن يقول بأنّ اللّه بيّن كلّ ما أنزله لأنّ تأخير البيان إلى وقت الحاجة جائز ولعلّ في القرآن ما لا يحتاج إليه أحد غير نبيّه فبيّن له لا لغيره وهو يعلم ولكن هذا المذهب له شرط وهو أن ينفي بعض ما يعلمه قطعا من أمور يوجب نقصاً في ذاته كالاستقرار المكانيّ في معنى ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ أو الجلوس مثلاً فيجب القطع بنفي ذلك التوقّف هذا بيان مذهب التاركين للتعرّض في مثل هذه الآيات.

والمذهب الثاني خطر ومن يذهب إليه فريقان: أحدهما من يقول في معنى الآية: ظاهر الآية وهو القيام والانتصاب أو الاستقرار المكانيّ وهو جهل محض بل كفر وبدعة. وثانيهما: الاستيلاء والمراد أنّه سبحانه استوى على ملكه واستولى على عرشه كما يقال للرجل المقهور الهارب: فلان هارب لم يبق له مكان مع أنّ المكان واجب له كذلك يقال للقادر القاهر: «هو متمكّن على عرش عظمته وسرير مملكته وسلطانه وله عرش» وإن كان التنزّه عن المكان واجب له.

إذا علمت هذه المقدّمات فعلى هذا يكون معنى ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أنّ اللّه تعالى خلق السماوات والأرض ثمّ القصّة فثمّ استعملت للحكاية لا للمحكيّ أي: خلق السماوات والأرض ثمّ هاهنا ما هو أعظم منه استوى على العرش وخلقته فإنّ خلقه أعظم من الكرسيّ والسماوات والأرض وهذا كما يقول القائل: فلان أكرمني وأنعم عليّ مراراً ويحكي عنه

مكارمه ثمّ يقول: إنّه ما يعرفنيّ وأحسن إليّ. وقد جاء ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنى استولى نقلا واستعمالا أمّا النقل فمنقول كثيراً في كتب اللغة منها في ديوان الأدب وغيره ممّا يعتبر النقل عنه وأمّا الاستعمال، قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

فعلى هذا لا يفيد معنى الآية أنّه سبحانه في مكان.

وفي الآية بيان آخر وهو أنّ المراد من الاستقرار على فرض معنى الاستقرار لا يفيد أنّه سبحانه في مكان وذلك لأنّ الإنسان يقول: استقرّ رأي فلان على الخروج ومعلوم أنّه لا يريد أنّ الرأي في مكان وهو الخروج لما أنّ الرأي لا يتصوّر ولا يجوز فيه أن يقال: إنّه متمكّن أو هو ممّا يدخل في مكان، إذا علم هذا فحينئذ فهم التمكّن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكّن حتّى إذا قال: استقرّ زيد على الفلك أو على التخت يفهم منه التمكّن وكونه في مكان ولكن إذا قال القائل: استقرّ الملك على فلان لا يفهم أنّ الملك يحيّز في فلان فقول القائل: «اللّه استقرّ على العرش» لا ينبغي أن يفهم منه كونه في مكان مادام لم يعلم أنّه ممّا يجوز عليه أن يكون في مكان.

والّذي يدلّ على أنّه لا يجوز كون العرش مكاناً له وجوه من القرآن والقرآن يبيّن بعضه بعضا: أحدها ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ وكلّ ما هو في مكان فهو في بقائه محتاج إلى مكان لأنّ الحيّز إن لم يكن لا يكون المتحيّز باقياً فالمتحيّز ينتفي عند انتفاء الحيّز وكلّما ينتفي عند انتفاء غيره فهو محتاج إليه. الثاني قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[1] فالعرش يهلك وكذلك كلّ مكان فلا يبقى وهو سبحانه يبقى. الثالث قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾[2] ووجه

١ـ سورة القصص: ٨٨.

٢ـ سورة الحديد: ٤.

التمسّك به هو أنّ «على» إذا استعمل في المكان يفهم منه عليه بالذات كقولنا: فلان على السطح، وكلمة «مع» إذا استعملت في متمكّنين يفهم منها اقترانهما بالذات كقولنا: زيد مع عمرو وإذا استعمل هذا فإن كان اللّه في مكان ونحن متمكّنون فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ كان ينبغي أن يكون للاقتران وليس كذلك بل معنى المعيّة في الآية العلم والنصرة والإعانة فكذلك ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ أي: حكمه ونظره عليه.

فإن قيل: كلمة «مع» تستعمل في هذا المعنى أي: معنى النصرة والإعانة يقال: فلان مع فلان أي: ناصره ومعينه.

فنقول: إنّ كلمة ﴿عَلَى﴾ أيضاً تستعمل في الحكم والنظر يقال: لو لا فلان على أملاك فلان لما حصل له شيء ولا أكل من حاصلها ومعناه الإشراف والنظر فكيف لا تقول في «اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ» إنّه سبحانه استوى بحكمه كما نقول: معنا بحكمه ونصرته؟

ثمّ إنّك إذا فسّرت قوله: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ على الاستقرار والملكان فأمّا إن حصل عليه بعد ما لم يكن عليه فقبل الاستقرار والتمكّن إمّا أن يكون في مكان أولم يكن فكان ففي صورة الكون في المكان يلزم أن يكون المكان أزليّاً فيلزم القول بتعدّد القديم وكون سماء قديم من السماوات وصاحب هذا القول فلسفيّ لا إسلاميّ وعلى القول الثاني لابدّ من القول بالحركة والانتقال والتغيّر وكلّ هذه يفضي إلى الحدوث وما ثبت حدوثه ثبت زواله فالقول بالتحيّز باطل إجماعا.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: ليس لكم من دون عذابه وليّ وقريب ينفعكم ويردّ عذابه عنكم ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يشفع لكم وناصر ينصركم من دون اللّه ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ وتتفكّرون فتعلموا صحّة ما بيّنّاه لكم.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: يدبّر الأمور ويقدّرها على حسب إرادته فيما بين السماء والأرض وينزله مع الملك إلى الأرض ولمّا بيّن سبحانه الخلق في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بيّن في هذه الآية عالم الأمر كما قال في موضع آخر: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ وأمره ينزل من السماء على عباده من أمور تقديرهم وأحكامهم من الامور التكليفيّة والتكوينيّة وينزله من الملك إلى الأرض. ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ الملك إلى المكان الّذي أمره اللّه أن يصعد إليه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة ممّا يعدّه البشر خمسمائة عام نزوله من السماء إلى الأرض وخمسمائة صعوده إلى السماء.

وحاصل المعنى أنّه ينزل الملك بالأمر والوحي والتقدير إلى الأرض ثمّ يصعد الملك ويعرج إليه أي: إلى الموضع الّذي يكون أن يعرج إليه وعروج الملائكة كذهاب إبراهيم حيث قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[1] أي: إلى أرض الشام الّتي أمرني بالذهاب إليها وكذلك قوله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[2] يعني: إلى المدينة ولم يكن سبحانه بالشام ولا بالمدينة.

وقيل: معناه أنّه يدبّر سبحانه ويقضي أمر كلّ شيء لألف سنة في يوم واحد ثمّ يلقيه إلى الملائكة فإذا مضى الألف يدبّر أمر ألف سنة أخرى في يوم وكذلك أبداً.

وقيل: معناه يدبّر أمر الدنيا فينزل القضاء والتدبير من السماء إلى الأرض مدّة أيّام الدنيا ثمّ يرجع الأمر ويعود التدبير إليه بعد انقضاء الدنيا وفنائها حتّى ينقطع أمر الأمراء وحكم الحكّام وينفرد اللّه بالتدبير في يوم كان

١ـ سورة الصافات: ٩٩.

٢ـ سورة النساء: ١٠٠.

مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة فالمدّة المذكورة مدّة يوم القيامة إلى أن يستقرّ الخلق في الدارين عن ابن عبّاس أيضاً.

فأمّا قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يوم القيامة فإنّه أراد سبحانه على الكافر جعل الله ذلك اليوم عليه مقدار خمسين ألف فإنّ المقامات في يوم القيامة للطبقات مختلفة.

ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾

ولمّا ذكر سبحانه عالم الأشباح من قبل بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ وعالم الأرواح بقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: ذلك الّذي يفعل ويقدّر هو العالم بما يشاهد وما لا يشاهد وبما غاب عن الخلق وما حضر ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب المنيع في ملكه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأهل طاعته ثمّ قال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ وهو سبحانه كذلك لأنّك إذا نظرت إلى الأشياء رأيتها على ما ينبغي صلابة الأرض للنبات والثبات ولطافة الهواء للاستنشاق والاسترواح ولقبول الانشقاق وسهولة الاستطراق وحركة النار إلى فوق لأنّها لو كانت مثل الماء في السيلان والحركة يمنة ويسرة لاحترقت الدنيا فخلقت طالبة لجهة فوق حيث لا شيء هناك يقبل الاحتراق وفي الآية دلالة على أنّ الكفر والقبائح لا يجوز أن يكون من خلقه.

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ أي: ابتدأ خلق آدم الّذي هو أوّل البشر من طين كان تراباً ثمّ صار طيناً ثمّ صلصالاً ثمّ حيواناً.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ أي: نسل الإنسان الّذي هو آدم يعني: ولده من ﴿سُلَالَةٍ﴾ وهي الصفوة الّتي تنسلّ من غيرها ويسمّى ماء الرجل سلالة لانسلاله من صلبه ﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: ضعيف حقير «مهان» لا ثمن له وإنّما يصير جليلاً إذا صار ذا عمل وعلم.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ أي: جعله بشراً سوياً معدلاً ورتّب جوارحه ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ وإضافة الروح إلى نفسه كإضافة البيت إليه للتشريف والنصارى يفترون على اللّه الكذب ويقولون بأنّ عيسى روح اللّه فهو ابن ولا يعلمون أنّ كلّ أحد روحه روح اللّه بقوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾[1] أي: الروح الّتي ملكي كما يقول القائل: داري وعبدي ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ مخاطباً ولم يخاطب من قبل لأنّ الخطاب يكون مع الحيّ لأنّ الخطاب وقع بعد نفخ الروح، وجعل لكم أيّها الخلق السمع والأبصار لتسمعوا المسموعات وتبصروا المبصرات وجعل لكم القلوب لتعقلوا بها ومع ذلك ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ «ما» تأكيديّة مثل «هو» فإمّا بيان لكفرهم بتلك النعم بطريق الاعتراض أي: شكرا قليلاً أو زماناً قليلة تشكرون ويمكن أن يكون القلّة إشعاراً للنفي.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ كلام مسوق لبيان أباطيلهم وعدم شكرهم بتلك النعم فقالوا: ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا﴾ وغبنا في الأرض وصرنا تراباً وخلطنا بترابها بحيث لا نتميّز من التراب، وقرئ بالصاد المهملة من صلّ اللحم إذا أنتن وكلّ شيء غلب عليه غيره حتّى يغيب فيه فقد ضلّ. وقيل: معنى ﴿ضَلَلْنَا﴾ أي: هلكنا. ﴿أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أنبعث ونحيا؟ استفهام بمعنى الإنكار كيف نخلق جديدا ونعاد بعد أن هلكنا وتفرقت أجسامنا؟ ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ

١ـ سورة الحجر: ٢٩.

رَبِّهِمْ﴾ أي: هؤلاء الكفّار ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بما وعدهم من الثواب وأوعدهم من العقاب ﴿كَٰفِرُونَ﴾ وجاحدون فلهذا قالوا: هذا القول.

قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾

ثمّ أمر نبيّه ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: لابدّ من الموت ثمّ من الحيات بعد الموت وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ وبقوله: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أنّه لا يغفل عنكم وإذا آن أجلكم لا يؤخّركم ملك الموت إذ لا شغل له غير هذا والتوفّي الاستيفاء يقال: استوفى الدين إذا قبضه على كماله والملك وكّل بقبض أرواحكم عن ابن عبّاس قال: جعلت الدنيا بين يدي ملك الموت مثل جام يأخذ منها ما يشاء إذا قضى عليه الموت من غير عناء وخطوته ما بين المغرب والمشرق. وقيل: إنّ له أعوانا كثيرة من ملائكة الرحمة والعذاب ويؤيّد هذا القول قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[2] فعلى هذا المراد بالملك الجنس وأمّا إضافة التوفّي إلى نفسه سبحانه في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[3] فلأنّه خلق الموت.

١ـ سورة الأنعام: ٦١.

٢ـ سورة النحل: ٢٨.

٣ـ سورة الزمر: ٤٢.

وروى عكرمة عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «الأمراض والأوجاع كلّها بريد الموت ورسل الموت فإذا جاء الأجل أتى ملك الموت بنفسه فقال: يا أيّها العبد كم خبر بعد خبر وكم رسول بعد رسول وكم بريد بعد بريد؟ أنا الخبر الّذي ليس بعدي خبر وأنا الرسول أجب ربّك طائعاً أو مكروها فإذا قبض روحه وتصارخوا عليه قال: على من تصرخون وعلى من تبكون؟ فو الله ما ظلمت له أجلا ولا أكلت له رزقا بل دعاه ربّه فليبك الباكي على نفسه فإنّ لي فيكم عودات حتّى لا أبقيكم»[1].

وبالجملة ثمّ إنّ روح الزكيّ الطاهر بعد القبض عند الملائكة مثل الشخص عند أهله والخبيث الفاجر كأسير بين قوم لا يعرفهم ولا يعرف لسانهم والأوّل ينمو ويزيد صفاؤه وقوّته والآخر يزداد شقاؤه وكدورته. والحكماء يقولون: إن الأرواح الطاهرة تتعلّق بجسم سماويّ خير من بدنها وتكمل به والأرواح الفاجرة لا كمال لها بعد التعلّق الثاني.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: عند رجوعهم إلى ربّهم ترى المجرمين حالهم واستخجالهم لترى عجبا ويمكن أن يكون خطاباً للرسول تشفّياً لصدره فإنّهم يؤذونه بالتكذيب ويحتمل أن يكون عاماً مع كلّ أحد قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عند ما يتولّى الله حساب خلقه يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: أبصرنا الرشد وصدق وعدك وسمعنا منك تصديق الرسل أو المعنى أنّا كنّا بمنزلة العمى فأبصرنا وبمنزله الصمّ فسمعنا ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ فارددنا إلى دار التكليف ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ اليوم لا نرتاب شيئاً من الحقّ والرسالة.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ بأن نفعل أمراً من الأمور يلجئهم إلى الإقرار بالتوحيد ولكن ذلك يبطل الغرض بالتكليف لأنّ المقصود به

١ـ تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٢٢٥.

استحقاق الثواب والإلجاء لا يثبت معه استحقاق الثواب، قال الجبّائي: ويجوز أن يكون المراد به ولو شئنا لأجبناهم إلى ما سألوه من الردّ إلى دار التكليف ليعملوا بالطاعات. ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أن أجازيهم بالعقاب ولا أردّهم وقيل: معناه ولو شئنا لهديناهم إلى الجنّة ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ من كلا الصنفين بكفرهم بالله وكفرانهم نعمته والقول من الله بمنزلة القسم فلذلك أتى بجواب القسم وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ أي: وقع القول ﴿مِنِّي﴾ وهو قوله تعالى: لإبليس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١] هذا من حيث النقل. وأمّا بحسب وجه العقل أنّه تعالى لم يفعل فعلا خالياً عن الحكمة وهذا أمر متّفق عليه والخلاف في أنّه هل قصد الفعل للحكمة أو فعل الفعل لزمته الحكمة لا بحيث تحمله الحكمة على الفعل وإذا علم أنّ فعله لا يخلو عن الحكمة وحكمة أفعاله بأسرها لا تدرك على سبيل التفصيل فكلّ ضرب يكون في عالم الكون والفساد يخرج من تقسيم عقليّ إلى ثلاثة وهو أنّ الفعل إمّا أن يكون خيراً محضا أو شرّا محضا أو خيراً مشوبا بشرّ والقسم الوسط ما خلق أصلاً فانحصرت القسمة إلى قسم وهو خير محض كعالم الملائكة والأنبياء والعالم العلويّ وإلى قسم فيه خير وشرّ وهو عالمنا وهو العالم السفليّ.

ثمّ إنّ العالم السفليّ الّذي هو عالمنا وإن كان الخير والشرّ موجودين فيه لكنّه من القسم الّذي خيره غالب فإنّك إذا قابلت المنافع بالمضارّ تجد المنافع أكثر وإذا قابلت الشرّ بالخير تجد الخير أكثر حتّى أنّ الكافر لا يمكن أن يكون وجوده شرّا محضا غاية ما في الباب أنّ الكفر يحيط خيره كفره ولا ينفعه ويستحيل أن لا يوجد منه خيراً مثلاً لا يسقي العطشان شربة ولا يطعم

١ـ سورة ص: ٨٥.

الجائع لقمة خبز ولا يذكر ربّه في عمره وكيف يكون كذلك وهو في زمن صباه كان مخلوقاً على الفطرة المقتضية للخيرات وقد اختار الكافر بسوء اختياره وقلّة تدبّره كفره فقد جعل الشرّ لنفسه لسوء اختيار فإذا الشر الّذي خلط بالخير أو غلب على الخير في الكافر ليس من فعل اللّه فما فعله سبحانه في الكلّ خير محض فيرجع القسم الثاني إلى القسم الأول والفاعل صيّر الخير شراً فحينئذ ترك الخير الكثير للشّر القليل لا يناسب الحكمة. فإن قال قائل: فاللّه قادر على تخليص هذا القسم من الشرّ بحيث لا يوجد فيه شرّ.

فالجواب أنّ معنى هذا الكلام أن يكون اللّه مقهورا بدفع ما أفسدته أنا وتفسده أنت ويكون يمنع غيره قهرا عن القبيح وهذا خلاف مقتضى عالم التكليف والخلق والأمر كما قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾[1].

﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي: حالاً مجموعين من الجنّ والإنس لا من الملائكة ولا يقتضي ذلك دخول الكلّ لأنّ القائل يقول: ملأت الكيس من الدراهم، ولا يلزم أن لا يبقى دراهم خارج الكيس.

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ ﴾ يقال لهؤلاء الّذين طلبوا الرجعة إلى دار التكليف إذا جعلوا في العذاب: فذوقوا بما فعلتم فعل من نسي جزاء هذا اليوم فتركتم ما أمركم اللّه، والنسيان الترك والإشارة بقوله: ﴿ هَذَا ﴾ إشارة إلى العذاب ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ الّذي لا فناء له بسبب ما ﴿ كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والمعاصي.

ثمّ أخبر عن حال المؤمنين فقال: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي: يصدّق بالقرآن وسائر حججنا الّذين إذا وعظوا بها تذكّروا واتّعظوا بمواعظها بأن سقطوا على

١ـ سورة السجدة: ١٣.

جباههم ساجدين شكرا للّه على أن هداهم بمعرفته ونزّهوه عمّا لا يليق به من الصفات وعظّموه وحمدوه وهم لا يستكبرون عن عبادته ولا يأنفون أن يعفروا وجوههم صاغرين له ومن كان قلبه خاشعا ولسانه ذاكرا ولا يستكبر عن عبادة ربّه فهو مؤمن حقّاً. ثمّ بيّن أيضاً صفاتهم بقوله تعالى:

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ
أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

التجافي تعاطي الارتفاع عن الشيء وقال عبد اللّه بن رواحة يصف النبيّ صلى الله عليه وآله:

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

أي: ترتفع جنوبهم عن مواضع اضطجاعهم لصلاة الليل وهم المتهجّدون بالليل الّذين يقومون عن فرشهم للصلاة وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام[1].

وروى الواحديّ بالإسناد عن معاذ بن جبل قال: بينما نحن مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله في غزوة تبوك وقد أصابنا الحرّ فتفرّق القوم فإذا رسول اللّه صلى الله عليه وآله أقربهم منّي فدنوت منه فقلت: يا رسول اللّه أنبئني بعمل يدخلني الجنّة ويباعدني من النار قال: **«لقد سألت عن عظيم وإنّه ليسير على من يسّره اللّه تعبد اللّه ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدّي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان»**. قال: **«وإن شئت أنبئتك بأبواب الخير»**. قال: قلت يا رسول اللّه: أجل قال: **«الصوم**

١ـ زبدةالبيان، ص٦٢، ومجمع البيان، ج٨، ص١٠٧.

جنّة والصدقة تكفّر الخطيئة وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه الله».[1] ثمّ قرأ هذه الآية. وبالإسناد عن بلال قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بقيام الليل فإنّه دأب الصالحين قبلكم وإنّ قيام الليل قربة إلى الله تكفير للسيّئات ومطردة للداء عن الجسد»[2].

وقيل: هم الّذين يصلّون ما بين المغرب والعشاء الآخرة وهي صلاة الأوّابين. وقيل: هم الّذين يصلّون العشاء والفجر بالجماعة وفي الآية الأولى وهي ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾[3] إشارة إلى المرتبة العالية وهي العبادة لوجه الله مع الذهول عن الخوف والطمع وفي الثانية إشارة إلى المرتبة الأخيرة وهي العبادة للخوف كمن يخدم ملكاً مخافة سطوته أو يخدم الملك الجواد طمعاً في برّه.

ثمّ بيّن جزاء فعلهم بقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ يعني: بما تقرّ العين عنده ولا يلتفت إلى غيره ولا يعلم أحد ما جيء لهؤلاء الّذين ﴿ذُكِّرُوا﴾ قال ابن عبّاس «ما» لا تفسير له فالأمر أعظم وأجلّ ممّا يعرف تفسيره وقد ورد في الصحيح أنّه قال: «إنّ الله يقول: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بل هو ممّا اطّلعتكم هذا عليه اقرءوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ » رواه البخاريّ ومسلم جميعاً.

وقد قيل في فائدة الإخفاء وجوه: أحدها: أنّ الشيء إذا عظم خطره وجلّ قدره لا يستدرك صفاته على كنهه إلّا بشرح طويل ومع ذلك فيكون

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٠٧. وتفسير نور الثقلين، ج٤، ص٢٢٩.

٢ـ الدعوات، قطب الدين الراوندي، ص٧٦؛ وبحار الأنوار، ج٨٤، ص١٥٥.

٣ـ سورة السجدة: ١٣.

إبهامه أبلغ، وثانيها: أنّه جعل ذلك في مقابلة صلاة الليل وهي خفيّة فكذلك ما بارأها من جزائها ويؤيّد ذلك ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**ما من حسنة إلّا ولها ثواب مبيّن في القرآن إلا صلاة الليل فإنّ الله عزّ اسمه لم يبيّن ثوابها لعظم خطرها قال:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ....﴾». وقرّة العين رؤية ما تقرّ به العين يقال: أقرّ الله عينك أي: صادف فؤادك ما يرضيك والمستبشر الضاحك يخرج من عيونه دمع بارد والمحزون المهموم يخرج من عينيه دمع حارّ ويقال: فلان سخين العين وفلان قرير العين.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ استفهام إنكاريّ أي: أيكون من هو مصدّق بآيات الله على الحقيقة عارف بالله عامل بما أوجبه الله عليه مثل من هو فاسق خارج عن طاعة الله مرتكب لمعاصي الله ﴿لَّا يَسْتَوُونَ﴾ لأنّ منزلة المؤمن درجات الجنان ومنزلة الفاسق دركات النيران.

ثمّ فسّر سبحانه ذلك بقوله: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ يأوون إليها ﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عطاء وتشريفاً ينزله الله فيها كما ينزل الضيف يعني: إنّهم في حكم الأضياف.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ وخرجوا من الدين والطاعة ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ ويأوون إلى النار ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ وهمّوا بالخروج منها لما يلحقهم من ألم العذاب ﴿أُعِيدُوا﴾ وردّوا ﴿فِيهَا﴾ بالمقامع.

وقيل لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ وتجحدونه وفي هذا دلالة على أنّ المراد بالفاسق هنا الكافر المكذّب قال ابن أبي ليلى: نزل قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ في عليّ بن أبي طالب عليه السلام ورجل من قريش وقال: غيره: في عليّ بن أبي طالب عليه السلام والوليد بن عقبة فالمؤمن عليّ والفاسق الوليد وذلك أنّه قال لعليّ عليه السلام: أنا أبسط منك لساناً

واحد منك سناناً ؛ فقال عليه السلام: «لست كما تقول يا فاسق»[1]، قال قتادة: لا والله ما استووا لا في الدنيا ولا عند الموت ولا في الآخرة[2].

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

ثمّ أقسم سبحانه في هذه الآية فقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أمّا العذاب الأكبر فهو عذاب جهنّم في الآخرة وأمّا العذاب الأدنى ففي الدنيا. واختلف فيه فقيل: إنّه المصائب والمحن في الأنفس والأموال عن ابن عبّاس وجماعة وقيل: هو عذاب بدر بالسيف وقيل: هو ما ابتلوا به من الجوع سبع سنين بمكّة حتّى أكلوا الجيف والكلاب وقيل: هو الحدود وقيل: هو عذاب القبر عن أبي عبد الله عليه السلام[3] والأكثر في الرواية عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: «أنّ ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ خروج دابّة الأرض والدجّال»[4].

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الحقّ ويتوبوا من كفرهم وقيل: ليرجعوا الآخرون عن أن يذنبوا مثل ذنوبهم.

فإن قيل: إنّ «لعلّ» للترجّي والله سبحانه محال ذلك عليه؟ معناه لنذيقهم

١ـ مناقب أمير المؤمنين عليه السلام، ج ١، ص ١٣١؛ والتبيان، ج ٨، ص ٣٠٥؛ وشواهد التنزيل، ج ١، ص ٥٨٠.

٢ـ مجمع البيان، ج ٨، ص ١٠٩.

٣ـ بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٥٦؛ ومجمع البيان، ج ٨، ص ١١٠.

٤ـ بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٥٦؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٢٣٢.

إذاقة الراجين كقوله: إنّا أنسيناكم، يعني: تركناكم كما يترك الناسي حيث لا يلتفت إليه أصلاً فكذلك هاهنا نذيقهم على الوجه الّذي يفعل بالراجي من التدريج وكلّ فعل يتلوه أمر مطلوب يصحّ تعليل ذلك الفعل بذلك الأمر ولو علم وقوع ذلك المطلوب أو علم سبحانه وقوعه وهذا مثل قوله: ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾(١) مع أنّ الجزم به لازم غاية ما في الباب أنّ الرجاء في أكثر الأمر استعمل فيما لا يكون الأمر معلوما فأوهم أن لا تجوز الإطلاق في حقّ اللّه وليس كذلك بل الترجّي يجوز في حقّ اللّه ولا يلزم منه عدم العلم وإنّما يلزم عدم الجزم بناء على ذلك الفعل وعلم اللّه ليس مستفاد من الفعل.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ يعني: لنذيقهم ولا يرجعون فيكونون قد ذكّروا بآيات اللّه من النعم أولاً والنقم ثانيا ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم أحد لأنّ من يكفر باللّه ظالم وأنّ اللّه لذوي البصائر ظاهر لا يحتاج المستنير الباطن إلى شاهد يشهد عليه بل هو شهيد على كلّ شيء كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(٢) ولذا قال العارفون: من لم يكفه اللّه فسائر الموجودات كاف في شواهد وجوده سبحانه وقدرته فالأول: الّذي لا يحتاج إلى غير اللّه هو عدل والثاني: الّذي يحتاج إلى دليل فهو متوسّط، والثالث: الّذي لم تكفه الموجودات الآفاقيّة والأنفسيّة ظالم، والرابع: الّذي لم تقنعه نعم اذيق العذاب في الدنيا لا يرجع عن ضلالته فلا أظلم منه أصلاً فقال: ومن أظلم ممّن ذكّر بآيات ربّه ثمّ أعرض عنها جانبا ولم ينظر فيها.

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الّذين يخالفون اللّه ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ بأن يحلّ

١ـ سورة العنكبوت: ٣٦.

٢ـ سورة فصلت: ٥٣.

العذاب بهم فكيف بمن كان أظلم من كلّ ظالم؟

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ والمراد بالكتاب التوراة فلا تشكّ من لقائك موسى كما أنّه ﷺ لقاه ليلة الإسراء به ﷺ عن ابن عبّاس في الحديث أنّه ﷺ قال: «ليلة أسري بي رأيت موسى بن عمران رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنّه من رجال شنوءة ورأيت عيسى رجلاً مربوعاً المائل إلى الحمرة والبياض سبطا الرأس فعلى هذا قد وعده سبحانه أنّه سيلقى موسى قبل أن يموت»[1].

وقيل: المعنى فلا تكن من لقاء موسى إيّاك في الآخرة.

وقيل: معناه فلا تكن في شكّ من لقاء الأذى كما لقي موسى الأذى، فحينئذ يكون المعنى فلا تك في مرية ممّا تلقى من الأذى كما لقي موسى من قومه فإنّه لقي ما لقيت واوذي كما أوذيت فعلى هذا اختصاص موسى بالذكر إشعار لمعنى وهو أنّ سائر الأنبياء لم يؤذيه قومه إلّا من لم يؤمن بهم وأمّا الّذين آمنوا فلم يخالفوه غير قوم موسى فإنّ من لم يؤمن به أذاه مثل فرعون ومن آمن به من بني إسرائيل أيضاً أذاه بالمخالفة وطلبوا منه أشياء مثل طلب الرؤية وغيره.

ثمّ بيّن سبحانه له ﷺ أنّ هدايتك لقومك غير خالية عن المنفعة كما أنه لم تخل هداية موسى فقال: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ جعل الله كتاب موسى هدى وجعل من بني إسرائيل أنبياء وأئمّة في الدين كذلك نجعل كتابك هدى ومن ذرّيّتك وأمّتك أصحابا يهدون الناس.

ثمّ بيّن ذلك أنّ ذلك يحصل بالصبر فقال: ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فكذلك اصبروا وتحمّلوا فإنّ وعد الله حقّ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ويحكم بين المؤمن والكافر والفاسق في مختلفاتهم من التصديق والتكذيب ومن أعمالهم وأمور دينهم.

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١١١ ؛ وجامع البيان، للطبري، ج٢١، ص١٣٥.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

ولمّا أعاد ذكر الرسالة في الآية السابقة أعاد ذكر معرفة التوحيد فقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ وفاعل ﴿يَهْدِ﴾ مضمر يفسّره ويدلّ عليه ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: ما هداهم إلى معرفتنا أهلاك من أهلكناه، والواجب من الهدية ما يؤدي إلى ما ليس للعبد عنه غني في دينه أي: أولم يبصرهم ويتبين لهم أهلاّكنا قرونا قبلهم بسبب كفرهم بالله فهلكوا وأبادهم الله ويمشون هؤلاء في مساكنهم وديارهم ويرون آثارهم. وقيل: معناه: أنّا أهلكناهم وهم مشاغيل بنفوسهم وكانوا يمشون في مساكنهم وجاءهم العذاب والهلاك بغتة. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: في أهلاّكنا إيّاهم دلالات على الحقّ ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ هؤلاء الكفّار ما يوعظون به من المواعظ.

ثمّ نبّههم على وجه آخر فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ويعلموا ﴿أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ بالمطر والثلج والأنهار والعيون وسيلان طبيعة الماء ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ والجرز فيه أربع لغات بضمّ الجيم والراء وبفتحهما وبضمّ الجيم وإسكان الراء وفتح الجيم وإسكان الراء أي: الأرض المقطوع عنها الماء اليابسة الّتي لا نبات فيها ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ بسبب سوق الماء منها ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من ذلك الزرع ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾ أولاً ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ أي: الأرض تنبت ما يأكله الإنسان والحيوان ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ نعم الله عليهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قيل: المراد فتح مكّة وقيل: هو القضاء بعذابهم في الدنيا وهو يوم «بدر» وقيل: هو الحكم بالثواب والعقاب يوم القيامة وكانوا يسمعون المسلمين يستفتحون بالله عليهم فقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي: متى هذا الحكم فينا. ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ يوم ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ بيّن سبحانه أنّ يوم الفتح يكون يوم القيامة وذلك اليوم لا ينفع الكافرين إيمانهم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يؤخّر عنهم العذاب كما أنّ الّذين قتلوا يوم بدر لم ينفعهم إيمانهم بعد القتل.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يا محمّد فإنّه لا ينجح الدعاء والوعظ ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ حكم الله فيهم وانتظر موعدي لك بالنصر على أعدائك ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ بك حوادث الزمان من موت أو قتل فيستريحوا منك أو انتظر النصر من الله فإنّهم ينتظرون النصر من آلهتهم.

تمّت السورة.

سُورَةُ الأحزاب

مدنية. فضلها: أبيّ بن كعب قال: «**ومن قرأها وعلّمها أهله وما ملكت يمينه أعطي الأمان من عذاب القبر**»(1).

وروى عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**من كان كثير القراءة لسورة الأحزاب كان يوم القيامة في جوار محمد صلى الله عليه وآله**»(2).

وأمر سبحانه نبيّه في تختيم تلك السورة بالانتظار وأمره في مفتتح هذه السورة أن يكون في انتظاره متيقّناً فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن
قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ
أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي
السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ

1ـ مجمع البيان، ج8، ص115؛ وتفسير نور الثقلين، ج4، ص233.

2ـ المصدر السابق نفسه.

﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴿٥﴾﴾

وهاهنا تحقيق وهو أنّ الفرق بين قوله: يا رجل ويا أيّها الرجل أنّ «يا رجل» يدلّ على النداء و«يا أيها الرجل» يدلّ على النداء أيضاً وينبئ عن خطر خطب الأمر أو تنبيه غفلة المخاطب أو اعلم هذا فلا يجوز حمل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ على غفلته لأنّ قوله سبحانه: النبيّ ينافي الغفلة لأنّ النبيّ خبير فلا يكون غافلا فيجب حمله على خطر الخطب والأمر وكلمة «أي:» وكلمة «ها» تأكيد على تأكيد لعظمة المنادى له فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

فلو قيل: إنّ الأمر بالشيء لا يكون إلّا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به إذ لا يصلح أن يقال للجالس: اجلس، وللساكت: اسكت، والنبيﷺ كان متّقياً فما الوجه فيه؟

فالجواب أنّه امر بالمداومة فإنّه يصحّ أن يقول القائل للجالس: اجلس هنا إلى أن أجيئك، وللساكت: قد نجوت فاسكت ودم على ما أنت عليه. وتقريره وهو أنّ الملك يتّقي منه عباده على ثلاثة أوجه بعضهم يخاف من عقابه وبعضهم يخاف من قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجابه فالنبيﷺ لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الأوّل ولا بالمعنى الثاني وأمّا الثالث فالمخلص لا يأمنه ما دام في الدنيا وكيف والأمور الدنيويّة شاغلة والآدميّ في الدنيا تارة مع اللّه وأخرى مقبل على ما لابدّ منه وإن كان معه اللّه وإلى هذا إشارة بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[1] يعني: أنّه يرفع الحجاب عنّي وقت الوحي ثمّ أعود إليكم كأنّي منكم فالأمر بالتقوى يوجب استدامة الحضور.

وبعبارة أخرى إنّ النبيﷺ كلّ لحظة كان يزداد علمه ومرتبته حتّى

١ـ سورة كهف: ١١٠.

حاله فيما مضى بالنسبة إلى ما هو فيه تركاً للأفضل فكان له في كلّ ساعة تقوى متجدّدة فقوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ على هذا البيان أمر بما ليس فيه وإلى هذا أشار ﷺ بقوله: «من استوى يوماه فهو مغبون»[١]، وهو قوله ﷺ: «ربّ زدني علما»[٢]، وهذه نكتة استغفاره ﷺ في كلّ يوم سبعين مرّة[٣] ليجدّد له مقام فوق مقام كان عليه.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ يقرّر قولنا: اتّق الله تقوى تمنعك من طاعتهم. وسبب النزول: نزلت في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي أعور السلميّ قدموا المدينة ونزلوا على عبد الله بن أبيّ بعد غزوة أحد بأمان من رسول الله ليكلّموه فقاموا وقام معهم عبد الله بن أبيّ وعبد الله بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق فدخلوا على رسول الله فقالوا: يا محمّد ارفض ذكر آلهتنا اللّات والعزّى ومناة وقل: إنّ لها شفاعة لمن عبدها، وندعك وربّك، فشقّ ذلك على النبي ﷺ فقال عمر بن الخطّاب: ائذن لنا في قتلهم فقال: «إنّي أعطيتهم الأمان». وأمر ﷺ فأخرجوا من المدينة فنزلت: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[٤].

وقيل: نزلت في أناس من ثقيف قدموا على رسول الله فطلبوا منه أن يمتّعهم باللّات والعزّى سنة قالوا: لتعلم قريش مكانتنا منك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: عليم بما يكون قبل كونه، حكيم فيما يخلقه.

لمّا نهاه عن متابعة الكفّار أمر باتّباع أوامره ونواهيه على الإطلاق فقال:

١ـ معاني الاخبار، ص٣٤٢؛ وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٧٦.

٢ـ سورة طه:١١٤.

٣ـ من لايحضره فقيه، ج٤، ص٣٨٥.

٤ـ مجمع البيان، ج٨، ص١١٦؛ وبحار الأنوار، ج٢٢، ص٤٩.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من القرآن والشرائع فبلّغه واعمل به ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أعمالكم فيجازيكم بحسبها إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وفوّض أمرك إليه حتّى لا تخاف غيره ولا ترجو إلّا خيره ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ قائما بتدبيرك حافظا لك ودافعا عنك ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ نزلت في أبي معمر الفهريّ واسمه جميل وكان لبيبا حافظا لما يسمع وكان يقول: إنّ في جوفي لقلبين أعقل بكلّ واحد منهما أفضل من عقل محمّد فكانت قريش تسمّيه ذا القلبين فلمّا كان يوم بدر هزم المشركون وفيهم أبو معمر وتلقّاه أبو سفيان بن حرب وهو أخذ بيده إحدى نعليه والاخرى في رجله فقال له: يا أبا معمر ما حال الناس؟ قال: انهزموا قال: فما بالك إحدى نعليك في يدك والاخرى في رجلك؟ فقال أبو معمر: ما شعرت إلّا أنهما في رجلي فعرفوا يومئذ أنّه لم يكن إلّا قلب واحد. وقيل: إنّ المنافقين كانوا يقولون: إنّ لمحمّد قلبين ينسبونه إلى الدهاء فأكذبهم اللّه بذلك وقيل: إنّ رجلاً كان يقول: إنّ لي نفسين نفسا تأمرني ونفسا تنهاني فنزل ذلك فيه.

وحاصل المعنى: ليس لأحد قلبان يؤمن بأحد هما ويكفر وإنّما هو قلب واحد فإمّا أن يؤمن وإمّا أن يكفر ونزلت الآية ردّاً على قولهم في هذا المعنى صراحة ومطابقة وتفيد التزاما معنى آخر بأنّه كما لا يمكن أن يكون لرجل واحد قلبان لأنّ أمر الرجل الواحد لا ينتظم ومعه قلبان وكيف يمكن الجمع بين اتّباع أمرين متضادّين اتّباع الوحي والقرآن واتّباع الكفر والطغيان؟ فالاعتقاد ينشئ من فعل القلب فحينئذ لا يجوز أن يحبّ قوماً بهذا القلب ويعادي قوماً بهذا القلب فإذا كان لا يجوز كون قلبين لرجل واحد كيف

يمكن وينتظم أمور العالم وله إلهان وخالقان ومعبودان؟

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ ظاهر من امرأته: قال لها: أنت عليّ كظهر أمّي، وكانت العرب تطلّق نساءها في الجاهليّة بهذا اللّفظ فلمّا جاء الإسلام نهوا عنه وأوجب الكفّارة عن من ظاهر من امرأته، والمعنى أنّ الزوجة لا تصير امّا فبيّن سبحانه أنّ هذه النسوة اللّاتي ظاهرتموهنّ لسن أمّهاتكم فإنّ امّهاتكم على الحقيقة هنّ اللّاتي ولدنكم أو أرضعنكم. ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ و«الأدعياء» جمع الدعيّ وهو الّذي يتبنّاه الإنسان فبيّن اللّه سبحانه أنّه ليس بابن على الحقيقة ونزلت في زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبيّ من بني عبد ودّ تبنّاه النبيّ قبل الوحي وكان قد وقع عليه السبي فاشتراه رسول اللّه بسوق عكاظ فدعاه ﷺ إلى الإسلام فأسلم فقدم أبوه إلى مكّة وأتى أبا طالب وقال: سل ابن أخيك فإمّا أن يبيعه وإمّا أن يعتقه فلمّا قال ذلك أبو طالب لرسول اللّه قال: «**هو حرّ فليذهب حيث شاء**»، فأبى زيد أن يفارق رسول اللّه فقال حارثة: اشهدوا يا معشر قريش إنّه ليس ابني، فقال رسول اللّه: «**اشهدوا أنّه ابني**»، فكان يدعى زيد بن محمّد فلمّا تزوّج النبيّ زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة قالت اليهود والمنافقون: تزوّج محمّد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عنها! فقال اللّه: «**ما جعل من تدعونه ولداً وهو ثابت النسب من غيركم ولداً لكم**»[1].

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ أي: إنّ قولكم: «الدعيّ ابن الرجل» شيء تقولونه بالسنتكم لا حقيقة له عند اللّه ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ الّذي يلزم العمل به ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ يرشد إلى طريق الحقّ.

﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ الّذين ولّدوهم وأنسبوهم إليهم أو إلى من ولدوا

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١١٩ ؛ وانظر: تفسير القرطبي، ج١٤، ص١١٨.

على فراشهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: نسبة الأبناء إلى الآباء أعدل عند الله قولاً وحكماً ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ ولم تعرفوه بأعيانهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ فهم إخوانكم في الدين والملّة فتقولوا: يا أخي ﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي: بنو أعمامكم. وقيل: المعنى أولياؤكم في وجوب النصرة. وقيل: معناه أي: إذا أعتقتموهم من رقّ فلكم وولاؤهم.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ أي: ليس عليكم حرج في نسبته إلى المتبنّين إذا ظننتم أنه أبوه ولم تعلموا أنّه ليس بابن له فلا يؤاخذكم الله به ولكنّ الإثم والجناح في ما تعمّدت قلوبكم وقصدتموه من دعائهم إلى غير آبائهم فإنكم حينئذ تؤاخذون به وقيل: ما أخطأتم قبل النهي وما تعمّدتم بعد النهي ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف من قولكم ﴿رَّحِيمًا﴾ بكم.

النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾

سبب النزول: قال الكلبيّ آخى رسول الله بين الناس فكان يؤاخي بين الرجلين فإذا مات أحدهما ورثه الثاني منهما دون أهله فمكثوا بذلك ما شاء

اللّه حتّى نزلت: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ فنسخت هذه الآية الموارثة بالمؤاخاة والهجرة وورث الأدنى فالأدنى من القربات وقال قتادة: كان المسلمون يتوارثون بالهجرة وكان لا يرث الأعرابيّ المسلم من المهاجرين شيئاً فلمّا نزلت هذه الآية فصارت المواريث بالقرابات.

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: هو أولى بهم منهم بأنفسهم، وقيل: في معناه وجوه:

أحدهما: أنّه صلى الله عليه وآله أحقّ بتدبيرهم وحكمه أنفذ عليهم من حكمهم على أنفسهم لوجوب طاعته الّتي هي مقرونة بطاعة اللّه.

وثانيها: أنّه أولى بهم في الدّعوة فإذا دعاهم النبيّ إلى شيء ودعتهم أنفسهم إلى شيء كانت طاعته أولى من طاعة أنفسهم وهذا قريب من معنى الأوّل.

وثالثها: أنّه أولى بهم من أنفسهم فإذا كان هو أحقّ بهم وهو لا يرث أمّته مع هذا الحقّ فكيف يرث من توجبون حقّه بالتبنّي؟

وروي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا أراد غزوة تبوك وأمر الناس بالخروج قال قوم: نستأذن آباءنا وأمّهاتنا، فنزلت هذه الآية[1].

وفي قراءة أبيّ بن كعب وابن مسعود أنّهم كانوا يقرءون: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ وهو أب لهم. وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه عليهما السلام[2].

قال مجاهد: كلّ نبيّ أب لأمّته ولذلك صار المؤمنون إخوة واشتقاق الأنفس من النفاسة والجلالة لأنّ هذه الصفة أكرم ما فيه أو من التنفّس الّذي

١ـ تفسير الصافي، ج٤، ص١٦٤ ؛ وبحار الأنوار، ج١٦، ص٣٠٦.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٢١ ؛ وتفسير نور الثقلين، ج٤، ص٢٣٧.

هو التروّح وبمعنى الأوّل فهي خاصّة الحيوان الحسّاسة الدرّاكة[1].

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ المعنى أنهن للمؤمنين كالامّهات في الحرمة وتحريم النكاح ولسن امّهات لهم على الحقيقة إذ لو كنّ كذلك لكانت بناته أخوات المؤمنين على الحقيقة فكان لا يحلّ للمؤمن التزويج بهنّ فثبت أنّ المراد به يعود إلى حرمة العقد عليهنّ لا غير لأنّه لم يثبت شيء بين المؤمنين وبينهنّ من الأمومة سوى هذه الواحدة ألا ترى أنّه لا يحلّ للمؤمنين رؤيتهنّ ولا يرثن المؤمنين كالامّهات ولا يرثهنّ.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وأولو الأرحام هم ذوي الأنساب ولا توارث إلّا بالولادة والرحم والمعنى أنّ ذوي القرابات بعضهم أولى بميراث بعض المؤمنين من الأنصار والمهاجرين الّذين هاجروا من مكّة إلى المدينة والمتؤاخين فصارت هذه الآية ناسخة للتوارث بالهجرة والمؤاخاة ويتعيّن أنّ الميراث بالنسب فمن كان أقرب في قرباه فهو أحقّ بالميراث من الأبعد.

﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ هذا استثناء منقطع ومعناه لكن إن فعلتم إلى أوليائكم المؤمنين وخلفائكم ما يعرف حسنه وصوابه، قيل: المراد بذلك وصيّة الرجل لإخوانه وأحبّائه في معروف وقيل: لمّا نسخ آية التوارث بالمؤاخاة والهجرة أباح الوصيّة فيوصي لمن يتولّاه بما أحبّ من الثلث. وفسّروا المعروف بالوصيّة، وحكي عن محمّد بن الحنفيّة وعكرمة وقتادة أنّ معناه الوصيّة لذوي القرابات. الكافرة وقيل: لا يصحّ هذا لأنّه تعالى نهى عن ذلك بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وقال أصحابنا الإماميّة: إنّها جائزة للوالدين والولد. ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ نسخ الميراث بالهجرة وردّه إلى

١ـ جوامع الجامع، ج ٣، ص ٥٠.

اولي الأرحام ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في القرآن أو في اللوح أو في التوراة ﴿مَسْطُورًا﴾ ومكتوبا.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ﴾ والمراد من الميثاق المأخوذ منهم إرسالهم وأمرهم بالتبليغ وخصّ بالذكر أربعة من الأنبياء في الآية لأنّ عيسى وموسى كان لهما في زمان نبيّنا قوم وأمّة فذكرهما احتجاجاً وبياناً عليهما وإبراهيم كان العرب يقولون بفضله ويتّبعونه في الشعائر بعضها ونوحاً لأنه كان أصلاً ثانيا للناس حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان.

فلو قيل: آدم كان أولى بالذكر على هذه الصورة.

فالجواب أنّه في زمان آدم ما كان أهلاك وتعذيب ولكن نوح كان مخلوقاً للإنذار والنبوّة.

وبالجملة المعنى: واذكر يا محمّد حين أخذ الله الميثاق والعهد على النبيّين خصوصا بأن يصدّق بعضهم بعضاً. وقيل: أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله ويدعو إلى عبادة الله وأن ينصحوا لأمّتهم.

﴿وَمِنكَ﴾ يا محمّد وإنّما قدّمه لفضله وشرفه ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وتخصيص ذكرهم مرّ بيانه ولأنّهم أصحاب الشرائع ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهداً شديدا على الوفاء بما حمّلوا من إعباء الرسالة وتبليغ الشرائع، وقيل: المعنى: أخذنا منهم عهدا على أن يعلنوا أنّ محمّداً رسول الله وكذلك يعلن محمّدﷺ أنّه لا نبيّ بعده.

ثمّ بيّن سبحانه الفائدة في أخذ الميثاق فقال: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أي: فعلنا ذلك ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الّذين صدقوا عهدهم فيظهر صدقهم ويعترفون بأنّا قد بلّغنا قومنا وبيّنّا لهم ما كلّفنا الله إبلاغه أو أن يسأل عنهم هل ظلم الله أحدا هل نجازي كلّ إنسان بفعله هل عذاب بغير

ذنب؟ ونحو ذلك فيقولون: عدل في حكمه وجازى كلًا بفعله، فهذا حال الصادقين وفيه إشارة إلى تبكيت الكاذب ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ثمّ خاطب سبحانه المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ذكّرهم عظيم نعمته عليهم في دفع الأحزاب عنهم ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ هم الّذين تحزّبوا على رسول الله وهم قريش وغطفان وبنو قريظة وبنو النضير أيّام الخندق ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ ريح الصبا حتى أكفئت قدورهم[1] ونزعت فساطيطهم ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ من الملائكة وقيل: إنّ الملائكة لم يقاتلوا يومئذ ولكن كانوا يشجّعون المؤمنين ويخوّفون الكافرين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ من قرء بالتاء وجّه الخطاب إلى المؤمنين ومن قرء بالياء وجّه الضمير إلى الكافرين.

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾ أي: واذكروا حين جاءكم جنود المشركين ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: من فوق الوادي من قبل المشرق قريظة والنضير وغطفان ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: قبل المغرب من ناحية مكّة أبو سفيان في قريش ومن تبعه ﴿وَإِذْ زَاغَتِ﴾ ومالت عن كلّ شيء فلم ينظر إلّا إلى عدوّها مقبلاً من كلّ جانب. وقيل: معناه عدلت الأبصار عن مقرّها من الدهش والحيرة ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ والحنجرة جوف الحلقوم أي: شخصت القلوب من مكانها فلو لا أنّه ضاق الحلقوم عنها أن تخرج لخرجت، وقوله: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ لأنهم جبنوا وجزع أكثرهم وإنّ الجبان إذا اشتدّ خوفه لابدّ وأن ينتفخ ريته وإذا انتفخت الريّة دفعت القلوب إلى الحنجرة.

قال أبو سعيد الخدري: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله هل من شيء

١ـ جمع القدر بالكسر: ما يطبخ فيه.

نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر؟ فقال ﷺ: «قولوا: اللهمّ استر عوراتنا وآمن روعاتنا»، قال: فقلناها فضرب وجوه أعداء الله بالريح فهزموا[١].

﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أي: اختلفت الظنون فظنّ بعضكم بالله النصر وبعضكم آيس وقنط وظنّوا ظنوناً مختلفة ومن كان منهم ضعيف الإيمان والقلب ظنّ ما ظنّه المنافقون من أنّ ما وعده من نصرة الدين غرور.

وقصّة غزوة الخندق مختصرها ذكر أصحاب السير كان من حديث الخندق أنّ نفرا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وحيّ بن أخطب في جماعة من بني النضير الّذين أجلاهم رسول الله خرجوا حتّى قدموا على قريش بمكّة فدعوهم إلى حرب رسول الله وقالوا: إنّا سنكون معكم عليهم حتّى نستأصلهم فقال لهم قريش: يا معشر اليهود إنّكم أهل الكتاب الأوّل فديننا خير أم دين محمّد؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحقّ منه فهم الّذين أنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ـ إلى قوله ـ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾[٢] فسرّ قريشاً ما قالوا ونشطوا لما دعوهم فأجمعوا لذلك واستعدّوا له ثمّ أتوا أولئك النفر من اليهود حتّى جاءوا غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله وأخبروهم أنّهم سيكونون معهم عليه وإنّ قريشاً قد بايعوهم على ذلك فأجابوا غطفان وقبلوا فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر الفزاريّ وجماعة من أشجع وحلفائهم من بني أسد وغطفان وبني سليم مددا لقريش.

١ـ التبيان، ج٨، ص٣٢٠.

٢ـ سورة النساء: ٥١ـ٥٥.

فلمّا علم رسول اللّه ﷺ ضرب الخندق على المدينة وكان الّذي أشار عليه سلمان الفارسيّ وكان أوّل مشهد شهد سلمان مع رسول اللّه ﷺ وهو يومئذ حرّ قال: يا رسول اللّه إنّا كنّا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا ؛ فعمل فيه رسول اللّه ﷺ والمسلمون حتّى أحكموه(١).

فما ظهر من دلائل النبوّة في حفر الخندق ما رواه أبو عبد اللّه الحافظ بإسناده قال: خطّ رسول اللّه ﷺ الخندق عام الأحزاب أربعين ذراعاً بين عشرة فاختلفت المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسيّ وكان رجلاً قويّاً فقال الأنصار: سلمان منّا، وقال المهاجرون: سلمان منّا، قال عمرو بن عوف: فكنت أنا وسلمان وحذيفة بن اليمان والنعمان بن مقرّن وستّة من الأنصار نقطع أربعين ذراعاً فحفرنا إذا بلغنا الثرى أخرج اللّه صخرة بيضاء مدوّرة من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقّت علينا فقلنا: يا سلمان ارق إلى رسول اللّه وأخبره عن الصخرة فأمّا إن نعدل عنها فإنّ المعدل قريب وأمّا إن تامرنا فيه بأمره فإنّا لا نحبّ أن نجاوز خطّه فرقى سلمان حتّى أتى رسول اللّه وهو مضروب عليه قبّة فقال: يا رسول اللّه خرجت صخرة بيضاء مدوّرة فكسرت حديدنا حتّى ما يحكّ فيها قليل ولا كثير فمرنا فيه بأمرك، فهبط رسول اللّه مع سلمان في الخندق وأخذ المعول وضرب به ضربة فتألّق منها برقة أضاءت ما بين لابتيها ـ يعني: لابتي المدينة ـ حتّى لكأنّ مصباحاً في جوف ليل مظلم فكبّر رسول اللّه تكبيرة فتح. فكبّر المسلمون ثمّ ضرب ضربة أخرى فلمعت برقة أخرى ؛ فقال سلمان: بأبي أنت وأمّي يا رسول اللّه ما هذا الّذي أرى فقال: **«أمّا الأولى فإنّ اللّه عزّ وجلّ فتح عليّ بها اليمن وأمّا الثانية فإنّ اللّه فتح عليّ بها الشام والمغرب وأمّا الثالثة فإنّ اللّه فتح عليّ بها المشرق فاستبشر**

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٢٦ ؛ وبحار الأنوار، ج٢٠، ص١٩٧.

المسلمون بذلك وقالوا: الحمد لله موعود صادق»[١].

قال: وطلعت الأحزاب فقال المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾[٢] وقال المنافقون: ألا تعجبون يحدّثكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنّه يبصر في يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنّها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا؟

وممّا ظهر أيضاً من آيات النبوة ما رواه أبو عبد اللّه الحافظ بالإسناد عن عبد الواحد بن أمين المخزوميّ قال: حدّثني أيمن المخزوميّ قال: سمعت جابر بن عبد اللّه الأنصاريّ قال: كنّا يوم الخندق نحفر فعرضت فيه كدانة وهي القطعة من الجبل فقلنا: يا رسول اللّه عرضت فيه كدانة فقالﷺ: «رشّوا عليها ماء» ثمّ قام فأتاها وبطنه معصوب بحجر من الجوع فأخذ المعول أو المسحاة فسمّى ثلاثاً ثمّ ضرب فعادت كثباً اهيل فقلت له: ائذن لي يا رسول اللّه إلى المنزل ففعل فقلت للمرأة: هل عندك من شيء؟ فقالت: عندي صاع من شعير وعناق فطحنت الشعير وعجنته وذبحت العناق وسلختها وخلّيت بين المرأة وبين ذلك ثمّ أتيت إلى رسول اللّه فجلست عنده ساعة ثمّ أتيت إلى المرأة فإذا العجين واللّحم قد أمكنا فرجعت إلى رسول اللّهﷺ فقلت: إنّ عندنا طعاماً فقم أنت يا رسول اللّه ورجلان من أصحابك فقال: «وكم هو؟» قلت: صاع من شعير وعناق، فقالﷺ للمسلمين جميعاً: «قوموا إلى جابر»، فقاموا فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلّا اللّه وقلت: جاء بالخلق على صاع وعناق فدخلت على المرأة وقلت: قد افتضحت جاءك رسول اللّه بالخلق أجمعين فقالت: هل سألك كم طعامك؟ قلت: نعم، فقالت:

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٢٥.

٢ـ سورة الأحزاب:٢٢.

اللّه ورسوله أعلم قد أخبرناه ما عندنا فكشفت عنّي غمّاً شديدا ؛ فدخل النبيّ صلى الله عليه وآله فقال لها: «دعيني من اللّحم». فجعل صلى الله عليه وآله يثرد ويغرّق اللّحم ثمّ يجمّ هذا ويجمّ هذا فما زال يقرب إلى الناس حتّى شبعوا جميعاً ويعود التنوّر والقدر على حاله ثمّ قال رسول اللّه: «كلي وأهدي». قالت: فلم نزل نأكل ونهدي قومنا أجمع، أورده البخاريّ في الصحيح[١].

وعن البراء بن عازب قال: كان رسول اللّه ينقل معنا التراب يوم الأحزاب وقد وارى التراب بياض بطنه وهو يقول: «اللّهمّ لو لا أنت ما اهتدينا، ولا تصدّقنا ولا صلّينا، فأنزلت سكينة علينا، وثبّت الأقدام إن لاقينا، إنّ الأولى وقد بغوا علينا، إذا أرادوا فتنة أبينا». يرفع بها صوته صلى الله عليه وآله رواه البخاريّ أيضاً في الصحيح عن أبي الوليد عن شعبة عن أبي إسحاق عن البراء[٢].

قالوا: ولمّا فرغ رسول اللّه صلى الله عليه وآله من الخندق وأقبلت قريش حتّى نزلت بين الجرف والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد حتّى نزلوا إلى جانب أحد وخرج رسول اللّه صلى الله عليه وآله حتّى جعلوا ظهورهم إلى الهلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هناك عسكره والخلق بينه وبين القوم وأمر بالذراري فرفعوا في الأطام.

وخرج عدوّ اللّه حيّ بن أخطب النضيريّ حتّى أتى كعب بن أسيد القرظيّ صاحب بني قريظة وكان قد وادع رسول اللّه على قومه وعاهد على ذلك فلمّا سمع كعب صوت ابن أخطب أغلق دونه حصنه فاستأذن ابن أخطب عليه فأبى كعب أن يفتح له الباب فناداه يا كعب افتح لي أكلّمك قال:

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٢٦ ؛ وبحار الأنوار، ج ٢٠، ص١٩٧.

٢ـ صحيح البخاري، ج٥، ص٤٧.

يا حيّ إنّك رجل مشئوم إنّي عاهدت محمّداً ولست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلّا وفاء وصدقاً، قال: ويحك افتح لي اكلّمك، قال: ما أنا بفاعل قال: ما أغلقت دوني إلّا على جشيشة (الجشيشة طعام يصنع من البرّ واللّحم والتمر) نكره أن آكل منها معك فاستحيا كعب وفتح الباب فقال حيّ: ويحك يا كعب جئتك بعزّ الدهر وببحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها وبغطفان على سادتها وقادتها قد عاهدوني أن لا يبرحوا حتّى يستأصلوا محمّداً ومن معه فقال كعب: جئتني والله بذلّ وبجهام قد هراق ماؤه يرعد ويبرق وليس فيه شيء فدعني ومحمّداً وما أنا عليه فلم أر من محمّد إلّا صدقاً ووفاء فلم يزل بكعب حتّى سمح له على أن أعطاه عهداً وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمّداً أن أدخل معك في حصنك حتّى يصيبني ما أصابك فنقض كعب عهده مع رسول الله.

فلمّا انتهى الخبر إلى النبيﷺ بعث سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس وهو يومئذ سيّد الأوس وسعد بن عبادة سيّد الخزرج وبعثﷺ معهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير فقال: انطلقوا حتّى تنظروا أحقّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقّاً فالحنوا لنا لحنا نعرفه ولا تفشوه عند الناس وإن كانوا على الوفاء فأجهروا به فخرجوا حتّى أتوهم فوجدوهم على أخبث ممّا بلغهم عنهم قالوا: لا عقد بيننا وبين محمّد ولا عهد فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه فقال سعد بن معاذ: دع عنك مشاتمتهم فإنّ ما بيننا وبينهم أعظم من المشاتمة ثمّ أقبلوا على رسول الله وقالوا: عضل والقارة، وهما رجلان من قبيلتين دخلا في الإسلام ثمّ رجعا وغدرا فيضرب بهما المثل لغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله وهم حبيب بن عديّ وأصحابه أصحاب الرجيع فقال رسول الله: الله أكبر ابشروا يا معشر المسلمين.

وعظم عند ذلك البلاء واشتدّ الخوف وأتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتّى ظنّ المؤمنون كلّ الظنّ وظهر النفاق من بعض المنافقين.

فأقام رسول اللهﷺ وأقام المشركون عليه بضعاً وعشرين ليلة لم يكن بينهم قتال إلّا الرمي بالنبل إلّا أنّ فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ودّ أخو بني عامر بن لؤيّ وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطّاب وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبد الله قد تلبّسوا للقتال وخرجوا على خيولهم حتّى مرّوا بمنازل بني كنانة فقالوا: تهيّأوا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان.

ثمّ أقبلوا حتّى وقفوا على الخندق فقالوا: إنّها والله إنّ هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ثمّ يتمسّموا مكاناً ضيّقاً من الخندق فاقتحموا فجالت خيولهم في فسحة بين الخندق وسلع وخرج عليّ بن أبي طالبعليه السلام في نفر من المسلمين حتّى أخذ عليهم الثغرة الّتي اقتحموا فيها وأقبلت الفرسان نحوهم.

وكان عمرو بن عبد ودّ فارس قريش وكان قد قاتل يوم بدر حتى ارتثّ وأثبته الجراح ولم يشهد أحدا فلمّا كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مشهده وكان يعدّ بألف فارس وكان يسمّى بفارس يليل لأنّه أقبل في ركب من قريش حتّى إذا كانوا بيليل ـ وهو واد قريب ـ عرضت لهم بنو بكر في عدّة فقال لأصحابه: امضوا فمضوا فقام في وجوه بني بكر حتّى منعهم من أن يصلوا إليه فعرف بذلك وكان اسم الموضع الّذي حفر فيه الخندق المداد وكان أوّل من طفره عمرو وأصحابه فقيل في حقّه: فارس جزع المداد وكان ينادي: من يبارز؟ وهو مقنّع بالحديد فقام عليّ وقال: **«أنا له يا رسول الله»**. فقالﷺ: **«إنّه عمرو اجلس»**. ونادى عمرو ألا رجل وهو يؤنّبهم ويوبّخهم ويقول: أين جنّتكم الّتي تزعمون أنّ من قتل منكم دخلها فقام عليّ وقال: **«يا رسول الله أنا له»**، قالﷺ: **«إنّه عمرو»** فقال عليّعليه السلام **«وإن كان»** ثمّ نادى الثالثة

فقال:

ولقد بححت من النداء بجمعكم ... هـل مـن مبـارز
ووقفـت إذ جـبن المشـجّع ... موقـف البطـل المنـاجز
إنّ السماحة والشجاعة في الفتى ... خيـر الغرائـز

فقام عليّ وقال: «يا رسول الله أنا لها». فقال: «إنّه عمرو» فقال عليّ: «وإن كان عمرواً» فاستأذن رسول الله فأذن له[1].

وفي ما رواه لنا[2] السيّد أبو محمّد الحسينيّ القائنيّ عن الحاكم أبي القاسم الحسكانيّ بالإسناد عن حذيفة قال: فألبسه رسول الله درعه ذات الفضول وأعطاه سيفه ذا الفقار وعمّمه عمامة السحاب تسعة أكوار ثمّ قال له: تقدّم فقال ﷺ لمّا ولّى عليّ: «اللّهمّ احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوق رأسه ومن تحت قدميه».

قال ابن إسحاق: فمشى عليّ عليه السلام إليه وهو يقول:

«لا تعجلنّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نيّة وبصيرة والصـدق منجـا كلّ فـائز
إنّي لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز»

قال له عمرو: من أنت؟ قال: «أنا عليّ» قال: ابن عبد مناف؟ فقال: «أنا عليّ بن أبي طالب» فقال: غيرك يا بن أخي من أعمامك من هو أسنّ منك فإنّي أكره أن أريق دمك. فقال عليّ عليه السلام: «ولكنّي والله ما أكره أن أريق دمك». فغضب ونزل وسلّ سيفه كأنّه شعلة نار ثمّ أقبل نحو عليّ مغضباً فاستقبل عليّ بدرقته

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٣١.

٢ـ الرواية من مجمع البيان.

فضربه عمرو بالدرقة فقدّها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجّه وضربه عليّ على حبل العاتق فسقط.

والمراد من قولهم ضرب زيد عمروا هذا الخبيث المقتول والمراد من زيد عليّ عليه السلام لأنّ من أسمائه عليه السلام زيد كما روى الصدوق في حديث أنّه عليه السلام قال يوماً على المنبر في البصرة: «أنا زيد بن عبد مناف» فقام ابن الكوا في المسجد قال: إنّا لا نعرفك إلّا بعليّ بن أبي طالب. فقال عليه السلام: «يا لكع إنّ أبي سمّاني زيداً باسم جدّه»[1].

وفي رواية حذيفة: وتسيّف على رجليه من أسفل فوقع على قفاه وثارت بينهما عجاجة فسمع عليّ عليه السلام يكبّر ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قتله والّذي نفسي بيده». فكان أوّل من ابتدر العجاج عمر بن الخطّاب ؛ فإذا يمسح عليّ سيفه بدرع عمرو فكبّر عمر بن الخطّاب وقال: يا رسول الله قتله.

فجزّ عليّ عليه السلام رأسه وأقبل نحو رسول الله ووجهه يتهلّل فقال عمر: هلّا سلبته درعه فإنّه ليس للعرب درع أنفس منها؟ فقال عليه السلام: «ضربته فاتّقاني بسوأته فاستحييت أن أسلبه».

قال حذيفة: فقال النبي صلى الله عليه وآله: «أبشر يا عليّ فلو وزن اليوم عملك بعمل الأمّة لرجح عملك بعملهم وذلك أنّه لم يبق بيت من بيوت المشركين إلّا وقد دخله وهن بقتل عمرو ولم يبق بيت من بيوت المسلمين إلّا وقد دخله عزّ بقتل عمرو»[2].

وبحذف الأسانيد عن عبد الله بن مسعود أنّه كان يقرأ «وكفى الله المؤمنين القتال بعليّ». وخرج أصحاب عمرو منهزمين وتبادر المسلمون فوجدوا نوفل بن عبد العزّى في جوف الخندق فجعلوا يرمونه بالحجارة

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٣٢.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٣٢ ؛ وبحار الأنوار، ج٢٠، ص٢٠٥ ؛ ومستدرك حاكم، ج٣، ص٣٢.

فقتله الزبير بن العوام. وذكر ابن إسحاق أنّ عليّاً طعنه في ترقوته حتّى أخرجها من مرارته فمات في الخندق وبعث المشركون إلى رسول الله يشترون جيفته بعشرة آلاف فقال النبي ﷺ: «هو لكم لا نأكل ثمن الموتى»[1].

وروي عن أبي بكر بن عيّاش أنّه قال: ضرب عليّ ضربة ما كان في الإسلام أعزّ منها وضرب عليه السلام ضربة ما كان أشأم منها. يعني: ضربة ابن ملجم ألجمه الله بلجام النار.

وبالجملة فكان الأمر على المسلمين في غاية الشدّة والخوف بالغا إلى الغاية قال حذيفة بن اليمان والله لقد رأينا يوم الخندق وبنا من الجهد والجوع والخوف ما لا يعلمه إلّا الله وقام رسول الله ﷺ فصلّى ما شاء الله من اللّيل ثمّ قال: «ألا رجل يأتينا بخبر القوم يجعله الله رفيقي في الجنّة» قال حذيفة: فو الله ما قام منّا أحد ممّا بنا من الجوع فلمّا لم يقم أحد دعاني فلم أجد بدّاً من إجابته قلت: لبّيك قال: «اذهب فجئني بخبر القوم ولا تحدثنّ شيئاً حتّى ترجع». قال: وأتيت القوم فرأيت أنّ الله خذلهم فإذا ريح الله وجنوده يفعل بهم ما يفعل من إرسال ريح باردة عليهم في ليلة شاتية وإرسال الملائكة وقذف الرعب في قلوبهم حتّى كان البعض يلتزق بالبعض من خوف الخيل في جوف الليل وهذا معنى.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فما يستقرّ لهم عزم ولا تثبت لهم نار ولا يطمأنّ لهم قدر قال حذيفة: فلمّا رأيت الأمر على ذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله ثمّ قال: يا معشر قريش لينظر أحدكم من جليسه قال حذيفة: فبدأت بالّذي عن يميني فقلت: من أنت قال: أنا فلان ثمّ عاد أبو سفيان براحلته فقال: يا معشر قريش والله ما أنتم بدار مقام هلك الخفّ

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٣٣؛ وبحار الأنوار، ج٢، ص٢٠٥.

والحافر وأخلفنا بنو قريظة بسبب دهاء رجل يقال له نعيم بن مسعود الأشجعيّ ـ وقصّته مشهورة ـ وهذه الريح لا يستمسك لنا معها شيء ثمّ عجّل فركب راحلته وإنّها لمعقولة ما حلّ عقالها إلّا بعد ما ركبها قال حذيفة: قلت في نفسي: لو رميت عدوّ الله فقتلته كنت صنعت شيئاً فوترت قوسي ووضعت السهم في كبد القوس وأنا أريد أن أرميه فأقتله فذكرت قول النبي ﷺ: «لا تحدثنّ شيئاً حتى ترجع»، فحططت القوس ورجعت إلى رسول الله وهو يصلّي فلمّا فرغ من صلاته قال: «ما الخبر؟» فأخبرته وقد كان دعا عليهم: «اللهمّ أنت منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب اللّهم اهزمهم وزلزلهم»[1].

وعن أبي هريرة قال: كان ﷺ يقول: «لا إله إلّا وحده أعزّ جنده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فلا شيء بعده»[2].

وعن سليمان بن صرد قال: قال رسول الله ﷺ حين أجلى عنه الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزونا». فكان كما قال: فلم تغزهم قريش بعد ذلك[3].

﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أي: كلّ قسم من أقسام الظنون لأنّ عند الأمر العظيم كلّ أحد يظنّ شيئاً، ويمكن الألف واللّام للاستغراق ويمكن أن يكون العهد فإنّ المعهود من المؤمن ظنّ الخير بالله والكافر ظنّ السوء كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[4].

فإن قيل: المصدر لا تجمع فما الفائدة في جمع الظنون؟ فالمراد من بيان أقسام ظنون مختلفة بعضهم صائبين وبعضهم مخطئين وبعضهم كاذبين ولو كان يقول: تظنّون ظنّاً، ما أفاد هذا المعنى.

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٣٦ ؛ وبحار الأنوار، ج٢٠، ص٢٠٩.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٣٦ ؛ وبحار الأنوار، ج٢٠، ص٢٠٩.

٤ـ سورة ص: ٢٧.

هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ
فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ
مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ
إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ
أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ
كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾
قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ
رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ
مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً
عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ
مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾
يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى
ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

﴿هُنَالِكَ﴾ يقال: «هنا» للقريب و﴿هُنَالِكَ﴾ للبعيد و«هناك» للمتوسّط بين القريب والبعيد وسبيله سبيل ذا وذلك وذاك.

ولمّا وصف سبحانه شدّة الأمر يوم الخندق قال: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ واختبروا ليظهر حسن إيمانهم وصبرهم في جهاد أعدائه فظهر من كان ثابتاً قويّاً في الإيمان ومن كان ضعيفا ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ وحرّكوا بالخوف تحريكاً شديدا عظيماً وذلك أنّ الخائف يكون قلقاً لا يستقرّ على

مكانه بل بعض اضطربوا على دينهم أو في دينهم، وهذا الابتلاء ليس لاستبانة الأمر له سبحانه لأنّه عالم بما سيكون بل استحقاق الثواب والعقاب لا يتحقّق إلّا بعد الوقوع وأراد سبحانه إظهار الأمر للملائكة والأنبياء.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فسّر الظنون فظنّ المنافقون أنّ ما قال اللّه ورسوله كان زورا ووعدهما كان غرورا حيث قطعوا بأنّ الغلبة للكفّار واقعة.

واذكر ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي: يا أهل مدينة الرسول لا وجه لإقامتكم مع محمّد، و﴿يَثْرِبَ﴾ اسم للمدينة ولها أسماء أخر ذكر السيّد المرتضى قدّس اللّه سرّه أنّ من أسماء المدينة طيبة وطابة والدار والسكينة وجائزة والمحبورة والمحيّة والمحبوبة والعذراء والمرحومة والقاصمة ويندد وذلك ثلاثة عشر اسماً. أي: لا مكان لكم يا أهل يثرب تقومون فيه للقتال إذا فتح الميم ﴿فَٱرْجِعُوا﴾ إلى منازلكم بالمدينة والقائلون المنافقون من أصحاب الرسول مثل عبد اللّه بن أبيّ وأصحابه أو بنو سالم أو أوس ابن قبطيّ ومن وافقه .قوله: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ واستأذنوا من النبيّ ﷺ وتعلّلوا بأنّ ﴿بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: فيها خلل لا يأمن صاحبها السارق على متاعه يعني: ليست بحصينة أو المعنى، أنّ بيوتنا خالية من الرجال نخشى عليها ولا نأمن على أهلها فكذّبهم اللّه فقال: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ بل حصينة، عن الصادق عليه السلام[1]. ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: ما يريدون إلّا هرباً من القتال.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي: ولو دخل هؤلاء الّذين يريدون القتال وهم العدوّ والأحزاب على الّذين يقولون: إنّ بيوتنا عورة، وهم

۱ـ مجمع البيان، ج۸، ص۱٤۰.

المنافقون من أقطار المدينة ونواحيها والبيوتات ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ أي: ثمّ دعوا هؤلاء إلى الشرك لأشركوا والمراد بالفتنة الشرك عن ابن عبّاس. ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي: وما احتبسوا عن الإجابة إلى الكفر إلّا قليلاً أو المعنى وما أقاموا بالمدينة بعد إعطائهم الكفر وقبولهم إلّا قليلاً من الزمان حتّى يعاجلهم الله بالعذاب[1].

ثمّ وبّخهم سبحانه وذكر عهدهم مع النبيّ ﷺ بالثبات في المواطن فقال: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ الخندق ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ وبايعوا وحلفوا له ﷺ أنّهم ينصرونه ويدفعون عنه كما يدفعون عن نفوسهم ولا يرجعون عن مقاتلة العدوّ ولا ينهزمون قال مقاتل: يريد ليلة العقبة. ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ يسألون عنه في الآخرة، وإنّما جاء بلفظ الماضي تأكيداً وتحقّقا للوقوع من السؤال.

ثمّ قال: ﴿قُل﴾ يا محمّد للذين يستأذنوك للرجوع واعتلّوا بأنّ بيوتنا خالية: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا﴾ في هذه الوقعة ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا﴾ أيّاماً قلائل إن لم يحضركم آجالكم وإن قدّر لكم فالهرب والفرار لا ينفعكم ولا يزيد في آجالكم ولا تسلمون من القتل أو الموت.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ ويدفع عنكم قضاء الله ويمنعكم من الله ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ وعذاباً وعقوبة ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي: نصراً وعزاً فإنّ أحدا لا يقدر على ذلك ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يلي أمورهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم السوء.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ وهم الّذين يمنعون غيرهم من النصرة والجهاد مع النبيّ ﷺ ويثبّطوهم ويشغلونهم لينصرفوا عنه وذلك لأنّهم كانوا يقولون: ما

١ـ التبيان، ج٨، ص٣٢٣. وأيضاً رواه المجلسي، في البحار، ج ٢٠، ص١٩٣.

محمّد وأصحابه إلّا آكلة رأس ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان والأحزاب.

﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ يعني: اليهود قالوا: لإخوانهم المنافقين ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: أقبل إلينا. وأهل الحجاز يقولون للواحد والاثنين والجمع والمذكّر والمؤنّث بلفظ الواحد وإنّما هي «لم» ضمّت إليها هاء الّتي للتنبيه وحذفت الألف إذ صار شيئاً واحداً كقولهم «ويله» وأصله: ويل لأمّه فلمّا جعلوهما شيئاً واحداً حذفوا وغيّروا، وأمّا بنو تميم فيصرفونه تصريف الفعل يقولون: هلمّ يا رجل وهلمّا وهلمّوا وهلمّي يا امرأة وهلمن يا نساء إلّا أنّهم يفتحون آخر الواحد البتّة وبالجملة فالمعنى: تعالوا وأقبلوا إلينا ودعوا محمّداً.

وقيل: القائلون هم المنافقون قالوا لإخوانهم من ضعفة المسلمين: لا تحاربوا وخلّوا محمّداً فإنّا نخاف عليكم الهلاك.

﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ ولا يحضرون القتال في سبيل الله ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يخرجون رياء وسمعة قدر ما يوهمون أنّهم معكم ولا يحضرون القتال إلّا كارهين ويكون قلوبهم مع المشركين ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بأبدانهم وأنفسهم وأموالهم في القتال وفي النفقة وبخلاء بالنفقة والنصرة، ثمّ وصف سبحانه جبنهم وجرأتهم ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: إذا عرض لهم أمر صعب في القتال تشخص أبصارهم وتحار أعينهم من شدّة خوفهم كعين الّذي يغشى عليه ويقع عليه غشوة الموت وهي الحالة الّتي تحدث عند الموت من ذهاب العقل وشخوص البصر فلا تطرف العين حينئذ. ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ والفزع وجاء الأمن والغنيمة ﴿سَلَقُوكُم﴾ وإيّاك وبذاءة اللسان حضوراً وغياباً فقد قيل: من لاحاك فقد عاداك وفي الحديث: إنّ أوّل ما نهاني ربّي عنه بعد عبادة الأوثان شرب الخمر وملاحاة الرجال وقيل: من اغتاب خرق ومن استغفر رفع وعليك بحفظ اللسان ولو من الطيّب

من القول في غير محلّه قال ﷺ: «إذا رأيتم المادحين فاحثوا في أفواههم». إنّ البلاء موكّل بالمنطق وشرّ الناس من شرّفوا لبذاءة لسانه مثل عمر وعاص. وآذوكم وخاصموكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ﴾ سليطة ذريّة وأيضاً ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ حتّى أنّهم يبخلون بكلام فيه خير وقيل: معناه: بخلاء بالغنيمة يشاحّون المؤمنين عند القسمة ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ أي: من تقدّم وصفهم لم يؤمنوا كما آمن غيرهم وإلّا لما فعلوا ذلك ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لأنّها لم تقع على وجوه الإخلاص ولم يقصدوا بها وجه الله ولا يستحقّ عليها الثواب.

وفي هذا دلالة على صحّة مذهبنا في الإحباط لأنّ المنافقين ليس لهم ثواب فيحبط وجهادهم الّذي لم يقارنه إيمان لم يستحقّوا عليه ثواباً.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباط أو ذلك النفاق منهم ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيّنا.

ثمّ وصف سبحانه هؤلاء المنافقين فقال: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي: يظنّون أنّ الأحزاب الّذين تحزّبوا على رسول الله من قريش وغطفان وأسد واليهود لم ينصرفوا وقد انصرفوا وإنّما ظنّوا ذلك لجبنهم ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ أي: وإن يرجع الأحزاب إليهم ثانية للقتال ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ أي: يودّ هؤلاء المنافقون أن يكونوا في البادية مع الأعراب يسألون عن أخباركم ولا يكونوا معكم حذراً من القتل تربّصاً للدوائر. ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولو كان هؤلاء المنافقون معكم وفيكم لم يقاتلوا معكم إلّا قدراً يسيراً ليوهموا أنّهم في جملتكم لا لينصروكم.

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾

ثمّ حثّ سبحانه على الجهاد والصبر عليه فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ﴾ معاشر المكلّفين ﴿لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ﴾ قدوة صالحة أي: لكم برسول الله اقتداء لو اقتديتم به في نصرته والصبر معه في مواطن القتال كما فعل هو يوم أحد إذا انكسرت رباعيّته وشجّ حاجبه وقتل عمّه فواساكم مع ذلك بنفسه فهلّا فعلتم ما فعله؟ وقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بدل من قوله «لكم» وهو تخصيص بعد التعميم للمؤمنين أي: إنّما الأسوة برسول الله إنّما يكون لمن كان يرجو الله ويرجو ما عند الله من الثواب والنعيم، أو المعنى: من يخشى الله ويخشى البعث الّذي فيه جزاء الأعمال وهو قوله: ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: ذكراً كثيراً وذلك لأنّ المتذكّر بخلاف الغافل. ثمّ عاد إلى ذكر الأحزاب فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ أي: ولمّا عاين المصدّقون بالله ورسوله الجماعة الّتي تحزّبت على قتال النبيّ مع كثرتهم ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ واختلف في معناه على قولين: أحدهما أنّ النبيّ ﷺ كان قد أخبرهم أنّه يتظاهر عليهم الأحزاب ويقاتلونهم ووعدهم الظفر بهم فلمّا رأوهم تبيّن لهم مصداق قوله، وكان ذلك معجزاً له والقول الثاني: أنّ الله وعدهم في سورة البقرة بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ

﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا ـ إلى قوله ـ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1] ما سيكون من الشدّة الّتي تلحقهم من عدوّهم.

فلمّا رأوا الأحزاب يوم الخندق قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ علماً منهم أنّه لا يصيبهم إلّا ما أصاب الأنبياء والمؤمنين قبلهم وزادهم كثرة المشركين يقينا وثباتا في الحرب وقولهم: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ليس إشارة إلى ما وقع فإنّهم كانوا يعرفون صدق الله قبل الوقوع وإنّما هي إشارة إلى أنّ جميع ما وعد الله سيقع مثل فتح مكّة وفتح الروم وفارس.

﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: بايعوا أن لا يفرّوا فصدقوا في لقائهم العدوّ ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ والنحب النذر والعهد والموت والخطر أي: مات وقتل في سبيل الله فأدرك ما تمنّى وفرغ من عمله الّذي يكون أن يعمل ورجع إلى ربّه، والمراد منهم الّذين استشهدوا يوم أحد.

روي عن أنس بن النضر أنّ عمّه غاب عن قتال بدر فقال أنس: غبت عن أوّل قتال قاتله رسول الله مع المشركين لئن أراني الله قتالا للمشركين ليرينّ الله ما أصنع فلمّا كان يوم أحد انكشف المسلمون وانهزموا فقال: اللّهم إنّي أعتذر إليك بما صنع هؤلاء يعني: المسلمين وأبرأ إليك ممّا جاء به هؤلاء يعني: المشركين ثمّ تقدّم فلقيه سعد دون أحد وقال سعد: أنا معك، قال سعد: ولم أستطع أن أصنع ما صنع فوجد فيه بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم[2].

وفي أصحابه ﷺ نزلت: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ روى البخاريّ في الصحيح فمنهم من قضى نحبه المراد من استشهد يوم بدر وأُحد

١ـ سورة البقرة: ٢١٤.

٢ـ راجع: مسند أحمد، ج٣، ص٢٠١ ؛ وصحيح البخاري، ج٣، ص٢٠٥.

ومنهم ينتظر ما وعد الله من نصرة أو شهادة من أصحابه﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ أي: ما غيّروا العهد الّذي عاهدوا ربّهم كما غيّر المنافقون. قال ابن عبّاس: من قضى نحبه حمزة بن عبد المطّلب ومن قتل معه وأنس بن النضر وأصحابه. وفي رواية الصحيفة بحذف الأسانيد أنّ عليّاً قال: «نزلت فينا الآية ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ فأنا والله المنتظر وما بدّلت تبديلاً»[1].

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: صدق المؤمنون من عهودهم ليجزيهم الله بصدقهم ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ بنقض العهد ﴿إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إن شاء قبل توبتهم فأسقط عقابهم وإن شاء لم يقبل توبتهم وعذّبهم فإنّ إسقاط العذاب على المذهب الصحيح بالتوبة فضل من الله لا يجب عقلا وإنّما علمنا ذلك بالسمع والإجماع على أنّ الله سبحانه يفعل ذلك والآية قاضية بما يقتضيه العقل من الحكم ويؤيّد ذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لأنّ المدح إنّما يحصل إذا رحم سبحانه من يستحقّ العقاب ويغفر ما جاز له المؤاخذة به ولا مدح في مغفرة ورحمة من يجب غفرانه ورحمته وقيل: معناه: ويعذّب المنافقين بعذاب عاجل في الدنيا إن شاء أو يتوبوا.

ثمّ عاد سبحانه إلى تعداد نعمه فقال: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: الأحزاب أبا سفيان وجنوده وغطفان ومن معهم من القبائل ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ أي: بغمّهم الّذي جاءوا به وما نالوا ما أرادوا و﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ أمّلوه وأرادوه من الظفر بالنبيّ والمؤمنين، وإنّما سمّاه خيراً لأنّ ذلك كان عندهم خير، وقيل: أراد بالخير المال لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[2].

﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي: مباشرة القتال بما أنزل الله على

١ـ تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٢٥٩.

٢ـ سورة العاديات: ٨.

المشركين من الريح الشديدة الباردة الّتي أزعجتهم عن أماكنهم وبما أرسل من الملائكة وقذف الرعب في قلوبهم. وقيل: بعليّ بن أبي طالب عليه السلام كما أنّه قد قيل: إنّ الآية نزلت «كفى الله المؤمنين القتال بعليّ» وذلك بقتله عليه السلام عمرو بن عبد ودّ وكان ذلك سبب هزيمة القوم، عن عبد الله بن مسعود وهو المرويّ عن الصادق عليه السلام[1] ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا﴾ وقادراً على ما يشاء ﴿عَزِيزًا﴾ لا يمتنع عليه شيء.

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

ثمّ ذكر سبحانه ما فعل باليهود من بني قريظة فقال: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾ أي: الّذين عاونوا المشركين من الأحزاب أنزلهم الله من قلاعهم ﴿وَقَذَفَ﴾ الله ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ أي: أوقع في قلوب بني قريظة ﴿الرُّعْبَ﴾ حتّى سلّموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم للسبي ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم الصبيان والنسوان، وتقديم المفعول على الفعل في قوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ شدّة الاهتمام ببيان المفعول كما أنّ الإنزال بعد قذف الرعب حصل ولكن لمّا كان بيان الإنزال أهمّ من بيان قذف الرعب قدّم ذكر الإنزال مع أنّ قذف الرعب كان قبل وقوع الإنزال.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ لأنّ المؤمنين نزلوا أرضهم واستولوا عليها ثمّ أخذوا أموالهم ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ بعد، قيل: المراد قلاعهم. وقيل: المراد الروم وأرض فارس ولمّا ملّكهم تلك البلاد ووعدهم

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٤٦؛ وبحار الأنوار، ج٢٠، ص١٩٦.

بغيرها دفع استبعاد الضعفاء بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

وروى الزهريّ عن عبد الرّحمن بن عبد اللّه بن كعب بن مالك عن أبيه قال: لمّا انصرف النبيﷺ مع المسلمين عن الخندق ووضع عنه اللامة واغتسل واستحمّ تبدّا له جبرئيل عليه السلام غديرك من محارب أراك قد وضعت عنك اللامة وما وضعناه بعد فوثب رسول اللّهﷺ فزعاً فعزم على الناس أن لا يصلّوا صلاة العصر حتّى يأتوا قريظة فلبس الناس السلاح فلم يأتوا بني قريظة حتّى كادت الشمس أن تغرب واختصم الناس فقال بعضهم: إنّ رسول اللّه عزم علينا أن لا نصلّي حتّى نأتي قريظة فإنّما نحن في عزمة رسول اللّه فليس علينا إثم وصلّى طائفة من الناس احتساباً وتركت طائفة منهم الصلاة حتّى غربت الشمس فصلّوها حين جاءوا قريظة.

قال عروة: إنّهﷺ بعث عليّاً على المقدّم ودفع اليه اللّواء وأمره أن ينطلق حتّى يقف بهم على حصن بني قريظة ففعل وخرج رسول اللّهﷺ على آثارهم؛ فمرّﷺ على مجلس من الأنصار في بني غنم ينتظرون رسول اللّه فزعموا أنّه قال: «مرّ بكم الفارس آنفاً» فقالوا: مرّ بنا دحية الكلبيّ على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج ؛ فقال رسول اللّه: «ليس ذلك بدحية ولكنه جبرئيل أرسل إلى بني قريظة ليزلزلهم ويقذف في قلوبهم الرعب».

قالوا: وسار عليّ عليه السلام حتّى دنا من الحصن سمع منهم مقالة قبيحة لرسول اللّه فرجع حتّى لقي رسول اللّه بالطريق فقال: «يا رسول الله عليك أن لا تدنو من هؤلاء»، قال: «أظنّك سمعت لي منهم أذى» فقال: «نعم» فقالﷺ: «لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً». فلمّا دنا رسول اللّه من حصونهم قال: «يا إخوة القردة والخنازير هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمة؟» فقالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً.

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمسة وعشرين يوماً حتّى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب وكان حيّ بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت غطفان وقريش فلمّا أيقنوا أنّ رسول الله غير منصرف عنهم حتّى يناجزهم قال كعب بن أسيد: يا معشر اليهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإنّي عارض عليكم خلالاً[1] ثلاثاً فخذوا أيّها شئتم قالوا: ما هن؟ قال: نبايع هذا الرجل ونصدّقه فو الله لقد تبيّن لكم أنّه نبيّ مرسل وأنّه الّذي تجدونه في كتابكم فتأمنوا على دمائكم وأموالكم ونسائكم فقالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره، فقال: فإذا أبيتم عليّ هذا فهلمّوا فنقتل أبناءنا ونساءنا ثمّ نخرج إلى محمّد رجالاً مصلتين بالسيوف لم نترك وراءنا ثقلاً يهمّنا حتّى يحكم الله بيننا وبين محمّد فإن نهلك لم نترك وراءنا نسلاً يهمّنا وإن نظهر لنجدنّ النساء والأبناء بعد ذلك فقالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم عليّ هذه فإنّ الليلة ليلة السبت وعسى أن يكون محمّد وأصحابه قد أمنوا فانزلوا لعلّنا نصيب منهم غيرة[2] فقالوا: نفسد سبتنا ونحدث فيها ما أحدث من كان قبلنا فأصابهم ما قد علمت من المسخ، فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمّة ليلة واحدة من الدهر حازماً.

قال الزهري: وقال رسول الله حين سألوه أن يحكّم فيهم رجلاً: «اختاروا من شئتم من أصحابي». فاختاروا سعد بن معاذ فرضي بذلك النبي ﷺ فنزلوا على حكم سعد بن معاذ ؛ فأمر رسول الله بسلاحهم ؛ فجعل في قبّة وأمرهم فكفوا وأوثقوا وجعلوا في دار أسامة وبعث النبي ﷺ إلى سعد بن معاذ فجيء؛ فحكم بما هو الأصلح بأن تقتل مقاتليهم وتسبى ذراريّهم ونساءهم

١ـ جمع الخلة بالفتح: الخصلة.

٢ـ الغيرة: الغارة.

وتغنم أموالهم وأنّ عقارهم للمهاجرين دون الأنصار وقال للأنصار: إنّكم ذوو عقار وليس للمهاجرين عقار فكبّر رسول اللّه وقال لسعد: **«قد حكمت فيهم بحكم الله عزّ وجلّ»**. وفي رواية: **«قد حكمت فيهم يا سعد بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»**. و«أرقعة» جمع رقيع اسم سماء الدنيا.

فقتل رسول اللّه مقاتليهم وكانوا في ما زعموا ستّمائة مقاتل وسبى سبعمائة وخمسين وروي أنّهم قالوا لكعب بن أسيد وهم يذهب بهم إلى رسول اللّه إرسالا: يا كعب ما ترى يصنع بنا؟ قال كعب: هو واللّه القتل. وأتي بحيي بن أخطب عدوّ اللّه عليه حلّة فاختيّة قد شقّقها عليه من كلّ ناحية كموضع الأغلّة لئلّا يسلبها ويداه مجموعة إلى عنقه بحبل فلمّا بصر به رسول اللّه فقال: **«أما والله ما لمت نفسي على عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل»**. ثمّ جلس فضرب عنقه ثمّ قسّم رسول اللّه نساءهم وأبناءهم وأموالهم على المسلمين وبعث رسول اللّه ﷺ بسبايا منهم إلى نجد مع سعد بن الأنصاريّ فابتاع بهم خيلاً وسلاحاً.

قالوا: فلمّا انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ فرجع رسول اللّه إلى خيمته الّتي ضربت عليه في المسجد وروي عن جابر بن عبد اللّه الأنصاريّ قال: جاء جبرئيل؟ إلى رسول اللّه ﷺ فقال: **«من هذا العبد الصالح الذي مات؟ فتحت له أبواب السماء وتحرّك واهتزّ له العرش»**. فخرج رسول اللّه فإذا سعد بن معاذ قد قبض.[1]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٤٦. وبحار الأنوار، ج٢٠، ص٢١٣.

وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾
يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ
ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

سبب النزول: قال المفسّرون: إنّ أزواج النبي ﷺ سألته شيئاً من عرض الدنيا وطلبن منه زيادة في النفقة فأبى رسول الله منهنّ شهرا فنزلت آية التخيير وهو قوله: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ وكنّ يومئذ تسعاً عائشة وحفصة وأمّ حبيبة بنت أبي سفيان وسودة بنت زمعة وأمّ سلمة بنت أبي أميّة فهؤلاء من قريش وصفيّة بنت حيّ بن أخطب الخيبريّة وميمونة بنت الحارث الهلاليّة وزينب بنت جحش الأسديّة وجويريّة بنت الحارث المصطلقيّة.

المعنى: ﴿قُل﴾ يا محمّد ﴿لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ﴾ سعة العيش في الدنيا وكثرة المال ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي: أعطيكنّ متعة الطلاق بتوفير المهر وأعطيكنّ نحلة ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ والسراح الجميل الطّلاق بغير خصومة ومشاجرة.

القميّ: كان سبب النزول أنّه لمّا رجع رسول الله ﷺ من غزوة خيبر وأصاب كنز آل أبي الحقيق قلن أزواجه: أعطنا ما أصبت فقال لهنّ النبي: «قسّمته بين المسلمين على ما أمر الله». فغضبن من ذلك وقلن: لعلّك ترى أنّك إن طلّقتنا إذا لا نجد الأكفاء من قومنا فأنف الله لرسوله فأمره أن يعتزلهنّ فاعتزلهنّ رسول الله ﷺ في غرفة أمّ إبراهيم تسعة وعشرين يوماً حتّى حضن وطهرن.

ثمّ أنزل هذه الآية فلمّا قرأها رسول الله فأول من قامت منهنّ أمّ سلمة فقالت: قد اخترت الله ورسوله فقمن كلّهنّ فعانقنه وقلن مثل ذلك فأنزل الله

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾[1]. قال الصادق عليه السلام: «من آوى فقد نكح ومن أرجى فقد طلّق»[2] فقوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ مع هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ....﴾ وقد أخّرت عنها في التأليف. وعن الباقر عليه السلام: «إنّ بعض نساء النبيّ قال: أيرى محمّد أنّه لو طلّقنا إذا لا نجد الأكفاء فغضب الله عزّ وجلّ له من فوق سبع سماوات فأمره فخيّرهنّ»[3]. وسئل الباقر عليه السلام عن رجل خيّر امرأته فاختارت نفسها هل تبين؟ قال: «لا إنّما هذا كان شيء لرسول الله خاصّة امر بذلك ففعل ولو اخترن أنفسهنّ لطلّقهنّ»[4].

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: وإن أردتنّ طاعة الله وطاعة رسوله والصبر على ضيق المعاش والجنّة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ﴾ العارفات المطيعات له ﴿مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: بمعصية ظاهرة فأدبهنّ الله وهدّدهنّ المتوقّي عمّا يسوء النبيّ وأوعدهنّ بتضعيف العذاب فقال سبحانه: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ﴾ في الآخرة ضعفين أي: مثلي ما يكون على غيرهنّ وذلك لأنّ نعم الله عليهنّ أكثر لمكانة النبيّ صلى الله عليه وآله منهنّ ولنزول الوحي في بيوتهنّ فإذا كانت النعمة عليهنّ أعظم وأوفر كانت المعصية منهنّ أفحش والعقوبة بها أعظم وأكثر.

فالمعنى أنّها يزاد في عذابها ضعف كما زيد في ثوابها ضعف كما في قوله: ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: كان عذابها على الله هيّناً.

١ـ سورة الأحزاب: ٥١.

٢ـ انظر: الكافي، ج٥، ص٣٨٨ ؛ ومستدرك الوسائل، ج١٥، ص٣١٠.

٣ـ الكافي، ج٦، ص١٣٨.

٤ـ الكافي، ج٦، ص١٣٧ ؛ والاستبصار، ج٣، ص٣١٢.

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ بيّن سبحانه زيادة في ثوابهنّ كما بيّن زيادة عقابهنّ ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ في مقابلة قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ وهاهنا لطيفة وهي عند إتيان الأجر ذكر المؤتي وهو الله وعند العذاب لم يصرّح بالمعذّب فقال: ﴿يُضَٰعَفْ﴾ إشارة إلى كمال الرحمة والكرم. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ وصف رزق الآخرة بكونه ﴿كَرِيمًا﴾ مع أنّ الكريم لا يكون إلّا وصفا للرازق لأنّ رزق الدنيا ولو أنّه منه سبحانه لكنّه مقدّر على أيدي الناس مثل أنّ التاجر يسترزق من السوق والصنّاع من المستعملين والملوك من الرعيّة والرعيّة بعضهم من بعض بالأسباب فالرزق في الدنيا لا يأتي بنفسه وإنّما هو مسخّر للغير يمسكه ويرسله وأمّا في الآخرة فلا يكون له مرسل وممسك فهو الّذي يأتي بنفسه فلذلك يوصف رزق الآخرة بالكريم وبالجملة فمعنى الرزق الكريم ما سلم من كلّ آفة ونقصان.

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ

﴿اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾

ثمّ أظهر سبحانه فضلهنّ على سائر النساء بقوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ ولم يقل: كواحدة من النساء لأنّ «أحد» للنفي العامّ أي: ليس قدركنّ كقدر غيركنّ من النساء وأنتنّ أكرم وأنا بكنّ أرحم وثواب عملكنّ أعظم لمكانتكنّ من رسول الله ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ الله وشرط لهنّ هذا الشأن بشرط التقوى فإنّ الأكرم عند الله هو الأتقى.

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ فأدبهنّ الله عن كلّ قبيح ومنعهنّ عن مقدّماته وهي المحادثة مع الرّجال بالرقّة أي: لا ترفقن القول ولا تلنّ الكلام مع الرجال ولا تخاطبن الأجانب مخاطبة يؤدي إلى طمعهم ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ وفجور وشهوة فإنّ ذلك أبعد من الطمع لأهل الريبة ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ مستقيماً جميلاً بريئاً من التهمة موافقاً للدين ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أمرهنّ بالاستقرار في بيوتهنّ أي: أثبتن في منازلكنّ والزمنها وإن كانت مادة الكلمة من وقر يقر فمعناه كنّ من أهل الوقار والسكينة ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ أي: لا تخرجن على عادة النساء اللّاتي في الجاهليّة ولا تظهرن زينتكنّ كما كنّ يظهرن ذلك.

و«التبرّج» إظهار المرأة محاسنها مأخوذ من «البرج» وهو السعة في العين، وقيل: التبرّج التبختر والتكبّر في المشي. وقيل: هو أن تلقي الخمار على رأسها ولا تشدّه فتوارى قلائدها وقرطيها فيبدو ذلك منها. والمراد «بالجاهليّة الأولى» ما كان قبل الإسلام وقبل ما كان بين آدم ونوح ثمانمائة سنة وقيل: ما بين عيسى ومحمّدﷺ. وقيل برج الجاهليّة الأولى أنّهم كانوا يجوّزون أن تجمع امرأة واحدة زوجاً وخلّاً فتجعل لزوجها نصفها الأسفل وتجعل لزوجها ولخلّها نصفها الأعلى يقبّلها ويعانقها.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: الأداء في أوقاتها وشرائطها ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة في أموالكنّ ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فيما يأمركنّ به وينهاكنّ عنه. ثمّ قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ والرجس عمل الشيطان وما ليس لله فيه رضى. والتعريف في «البيت» للعهد ؛ والمراد به بيت النبوّة والرسالة ؛ والعرب تسمّي ما ينتسب به بيتاً ولهذا سمّوا الأنساب بيوتاً فقالوا: بيوتات العرب، يريدون النسب. قال الشاعر:

ألا يا بيـت بالعليـاء بيـت ولو لا حبّ أهلك ما أتيت

وقيل: البيت «بيت الحرام» وقيل: البيت مسجد رسول الله، وأهله من مكّنه رسول الله فيه ولم يخرجه ولم يسدّ بابه.

وقد اجتمعت الأمّة بأجمعها على أنّ المراد بأهل البيت في الآية أهل بيت نبيّنا ثمّ اختلفوا فقال عكرمة: أراد أزواج النبيّ ﷺ ؛ وقال أبو سعيد الخدريّ وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع وعائشة وأمّ سلمة: إن الآية مختصّة برسول الله وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام[1]. وإنّما ترك خطاب المؤمنات وخاطب بخطاب المذكّرين بقوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ القميّ قال: ثمّ انقطعت مخاطبة النساء وخاطب أهل بيت الرسول فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ ....﴾.

وعن الباقر عليه السلام قال: «نزلت هذه الآية في رسول الله وعليّ وفاطمة والحسن والحسين وذلك في بيت أمّ سلمة زوجة الرسول ؛ فدعا رسول الله ﷺ أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ثمّ ألبسهم كساء له خيبريّ ودخل معهم فيه ثمّ قال: اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي الّذين وعدتني فيهم ما وعدتني اللّهمّ أذهب عنهم الرجس وطهّرهم

١ ـ تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٢٧٦.

تطهيراً، فقالت أمّ سلمة: وأنا معهم يا رسول الله قال: أبشري يا أمّ سلمة فإنّك على خير»[١].

وعن زيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام: «أنّ جهّالاً من الناس يزعمون أنّه إنّما أراد الله بهذه الآية أزواج النبيّ وقد كذبوا وأثموا وأيمن الله أنّه لو عنى سبحانه أزواج النبيّ لقال: «ليذهب عنكنّ الرجس ويطهّركنّ تطهيراً» ولكان الضمير مؤنّثاً» كما قال: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ ولا تبرّجن ولستنّ لأحد من النساء.

والعيّاشيّ عن الباقر عليه السلام: «ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن إنّ الآية ينزل أوّلها في شيء وأوسطها في شيء». وآخرها في شيء ثم قال: «﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ ... وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ من ميلاد الجاهليّة[٢] ومن الذنوب والمعاصي ويلبسكم خلع الكرامة».

وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال: «يعني: الأئمة وولايتهم من دخل فيها دخل في بيت النبيّ».[٣] وعنه عليه السلام عن النبيّ أنّه قال في حديث: «أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي فإنّي سألت الله أن لا يفرّق بينهما حتّى يوردهما عليّ الحوض فأعطاني ذلك». وقال: «لا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم». وقال: «إنّهم لن يخرجوكم عن باب هدى ولن يدخلوكم في باب ضلالة». وقال: «لو سكت رسول الله ولم يبيّن من أهل بيته لادّعاها إلّا فلان ولكنّ الله أنزل في كتابه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ ....﴾ وكان عليّ وفاطمة والحسن والحسين فأدخلهم رسول الله تحت الكساء في بيت أمّ سلمة ثمّ قال: اللّهمّ إنّ لكلّ نبيّ أهلاً وثقلاً وهؤلاء أهل بيتي وثقلي. فقالت أمّ سلمة: ألست من أهلك؟ فقال صلى الله عليه وآله: إنّك على خير ولكنّ هؤلاء أهلي وثقلي». وقال

١ـ تفسير الصافي، ج ٤، ص ١٨٧؛ وبحار الأنوار، ج ٣٥، ص ٢٠٧.

٢ـ تفسير العياشي، ج ١، ص ١٧.

٣ـ الكافي، ج ١، ص ٤٢٣.

في آخر الحديث: «الرجس هو الشكّ والله لا نشكّ في ربّنا أبداً»[١].

وفي «الخصال» في احتجاج عليّ على أبي بكر: «فأنشدك بالله ألي ولأهلي وولدي نزلت آية التطهير أم لك ولأهل بيتك؟» قال: بل لك ولأهل بيتك قال: «فأنشدك بالله أنا صاحب دعوة رسول الله وأهلي وولدي يوم الكساء حين قال رسول الله ﷺ: اللّهمّ هؤلاء أهلي إليك لا إلى النار أنا أم أنت؟» قال: بل أنت وأهل بيتك. وفي احتجاجه على الناس يوم الشورى قال: «أنشدكم الله هل فيكم أحد أنزل الله فيه آية التطهير على رسول الله فأخذ رسول الله كساء خيبريّاً فضمّني فيه وفاطمة والحسن والحسين ثمّ قال: يا ربّ هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً غيري؟» قالوا: اللّهمّ بلى[٢].

وفي «العلل» عن الصادق عليه السلام: «نزلت هذه الآية في النبيّ وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين فلمّا قبض الله نبيّه كان أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين ثمّ وقع تأويل قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ لهم وكان عليّ بن الحسين ثمّ جرت في الأئمّة من ولده الأوصياء فطاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله»[٣].

وبالجملة فالروايات في نزول هذه الآية في شأن الخمسة من طريق الخاصّة والعامّة أكثر من أن تحصى، مثل الثعلبيّ. وقد روى في «المجمع» من طريق العامّة منها ما ذكر من أراده فليطلبه هناك[٤].

واستدلّت الشيعة على اختصاص الآية بهذه الخمسة الطاهرة بأن قالوا: إنّ لفظة ﴿إِنَّمَا﴾ محقّقة لما أثبت بعدها نافية لما لم يثبت فإنّ قول القائل:

١ـ الكافي، ج ١، ص ٢٨٧.

٢ـ الخصال، ص ٥٥.

٣ـ علل الشرايع، ج ١، ص ٢٠٥.

٤ـ مجمع البيان، ج ٨، ص ١٥٧.

إنّما لك عندي درهم وإنّما في الدار زيد يقتضي أنّه ليس عنده سوى الدرهم وليس في الدار سوى زيد وإذا تقرّر هذا فلا تخلو الإرادة أن يكون إرادة محضة أو الإرادة الّتي يتبعها التطهير وإذهاب الرجس، ولا يجوز الوجه الأوّل لأنّ اللّه أراد من كلّ مكلّف هذه الإرادة المطلقة ولا اختصاص لها بأهل البيت دون سائر الخلق والمكلّفين ولأنّ هذا القول يقتضي المدح والتعظيم لشأنهم بغير شكّ وشبهة ولا مدح واختصاص في الإرادة المجرّدة فثبت الوجه الثاني. وأيضاً قد اتّفقوا أنّ هذه الإرادة قد وقعت لأنّ عصمتهم قد ثبتت بالإجماع من جميع القبائح وقد علمنا أنّ من عدا هؤلاء من أهل البيت غير مقطوع في عصمته. فثبت أنّ الآية مختصّة لهم لبطلان تعلّقها بغيرهم حيث لم يقطع بعصمة غيرهم ومتى قيل. إنّ صدر الآية وما بعدها في الأزواج فالجواب أنّ هذا أمر لا ينكره من عرف عادة الفصحاء وأهل المحاورة في الكلام فإنّهم يذهبون من خطاب إلى غيره ويعودون إليه والقرآن مملوء من ذلك وكذلك كلام العرب مثل الجمل الواقعة في الكلام.

ثمّ عاد سبحانه إلى ذكر حكم الأزواج فقال: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ المعنى واشكرن اللّه تعالى إذ صيّركنّ في بيوت يتلى فيها الوحي والقرآن والسنّة وقيل: المعنى احفظن ما يتلى عليكنّ من القرآن لتعملنّ بموجبه وهذا حثّ لهنّ على حفظ القرآن والسنّة ومذاكرتهنّ بهما والخطاب وإن كان لهنّ فغيرهنّ يشاركهنّ فيه لأنّ بناء الشريعة على القرآن والسنّة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ بأوليائه ﴿خَبِيرًا﴾ بجميع أعمال خلقه فيأمرهم بفعل ما فيه صلاحهم وينهاهم عن ما فيه فسادهم. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾.

سبب النزول: قال مقاتل بن حيّان: لمّا رجعت أسماء بنت عميس من

الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب دخلت على نساء رسول الله ﷺ فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن لا فأتت رسول الله ﷺ. فقالت: يا رسول الله إنّ النساء لفي خيبة وخسار فقال ﷺ: «وممّ ذلك؟» قالت: لأنّهن لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾[1] أي: إنّ الداخلين في الإسلام خالصا من الرجال والنساء المخلصين منهم والمخلصات أو المعنى المستسلمين والمنقادين من الرجال والنساء لطاعة الله.

﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: والمصدّقين بالتوحيد والمصدّقات وعند بعض المفسّرين أنّ الإسلام والإيمان واحد وإنّما كرّر لاختلاف اللفظين ولكنّ البعض منهم يقولون: إنّها مختلفان فالإسلام الإقرار باللسان والإيمان التصديق بالقلب ويعضد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾[2] وقيل: الإسلام اسم الدين والإيمان التصديق به قال البخاري: فسّر رسول الله المسلم والمؤمن بقوله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه».[3] و«المؤمن من لمن جاره بوائقه وما آمن بي من بات شبعان وجاره طاو»[4].

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ يعني: الدائمين على الأعمال الصالحة والدائمات والداعين والداعيات ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في أقوالهم وإيمانهم وفيما سرّهم وساءهم ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الطاعة وعلى ما ابتلاهم الله به ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ المتواضعين لله الخاضعين. وقيل: معناه الخائفين

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٥٨؛ وتفسير الصافي، ج٤، ص١٩٠.

٢ـ سورة الحجرات: ١٤.

٣ـ الكافي، ج٢، ص٢٣٤.

٤ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٥٩.

والخائفات ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ أي: المخرجين الصدقات والزكاة من أموالهم ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ لله بنيّة صادقة ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ من الزنا والفجور، وحذف لدلالة الكلام عليه. ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ وروى أبو سعيد الخدريّ عن النبيﷺ قال: «إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فتوضّأ وصلّيا كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»[1] وقال بعض: لا يكون العبد من الذاكرين حتّى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً.

وروي عن الصادقعليه السلام أنّه قال: «من بات على تسبيح فاطمة عليها السّلام كان من الذاكرين كثيراً والذاكرات»[2].

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم﴾ لهؤلاء الموصوفين بهذه الصفات والخصال ﴿مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ في الآخرة ولعلّ المراد أنّهم في جميع هذه الأحوال يذكرون الله ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنيّة صادقة متوجّهة إلى قرب الله وقد قرّر سبحانه في أكثر المواضع الذكر بالكثرة مثل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[3] وكذلك قال سبحانه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[4] وإنّ الإنسان الأفضل له أن يكثر من الأفعال البدنيّة مثل الصلاة والتسبيح ولكنّه لمّا كان محتاجاً إلى الأكل والشرب وتحصيل مأكوله ومشروبه وذلك يمنعه أن يشتغل دائما بالصلاة وهو غير ممكن للغالب أو متعسّر ولكن لا مانع له من أن يذكر الله وهو آكل ويذكره وهو شارب أو ماش أو بائع أو شار وجعل سبحانه لخلقه هذا الذكر مندوحة للعباد في العبادة وإلى هذا أشار

١ـ وسائل الشيعة، ج ٤، ص١٢٥٨ ؛ وبحار الأنوار، ج ٨٤، ص١٥٨.

٢ـ وسائل الشيعة، ج ٤، ص١٠٢٦ ؛ وبحار الأنوار، ج ٢٢، ص١٧٤.

٣ـ سورة الأحزاب: ٤١.

٤ـ سورة الأحزاب: ٢١.

سبحانه بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾[1].

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ
مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ
لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ
وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ
فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ
فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا
كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ
وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا
يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ
وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ سبب النزول: نزلت في زينب بنت جحش الأسديّة وكانت بنت أميمة بنت عبد المطّلب ؛ عمّة رسول الله ﷺ فخطبها رسول الله على مولاه زيد بن حارثة ورأت أنه يخطبها على نفسه فلمّا عرفت أنه يخطبها على زيد أبت وأنكرت وقالت: أنا ابنة عمّتك فلم أكن لأفعل وكذلك قال أخوها عبد الله بن جحش فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ....﴾ أي: لعبد الله وأخته فلمّا نزلت الآية قالت: رضيت يا رسول الله ﷺ وجعلت أمرها بيد رسول الله وكذلك أخوها فأنكحها رسول الله زيداً فدخل بها وساق إليها رسول الله عشرة دنانير مهرا وخماراً وملحفة ودرعاً وإزاراً وخمسين مداً من الطعام وثلاثين صاعا من تمر.

١ـ سورة آل عمران: ١٩١.

وقالت زينب: خطبني عدّة من قريش فبعثت أختي حمنة بنت جحش إلى رسول الله لتستشيره. فأشار ﷺ بزيد فغضبت أختي وقالت: أتزوّج بنت عمّتك مولاك ثمّ أعلمتني أختي بالأمر فغضبت أشدّ من غضبها فنزلت الآية فأرسلت إلى رسول الله وقلت: زوّجني ممّن شئت فزوّجني من زيد.

وقيل: نزلت في أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت وهبت نفسها للنبيّ فقال: «قد قبلت». وزوّجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالا: إنّا أردنا رسول الله فزوّجنا عبده، فنزلت الآية.

وذكر عليّ بن إبراهيم في تفسيره أنّ رسول الله كان شديد الحبّ لزيد وكان إذا أبطأ عليه زيد أتى منزله فيسأل عنه فأبطأ عليه يوماً ؛ فأتى رسول الله منزله ؛ فإذا زينب جالسة وسط حجرتها تسحق طيباً بفهر لها ؛ قال: فدفع رسول الله الباب فلمّا نظر إليها قال: «سبحان الله خالق النور تبارك الله أحسن الخالقين»، ورجع فجاء زيد وأخبرته زينب بما كان فقال لها: لعلّك وقعت في قلب رسول الله فهل لك أن أطلّقك حتّى يتزوّجك رسول الله؟ فقالت أخشى أن تطلّقني ولا يتزوّجني. فجاء زيد إلى رسول الله إلى تمام القصّة ؛ فنزلت الآية: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ.... ﴾[1].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: إذا أوجب الله ورسوله أمراً وحكماً به لا يكون الاختيار لهم بما شاءوا من أمرهم وليس لأحد مخالفته وترك ما امر به إلى غيره. ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما يختاران ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ وذهب عن الحقّ ذهاباً ظاهراً.

ثمّ خاطب النبي ﷺ فقال: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ ﴾ واذكر يا محمّد حين تقول: ﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالهداية والإيمان ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق وهو زيد

١ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ١٧٢.

وقيل: أنعم اللّه عليه بمحبّة الرسول وأنعم الرسول عليه بالتبنّي ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني: زوجك زينب وتقول: لا تطلّقها واحبسها وهذا الكلام يقتضي مشاجرة جرت بينهما حتّى وعظه الرسول وقال له: أمسكها واتّق اللّه في مضارّتها ومفارقتها ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ والّذي أخفاه صلى الله عليه وآله في نفسه هو أنه إن طلّقها زيد ويزوّجها خشي لائمة الناس أن يقولوا: أعجبته وأمره بطلاقها ثمّ تزوّجها وقيل: إنّ الّذي أخفاه في نفسه هو أنّ اللّه سبحانه أعلمه أنّها ستكون من أزواجه وأنّ زيداً سيطلّقها فلمّا جاء زيد وقال له: أريد أن أطلّق زينب قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ فقال سبحانه: لم قلت: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ وقد أعلمتك أنّها ستكون من أزواجك؟

وروي ذلك عن عليّ بن الحسين عليه السلام: «**وهذا التأويل مطابق لتلاوة الآية لأنّه سبحانه أعلم أنّه يبدئ ما أخفاه ولم يبد سبحانه غير التزويج فقال: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ فلو كان الّذي أضمره صلى الله عليه وآله محبّتها أو إرادة طلاقها لأظهره الله ذلك مع وعده بأنه يبديه فدلّ ذلك على أنّه صلى الله عليه وآله عوتب على قوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ مع علمه بأنّها ستكون زوجته وكتمانه فيما أعلمه الله السبب فيه أنّه صلى الله عليه وآله استحيا أن يقول لزيد: إنّ الّتي تحتك ستكون امرأتي أو النبيّ صلى الله عليه وآله استحسنها تمنّى أن يفارقها زوجها فيتزوّجها**».

وقيل: كان النبيّ صلى الله عليه وآله يريد أن يتزوّج بها إذا فارقها زيد ولكن عزم أن لا يتزوّجها مخافة أن يطعنوا عليه فأنزل اللّه هذه الآية كيلا يمتنع عن فعل المباح خشية ملامة الناس ولم يرد بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ خشية التقوى لأنّه صلى الله عليه وآله كان يخشى اللّه حقّ الخشية ويتّقي حقّ تقاته ولكنّه أراد خشية الاستحياء لأنّ الحياء كان غالباً على شيمته الكريمة كما قال سبحانه:

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾[1].

وقيل: إنّ زينب كانت شريفة فلمّا زوّجها رسول اللهﷺ من زيد مولاه ولحقها بذلك بعض العار فأراد أن يزيدها شرفاً بأن يتزوّجها لأنّهﷺ كان السبب في تزويجها لزيد فعزم أن يتزوّج بها إذا فارقها زيد.

وقيل: إنّ العرب كانوا ينزلون الأدعياء منزلة الأبناء في الحكم فأراد أن يبطل ذلك بالكلّيّة وينسخ سنّة الجاهليّة فكان يخفي في نفسه تزويجها لهذا الغرض كيلا يقول الناس: إنّه تزوّج بامرأة ابنه ولهذا قال: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ ويؤيّد هذا التأويل قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ والمعنى: فلمّا قضى زيد حاجته من نكاحها فطلّقها وانقضت عدّتها ولم يكن في قلبه ميل إليها ولا وحشة له من فراقها فإنّ معنى القضاء هو الفراغ من الشيء على التمام زوّجناكها وأذنّا لك في نكاحها وإنّما فعلنا ذلك توسعة للمؤمنين حتّى لا يكون عليهم إثم ويعلموا جواز أزواج أدعيائهم الّذين تبنّوهم إذا قضى الأدعياء حاجتهم وفارقوهنّ والغرض بيان حكم أنّ المتبنّي غير الابن من النسب أو الرضاع في تحريم امرأته إذا طلّقها على الأب. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ كائناً لا محالة وفي الحديث: **«إنّ زينب كانت تفتخر على سائر نساء النبيّﷺ وتقول: زوّجني الله من النبيّ وأنتنّ زوّجكنّ أولياؤكنّ»**.

وروى ثابت عن أنس بن مالك قال: لمّا انقضت عدّة زينب قال رسول اللهﷺ لزيد: **«اذهب فاذكرها عليّ»**، قال زيد: فانطلقت فقلت: يا زينب ابشري قد أرسلني رسول الله بذكرك وجاء رسول الله فدخل عليها بغير إذن لقوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾[2].

وفي رواية أخرى فانطلقت فإذا هي تخبز عجينها فلمّا رأيتها عظمت

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٦٢؛ وبحار الأنوار، ج٢٢، ص١٧٨.

٢ـ بحار الأنوار، ج٢٢، ص١٧٩.

في نفسي حتّى ما أستطيع أن أنظر إليها حين علمت أنّ رسول الله ذكرها فولّيتها ظهري وقلت: يا زينب ابشري فإنّ رسول الله يخطبك ففرحت بذلك وقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتّى يأمرني ربّي فقامت إلى مسجدها ونزل: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ فتزوّجها النبيّ ودخل بها وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتّى امتدّ النهار[1]. وعن الشعبيّ قال: كانت زينب تقول للنبيّ: إنّي لأدلّ عليك بثلاث ما من نسائك تدلّ بهن: جدّي وجدّك واحد، وإنّي أنكحنيك الله في السماء، وإنّ السفير لجبرئيل.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي: ما كان على النبيّ من إثم وضيق فيما أحلّ الله له من التزويج بامرأة الابن المتبنّي بل أوجب عليه من التزويج بزينب ليبطل حكم الجاهليّة.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: هذا الحكم وهذه السنّة كسنّة الله في الأنبياء الماضين وشريعة الله فيهم في زوال الحرج عن هذا الأمر أو في كثرة الأزواج سنّة سنّها الله في الأنبياء وأممهم كما فعله داود وسليمان وكان لداود مائة امرأة ولسليمان ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سريّة كما قال النبيّﷺ: «النكاح سنّتي فمن رغب عن سنّتي فليس منّي»[2] أو الحديث: «فمن رغب عنه فقد رغب عن سنّتي».

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي: كان ما ينزله الله على أنبيائه من الأمر الّذي يحكم به قضاء مقضيّاً جارياً على مقدار من غير زيادة ولا نقصان.

ثمّ وصف سبحانه الأنبياء الماضين وأثنى عليهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: يؤدّونها إلى من بعثوا إليهم ولا يكتمونها ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٦٤ ؛ وبحار الأنوار، ج٢٢، ص١٧٩.

٢ـ شرايع الإسلام، المحقق الحلّي، ج٢، ص٤٩٢ ؛ ومسالك الأفهام، ج٧، ص١٠.

ويخافون اللّه مع ذلك في ترك ما أوجبه عليهم ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فيما يتعلّق بالأداء والتبليغ وفي هذا دلالة على أنّ الأنبياء لا يجوز عليهم التقيّة في تبليغ الرسالة.

ومتى قيل: فكيف ما قال: لنبيّنا ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ ؟

فالقول والجواب أنّه لم يكن ذلك فيما يتعلّق بالتبليغ وإنّما خشي المقالة القبيحة فيه والعاقل كما يتحرّز عن المضارّ يتحرّز عن إساءة الظنون به والقول المسيء به ولا يتعلّق شيء من ذلك بالتكليف.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ حافظاً لأعمال خلقه ومحاسباً مجازياً عليها.

ولمّا تزوّج رسول اللّه صلى الله عليه وآله زينب قال الناس: إنّ محمّداً تزوّج امرأة ابنه فقال سبحانه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ الّذين لم يلدهم فبيّن سبحانه أنّه صلى الله عليه وآله ليس بأب لزيد فيحرم عليه زوجته فإنّ تحريم زوجة الابن متعلّق بثبوت النسب فمن لا نسب له لا حرمة لامرأته ولهذا أشار إليهم فقال: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ وقد ولد له أولاد ذكور إبراهيم والقاسم والطيّب والمطهّر فكان أباهم؛ وقد صحّ عنه أنّه صلى الله عليه وآله قال للحسن والحسين: «ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا»[1].

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ لا يترك ما أباحه اللّه بقول الجهّال ويجب عليكم طاعته لا بسبب الأبوّة بل بسبب النبوّة الّتي حقّها أعظم من حقّ الأبوّة ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: ختمت النبوّة به فشريعته ناسخة لجميع الشرائع وباقية إلى يوم القيامة وهذه فضيلة اختصّ صلى الله عليه وآله بها من دون الأنبياء وكذلك دينه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ لا يخفى عليه شيء من مصالح العباد وصحّ الحديث عن جابر بن عبد اللّه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنّما مثلي في الأنبياء مثل رجل بنى دارا فأكملها وحسّنها إلّا في موضع لبنة فكان من دخلها فيها ونظر إليها قال:

١ـ الحدائق الناظرة، ج١٢، ص٣٩٥؛ وعوالي اللئالي، ج٤، ص٩٣؛ وبحار الأنوار، ج٣٥، ص٢٦٦.

ما أحسنها إلّا في موضع هذه اللبنة قال: فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء» أورده البخاريّ ومسلم في صحيحيهما[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

ثمّ خاطب سبحانه عباده المؤمنين بعد أن أحكم أمر النبيّ فشرع بتاديب المؤمنين فأمرهم بكثرة الذكر ودوامهم عليه وإذا ذكرتموه فينبغي أن يكون ذكركم إيّاه على وجه التعظيم والتنزيه عن كلّ سوء وهو المراد بقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وقيل: المراد من التسبيح الصلاة والمراد من البكرة والأصيل المداومة وذلك لأنّ مريد العموم قد يذكر الطرفين ويفهم منهما الوسط كقوله ﷺ: «لو أنّ أوّلكم وآخركم»، ولم يذكر وسطكم وفهم منه المبالغة في العموم.

وروى ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال: «من عجز عن الليل أن يكابده وجبن عن العدوّ أن يجاهده وبخل بالمال أن ينفقه فليكثر ذكر الله عزّ وجلّ»[2] ثمّ اختلف في الذكر الكثير فقيل: أن لا ينساه أبداً وقيل: أن يذكره بصفاته العليا وأسمائه الحسنى وينزّهه عمّا لا يليق به وقيل: هو أن يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر على كلّ حال.

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٦٦. عن البخاري والمسلم.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٦٦ ؛ ومستدرك الوسائل، ج٥، ص٢٩٥.

وقد ورد عن أئمّتنا عليهم السلام أنّهم قالوا: «من قالها ثلاثين مرّة فقد ذكر الله ذكراً كثيراً»[1] وعن زرارة وحمران بن أعين عن الصادق عليه السلام قال: «من سبّح تسبيح فاطمة الزهراء فقد ذكر الله ذكراً كثيراً»[2].

وروى الواحديّ بإسناده عن الضحّاك بن مزاحم عن ابن عبّاس قال: جاء جبرئيل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: «يا محمّد قل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلّا بالله عدد ما علم وزنة ما علم وملء ما علم فإنّ من قالها كتب الله له بها ستّ خصال: كتب في الذاكرين الله كثيراً، وكان أفضل من ذكره بالليل والنهار، وجعل له غرساً في الجنّة وتحاتّت عنه خطاياه كما تحاتّ ورق الشجرة اليابسة فينظر الله إليه ومن نظر الله إليه لم يعذّبه»[3].

وقد قيل في قوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: المراد صلاة الصبح وصلاة العصر. وقال الكلبيّ: أمّا «البكرة» فصلاة الفجر وأمّا «الأصيل» فصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء الأخيرة وسمّي الصلاة تسبيحا لما فيها من التسبيح والتنزيه.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ والصلاة من الله المغفرة والرحمة والكرامة ومن الملائكة طلبهم إنزال الرحمة لكم من الله ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من الجهل إلى المعرفة ومن الضلالة إلى الهدى أو من ظلمات النار إلى نور الجنّة ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ وخصّ المؤمنين بالرحمة دون غيرهم لأنّه جعل الإيمان بمنزلة العلّة في إيجاب الرحمة.

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ أي: يحيّي بعضهم بعضاً يوم يلقون كرامة الله وثوابه بأن يقولوا: السلامة لكم. ولقاء الله لقاء ثوابه.

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٦٧.

٢ـ وسائل الشيعة، ج٤، ص١٠٢٣ ؛ وبحار الأنوار، ج٨٢، ص٣٣٢.

٣ـ تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٢٨٧.

وروي عن البراء بن عازب أنّه قال: يوم يلقون ملك الموت لا يقبض روح مؤمن إلّا سلّم عليه. فعلى هذا يكون المعنى تحيّة من ملك الموت يوم يلقونه أن يسلّم عليهم وليس إضمار قبل الذكر لأنّ ملك الموت مذكور في الملائكة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ وثواباً جزيلاً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ على أمّتك فيما يفعلونه من طاعة أو معصية وإيمان أو كفر لتشهد عليهم ولهم يوم القيامة ونجازيهم بحسبه ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعني وأطاعك بالجنّة ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاني وعصاك بالنار.

﴿وَدَاعِيًا﴾ وبعثناك داعياً ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ والإقرار بوحدانيته ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بعلمه وأمره ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ يهتدى بك في الدين كما يهتدى بالسراج «والمنير» الّذي يصدر النور من جهته إمّا بفعله وإمّا لأنّه سبب له فالقمر منير والسراج منير بهذا المعنى. وقيل: المراد بالسراج المنير القرآن والتقدير: بعثناك ذا سراج منير، وحذف المضاف.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ زيادة على ما يستحقّونه من الثواب. ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ نهى عن المداراة في الدعوة بسبب تصلّبهم أي: لا تستعمل لين الجانب في التبليغ والإنذار، كنّي عن ذلك بالنهي عن طاعتهم مبالغة في الزجر والمنع عن المنهيّ عنه ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أي: دع أذاهم إلى الله فإنّه يعذّبهم بأيديكم وبالنار.

وبيّن هذا المعنى قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: فوّض أمرك إليه والله كاف عبده والله وكيل عباده لعجزهم عن التصرّف.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ

وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

المعنى: لمّا بيّن سبحانه شأن نبيّه وأمره بتقوى الله وأدب عباده المؤمنين بمكارم الأخلاق فذكر في هذه الآية ما يتعلّق بجانب من تحت أيديهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ والتخصيص في الذكر بالمؤمنات إشعار وإرشاد بأنّ المؤمن ينبغي أن يتزوّج بالمؤمنة فإنّها أشدّ تحصينا لدينه أي: إذا تزوّجتم من المؤمنات ثمّ بعد العقد طلّقتموهنّ ولم تقاربوهنّ وتمسّوهنّ لم يثبت لكم عليهنّ عدّة ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ وتستوفونها بالعدد وتحصون عليها بالأقراء والأشهر وأسقط الله العدّة عن المطلّقة قبل المسيس لبراءة رحمها فإن شاءت تزوّجت عن يومها. ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ قال ابن عبّاس: هذا إذا لم يكن سمّي لها صداقا فإذا سمّي لها صداقا فلها نصفه ولا تستحقّ المتعة وهو المرويّ عن أئمّتنا والعمل عليه فحينئذ الآية عندنا الإماميّة محمولة على الّتي لم يسمّ لها مهرا فيجب لها المتعة أي: أن يجعلوا ويعطوها شيئاً ونحلة ويحسنون بها إحساناً يليق بها وعند الجماعة فمنهم من قال: يجب مع نصف المهر أيضاً المتعة بناء على حمل الأمر للوجوب ومنهم من قال: للاستحباب فيستحبّ أن يمتّعها مع نصف الصداق بشيء.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: طلّقوهنّ طلاقا للسنّة من غير ظلم عليهنّ وقيل: معناه سرّحوهنّ عن البيت فإنّه ليس عليها عدّة فلا يلزمها المقام في منزل الزوج سراحاً بغير أذيّة وقيل: السراح الجميل هو دفع المتعة بحسب الميسرة والمعسرة.

ثمّ خاطب النبيﷺ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: اللاتي أعطيت مهورهنّ حلال لك لأنّ المهر أجر على البضع والإيتاء قد يكون بالأداء وقد يكون بالالتزام، وقيل: هذا الحكم خاصّ للنبيّ دون أمّته والمشهور أنّ تقييد الإحلال لهﷺ ليس لبيان توقّف الحلّ على إتيان الصداق بل لإيثار الأولى والأفضل لهﷺ كتقييد إحلال المملوكة المسبيّة في قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾.

وبالجملة فذكر سبحانه للنبيّ ما هو الأولى فإنّ الزوجة الّتي أوتيت مهرها أطيب قلبا من الّتي لم تؤت والمملوكة المسبيّة أطيب من الّتي اشتراها الرجل لأنّها لا تدري كيف حالها وهذا معنى ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ من الإماء ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من الغنائم والأنفال وكانت مارية القبطيّة من الغنائم ومن الأنفال صفيّة وجويرية أعتقهما وتزوّجهما. ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ أي: وأحللنا لك بنات عمّك ﴿وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ من قريش ﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ من نساء بني زهرة اللاتي ﴿هَاجَرْنَ﴾ من قريش إلى المدينة وهذا الحكم كان قبل تحليل غير المهاجرات ثمّ نسخ شرط الهجرة في التحليل وعمّ الحكم. ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أي: وأحللنا لك امرأة مصدّقة بتوحيد الله وهبت نفسها منك بغير صداق أمّا غير المؤمنة إن وهبت نفسها لا يجوز ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي: إذا رغب النبيﷺ في نكاحها تحلّ له وينعقد النكاح له بلفظ الهبة وتحلّ له وهذا الحكم ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يشاركك أحد من المؤمنين في هذا الأمر.

وفي «الكافي» عن الباقرؑ: «جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول اللهﷺ فدخلت عليه وهو في منزل حفصة والمرأة متلبسة متمشّطة فدخلت على رسول الله فقالت: يا رسول الله إنّ المرأة لا تخطب الزوج وأنا امرأة أيّم لا زوج لي منذ دهر ولا

ولد فهل لك من حاجة فيّ؟ فإن تك فقد وهبت نفسي لك إن قبلتني فقال لها رسول الله: خيراً فدعا لها ثمّ قال: يا أخت الأنصار جزاكم الله عن رسول الله خيراً فقد نصرني رجالكم ورغبت فيّ نساؤكم فقالت لها حفصة: ما أقلّ حياك وأجرأك وأنهمك للرجال! فقال رسول الله: كفّي عنها يا حفصة فإنّها خير منك رغبت في رسول الله. ثمّ قال ﷺ للمرأة: انصرفي رحمك الله فقد أوجب الله لك الجنّة لرغبتك فيّ وتعرّضك لمحبّتي وسروري سيأتيك أمري إن شاء الله». فأنزل الله ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً﴾ الآية[1].

وفي «الخصال» عن الصادق قال: «تزوّج رسول الله ﷺ بخمس عشر امرأة ودخل بثلاث عشرة منهنّ وقبض عن تسع فأمّا اللّتان لم يدخل بهما فعمرة والشنباء، وأمّا ثلاث عشرة اللّواتي دخل بهنّ فأوّلهنّ خديجة بنت خويلد، ثمّ سودة بنت زمعة، ثمّ أمّ سلمة واسمها هند بنت أبي أميّة، ثمّ أمّ عبد الله ثمّ عائشة بنت أبي بكر، ثمّ حفصة بنت عمر، ثمّ زينب بنت خزيمة بن الحارث أمّ المساكين، ثمّ زينب بنت جحش، ثمّ جويرية بنت الحارث، ثمّ صفيّة بنت حيّ بن أخطب، فالّتي وهبت نفسها للنبيّ خولة بنت حكيم السلمي وكان له سريّتان: مارية القبطيّة وريحانة الخندقيّة. والتسع الّتي قبض عنهنّ عائشة وحفصة وأمّ سلمة وزينب بنت جحش وميمونة بنت الحارث وأمّ حبيب بنت أبي سفيان وصفيّة وجويرية وسودة. وأفضلهنّ خديجة بنت خويلد ثمّ أمّ سلمة ثمّ ميمونة»[2].

واختلف في أنّه هل كانت عند النبيّ امرأة وهبت نفسها له أم لا؟ فقيل: لم يكن عنده امرأة وهبت له نفسها. وقيل: كانت عنده ميمونة بنت الحرث وهبت نفسها للنبيّ وزينب بنت خزيمة وقيل: خولة بنت حكيم ولمّا وهبت نفسها للنبيّ قالت عائشة: ما بال النساء يبذلن أنفسهنّ بلا مهر؟ فنزلت الآية

١ـ الكافي، ج ٥، ص ٥٦٨.

٢ـ الخصال، ص ٤١٩.

فقالت عائشة: ما أرى الله إلا يسارع في هواك فقال رسول الله ﷺ: «وإنّك إن أطعت الله يسارع في هواك»[1].

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾

المعنى: أنّ ما ذكرنا فرضك وحكمك مع نسائك وأمّا حكم أمّتك فعندنا علمه ونبيّنه لهم في أزواجهم وملك يمينهم وإنّما ذكر هذا البيان لئلّا يحمل واحد من المؤمنين نفسه على ما كان للنبي ﷺ فإنّ له ﷺ في النكاح خصائص ليست لغيره وكذلك في السراري.

وحاصل المعنى أنّا قد علمنا ما أخذنا وفرضنا على المؤمنين في أزواجهم من حيث العدد والحصر والمهر ووضعناه عنك تخفيفا عنك وتشريفاً لك وكذلك في ملك اليمين للمؤمنين بأن لا يقع لهم الملك إلّا بوجوه معلومة من الشراء والهبة والإرث وأبحنا لك غير ذلك وهو الصفيّ الّذي تصطفيه لنفسك من السبي وإنّما خصّصناك على علم منّا بالمصلحة فيه.

﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي: ليرتفع عنك الحرج والضيق والإثم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ غفوراً لذنوب عباده رحيماً بك وبهم في مصالحهم ومصالحك.

تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَا أَيُّهَا

١ـ بحار الأنوار، ج٢٢، ص١٨١ ؛ وتفسير نور الثقلين، ج٤، ص٢٩٣.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ﴾ جاءت هذه الكلمة بالهمزة وبغير الهمزة والإرجاء التأخير وتبعيد وقت الشيء نزلت الآية حين غار بعض نساء النبيّ على النبيﷺ وطلب منه بعضهنّ زيادة النفقة فهجرهنّ شهراً حتّى نزلت آية التخيير فأمره الله أن يخيّرهنّ بين الدنيا والآخرة وأمرهﷺ أن يخلّي سبيل من اختار الدنيا ويمسك من اختار الله ورسوله على أنّهنّ امّهات المؤمنين ولا ينكحن أبداً وعلى أنّه يؤوي ويضمّ من يشاء منهنّ ويرجي من يشاء منهنّ وعلى أن يرضين به قسّم لهنّ أو لم يقسّم أو قسّم لبعضهنّ ولم يقسّم لبعضهنّ أو فضّل بعضهنّ على بعض في النفقة والعشرة أو سوّى بينهنّ والأمر في ذلك إليه يفعل ما يشاء وهذه من خصائصه فرضين بذلك كلّه واخترنه على هذا الشرط إلّا امرأة منهنّ أراد طلاقها وهي سودة بنت زمعة فرضيت بترك القسم وجعلت يومها لعائشة ومع ذلك فكانﷺ يسوّي مع

هذا بينهنّ. وقيل: لمّا نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلّقن فقلن: يا رسول اللّه اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ودعنا على حالنا فنزلت الآية.

وكان ممّن أرجى منهنّ سودة وجويرة وصفيّة وميمونة وأمّ حبيبة فكان يقسّم لهنّ ما شاء كما شاء وكان ممّن آوى إليه عائشة وحفصة وأمّ سلمة وزينب وكان يقسّم بينهنّ على السواء لا يفضّل بعضهنّ على بعض.

ونزل آية الحجاب لمّا بنى رسول اللّه بزينب بنت جحش وأولم عليها قال أنس: أولم عليها بتمر وسويق وذبح شاة وبعثت إليه أمّي يحبس أمرني رسول اللّه أن أدعو أصحابه إلى الطعام فدعوتهم فجعل القوم يجيئون ويأكلون الطعام ويخرجون قلت: يا نبيّ اللّه قد دعوت حتّى ما أجد أحدا أدعوه فقال: «ارفعوا طعامكم» فرفعوا وخرج القوم وبقي ثلاثة نفر يتحدّثون في البيت فأطالوا المكث فقام ﷺ وقمت معه لكي يخرجوا فمشى حتّى بلغ حجرة عائشة ثمّ رجع ورجعت معه فإذا هم جلوس مكانهم فنزلت هذه الآية[1] وهي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ....﴾

وعن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال: وكان رسول اللّه ﷺ يريد أن يخلو له المنزل لأنّه كان حديث عهد بالعرس وكان يكره أذى المؤمنين[2]. وقيل: كان يطعم رسول اللّه ومعه بعض أصحابه فأصابت يد رجل منهم يد عائشة وكانت معهم فكره ﷺ ذلك فنزلت آية الحجاب[3] ونزلت قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية في رجل من الصحابة قال: لئن قبض رسول اللّه لأنكحنّ عائشة بنت أبي بكر والرجل هو

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٧٤.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٧٤.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

طلحة بن عبيد الله.

﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي: وإن أردت أن تؤوي إليك ممّن عزلتهنّ وتضمّها إليك فلا سبيل عليك بلوم ولا إثم عليك ولك أن تردّ المعزولة ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ المعنى أنهن إذا علمن أنّ له ردّهنّ إلى فراشه ﷺ بعد ما اعتزلهنّ قرّت أعينهنّ ولم يحزنّ ويرضين بما فعله النبي ﷺ من التسوية والتفضيل وأطيب لنفوسهنّ إذا علمن أنّ لك الرخصة بذلك من الله، وقيل: نزول الرخصة من الله أقرّ لعينهنّ وأدنى إلى رضاهنّ لعلمهنّ بما لهنّ من الثواب. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من الميل إلى بعض دون بعض ويعلم من الرضا والسخط ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمصالح عباده ﴿حَلِيمًا﴾ عنهم في ترك المعاجلة بالعقوبة.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ﴾ أي: من بعد النساء اللواتي أحللناهنّ لك في قوله: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ الآية وهنّ ستّة أصناف: النساء اللاتي آتيت، وبنات عمّه وبنات عمّاته وبنات خاله وبنات خالاته اللاتي هاجرن معه، ومن وهبت نفسها له ولا يحلّ له غيرهنّ من النساء وقيل: يريد المحرّمات في سورة النساء عن أبي عبد الله عليه السلام[1]. وقيل: المراد اليهوديّات ولا النصرانيّات.

﴿وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ أي: ولا يحلّ لك أن تبدّل المسلمات بالكتابيّات لأنّه لا ينبغي أن يكنّ امّهات المؤمنين إلّا ما ملكت يمينك من الكتابيّات فأحلّ له أن يتسرّاهنّ. وقيل: معناه: لا يحلّ لك النساء من بعد نسائك اللاتي خيّرهنّ الله فاخترن الله ورسوله وهنّ التسع وصرت مقصورا

١ــ مجمع البيان، ج٨، ص١٧٥ ؛ وبحار الأنوار، ج٢٢، ص١٨٤.

عليهنّ وممنوعا من غيرهنّ ومن أن تستبدل بهنّ غيرهنّ.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي: وقع في قلبك حسنهنّ مكافاة لهنّ على اختيارهنّ الله ورسوله. وقيل: إنّه منعت من طلاق من اختارته من نسائه كما امر بطلاق من لم يختره فأمّا تحريم النكاح عليه فلا. وقيل: إنّ هذه الآية منسوخة وأبيح له بعد تزويج من شاء فروي عن عائشة أنّها قالت: ما فارق رسول الله الدنيا حتّى حلّل له النساء ما أراد.

﴿وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ فقيل: إنّ معناه أنّ العرب كانت تتبادل بأزواجهم فيعطي أحدهم زوجته رجلاً فيأخذ بها زوجته منه بدلا عنها فنهي عن ذلك وقيل في معنى قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ يعني: إن أعجبك حسن ما حرم عليك من جملتهنّ ولم يحللن لك وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام[1].

وفي «الكافي» عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال: «إنّما عني بقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ النساء اللاتي حرّم الله في هذه الآية وهو ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ إلى آخر الآية ولو كان الأمر على ما يقولون: كان قد أحلّ لكم ما لا يحلّ له لأنّ أحدكم يستبدل كلّما أراد ولكنّ الأمر ليس كما يقولون إنّ الله أحلّ لنبيّه أن ينكح من النساء كلّما أراد إلّا ما حرّم في هذه الآية التي في سورة النساء»[2] ومثله عن الصادق عليه السلام في عدّة روايات وفي بعضها: «أراكم تزعمون أنّه يحلّ لكم ما لم يحلّ لرسول الله»[3].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ عالما حافظاً للأمور. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٧٦ ؛ وبحار الأنوار، ج٢٢، ص١٨٤.

٢ـ الكافي، ج٥، ص٣٨٨.

٣ـ تفسير الصافي، ج٤، ص١٩٨ ؛ وانظر: تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٢٩٤.

المعنى: أدّب الله عباده المؤمنين فنهاهم عن دخول دار النبي ﷺ بغير إذن وهو قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ في الدخول إلّا أن يدعوكم إلى طعام فادخلوا غير ناظرين أي: منتظرين إدراك الطعام فيطول مقامكم أي: لا تدخلوها بغير إذن وقبل نضج الطعام انتظار النضجة فيطول مكثكم وقد ذكرنا شأن نزول الآية في قصّة الوليمة وأنى الطعام يأني أنى مقصوراً إذا بلغ حالة النضج. ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ أي: إذا أكلتم فتفرّقوا واخرجوا ﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي: ولا تدخلوا فتقعدوا بعد الأكل يحدث بعضكم بعضا. ثمّ بيّن السبب في المنع فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡ﴾ أي: قعودكم ولبثكم في منزل النبيّ يؤذيه فيمنعه الحياء أن يأمركم بالخروج من منزله ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ ولا يترك إبانة الحقّ فيأمركم بما هو أدب وصلاح لكم، قال بعض العلماء: هذا أدب أدّب الله الثقلاء. ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖ﴾ يعني: إذا سألتم أزواج النبيّ شيئاً تحتاجون إليه فاسألوهنّ متاعاً من وراء ستر قال مقاتل: أمر الله المؤمنين ألّا يكلّموا نساء النبيّ إلّا من وراء حجاب.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: سؤالكم المتاع إيّاهنّ من وراء الحجاب ﴿أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من الريبة ومن دسائس الشيطان الّتي تدعو إلى ميل الرجال إلى النساء والنساء إلى الرجال. ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ﴾ أي: ليس لكم إيذاء رسول الله بمخالفة ما أمر به في نسائه ولا في شيء من الأشياء ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: بعد وفاته ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: إيذاء الرسول بما ذكرنا كان ذنباً عظيم الوقع عند الله.

﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ أي: تظهروا أو تضمروا ممّا نهيتم عنه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ من الظواهر والسرائر وهذا تهديد لهم بأنكم

إذا تعزمون على إيذائه أو نكاح أزواجه فهو عليم بذات الصدور.

ثمّ إنّه لمّا أنزل الحجاب استثنى المحارم بقوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ وفي الآية لطيفة وهي أنّ عند الحجاب أمر اللّه الرجل بالسؤال من وراء حجاب فيفهم منه كون المرأة محجوبة عن الرجل بالطريق الأولى، وقدّم في الآية الآباء لأنّهم أقرب إلى بناتهم وكيف وقد رأوا جميع بدن البنات في الصغر ثمّ الأبناء ثمّ الإخوة ثمّ بني الإخوة ثمّ بني الأخوات. ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ يريد نساء المؤمنين لا نساء اليهود والنصارى فيصفن نساء رسول اللّه ونساء المؤمنين لأزواجهنّ ورجالهنّ إن رأينهنّ. وقيل: جميع النساء. ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من الوصائف أو الوصائف والعبيد قبل البلوغ أو مطلقاً.

وإنّما لم يذكر اللّه العمّ والخال مع أنّهما من المحارم فلم يقل: ولا أعمامهنّ ولا أخوالهنّ لوجهين: أحدهما: أنّ ذلك علم من بني الإخوة ومن بني الأخوات لأنّ من علم أنّ بني الأخ للعمّات محارم علم أنّ بنات الأخ للأعمام محارم وكذلك الحال في أمر الخال.

والوجه الثاني: أنّ الأعمام ربّما يذكرون بنات الأخ عند أبنائهم وهم غير محارم وكذلك الحال في ابن الخال وهو غير محرم.

ومن الأئمّة من قال في ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾: من العبيد من كان دون البلوغ.

﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ من دخول الأجانب عليكنّ من عقاب اللّه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: حفيظاً لا يغيب عنه شيء.

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا

وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾

المعنى: لمّا أمر اللّه المؤمنين بالاستيذان في دخول بيتهﷺ احتراماً له فبيّن في هذه الآية أنّ شرفهﷺ في الملأ الأعلى أعظم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ....﴾ والصلاة الدعاء أي: دعا له وهذا المعنى غير معقول في حقّ اللّه لأنّ الدّعاء للغير طلب نفعه من ثالث فمعناه أنّه تعالى يرحمه ويثني عليه بالثناء الجميل ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ﴾ عليه ويثنون عليه بأحسن الثناء ويدعون له بأزكى الدعاء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ قال أبو حمزة الثماليّ: حدّثني السديّ وحميد بن سعد الأنصاريّ ويزيد بن أبي زياد عن ابن أبي ليلى عن كعب بن عجزة قال: لمّا نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول اللّه هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك قال: «**قولوا: اللّهم صلّ على محمّد وآل محمّد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد وبارك على محمّد وآل محمّد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد**»[1].

١ـ تفسير أبي حمزه الثمالي، ص٢٦٩.

وعن عبد الله بن مسعود قال: إذا صلّيتم على النبيّ فأحسنوا الصلاة عليه فإنّكم لا تدرون لعلّ ذلك تعرض عليه قالوا: فعلّمنا قال: قولوا: اللّهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيّد المرسلين وإماماً المتّقين وخاتم النبيّين محمّد عبدك ورسولك إماماً الدين وقائد الخير والرسول الرحمة اللهمّ ابعثه مقاماً محموداً يغبطه الأولون والآخرون اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد كما صلّيت على ابراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد[1].

وعن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية فقلت: كيف صلاة الله على رسوله؟ فقال: «يا أبا محمّد تزكيته له في السماوات العلى» فقلت: قد عرفت صلواتنا عليه فكيف التسليم؟ فقال: «هو التسليم له في الأمور فعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ انقادوا لأوامره وابذلوا الجهد في طاعته وفي جميع ما يأمركم به». وقيل: معناه سلّموا عليه بالدعاء أي: قولوا: السلام عليك يا رسول الله»[2].

وعن أنس بن مالك عن أبي طلحة قال: دخلت على النبيّ صلى الله عليه وآله فلم أره أشدّ استبشاراً منه يومئذ ولا أطيب نفسا قلت: يا رسول الله ما رأيتك قطّ أطيب نفساً ولا أشدّ استبشارا منك اليوم فقال: «وما يمنعني وقد خرج جبرئيل آنفاً من عندي قال: قال الله تعالى: من صلّى عليك صلاة صلّيت بها عشر صلوات ومحوت عنه عشر سيّئات وكتبت له عشر حسنات»[3].

وفيما ورد عن الصادق عليه السلام قيل له: كيف نصلّي على محمّد وآله؟ قال: «تقولون: صلوات الله وصلوات ملائكته وأنبيائه ورسله وجميع خلقه على محمّد وآله

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٧٩ ؛ وبحار الأنوار، ج٩١، ص٨٧.

٢ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٧٩.

٣ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٨٠.

والسلام عليه وعليهم ورحمة الله وبركاته»، قيل: فما ثواب من صلّى على النبيّ بهذه الصلوات؟ قال: «الخروج من الذنوب كهيئة يوم ولدته أمّه»[1]. وفي «المحاسن» عن الصادق أنّه سئل عن هذه الآية فقال: «أثنوا عليه وسلّموا[2] له بالولاية تسليما». وفي «العيون» عن الرضاﷺ في مجلسه مع المأمون قال: «وقد علم المعاندون منهم أنّه لمّا نزلت هذه الآية قيل: يا رسول الله قد عرفنا التسليم عليك فكيف الصلوات عليك؟ فقال: تقولون: اللّهم صلّ على محمّد وآل محمّد كما صلّيت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد فهل بينكم معاشر الناس في هذا خلاف؟» قالوا: لا، قال المأمون: هذا ممّا لا خلاف فيه أصلاً وعليه إجماع الأمّة فهل عندك في الآل شيء أوضح من هذا في القرآن؟ قالﷺ: «نعم أخبروني عن قول الله: ﴿يسٓ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فمن عني بقوله تعالى: ﴿يسٓ﴾». قال العلماء: ﴿يسٓ﴾ محمّدﷺ لم يشكّ فيه أحد قالﷺ: «فإنّ الله أعطى محمّداً وآل محمّد من ذلك فضلاً لا يبلغ أحد كنه فضله إلّا من عقله وذلك أنّ الله لم يسلّم على آل أحد من الأنبياء فقال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[3] وقال: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[4] وقال: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾[5] ولم يقل: سلام على آل نوح ولم يقل: سلام على آل إبراهيم ولم يقل: سلام على آل موسى وهارون ولكن قال: سلام على آل يس»[6] يعني: آل محمّد»[7].

١ـ كشف الغطاء، ج٢، ص ٣١٠ ؛ وجواهر الكلام، ج٧، ص٧ ؛ وتفسير الصافي، ج٤، ص٢٠١.

٢ـ المحاسن، ج٢، ص٣٢٨.

٣ـ سورة الصافات: ٧٩.

٤ـ سورة الصافات: ١٠٩.

٥ـ سورة الصافات: ١٢٠.

٦ـ سورة الصافات: ١٣٠ في قراءة غير مشهورة.

٧ـ عيون أخبار الرضاﷺ، ج٢، ص٢١٣.

وعنه عليه السلام فيما كتبه في «شرائع الدين»: «والصلاة على النبيّ واجبة في كلّ وقت يذكر اسمه الشريف»(١).

وفي «الكافي» و«الفقيه» عن الباقر عليه السلام: «وصلّ على النبيّ كلّما ذكرته أو ذكر ذاكر عندك في أذان وغيره».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «سمعت رسول الله يقول: إنّما أنزلت هذه الآية عليّ في الصلوات بعد قبض الله لي»(٢).

وروي مرفوعاً أنّ موسى لمّا ناجاه اللّه وفي مناجاته قد ذكر محمّد فقال اللّه تعالى: «صلّ يا ابن عمران عليه فإنّي أصلّي عليه وملائكتي».

وفي «الاحتجاج» عن عليّ عليه السلام قال: «لهذه الآية ظاهر وباطن والظاهر قوله: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيۡهِ﴾ والباطن قوله: ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسۡلِيمًا﴾ أي: سلّموا لمن وصّاه وجعله النبيّ وصيّا وما عهد به إليه قال: وهذا ممّا أخبرتك أنّه لا يعلم تأويله إلّا من لطف وصفا ذهنه»(٣).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ قيل: هم المنافقون والكافرون والّذين وصفوا اللّه بما لا يليق به وكذّبوا رسله وعلى هذا يكون معنى ﴿يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ﴾ يخالفون أمره ويصفونه بما هو منزّه عنه فإنّ اللّه تعالى لا يلحقه آذى والمخالفة تسمّى إيذاء خوطبنا بما نتعارفه وقيل: معناه: يؤذون رسول اللّه فقدّم ذكر اللّه على وجه التعظيم حيث جعل أذى رسول اللّه أذى له تشريفاً وتكريماً له فكأنّه سبحانه يقول: لو جاز أن ينالني أذى من شيء لكان ينالني من هذا. واتّصال الآية بما قبلها حيث أمرهم بالصلاة والثناء عليه ونهاهم عن

١ـ بحار الأنوار، ج٦٢، ص٣١١.

٢ـ الكافي، ج١، ص٤٥١ ؛ وبحار الأنوار، ج٢٢، ص٥٤٠.

٣ـ الاحتجاج، ج١، ص٣٧٧.

أذاه فإنّ من من أذاه فهو كافر.

ثمّ أوعد عليه بقوله: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: يبعدهم من رحمته ويحلّ بهم نقمته بحرمان زيادات الهدى في الدنيا والخلود في النار في الآخرة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ مذلًا لهم.

حدّثني السيّد أبو الحامد قال: حدّثني الحاكم أبو القاسم الحسكانيّ قال: حدّثنا أبو عبد الله الحافظ قال: حدّثنا أحمد بن محمّد بن أبي دارم قال: حدّثنا عليّ بن أحمد العجليّ قال: حدّثنا عباد بن يعقوب قال: حدّثنا أرطاة بن حبيب قال: حدّثنا أبو خالد الواسطيّ وهو آخذ بشعره قال: حدّثني زيد بن عليّ بن الحسين وهو آخذ بشعره قال: حدّثني عليّ بن الحسين وهو آخذ بشعره قال: حدّثني الحسين بن عليّ عليه السلام وهو آخذ بشعره قال: «**حدّثني عليّ بن أبي طالب قال: حدّثني رسول الله صلى الله عليه وآله وهو آخذ بشعره فقال: يا عليّ من آذى شعرة منك فقد آذاني ومن آذاني فقد أذى الله ومن أذى الله فعليه لعنة الله واللعن أشدّ التهديدات والمحذورات لأنّ العبد من الله لا يرجى معه خير بخلاف التعذيب بالنار ومن أبعده الله وطرده فمن الّذي يقرّبه ويمكن أن يكون الطرد جزاء إيذاء الله والعذاب جزاء إيذاء الرسول**»[1].

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي: الّذين يؤذونهم بالقول أو بالفعل لسانيّاً كانت الأذيّة أو عمليّاً ويفعلون بهم ما يتأذّون وقيّد سبحانه بقوله: ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي: بغير جناية يستحقّون بها الأذيّة فإنّ أذى المؤمنين يكون بغير حقّ ومنه أن يكون بحقّ كحدّ الشارب مثلاً ولذلك قيّد الكلام.

فقد احتمل المؤذين ﴿بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ قيل: إنّ الآية نزلت في الّذين

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٨١ ؛ وتفسير الصافي، ج٤، ص٢٠٣.

كانوا يؤذون عليّاً ويسمعونه ما لا خير فيه وقيل: نزلت في زناه يتّبعون النساء إذا برزن بالليل وكانوا يمشون في الطرقات ليلاً فإذا رأوا امرأة غمزوها. والحاصل أنّ الموصوفين بصفة الإيذاء للمؤمنين فقد فعلوا معصية ظاهرة وتحمّلوا إثم البهتان لأنّ من آذى وسبّ رجلاً يتحقّق في نسبته البهتان لا محالة.

ثمّ خاطب نبيه ﷺ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ كان في الجاهليّة تخرج الحرّة والأمَة مكشوفات يتبعهنّ أهل الريبة فأمرهنّ باجتناب المواضع الّتي فيها التهم الموجبة للتأذي بالتستّر لئلّا يحصل الإيذاء الممنوع منه لأنّ مثل هذا التهم ممّا يتأذى منه الرجال والنساء خصوصاً الأقارب منها فأمر سبحانه بالتجلبب.

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ والحاصل قل يا محمّد لهنّ: أن يسترن موضع الجيب بالجلباب وهو الملاءة الّتي تشتمل بها المرأة وقيل: الجلباب مقنعة المرأة أي: تغطّين جباههنّ ورؤوسهنّ إذا خرجن للحاجة وقيل: الجلباب ما تستر به المرأة ذلك أقرب أن تعرفن أنّها حرائر ولسن بإماء فلا يؤذيهنّ أهل الريبة فإنّهم كانوا يمازحون الإماء وربّما كان يتجاوز المزاح إلى ممازحة الحرائر فإذا قيل لهم في ذلك قالوا: حسبناهنّ إماء والفتيات فقطع الله عذرهم. أو المعنى أنّ التستّر أقرب أن يعرفن بالصلاح فلا يتعرّض لهنّ لأنّ المرأة إذا عرفت بالعصمة لا يتعرّض لها الفاسق في الغالب. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ بهم.

ثمّ أوعد سبحانه الفسّاق فقال: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي: فجور وضعف في الإيمان ولم يمتنعوا من مراودة النساء وإيذاء الناس [وَ] كذلك [ٱلۡمُرۡجِفُونَ] وأصل الإرجاف من الزلزلة لأنّ الأخبار الكاذبة متزلزلة غير ثابتة، وهم المنافقون الّذين يرجفون في المدينة الأخبار الكاذبة

المضعفة لقلوب المسلمين مثل أن يقولوا: اجتمع المشركون في موضع كذا وعددهم كذا قاصدين لحرب المسلمين ونحو ذلك. لئن لم يمتنعوا عن مثل هذه الأمور ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنسلّطنك عليهم وأمرناك بقتلهم وقد حصل الإغراء بهم بقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وقيل: لم يحصل ولو حصل لقتلوا وشردوا وأخرجوا من المدينة ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يساكنوك إلّا يسيراً من الزمان وهو ما بين الأمر بالقتل وبين قتلهم.

﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ أي: في ذلك الزمان القليل الّذي يجاورونك ملعونين مطرودين من رحمة الله وإذا أخرجوا أينما وجدوا أخذوا وقتّلوا ولا يجدون ملجأ بل أينما يكونوا يطلبون.

ثمّ قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ يعني: ليس هذا الأمر دعابكم بل هو سنّة جارية وعادة مستمرّة نفعل بالمكذّبين وليس هذه السنّة مثل الحكم الّذي يبدّل وينسخ فإنّ النسخ يكون في الأحكام أمّا في الأخبار فلا تنسخ.

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

المعنى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ﴾ القيامة ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يعلمها

غيره ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ يا محمّد أي: أي: شيء يعلّمك أمر الساعة ومتى يكون قيامها أي: أنت لا تعرفه. ثمّ قال: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي: قريباً مجيئها ويجوز أن يكون أمر سبحانه أن يجيب كلّ من يسأله عن الساعة بهذا ويقول: ما نستبطئه قريب وما ننكر كائن ويجوز أن يكون تسلية لهﷺ لضيق صدره باستهزائهم وإنّما أخفاها الله لحكم ومصالح منها امتناع المكلّف عن الاجتراء وخوفهم منها في كلّ وقت.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً تستعير وتلتهب ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وليّاً ينصرهم ونصيرا يدفع العذاب عنهم.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾ تقلّب والمعنى تقلّب وجوه هؤلاء السائلين عن الساعة وأشباههم من الكفّار الّذين لم يعتقدوا بها فتسودّ فتصفرّ وتصير كالحة بعد أن لم تكن وتنتقل من جهة إلى جهة في الدنيا بما يصل إليها من العذاب ﴿يَقُولُونَ﴾ متمنّين متأسّفين ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ﴾ فيما أمرنا به ونهانا عنه ﴿وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ فيما دعانا إليه.

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا﴾ فيما فعلنا ﴿سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ وأصل السادة سودة مثل قودة قادة وتجمع بالألف والتاء للكثرة ومعنى السيّد المالك المعظّم الّذي يملك تدبير السواد الأعظم والجمع الأكبر وقيل: هم العلماء والوجه الصحيح أنّ المراد جميع قادة الكفر وأئمّة الضلال، والألف في ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ للإطلاق ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ بضلالهم وإضلالهم إيّانا ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ مرّة بعد أخرى وزدهم غضبا إلى غضبك وسخطا إلى سخطك.

ثمّ خاطب سبحانه المظهرين للإيمان فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا

تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ أي: لا تؤذوا محمّداً كما آذى بنو إسرائيل موسى فإنّ حقّ النبيّ أن يعظّم ويبجّل.

واختلفوا فيما اوذي به موسى على أقوال:

أحدها: أنّ موسى وهارون صعدا الجبل فمات هارون في الجبل فقالت بنو إسرائيل حسده موسى فقتله فأمر اللّه الملائكة فحملته حتّى مرّوا به على بني إسرائيل وتكلّمت الملائكة بموته حتّى عرفوا أنّه قد مات وبرّأه اللّه من ذلك عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام وابن عبّاس[1].

وثانيها: أنّ موسى كان حييّا ستيراً يغتسل وحده فقالوا: ما يستتر منّا إلّا لعيب بجلده إمّا برص أو غيره وقال بعضهم: إنّ قارون يرطّل امرأة فاحشة لتقذفه فألقى اللّه في قلبها وقالت: إنّ قارون يرطلني لأن أنسبه إلى الزنا فبرّأه اللّه.

القول الثالث: قالوا: إنّ موسى ذهب ليغتسل مرّة فوضع ثوبه على حجر فمرّ الحجر بثوبه فطلبه موسى فرآه بنو إسرائيل عرياناً كأحسن الرجال خلقا فبرّأه اللّه ممّا قالوا لكن قيل: إنّ ذلك لا يجوز لأنّ فيه إشهار النبيّ عليه السلام وإبداء سوأته على رؤوس الأشهاد وذلك ينفّر عنه في حقّ النبيّ.

والقول الرابع: أنّهم نسبوه إلى السحر والجنون والكذب فبرّأه اللّه.

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي: عظيم القدر ورفيع المنزلة يقال: فلان وجيه إذا كان ذا جاه وقدر، قال ابن عبّاس: كان موسى عند اللّه خطيراً لا يسأله شيئاً إلّا أعطاه.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا

١ـ مجمع البيان، ج٨، ص١٨٤ ؛ وبحار الأنوار، ج١٣، ص٩.

عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

المعنى: لمّا نهاهم سبحانه عمّا يؤذي الأنبياء ومنعهم عن ما لا يصلح لهم في الآية السابقة أردفها في هذه الآية بذكر ما يصلح لهم وأمرهم إلى ما ينبغي أن يصدر منهم وهو ملازمة التقوى والأقوال الصادقة الحسنة قال بعض المفسّرين: القول السديد كلمة لا إله إلّا الله وقيل: ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ بريئاً من الفساد والكذب واللّغو موافق الظاهر للباطن.

وقال جماعة: الكلام متّصل بالنهي عن الإيذاء فالمراد أن لا تنسبوا إلى رسول الله ما لا يليق به.

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: إن فعلتم ذلك يصلح لكم أعمالكم بأن يلطف لكم فيها حتّى تستقيموا على الطريقة السليمة من الفساد. وقيل: معناه يزكّ أعمالكم ويتقبّل حسناتكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ بسبب استقامتكم في الأقوال والأفعال ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأوامر والنواهي فقد أفلح فلاحاً عظيماً وظفر برضوان وكرامة.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ﴾ الآية لمّا أرشد الله تعالى المؤمنين إلى مكارم الأخلاق وأدّبهم بأحسن الآداب بيّن في هذه الآية أنّ التكليف أمر عظيم فقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾

واختلف في المراد من الأمانة: قيل: هي التكليف وسمّي أمانة لأنّ من قصّر فيه فعليه الغرامة ومن أدّاها فله الكرامة وقيل: هو قول لا إله إلّا الله وهذا الكلام بعيد لأنّ الملك والفلك والجبال والرمال بألسنتها ناطقة بأنّ الله

واحد وقيل: المراد الأعضاء فالعين أمانة ينبغي أن يحفظها والاذن واليد كذلك والرجل والفرج واللّسان وهكذا وبعض هذه الوجوه متقارب للبعض.

وبعض المفسّرين فسّروا معنى «الحمل» بالخيانة قال الزجّاج: كلّ من خان الأمانة فقد حملها ومن لم يحمل الأمانة فقد أدّاها وكذلك كلّ من أثم فهو احتمل الإثم قال اللّه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾ وأنشد بعضهم في حمل الأمانة بمعنى الخيانة قول الشاعر:

إذا أنت لم تبرح تؤدّي أمانـة وتحمل أخرى أترحتك الودائـع

قال الطبرسيّ: إنّ الظاهر لا يدلّ على ذلك لأنّه يجوز أن يكون المراد بالحمل قبول الأمانة.

وقيل: المعنى في قوله: ﴿عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ﴾ أي: عارضنا وقابلنا والأمانة تكاليف اللّه من إنزال الكتب وإرسال الرسل فالمعنى أنّ هذه الأمانة في جلالة موقعها وعظم شأنها لو قيست بالسماوات والأرض والجبال وقوبلت بها لكانت هذه الأمانة أرجح وأثقل وزنا ومعنى والسماوات والأرضين ضعفن عن حملها ﴿وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ والشفقة ضعف القلب ولذلك صار كناية عن الخوف الّذي يضعف عنده القلب.

ثمّ قال سبحانه: هذه الأمانة الّتي صفتها كذلك وأثقل وأعظم من السماوات والأرض والجبال تقلّدها الإنسان فلم يحفظها وضيّعها لظلمه على نفسه ولجهله بمبلغ الثواب والعقاب.

وقيل: المراد من السماوات ليس هي بأعيانها بل أهل السماوات والأرض ولم يكن إباؤهنّ كإباء إبليس لأنّ السجود كان فرضا والأمانة عرضاً وإباء إبليس كان استكباراً وإباؤهنّ استصغاراً. وقيل: المعنى لو كانت السماوات والأرض والجبال عاقلة ثمّ عرضت عليها وظائف التكليف

لاستثقلت ذلك مع عظمها وقوتها ولامتنعت من حملها خوفاً من القصور عن أداء حقّها.

فـ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مع ضعف جسمه لجهله والمراد بقوله: ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لم يرد جميع الناس بل هو مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[1] ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾[2] والأنبياء والأولياء والمؤمنون الماحضون خارجون ولا يجوز أن يكون الإنسان محمولا على آدم لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ وكيف يكون من اصطفاه الله من بين خلقه موصوفاً بالظلم والجهل ومن المعلوم أنّ التكليف هو الأمر بخلاف ما في الطبيعة وهذا النوع من التكليف ليس في السماوات ولا في الأرض لأنّ الأرض والجبل والسماء كلّها على ما خلقت عليه فالجبل لا يطلب منه السير والأرض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ولا من الملائكة لأنّ الملائكة وإن كانوا مامورين بأمور ومنهيّين عن أمور لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا فيسبّحون اللّيل والنهار لا يفترون كما يشتغل الإنسان بأمر موافق لطبعه ولذلك إذا أطاع الإنسان ما امر به وانتهى عمّا نهي عنه وأعرض عن موجبات ما كره الله وانغمر في العبادة فضّل على الملك.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ثمّ بيّن سبحانه الغرض الصحيح في عرض هذه الأمانة يعني: بتضييع الأمانة يعذّب المنافقين والمنافقات والمعنى أنّا عرضنا ذلك ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذّبهم الله ويظهر إيمان المؤمن فيتوب الله عليه إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات لعدم خلعهم ربقة الطاعة بالكلّيّة

١ـ سورة العصر: ٢

٢ـ سورة العاديات: ٦

ويمكن أن يكون الّام للعاقبة أي: كان عاقبة أمرها ما كان. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ غفورا لظلوم رحيماً على الجهول إن عاد عن الظلم والجهل كما وعد عباده بغفران الظلم إلّا الظلم العظيم الّذي هو الشرك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[1].

قال أبو السعود صاحب التفسير: فجمل تفسير الآية أنّ اللّه تعالى لمّا خلق هذه الأجرام السماويّة والأرضيّة خلق فيها فهما وقال لها: إنّي فرضت فريضة وخلقت جنّة وناراً لمن أطاعني وعصاني فقلن: نحن مسخّرات لما خلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبغي ثواباً ولا عقاباً والإباء إباء الاستصغار لا إباء الاستكبار مثل إبليس والأمر والعرض مفهومان متغايران.

تمّت السورة بحمد اللّه.

هنا ينتهي الجزء الثامن من الكتاب وقد جمع بين دفّتيه سور الفرقان، الشعراء، النحل، القصص، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة والأحزاب، ومن اللّه التوفيق.

١ـ سورة النساء:٤٨.

فهرس الأحاديث

(أ)

أبشر يا عليّ فلو وزن اليوم عملك بعمل الأمّة لرجح عملك بعملهم ٣٥٤

ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا ٣٨٤

إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فتوضآ وصلّيا كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ٣٧٨

إذا رأيتم المازحين فاحثوا في أفواههم ٣٦١

إذا قرأت القرآن فرتّله ترتيلاً ٢٤

إذا كان يوم القيامة أوقف الله عزّ وجلّ العبد بين يديه وعرض عليه عمله ٤٤

إذا كان يوم القيامة تجلّى الله تعالى لعبده المؤمن فيقفه على ذنوبه ٤٤

ألا وإنّي مخصوص في القرآن بأسماء ٣٤

أما والله ما أوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل ٢٩٣

أما والله ما لمت نفسي على عداوتك ولكنّه من يخذل الله يخذل ٣٦٨

الأمراض والأوجاع كلّها بريد الموت ورسل الموت ٣٢٥

إنّ اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً ١٢١

إنّ الأبرار منّا أهل البيت بمنزلة موسى وشيعته وإنّ عدوّنا وأشياعهم بمنزلة فرعون وأشياعه ١٥١

إنّ الّذين أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ٢٥

إنّ الرجل يقول في الجنّة ما فعل صديقي فلان وصديقه في الجحيم ٧٥

أنّ الصدقة تقع في يد الرحمن فتربوا حتّى تصير مثل الجبل ٢٧٧

إنّ العمل الصالح ليسبق صاحبه إلى الجنّة فيمهّد له كما يمهّد لأحدكم خادمه فراشه ٢٨٠

إنّ القائم لما تولّد نطق بهذه الآية ١٥٢

إنّ الله أمر عباده المؤمنين بما أمر به عباده المرسلين ٢٨٠
إنّ الله أمرني أن انذر عشيرتي الأقربين ٩٣
إنّ الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق ٢٩٦
إنّ الله تعالى خلق آدم من الماء العذب وخلق زوجته من سنخه ٣٤
أنّ الله تعالى يأمر يوم القيامة بأن تؤخذ حسنات أعدائنا ٤٤
إنّ الله عزّ وجلّ خلق ماء تحت العرش قبل أن يخلق آدم عليه السلام بثلاثة آلاف عام ٣٤
إنّ الله يخيّرك بين أن يعطيك مفاتيح كلّ شيء لم يعطها أحداً قبلك ١٠
إنّ المؤمن ليشفع يوم القيامة لأهل بيته فيشفّع فيهم ٧٦
إنّ مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف أسرّوا الإيمان وأظهروا الشرك ١٨٦
إنّما الإسراف فيما أفسد المال وأضرّ بالبدن ٤١
إنّما مثلي في الأنبياء مثل رجل بنى داراً فأكملها وحسّنها إلّا في موضع لبنة ٢٨٤
أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي ٣٧٤
الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر ٣١٠

(ب)

برّ الوالدين من حسن معرفة العبد بالله ٢٩٦

(ت)

تزوّج رسول الله صلى الله عليه وآله بخمس عشر امرأة ٣٩٠
تقضي صلاة النهار بالليل وصلاة الليل بالنهار ٤٠

(ج)

الجنّة تحت أقدام الأمّهات ٢١٤
الجنّة مائة درجة ما بين كلّ درجتين منها كما بين السماء والأرض ٢٦١

(ح)

حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة ٧٣
حبّنا أهل البيت يكفّر الذنوب ويضاعف الحسنات ٤٣
الحسنة حبّنا أهل البيت والسيّئة بغضنا ١٤٧

(ر)

رأى رسول الله ﷺ في منامه بني أميّة يصعدون منبره من بعده ٩٠
الرجس هو الشكّ والله لا نشكّ في ربّنا أبداً ٣٧٥
الرحمن هو إله السماء ومن عنده يأتيني الوحي ٣٨
ركود الشمس ما بين زوال الشمس إلى وقت العصر ٥١

(س)

سيكون في أمّتي كلّ ما كان في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة ١٤٤

(ش)

الشافعون الأئمّة عليهم السلام والصديق المؤمنون ٧٥

(ص)

صلوات الله وصلوات ملائكته وأنبيائه ورسله وجميع خلقه على محمّد وآله ٤٠٠
الصوم جنّة والصدقة تكفّر الخطيئة وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه الله ٣٢٩
الصوم صبر والأفعال شكر على المعروف ٣١١

(ع)

عليكم بقيام الليل فإنّه دأب الصالحين قبلكم ٣٢٩

(ف)

فالنسب ما كان بسبب الرجال والصهر ما كان بسبب النساء ٣٤

فإنّ الله أعطى محمّداً وآل محمّد من ذلك فضلاً لا يبلغ أحد كنه فضله إلّا من عقله ٤٠٠

(ك)

كتب الله كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام ١٨٠

كثرة الدعاء أفضل ٤٨

كيف يكون أبو طالب كافراً وهو يقول ١٨٧

(ل)

لا تشرك الله شيئاً وإن حرّقت بالنار وعذّبت إلّا وقلبك مطمئنّ بالإيمان ٢٩٥

لا صلاة لمن لم يطع الصلاة وطاعة الصلاة أن ينتهي المصلّي عن الفحشاء والمنكر ٢٣٢

لا يحلّ تعليم المغنّيات ولا بيعهنّ وأثمانهنّ حرام ٢٨٨

لو قمت المقام المحمود لشفعت في أمّي وأبي وعمّي وأخ لي كان مواخياً لي ١٨٦

لو نزّلنا القرآن على العجم ما آمنت به العرب لفرط استنكاف العرب من اتّباع العجم ٨٨

ليس رجل من قريش إلّا وقد نزلت فيه آية أو آيتان تقوده إلى جنّة أو تسوقه إلى نار ٢٣

ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن ٣٧٤

ليس في المأكول والمشروب سرف وإن كثر ٤١

ليلة أسري بي رأيت موسى بن عمران رجلاً آدم طوالاً جعداً ٣٣٣

(م)

ما أنا بآكل من طعامك حتّى تشهد أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله ٢٢

ما جعل من تدعونه ولداً وهو ثابت النسب من غيركم ولداً لكم ٣٤١

ما جلس قوم يذكرون الله إلّا نادى بهم منادٍ من السماء قوموا فقد بدّل الله سيّئاتكم حسنات ٤٤

ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه إلّا كان حقّاً على الله أن يردّ عنه نار جهنّم يوم القيامة ٢٨١

ما من حسنة إلّا ولها ثواب مبيّن في القرآن إلّا صلاة الليل ٣٣٠

ما من عام بأمطر من عام ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي حوّل الله ذلك إلى غيرهم ٣١

ما من عبد يدخل الجنّة إلّا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين ٢٦٠

المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه........................ ٢٧٧
من أحبّ أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل فلينظر هل منعته صلاته عن الفحشاء والمنكر ٢٣٣
من استوى يوماه فهو مغبون........................ ٢٢٩
من أعطى في غير حقّ فقد أسرف ومن منع من حقّ فقد قتر ٤١
من آوى فقد نكح ومن أرجى فقد طلّق........................ ٢٧٠
من بات على تسبيح فاطمة عليها السّلام كان من الذاكرين كثيراً والذاكرات ٢٧٨
من سبّح تسبيح فاطمة الزهراء فقد ذكر اللّه ذكرا كثيراً ٢٨٦
من قرأ الطواسين الثلاث في ليلة الجمعة كان من أولياء اللّه........................ ٤٩
من قرأ سورة السجدة في كلّ ليلة جمعة أعطاه اللّه كتابه بيمينه........................ ٢١٥
من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات ٤٩
من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كلّ المؤمنين ٢٠٧
من قرأ سورة العنكبوت والروم في شهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين ٢٠٧
من قرأ سورة الفرقان بعث يوم القيامة وهو يؤمن........................ ٥
من قرأ سورة لقمان في كلّ ليلة وكّل اللّه به في ليلته ثلاثين ملكاً يحفظونه............ ٢٨٧
من قرأ سورة لقمان كان لقمان له رفيقاً يوم القيامة........................ ٢٨٧
من قرأ طسم القصص أعطي من الأجر عشر حسنات ١٤٩
من كان كثير القراءة لسورة الأحزاب كان يوم القيامة في جوار محمّد............ ٣٣٧
من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من اللّه إلّا بعداً........................ ٢٣٢
من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر اللّه عزّ وجلّ........................ ٢٩٥
من ملأ مسامعه من غناء لم يؤذن له أن يسمع صوت الروحانيّين يوم القيامة ٢٨٩
المؤمن من أمن جاره بوائقه وما آمن بي من بات شبعان وجاره طاو ٣٧٧

(ن)

نحن كلمة التقوى وسبيل الهدى والمثل الأعلى........................ ٢٧٠
النكاح سنّتي فمن رغب عن سنّتي فليس منّي........................ ٣٨٣

(و)

والصلاة على النبيّ واجبة في كلّ وقت يذكر اسمه الشريف ٤٠١
والله لنشفعنّ لشيعتنا والله لنشفعنّ لشيعتنا والله لنشفعنّ لشيعتنا حتى يقول الناس ٧٥
وبرّ الوالدين واجب وإن كانا مشركين ولا طاعة لهما في معصية الخالق ولا لغيرهما ٢٩٦
وصلّ على النبيّ كلّما ذكرته أو ذكر ذاكر عندك في أذان وغيره ٤٠١
وكان عليّ وفاطمة والحسن والحسين فأدخلهم رسول الله تحت الكساء في بيت أمّ سلمة ٣٧٤

(ي)

يا بني عبد المطّلب إنّي أنا النذير إليكم من الله والبشير فأسلموا وأطيعوني تهتدوا ٩٣
يا بني عبد المطّلب لو أخبرتكم أنّ بسفح هذا الجبل خيلاً أتصدّقوني ٩٣
يا عليّ لو أنّ أمّتي صاموا حتى صاروا كالحنايا ثمّ أبغضوك لأكبّهم الله على مناخرهم في النار ١٤٧
يا عليّ من آذى شعرة منك فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ٤٠٢
يبعث الله يوم القيامة قوماً بين أيديهم نور كالقباطيّ ثمّ يقال له ١٩
يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتى يوقف بموقف الحساب ٤٣

المصادر

١ـ القرآن الكريم، كتاب الله تبارك وتعالى الحي القيوم.

٢ـ الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين(ع) (السجاد) (ت ٩٤ هـ ق)

٣ـ الاحتجاج، الطبرسي أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (ت ٥٨٨ هـ ق).

٤ـ أحكام القرآن، الجصاص، أبي بكر أحمد بن علي الرازي.

٥ـ الاختصاص، الشيخ المفيد، أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣ هـ ق).

٦ـ أسباب النزول، الواحدي، أبوالحسن علي بن أحمد بن محمّد النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ ق).

٧ـ الإستبصار فيما اختلف من الأخبار، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).

٨ـ الإستبصار في نسب الصحابة الأنصار، عبدالله بن أحمد بن موفق الدين ابن قدامة (ت: ٦٢٠ هـ ق).

٩ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، إبن الأثير الجزري، عزالدين علي بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ ق).

١٠ـ إعانه الطالبين علي حل الفاظ فتح المعين، بكري المكي ابن السيد محمد شطا عمر الله الدمياطي.

١١ـ الألفية والنفلية، الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي.

١٢ـ الأمالي الشيخ الطوسي، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).

١٣ـ الأمثال في القرآن الكريم، ابن قيم الجوزية.

١٤ـ بحار الأنوار، المجلسي، محمّد باقر محمّد تقي (ت ١١١٠ هـ ق).

١٥ـ البداية والنهاية، ابن كثير، ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).

١٦ـ بصائر الدرجات في فضائل آل محمّد(ص)، الصفار، محمد بن حسن (ت ٢٩٠ هـ ق).

١٧ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ ق).

١٨ـ تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ ق).

١٩ـ تاريخ (الرسل والأمم والملوك)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ ق).
٢٠ـ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي (ت ٥٧١ هـ ق).
٢١ـ التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـق).
٢٢ـ تحرير الأحكام الشرعية على مذهب الامامية، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـق).
٢٣ـ التحصين في صفات العارفين، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق).
٢٤ـ تحف العقول، ابن شعبة، أبو محمّد الحسن بن علي بن الحسين الحرّاني الحلبي (ت ٣٨١ هـ ق).
٢٥ـ تحفة الأحوذي (شرح جامع الترمذي)، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري الهندي.
٢٦ـ تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـق).
٢٧ـ تذكرة الموضوعات، أبو الفضل محمد بن طاهر بن أحمد المقدسي.
٢٨ـ تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، محمد بن محمد العمادي أبو السعود.
٢٩ـ تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، حسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦ هـ ق).
٣٠ـ تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي (ت ٦٩١ هـ ق).
٣١ـ تفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن)، ابو اسحاق احمد بن ابراهيم الثعلبي النيشابوري (ت ٤٣٧ هـ ق).
٣٢ـ تفسير الجلالين، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي.
٣٣ـ تفسير روح المعاني، ابو الفضل، شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ ق).
٣٤ـ تفسير الرازي (روض الجنان وروح الجنان في تفسيرالقرآن)، ابوالفتوح حسين بن علي الرازي.
٣٥ـ تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، نصر بن محمد بن احمد السمرقندي.
٣٦ـ التفسير الصافي، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
٣٧ـ تفسير العياشي، ابن عياش، أبو النصر محمّد بن المسعود بن محمّد التميمي الكوفي السلمي السمرقندي (من أعلام القرن الثالث الهجري).
٣٨ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).
٣٩ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، القرطبي، أبو عبدالله محمّد أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ ق).
٤٠ـ تفسير القمي، القمي، أبو الحسن علي بن ابراهيم بن هاشم (ت ٣٠٧ هـ ق).

٤١ـ تفسير الكشاف (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)، ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ ق).

٤٢ـ التفسير المنسوب الي الإمام العسكري عليه السلام.

٤٣ـ تفسير جوامع الجامع، فضل بن حسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ ق).

٤٤ـ تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، محمد بن محمد رضا القمي المشهدي.

٤٥ـ تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (ت ١١١٢ هـ ق).

٤٦ـ تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف بمجموعة ورام، ورام بن أبي فراس (ت ٦٠٥ هـ ق).

٤٧ـ تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين، شرف الاسلام بن سعيد المحسن بن كرامة (ت ٤٩٤ هـ ق).

٤٨ـ تنزية الأنبياء، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).

٤٩ـ تهذيب الأحكام، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).

٥٠ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ابو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ ق)

٥١ـ ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق)

٥٢ـ جامع أحاديث الشيعة، السيد حسين البروجردي، (ت ١٣٨٠ هـ ق)

٥٣ـ جامع الأخبار، محمد بن محمد الشعيري (من اعلام القرن السادس الهجري).

٥٤ـ جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ ق).

٥٥ـ جامع السعادات، العلامة النراقي، محمد مهدي بن أبي ذر (ت ١٢٠٩ هـ ق).

٥٦ـ جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري الدوسي (ت ٣٢١ هـ ق).

٥٧ـ الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، محمد بن حسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).

٥٨ـ جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، محمد حسن بن باقر النجفي (ت ١٢٦٦ هـ ق).

٥٩ـ الحبل المتين في أحكام الدين، الشيخ البهائي، الشيخ محمد بن حسين العاملي (ت ١٠٣٠ هـ ق).

٦٠ـ الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، الشيخ يوسف البحراني (ت ١١٨٦ هـ ق).

٦١ـ حلية الأبرار في أحوال محمّد وآله الأطهار عليهم السلام، السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧ هـ ق).

٦٢ـ الخصال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٦٣ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ ق).

٦٤ـ الدعوات (سلوة الحزين)، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).

٦٥ـ رسائل المرتضى، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).
٦٦ـ روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، محمد بن احمد الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨ هـ ق).
٦٧ـ زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ ق).
٦٨ـ زبدة البيان في أحكام القرآن، المقدس الأردبيلي، احمد بن محمد (ت ٩٩٣ هـ ق).
٦٩ـ سعد السعود، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
٧٠ـ سنن ابن ماجة، ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ ق).
٧١ـ سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير بن سداد الأزدي (ت ٢٧٥ هـ ق).
٧٢ـ السنن الكبرى، البيهقي، أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨ هـ ق).
٧٣ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ ق).
٧٤ـ السيرة الحلبية (انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون)، الحلبي، علي بن إبراهيم الحلبي الشافعي.
٧٥ـ شجرة طوبى، محمد مهدي الحائري.
٧٦ـ شرح احقاق الحق، السيد شهاب الدين المرعشي النجفي (ت ١٤١١ هـ ق).
٧٧ـ شرح أصول الكافي، المولى محمد صالح المازندراني (ت ١٠٨١ هـ ق).
٧٨ـ شرح الأزهار (المنتزع المختار من الغيث المدرار)، أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠ هـ ق).
٧٩ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، عبدالحميد بن هبة الله بن محمّد بن الحسين المدائني المعتزلي (ت ٦٥٥ هـ ق).
٨٠ـ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، الحاكم الحسكاني، عبيدالله بن عبدالله بن أحمد الحذاء الحنفي النيسابوري (من أعلام القرن الخامس الهجري) (المتوفى بعد سنة ٤٧٠ هـ ق).
٨١ـ صحيح البخاري، البخاري، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن مغيرة بن بودزبه الجعفي (ت ٢٥٦ هـ ق).
٨٢ـ صحيح مسلم، القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ ق).
٨٣ـ الطبقات الكبرى، ابن سعد الواقدي، محمّد بن سعد بن منيع الزهري الكاتب (ت ٢٣٠ هـ ق).
٨٤ـ عدة الداعي ونجاح الساعي، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق)
٨٥ـ علل الشرايع، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٨٦ـ عوالي اللآلي العزيزية، ابن أبي جمهور، محمّد بن علي بن ابراهيم الاحسائي (من أعلام القرن التاسع الهجري).
٨٧ـ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
٨٨ـ عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي (من اعلام القرن السادس الهجري).
٨٩ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، العسقلاني، أحمدبن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ ق).
٩٠ـ الفتوحات المكية، محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي (ت ١٢٤٠ هـ ق).
٩١ـ فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
٩٢ـ الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة(ع)، ابن الصباغ، علي بن محمّد بن أحمد المالكي المكّي (ت ٨٥٥ هـ ق).
٩٣ـ فقه القرآن، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).
٩٤ـ فلاح السائل ونجاح المسائل، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
٩٥ـ فيض القدير (شرح الجامع الصغير)، المناوي، أبو زكريّا يحيى بن محمّد عبدالرؤوف (ت ١٠٣١ هـ ق).
٩٦ـ قواعد المرام في علم الكلام، ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦٩٩ هـ ق).
٩٧ـ الكافي، الكليني أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن اسحاق الرازي (ت ٣٢٨ هـ ق).
٩٨ـ كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس، العجلوني، اسماعيل بن محمد (ت ١١١٩ هـ ق).
٩٩ـ كشف الغطاء عن مبهمات شريعة الغراء، كاشف الغطاء، جعفر بن خضر (ت ١٢٢٧ هـ ق).
١٠٠ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين (ت ٩٧٥ هـ ق).
١٠١ـ كنز الفوائد، محمد بن علي الكراجكي (ت ٤٤٩ هـ ق).
١٠٢ـ كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق، عبدالرؤف بن تاج العارفين المناوي الحدادي (ت ١٠٣١ هـ ق).
١٠٣ـ لسان العرب، ابو الفضل محمد بن مكرم، ابن منظور الافريقي المصري (ت ٧١١ هـ ق).

١٠٤ـ لسان الميزان، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢ هـ ق).
١٠٥ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل (ت ٥٤٨ هـ ق).
١٠٦ـ المجموع في شرح المهذب، يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ ق).
١٠٧ـ المحاسن، ابو جعفر احمد بن محمد بن خالد البرقي، (ت ٢٨٠ هـ ق).
١٠٨ـ المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
١٠٩ـ المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت ٦٠٦ هـ ق).
١١٠ـ المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦ هـ ق).
١١١ـ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠ هـ ق).
١١٢ـ مصباح المتهجد، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٣ـ المصنف في الأحاديث والآثار، ابن ابي شيبة، أبوبكر عبدالله بن محمّد بن ابراهيم بن عثمان العنبسي الكوفي (ت ٢٣٥ هـ ق).
١١٤ـ مكارم الأخلاق، ابو نصر رضي الدين حسن بن فضل الطبرسي (من اعلام القرن السادس الهجري).
١١٥ـ الملاحم والفتن، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٦ـ من لايحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
١١٧ـ مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ابو جعفر رشيد الدين محمّد بن علي السروي المازندراني (ت ٥٨٨ هـ ق).
١١٨ـ الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ ق).
١١٩ـ النصائح الكافية، السيد محمد بن عقيل بن عبد الله بن عمر بن يحيى العلوي (ت ١٣٥٠ هـ ق).
١٢٠ـ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).

المحتويات

سورة الفرقان ٥

سورة الشعراء ٤٩

سورة النمل ٩٩

سورة القصص ١٤٩

سورة العنكبوت ٢٠٧

سورة الروم ٢٥١

سورة لقمان ٢٨٧

سورة السجدة ٣١٥

سورة الأحزاب ٣٣٧

فهرس الأحاديث ٤١١

المصادر ٤١٧

المحتويات ٤٢٣